



CM EL COLEGIO DE MÉXICO

تاريخ المكسيك في موجز جديد





EL COLEGIO
DE MÉXICO

تاريخ المكسيك في موجز جديد

نسخة من عمل "محل بيع أجوالوخا" (1860)، للفنان أجوستين أرّيتا، (1802–1874)، زيت، 93X69 سم، مجموعة المعهد القومى للنثروبولوجيا و التاريخ (INAH).

تاريـــخ المكسيـــك
فـــى موجـــز جديـــد

د. بابلو إسكالانتى غونسالبو
د. برناردو غارسيا مارتينيس
د. لويس خاوريـــغى
د. خوسيفينا سورايدا باسكيس
د. إليسا سبيكمان غيرّا
د. خابيير غارسيا ديـــيغو
د. لويس أبويتيس أغيلار

ترجمة: د. محيى الدين طاهر

الكوليخيو دى ميخيكو





CM EL COLEGIO DE MÉXICO

تعتبر ترجمة كتاب " تاريخ المكسيك في موجز جديد"، والذي سبق وأصدرته " كوليخيو دى مخيكو" ، من اللغة الأسبانية إلى اللغة العربية، إحدى مشاريع الصندوق المكسيكي للتعاون الدولي من أجل التنمية والذي تم إنشائه بناءاً على إتفاق تم توقيعه في 2006/10/19 بين جامعة الدول العربية وحكومة الولايات المتحدة المكسيكية، ويعمل الصندوق على تعزيز العلاقات العربية المكسيكية من خلال تمويل برامج ومشروعات للتعاون بين الطرفين في المجالات الثقافية والتعليمية والإقتصادية والعلمية والفنية بالتنسيق بين الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، إدارة الأمريكتين، والحكومة المكسيكية من خلال سفارة المكسيك بالقاهرة.

كلمة معالى الأمين العام

لجامعة الدول العربية

السيد / عمرو موسى

تحرص الأمانة العامة لجامعة الدول العربية على تشجيع التعاون العربي مع الدول والتكتلات الإقليمية والدولية المتميزة، ولاشك أن العلاقات العربية المكسيكية تعد نموذجاً ناجحاً لتجسيد هذا التعاون في المجالات المختلفة.

ولاشك أن الانتهاء من أعمال ترجمة كتاب (تاريخ موجز عن المكسيك) من اللغة الأسبانية إلى اللغة العربية يعد عملاً ثقافياً متميزاً وله مؤشراته الحضارية التي من شأنها أن تفتح آفاقاً جديدة أمام المثقفين والباحثين العرب للإطلاع على ثقافة وحضارة المكسيك التي تمتد بجذورها في أعماق التاريخ، فإذا كانت المكسيك قد نالت استقلالها منذ مائتي عام فقط إلا أن تاريخها الحقيقي ليس وليد الساعة بل بدأ منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام تشكل خلالها الفكر الثقافي والتاريخي الحضاري لهذه الدولة العريقة.

وفي تقديري أن الحضارتين العربية والمكسيكية تتفقان في عدة سمات تميزها عن الحضارات الأخرى فلكل منها عراقته وهويته التي تحدد انتمائه لثقافته وما تتمتع به من خصوصية في إطار اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد الراسخة وفي ذات الوقت تتمتع الحضارتين بمرونة كبيرة تجعلهما قادرتين على التعامل مع الثقافات والحضارات الأخرى في حركة من التبادل البناء الذي يساعدهما على الارتقاء الفكري والتأثير في حضارة الآخر ولذلك فقد يكون من المناسب أن يتعاون كلا الجانبين العربي والمكسيكي على تفعيل عملية الانتشار الثقافي وفي ذات الوقت مواجهة عملية الهيمنة الثقافية التي نادت بها بعض النظريات التي ثبتت خطورتها ليس فقط على العلاقات الثقافية الدولية، وإنما على السلم والاستقرار الدوليين.

إن التعاون العربي المكسيكي أخذ في الآونة الأخيرة اتجاهاً جاداً وعملياً خاصة بعد إبرام مذكرة التفاهم التي تم توقيعها في شهر إبريل 2006 بين جامعة الدول العربية والحكومة

المكسيكية للتشاور بين الجانبين والتعاون فيما بينهما على إنجاز الموضـوعات ذَات الاهتمـام المشترك في المجالات المختلفة.

وفي إطار دعم العلاقات بين الجانبين أسست الحكومة المكسيكية صندوقاً للتعاون بينهما لتفعيل الموضوعات ذات الاهتمام المشترك ولتنفيذ مشاريع التعاون في مختلف المجالات العلمية والفنية والثقافية والذي يأتي ترجمة كتاب (تاريخ المكسيك) أولى ثماره.

وإنني على يقين بأن العلاقات العربية المكسيكية سوف تشهد في الآونة القادمة تطوراً ملحوظاً بفضل قناعة كلا الجانبين بأهمية الدور الذي يمكن أن يقدمه كل منهما للآخر ليس على مستوى العمل السياسي فحسب وإنما على مستويات التعاون في المجالات الأخرى الاقتـصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية، وسيأتي اليوم الذي نرى فيه أعمالاً أخرى لا تقل شـأناً عـن ترجمة كتاب تاريخ المكسيك وستحرص الجامعة العربية على رعايتها والتعاون لإنجازها.

عمرو موسى

الأمين العام لجامعة الدول العربية

كلمة معالى وزيرة خارجية
الولايات المتحدة المكسيكية
السيدة / باتريسيا إسبينوسا كانتييانو

فى إطار استراتيجية تعدد العلاقات الدولية للمكسيك تشغل الدول العربية مكانة بارزة . ولا يقتصر التوافق بين أمتينا فقط على الشئون السياسية _فى المحافل الهامة مثل منظمة الامم المتحدة_وإنما أيضاً على القدرة الهائلة لتوثيق التبادل والتعاون بين بلادنا. فالتعاون الدولى هو أحد مباديء السياسة الخارجية للمكسيك التى تعمل على تشجيعه حيث من خلاله يمكن تحقيق المصالح المشتركة وتوثيق علاقات الصداقة والاحترام بين كافة الأمم والذى يساهم كذلك فى إرساء السلام والصداقة الدوليين.

ولتحقيق هذا الهدف طالبت المكسيك باتضمامها إلى جامعة الدول العربية بصفة مراقب و هو ما تمت الموافقة عليه فى إبريل 2006.

وكدليل على صدق اهتمامنا وقعت الحكومة المكسيكية وجامعة الدول العربية مذكرة تفاهم من أجل إقامة آلية للتشاور فى المجالات ذات الاهتمام المشترك وتلك كانت بداية إنشاء الصندوق المكسيكى للتعاون الدولى من أجل التنمية هدفه الرئيسى هو تنشيط التقارب بين المكسيك والدول العربية من مشروعات للتعاون فى المجالات الاقتصادية، العلمية، والفنية والثقافية والتعليمية أيضاً.

يعد إنشاء الصندوق المكسيكى للتعاون الدولى من أجل التنمية خطوة محددة نحو تفعيل مشروعات تعاون مشتركة بين المكسيك والدول الأعضاء بجامعة الدول العربية.
نشر هذا الكتاب هو من ثمار هذا العمل المشترك و هو أول عمل يترجم من اللغة الإسبانية إلى العربية بمساندة الصندوق.

إنه لمن الشرف تقديم كتاب تاريخ المكسيك فى موجز جديد والذى ظل على مدى سنوات طويلة المرجع الرئيسى الذى ينقل إلى الشباب بصفة خاصة معلومات وحقائق تاريخية عن تاريخ المكسيك منذ بدايته فى الفترة قبل الاستعمارية وحتى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين.

يقدم هذا العمل للقارىء العربى بانوراما عامة حول عملية التطور التاريخى الذى بلور مكسيك اليوم من أجل تحفيزكم على التعرف عن قرب على دولة شابة ذات مائتى عام فقط من الحياة المستقلة، ولكنها دولة ذات ثلاثين قرناً من التطور الثقافي، إننى هنا بصدد الحديث عن دولة المكسيك الحديثة، التى تنمو وتتطور، لتعد واحدة من أكبر اقتصاديات العالم الخمسة عشر، والتى فى نفس الوقت تعد دولة ذات جذور عريقة وعميقة.

الأحداث التى يسردها المتخصصون بـ "كولخيو دى مخيكو" – وهي هيئة للبحث والتعليم العالي ذات مكانة مرموقة، تبرز التحديات الحالية التى تواجهها المكسيك كدولة تحاول تعزيز تطورها وفى نفس الوقت كأمة تشارك بشكل فعال وبمسئولية فى الساحة الدولية.
يسعدنا تقديم ثمرة لهذا الجهد الذى يهدف إلى التشجيع على المعرفة المتبادلة بين المكسيك والدول العربية واثقين أنه، فى القريب، سوف تكون هنالك أعمال أخرى باللغة العربية أو الإسبانية تكمل هذا الهدف.

السفيرة

باتريسيا إسبينوسا كانتيليانو

وزيرة الخارجية المكسيكية

كلمة المترجم

الدكتور محى الدين طاهر

كانت البداية فى يوم الحادى عشر من مارس سنة 1968 حينما بدأت العمل فى سفارة المكسيك بالقاهرة وكانت نهاية عملى فيها فى شهر فبراير سنة 1996. وكنت أزعم أنى قد عشت طوال سبع وعشرين عاماً مع المكسيك، ولكن الحقيقة أننى عشت ولكنى لم أتعايش معها إلا حينما تعايشت مع تاريخها من خلال ترجمة هذا الكتاب الذى هو الآن بين أيديكم. وأقول هذا رغم أننى قد أسعدنى الحظ بزيارتها أربع مرات كانت آخرها فى عام 1994 بدعوة كريمة من وزارة الخارجية ضمن عشرة من العاملين فى سفاراتها فى مختلف دول العالم وكنت حريصاً على ألا تقل مدة أى زيارة منها عن أربعين يوماً، وكنت فى كل مرة أتمنى ألا تنتهى الزيارة لأن المكسيك بلد يستحق أن تحبه. ولقد قمت بزيارة كثير من الأماكن الأثرية والسياحية وتعاملت هناك مع كثير من الأصدقاء الذين لا أستطيع أن أوفيهم حقهم من الثناء لما لمسته فيهم من أخوة وحب وكرم، وأعترف أن ما لقيته منهم كان يفوق كل ما كنت أتخيله.

إلا أن تعايشى مع هذا البلد الرائع كان له طعم آخر ومتعة أخرى من خلال ترجمتى لكلمات الكتاب وأنا أتدرج مع نشأتها منذ فجر التاريخ والتأريخ لظهور الإنسان هناك وحتى عام 2000 متابعاً كل التفاعلات الحضارية التى وقعت فوق أرضها فى مختلف النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية حتى وصولها إلى مطلع القرن الحادى والعشرين... فكنت أتنقل بين السطور والكلمات مؤتلفاً أو مختلفاً ومعجباً أو متعجباً من مسيرة التاريخ لهذا الإنسان المكسيكى الذى انطبع التنوع الاثنى أو العرقى على جميع صور الحياة فى أرضه، وهو تاريخ نجح المؤلفون السبعة لهذا الكتاب فى إيجازه وتقديمه للقارئ على هذه الصورة. وبقدر ما أسعدنى تكليفى بالترجمة من جانب أصحاب السعادة السفير المكسيكى خايمى نوالارت والمستشار إبراهيم محيى الدين بجامعة الدول العربية، بقدر ما أسعدنى كذلك أن تكون ترجمة هذا الكتاب جسراً يعبر خلاله الكتاب ضفتى المحيط الأطلسى ليقدم للقارئ العربى على الضفة الأخرى فى ربوع وطنه الرحيب موجزاً جديداً عن تاريخ المكسيك.

واستأذن القارئ فى أن أنوه هنا إلى بعض الإيضاحات التى تطلبتها منى أمانة الترجمة، علماً بأنى قد نوهت إلى بعضها مع الأسماء التى لها نطقان وذكرت النطق الثانى بين قوسين:

1. تعمدت كتابة "أمريكا" للإشارة إلى القارة الأمريكية قديما أو العالم الجديد أو الأمريكتين، وذلك لتمييزها عن كلمة أمريكا التى يشيع الآن استخدامها كناية عن الولايات المتحدة الأمريكية.
2. عند ترجمة الأسماء عمدت إلى استخدام حرف "غ" مقابلاً لحرف(G) مراعاة للقارئ غير القاهرى.
3. عند ترجمة الأسماء التى تحتوى على حرف (Z) سيجد القارئ أننى استخدمت حرف (ز) مقابلا له فى النص المترجم إلى العربية، وذلك حسب نطقه خلال الفترة الزمنية التى تعود إلى عصر ما قبل وجود الإسبان. ثم استخدمت فى العربية حرف (ث) وذلك عند ذكر أسماء أو أماكن خلال العصر الكولونيالى أى العصر الذى بدأ بغزو الإسبان لأمريكا، وذلك حسب الكيفية التى ينطق بها الإسبان هذا الحرف. ثم سنجد المقابل له حرف (س) وذلك حسب نطق المكسيكيين الآن له. كذلك يظهر اسم ميناء فيراكروز كما تعود القارىء رؤيته فى الكتب والصحف رغم أن المكسيكيين ينطقونه بصورة مختلفة. وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأسماء الشائعة تاريخياً، وأهمها اسم "ساباتا" الذى اعتدنا أن ننطقه "زاباتا". كذلك قمت بترجمة هذا الحرف بحرفين (تز) وذلك حسب النطق القديم فى فترة ما قبل الاستعمار الإسبانى مثل كلمة Mezcala فهى تُنطق ميتزكالا.
4. حرف (H) لا يُنطق فى اللغة الإسبانية. ونظراً لأن أبناء المكسيك كانوا ينطقونه فى الفترة السابقة على غزو المكسيك، فقد حرصت على كتابة المقابل له (هـ) خاصة فى أسماء الأماكن والأشخاص التاريخية القديمة ومنها ما زال يُستخدم حتى الآن. أما الأسماء التاريخية مثل فرانسيسكو هيرنانديز قائد أول حملة وصلت المكسيك، فقد كتبت بعضها كما وردت فى كتب التاريخ بدون تغيير، أو كتبت النطق الآخر عند الضرورة بين قوسين.
5. عند ترجمة بعض أسماء المدن التى لها أصول عربية، ذكرت منطوق الاسم ثم وضعت المقابل العربي لها بين قوسين مثل غوادالاخارا (وادى الحجارة)، وخيريس (شريش).

6. تظهر فى الترجمة بعض الكلمات المكتوبة بحروف مائلة وهى تتطابق فى هذا مع النص الأصلى للكتاب.
7. وضعت فى بعض الأحيان بعض الكلمات أو العبارات بين علامتى تنصيص "ــــ" وذلك للتنويه أحياناً عن أهميتها ولعدم خلطها مع غيرها من كلمات النص أو لضرورة ذكرها بالحروف اللاتينية. كذلك قمت بشرح ما تحتاجه بعض تلك الكلمات بين قوسين.
8. حرف (S) يُنطق مثل حرف (س) فى اللغة العربية، ومع هذا كتبت مقابله حرف (ز) فى حالات قليلة مثل العملة المكسيكية "بيزو" (Peso) حسب العرف الشائع بيننا فى نطقها حاليا، وقد كتبت كذلك بعض الأسماء مستخدماً حرف (ز) كما أورده المؤرخون.
9. حاولت بقدر الامكان أن أعفى القارئ من كثرة المرادفات فى حالة بعينها، فقد تحاشيت ذكر بعضها خاصة عند الحديث عن عملية تكوين المجتمعات لإننا نجد أنفسنا أمام عدد كبير من الكلمات مثل: نجع – محلة – بندر – مركز – مدائن – دسكرة – قضاء – قرية – مدينة – كفر – عزبة...إلخ وقد ذكرت الشائع منها ولم أذكر كلمتين فقط هما دسكرة وقضاء حتى لا يختلط الأمر على القارئ.
10. للحرف (X) فى الأسماء الواردة فى هذا النص أربع صور للنطق وذلك يرجع إما إلى الفترة الزمنية التى تعود إليها الكلمة أو إلى النطق الذى اعتاد عليه أبناء المكسيك. فنجد هذا الحرف يخرج عند نطق معظم الأسماء على نفس الصورة التى يُنطق بها فى الانجليزية مثلاً، فنقول إكستابا (Ixtapa) أو تيكساس (Texas) باعتبارها الآن إحدى الولايات الأمريكية. فى حين أن هذا الحرف كان يُنطق مثل حرف (خ) فكتبتها فى النص (تيخاس) عند ورودها فى الفترة التى كانت تنتمى فيها إلى المكسيك، وكذلك اسم البلاد (México): فالاسم يكتب بنفس الحرف لكنه ينطق (خ) فينطقها أبناء البلاد (ميخيكو). وينطق الحرف كذلك مثل حرف (ش) كما فى الإله شيبى (Xipe) أو ينطق مثل حرف (س) كما فى كلمة سوتشيميلكو (Xochimilco).
11. هناك ملاحظات أخرى فى النص وقد جرى التنويه عنها فى مكانها الملائم.

د. محيى الدين طاهر

الفهرس

تقديـــم

قامت الكوليخيو دى ميخيكو فى عام 1973 بنشر الطبعة الأولى من كتاب "موجز تاريخ المكسيك" وذلك لتزودنا بأقل جرعة مختصرة من المعرفة التاريخية التى تلبى حاجة أى مكسيكي للتعرف على تاريخ بلاده. وقد شارك فى كتابة تلك الطبعة خمسة مؤلفين (دانييل كوسيو – مدير المشروع- وإغناسيو برنال وأليخاندرو مورينو توسكانو ولويس غونساليس وإدواردو بلانكيل) حيث جسدوا فيها ما كانوا يعتبرونه فى ذيّاك الوقت نصاً موجزاً للغاية ويتسم بالمصداقية عن المكسيك فى الماضى. وقد تضمنت الطبعات التالية دراسة إضافية (كتبها لورنسو ميـــير) عن السنوات التالية، إلا أن ذلك العمل ظل بدون أى تعديل إلى أن حلّ القرن الجديد. ووصل عدد النسخ التى صدرت من كتاب "موجز تاريخ المكسيك" إلى ربع مليون نسخة جرى طبعها على مدى العقود الثلاثة الأخيرة. إلا أنه قد تم الكشف عن بعض الجوانب المجهولة من تاريخ المكسيك، كما اتضحت معالم أخرى كان يكتنفها الغموض. كذلك فقد تم تصحيح أخطاء بعد سبر أغوار غموضها، وجرى تفسيرها بعد أن تعمق فهمها، كما خرجت إلى النور شروح لظواهر وأحداث كانت مطموسة. وقد انعكس هذا على كل ما نشر عن الجانب التاريخى. ومن ثم فقد توجب أن ينعكس كل هذا فى عمل منشور، هو ماثل الآن بين أيديكم. وقد تبرز كذلك حجية تقول بأن الجرعة الموجزة للتعرف على تاريخ المكسيك التى يحتاجها المكسيكيون اليوم ينبغى أن تكون أكبر من هذا لأن المستوى التعليمى قد تحسن، وبسبب أن مستوى المسئولية الاجتماعية والسياسية قد ازداد أيضاً.

ومن ثم فإن الكوليخيو دى ميخيكو قد ارتأت أن الوقت قد حان لإعداد موجز جديد عن تاريخ المكسيك، فكان كتابنا هذا الذى نقدمه بين يدى القارئ. وبدون أن نحيد عن الهدف الذى كان يحدو القائمين على تأليف الكتاب السابق تحت عنوان "موجز تاريخ المكسيك"، فإن الكتاب الماثل بين أيديكم هو كتاب جديد فى نسخة أصلية، وذلك بسبب أن : مؤلفوه السبعة هم مؤلفون جدد، ونصوصه هى نصوص قد أعدّوها خصيصاً لهذا الاصدار، فضلاً عن مواكبة هذه الطبعة للأحداث. كما أن لها أسلوبها فى طرح الوقائع وعرض شروحاتها وتغطيتها العريضة لتلك الوقائع، وهى تتميز بنظرة جديدة أكثر حداثة وأكثر عمقاً – إضافة إلى أنها تزود القارئ بالمعرفة الكاملة الواضحة عن السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين. وكان من الطبيعى

كذلك أن المؤلفين قد عملوا على أن تلبى صفحات كتابهم هذا ما تدعو إليه الأهداف التعليمية التربوية، وأن يكون الكتاب مشوقاً سلساً -بل وأكثر تشويقاً وسلاسة من سابقه- كى يفهمه ويستمتع بقراءته أى متصفح له.

وتضع الكوليخيو دى ميخيكو نصب عينيها أن تشتمل الطبعات التالية من هذا الكتاب - إذا ما اقتضى الأمر ذلك- على نتائج الاكتشافات والأبحاث اللاحقة على هذه الطبعة. إن كتاب "تاريخ المكسيك فى موجز جديد" يرمى إلى أن تعكس نصوصه أوجه المعرفة المتعلقة بالتاريخ المكسيكى يوماً بعد يوم، بصورة صادقة وبشكل أكثر ديناميكية .

المكسيك القديمة

بابلو إسكالانتى غونسالبو

المكسيك هى أكثر من مكسيك... فالأمر ليس بسبب الاختلافات الاجتماعية الدراماتيكية التى تميزها فحسب، وإنما هى كذلك لأن أعراق الأسلاف والعادات تضرب بجذورها فى عدة حضارات، والنسيج البيئى يتنوع بين إقليم وإقليم مكسيكى آخر بصورة كبيرة. وأكثر الفوارق عراقة بل وأكثرها حسماً فى تاريخ المكسيك هو ذلك الفارق بين حضارة زراعية عمت أرجاء النصف الجنوبى من أراضى المكسيك الذى كان يعمل سكانه فى الزراعة بصورة غير مستقرة، وبين سكان الشمال القاحل الذين كانوا يشتغلون بالصيد وفى التقاط ما يقتاتون به. إن اعتزازنا وفخرنا بعظمة تينوتشتيتلان كمرجع قومى، وتآلفنا الحميم مع موكتيزوما إلهويكامينا ومع نيزاهوالكويوتل، لا ينبغى أن يجعلنا نغفل أسلافا لنا كانوا يعيشون فى النجوع الجبلية فى تشيهواهوا إلى جوار الذئاب والدببة وآخرين كانوا يسيرون عرايا فى أراضى باخا كاليفورنيا (كاليفورنيا السفلى) وهم يتطلعون إلى الخط الذى يمثله الشريط الساحلى.

وقد أسهم الثقل الديموغرافى والسياسى لشعوب الناهواس والزابوتيكاس أو المايا فى استمراريتهم فى الحياة بل والاندماج فى العصر الجديد الذى ظهر كنتيجة للغزو الإسبانى. ثم نجحت تلك الشعوب بصورة أو بأخرى فى إدماج عاداتها وسماتها وذاكرتها أيضاً فى النسيج التاريخى لأمتنا. إلا أن تاريخ صيادي كواهويلا كان على العكس من هذا، وكذلك كان الحال أيضاً بالنسبة لتاريخ شعوب خاليسكو وزاكاتيكاس بعد رفضهم الخضوع لسيطرة الإسبان. ولقد انطمس هذا التاريخ بعد أن قضى الإسبان على تلك الشعوب. ومع ذلك فإن غيرهم، كشعبى تراومارا والسيريس قد استمرت حياتهما على حافة نجاد ووهاد شريط الساحل القاحل، لكن معيشتهما كانت حياة على هامش التاريخ.

ويجبرنا الإيجاز الذى عليه هذا النص على أن نستعيد خيوط التاريخ لمن كانوا يعيشون فى تجانس أو فى مدن كبيرة فى أواسط البلاد: فنعود إلى أبناء حضارة الاولميك فى سان لورنزو وأبناء تيوتيهواكان وأبناء تولا...، إذ إنه تاريخ يندمج أيضاً فى إطار حضارة

أمريكا الوسطى. ونحن لدينا عنهم الكثير من المعلومات. لكن الطابع المجتزئ المتناثر عن المعلومات المعروفة عنهم يزيد من صعوبة الحديث عنهم فى هذا الموجز الجديد.

فإذا نحن رسمنا من الغرب إلى الشرق على الخريطة خطاً يشمل بعض المناطق الأثرية مثل هواتابامبو فى سونورا والسابى فى دورانغو وتشالتشيهويتيس فى ساكاتيكاس وبيًا دي رييس فى سان لويس بوتوسى وسان أنطونيو نوغالار فى تاماوليباس، فإننا سنشاهد قوساً عالياً فى أطرافه ثم يهبط خطه حتى منطقة الجيوب السكانية: وهى التى تشكل الحدود الشمالية لأمريكا الوسطى فى أقصى اتساع لها حوالى عام 900 ميلادياً. وتلك الحدود -علاوة على قيام حضارة أمريكا الوسطى ذاتها- كانت نتاجاً لعملية تفاعلية تاريخية طويلة تزامنت مع البدء فى زراعة الذرة وغيرها من الزراعات وتطور فنيات الزراعة المكثفة، فضلاً عن تقسيم المجتمع إلى طبقات، وانتشار شبكات لتبادل مئات الكيلومترات من الأراضى وابتكار مجمعات تقام فيها الطقوس والشعائر الدينية مثل المعبد الكائن فوق أحد الاهرامات ومضمار لعب الكرة.

المشتغلون بالصيد – مقتطفو وجامعو ما يقتات به

بدأ استيطان البشر فى القارة الأمريكية منذ حوالى سنة 40000 قبل ميلاد المسيح. ومنذ حوالى نصف مليون سنة، كان الإنسان منتصب القامة الذى يسير على قدمين قد تعلم إشعال النار. لكن عند ظهور الإنسان العاقل بالكاد على ظهر البسيطة، لم تكن فصيلة إنسان نياندرتال قد اندثرت بعد. ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الإنسان كما نعرفه اليوم قد بدأ تاريخ وجوده بالفعل فى القارة الأمريكية متزامناً مع وجوده فى أماكن أخرى من العالم.

وكان عبور ذلك الإنسان إلى القارة الأمريكية يرجع إلى انحسار مستوى البحار الذى تميز به العصر الجيولوجى المعروف باسم العصر البليستوسينى أو العصر الجليدى. وخلال الفترة الأخيرة من العصر الجليدى التى يطلق عليها العصر الويسكونسينى (من سنة 100000 حتى 8000 ق.م.) كانت هناك حقب زمنية استغرق وجودها آلاف السنين. وكانت الأراضى الواقعة شمال شرق آسيا وشمال غرب القارة الأمريكية متصلة ببعضها. ثم قام الإنسان العاقل منتصب القامة الذى يسير على قدمين باجتياز تلك الأراضى فى موجات متتالية.

وتشير أقدم الدلائل إلى تواجد الإنسان على الأراضى المكسيكية فى فترة تعود إلى 35000 سنة ق.م. ولم تكن هناك إلا بعض جماعات صغيرة تشتغل بالصيد واقتطاف ما تقتات به من النباتات، أو تعمل بصيد الأسماك. وعرف الإنسان زراعة الذرة وحبوب الفاصوليا الكبيرة المعروفة فى المكسيك باسم فريخوليس في الفترة من عام 35000 ق.م وحتى عام 5000 ق.م. ولقد كانت تلك الجماعات الصغيرة عبارة عن تجمعات بشرية متنقلة وقابلة للانفصال عن بعضها. فكانت كل عائلة تضع رحالها خلال أشهر ندرة القوت فى مكان مختلف. وتبنى لها مأوى من أفرع الأشجار أو تقيم فى أحد الكهوف، وتستغل الموارد المتاحة فى المناطق القريبة التى تحيط بها. وعندما تحل أشهر الوفرة وهى عادة ما تكون فى فترة الصيف، تتجمع العائلات أزواجاً فى جماعات صغيرة لتقوم بالصيد وجمع ما تقتات به مما تنبت الأرض. وكانت بعض الجماعات الصغيرة تتآلف فى نهاية موسم الوفرة مع بعضها لتكوّن جماعات أكبر عدداً لتتبادل النساء فيما بينها أو لكى تعمل بالصيد أو كى تدافع عن أراضيها. وكان عدد الجماعة الصغيرة يتألف من بضع عشرات من البشر فى حين كانت كل جماعة كبرى تتألف من عدة مئات.

وقد أطلق على العصر السابق على معرفة الزراعة اسم "العصر الحجرى" وكانت أكبر فترة فيه قائمة خلال العصر الجليدى البارد حينما كان لا يزال فى القارة الأمريكية خيول وتياتل وماموث، وغيرها من الفصائل التى أبيدت مع التغيرات المناخية التى أتت مع العصر الهولوسينى(*Holoceno*).

ونستطيع أن نستحضر من ماضى المكسيك واحدة من أوائل الحكايات الحقيقية التى وقعت حوالى سنة 7000 ق.م، أى قبل فترة قصيرة من الوقت الذى أبيدت فيه مملكة الحيوانات الضخمة فى القارة الأمريكية. فقد كانت الجماعات الصغيرة من الصيادين ومقتطفى ما يقتات به تقود حيوانات الماموث فى وادى المكسيك تجاه شواطئ المستنقعات فى بحيرة تيتزكوكو (تيكسكوكو). وحينما كانت تلك الحيوانات العملاقة تغوص فى الوحل، كان الصيادون يحاصرونها ويصوبون إليها رماحهم ليصيبوها فتسقط صريعة أو مختنقة. وفى يوم من أيام تلك الحقبة السحيقة كانت هنالك امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها ويصل طول قامتها

إلى متر ونصف. وقد شاركت تلك المرأة فى الصيد، فكان من سوء حظها أن تتلقى ضربة قوية فتسقط وتموت وتدفن فى الوحل وهى منكفئة على وجهها.

وتكتسب الحقبة الواقعة منذ حوالى 7000 سنة أهمية خاصة، إذ إن التغيرات المناخية التى عانت منها الأرض وأدت إلى فناء عدة فصائل قد شجعت على تنوع فى الأنشطة التى نطلق عليها الآن تعبير "الأنشطة الاقتصادية". وكانت تقنية سن الرمح أو السهم الموجه قد ظهرت لتلائم عملية صيد الأسد الأمريكى (بوما) والخنزير البرى الأمريكى والوعل وحيوان الماباتشى والأرانب. وكشفت أعمال التنقيب الأثرية عن وجود أدلة كافية للتأكيد على أن الجماعات الصغيرة كانت خلال الحقبة ما بين عام 7000 ق.م وعام 5000 ق.م. قد زادت من أنشطتها المتعلقة بالحصاد: فمن المؤكد أن أفرادها كانوا يقتلعون الحشائش والنباتات الضارة التى كانت تنمو فى الأرض حول النباتات السليمة، كما كانوا يجمعون الثمر والحبوب بشكل منتظم، ويحتمل أنهم كانوا يقومون برى بعض الشجيرات. وكانت نتيجة هذا التدخل البشرى والعمل فى مواسم السنة الدورية أن استطاعوا استزراع الفلفل والافوكاتو والقرع. وفى العصور التى توالت بعد تلك الحقبة لم تعد هذه النباتات تزرع إلا بتدخل من الإنسان. وقد ظهر فى تلك الحقبة نوع يشبه " الرحى أو الرحاية" لكنها كانت بدون قوائم وكانت تستخدم فى تكسير الحبوب أو طحنها.

لم يكن تطويع بعض النباتات لإرادة الإنسان لكى يقوم بزراعتها يعنى أنه كان زراعياً بالمعنى المفهوم الآن. فهنالك قرون وقرون من التجربة والتكيف قد مرت عليه، ونطلق عليها اسم الأفق البروتونيولوسينى (من عام 5000 ق.م إلى عام 2500 ق.م). ففى تلك الحقبة ظهرت الذرة التى مرت بما قد نطلق عليه "عملية التربية والتحسين" التى استمرت مئات السنين التى جرى فيها التعامل مع كيزان الذرة البرية من فصيلة زيا مكسيكانا *Zea mexicana*، إلى أن حدثت لها طفرة فأنتجت لنا كيزاناً صغيرة، إلى أن وصلت لنا أخيرا هذه الكيزان التى بين أيدينا الآن ويصل طولها إلى حوالى 20 سم تقريباً، وهى من الفصيلة التى نعرفها الآن ويطلق عليها العلماء اسم فصيلة زيا مايز *Zea Mays*. كما عرف المكسيكى فى تلك الحقبة زراعة نبات من الفصيلة القرعية يطلق عليه فى المكسيك اسم جواخى، بالإضافة إلى معرفتهم كذلك

لنوع من بذور الفاصوليا يطلقون عليها فى المكسيك اسم فريخوليس فضلاً عن معرفتهم للسبّوتة البيضاء والسبّوتة السوداء.

وقد تحول الذين كانوا يشتغلون بقطف أو التقاط ما يقتاتون به إلى العمل كزرّاع، بل وانتهى بهم الأمر إلى أنه لم يعد بمقدورهم الابتعاد عن زراعاتهم. وهكذا نشأت القرى المستديمة. ثم بدأت تلك القرى البدائية فى استكمال مقوماتها التى أضحت سماتها طابعاً يميز منطقة أمريكا الوسطى. فظهرت الرحى (أو الرحايا حسب الاسم الشائع) والمضرب (القحف أو النبوت) كما اعتادوا على زراعة القرع العسلى الكبير الذى تستخدم بذوره (اللب) فى إعداد وجبات البيبيان التى تطهوها جميع شعوب أمريكا الوسطى حتى الآن، كما عرفوا كذلك استئناس الكلاب. وتوجد أدلة على أنهم كانوا قد بدأوا يمارسون الأضحية البشرية ويمارسون نوعاً من الطقوس الخاصة بالموتى. ثم قامت العائلات التى كانت تسكن تلك القرى بالانخراط فى وحدات اجتماعية أكثر اندماجاً مع بعضها، بل وكانت تلك الوحدات الاجتماعية أكثر استمرارية عما كان الأمر عليه مع أسلافهم ممن كانوا يتعيشون من التقاط وقطف ما يقتاتون عليه. وكانت تلك العائلات تشكل ما يمكن تجاوزاً أن نطلق عليهم عبارة مجتمعات، ولكن دون أن يكون فيها طبقات اجتماعية. ولم يكن يفرق بينهم إلا الانتماء لهذه العائلة أو تلك: ومن الوجهة الفنية فإنه يمكن تعريفهم تحت مسمى قبائل.

فجر الحضارة

من المعتاد بصفة عامة القول بأن تاريخ أمريكا الوسطى قد بدأ فى عام 2500 قبل الميلاد حينما عمّت الحياة المستقرة، وظهرت صناعة الخزف. وتبدأ فى هذا التاريخ تباشير العصر المبكر لما يسبق المكسيك الكلاسيكية (2500 ق.م حتى 1200 ق.م)، كما تُعرَف هذه الحقبة كذلك بعصر ما قبل القرية المكسيكية الكلاسيكية حيث كان حوالى 90% من المستوطنات فى جميع أرجاء المكسيك عبارة عن قرى يتألف كل منها من عشر أو اثنى عشر مسكناً. وكان عدد سكان كل منها يتراوح ما بين خمسين إلى ستين نسمة. وكان المسكن فى عصر ما يسبق المكسيك الكلاسيكية يتكون من عدة غرف مبنية حول فناء رئيسى. وظل الأمر على هذا الحال إلى أن وصل الغزاة الإسبان، بل واستمر وجوده فيما بعد. وكانت عجلة الأعمال المعتادة للبيت

تدور فى الفناء، كما كانت الغرف تستخدم للنوم أو كمخزن، وكانت تخصص غرفة واحدة على الأقل للمطبخ وأخرى لممارسة الطقوس الدينية.

ظهرت فى تلك الحقبة كذلك بعض النجوع التى تتكون كل منها من أكثر من مائتى مسكن وكان عدد سكان كل منها يزيد على ألف نسمة. وقد ظهرت فى تلك المساكن أدلة على وجود عمليات تجارية كان الناس قد اعتادوا عليها مثل القيام بعمليات للتبادل أو المقايضة مع نجوع أخرى تقع على مسافات كبيرة. وتعدّ سان خوان موغوتى (تقع فى وادى واخاكا) واحدة من أبرز تلك النجوع فى المنطقة، حيث كان من بين الأدوات التى عثر عليها فيها قطع فخارية وأصداف بحرية وأسنان لأسماك القرش وطبول استخدموا فى صنعها الصدفة العظمية التى تغطى السلاحف، كما تم العثور على قواقع بحرية كانوا يستخدمونها للصفير عن طريق النفخ فيها. ومن الطبيعى أن كل هذا كان مما يرد إليهم من شواطئ خليج المكسيك. وفى تلك الحقبة التاريخية كانوا يتخذون وسط المدينة مركزاً يبنون فيه معبداً تكسو بنايته طبقة من الجص أو المصيص ومزود بمذبح لممارسة طقوس شعائرهم الدينية.

وقد شهدت تلك النجوع أول رئاسات فى أمريكا الوسطى، إذ ظهرت مجتمعات طبقية يتمتع فيها بعض أعضائها بمرتبة أعلى من غيرهم: مثل الرئيس وأبنائه، كما كان بعض المحاربين يتمتعون أيضاً بمراتب عالية. ولهذا الغرض كانوا يستخدمون بعض الأدوات أو الأزياء المميزة لإبراز المرتبة التى يتمتع بها كل واحد منهم، كما كانت السلطة الدينية والحربية تتركز فى شخص الرؤساء حيث كانت لهم السيطرة فى إدارة الفائض الذى يزيد عن احتياجات مجتمعاتهم، فضلاً عن الإشراف على التجارة الناشئة. ويبدو أن أولئك الرؤساء قد اضطلعوا فيما بعد بدور هام فى دفع عجلة التطور خلال الفترة الوسيطة لعصر ما قبل القرية الكلاسيكية. الا أنه لم يكتب لهذه الصورة الاستمرارية فى منطقة أمريكا الوسطى، بعد أن أدى التمييز فى الرتب إلى شيوع الانقسام بين الطبقات، ثم جرى البدء فى تطبيق نوع من التخصص فى ممارسة أعمال الحكم، غير أن طبقة النبلاء نجحت فى احتكارها...

وقد بدأ حوالى عام 1200 ق.م. بروز مظاهر مختلفة تتعلق بأنظمة المياه وشق القنوات والزراعة البستانية فى أراض صغيرة ملاصقة للبيت فضلاً عن وجود احتمال بقيام

الأهالى بعمل مدرجات فى الأرض بسبب طبيعتها، كى تتيح لأصحابها إمكانية زراعتها. ولعل النتيجة المباشرة لتلك الأعمال قد ظهرت فى التحسن الذى طرأ على عائد الزراعة كما ظهر فى ازدياد عدد السكان. ثم استمرت فيما بين هذا التاريخ وعام 500 ق.م على وجه التقريب المرحلة التى يطلق عليها الفترة الوسيطة لعصر ما قبل القرية الكلاسيكية حيث تميزت بظهور التخصص فى العمل طول الوقت كما ترسخ نظام الطبقات الاجتماعية. ثم ظهرت بنايات لمراكز تقام فيها الاحتفاليات الحضرية إضافة إلى تطور وتعدد أشكال الرموز التى ميزت هوية "الاولميك". وقد ظهرت فى تلك الحقبة على وجه التحديد أول ممالك أو أول اقطاعيات فى عدة مناطق من مناطق أمريكا الوسطى.

ويبدو أن عمليات المقايضة قد تناولت تبادل الممتلكات ذات القيمة ومستلزمات ممارسة طقوس العبادة. وكانت أعمال المقايضة تتم بصورة اعتيادية بين النجوع الكبيرة فى عدة مناطق مختلفة من أمريكا الوسطى. وبالطبع فقد أدى هذا إلى قيام نوع من الاتفاق بين المجموعات الحاكمة على المفاهيم الدينية والسياسية. كما فتح الباب أمام شيوع وقبول بعض الاتفاقيات التى تسعى للأفضل وإلى الأخذ بأساليب تفضيلية فى المعاملات التجارية.

إننا نعرف اليوم أن الآثار التى تعبر عن طابع الاولميك تتبدى كقرينة لبعضها وبشكل أو بآخر فى حوض نهر بالساس وفى وادى المكسيك وعلى سواحل خليج المكسيك وفى مناطق أخرى، وهذا الاقتران يتعارض مع الفكرة القديمة بأن الاولميك قد انتشروا نتيجة لعمليات توسع حربى أو تجارى انطلقت من سان لورنزو أو من لابينتا.

وهنالك من بين الآثار التى اعتدنا أن نعرّف هويتها على أنها تنتمى إلى الاولميك تلك "المناضد" الكبيرة المصنوعة من الحجر وغيرها من الآثار التى يتخذ شكلها هيئة حجارة مبنية (كانت تستخدم فى بعض الأحيان كعرش أو كمذبح)، وكذلك تفضيلهم لاستخدام "الجاد" (اليشم) وغيره من الأحجار الكريمة الأخرى ذات اللون الاخضر من أجل تقديم القرابين، وتصويرهم للنمر الأمريكى مع صور للإنسان فى هيئات مختلفة. فعلى سبيل المثال نجد: حيوانات من فصيلة السنانير (هى الفصيلة التى تنتمى إليها حيوانات مثل الأسد أو النمور) وهى ترقص أو تصارع الرجال، أو رداء من فراء تلك السنانير، أو سنانير على هيئة البشر. وتتميز الوجوه

البشرية للأولميك بعيون محفورة ومائلة وشفتين مكتنزتين، نراهما أحيانا منبلجتين لتبرزا نابين لحيوان متوحش. وفى الجانب الأوسط من الرأس نجد شقاً يبرز من ثناياه "كوز الذرة". كذلك نجد من بين العناصر التى نعرفها باسم العناصر الاولميكية حاجب العين الذى ينطلق منه الشرر، والحزمتين المتقاطعتين على هيئة حرف (X)، وحبة أو قطرة المطر التى ينتهى طرفها المدبب بشعاع.

لقد حفلت السهول الرسوبية الطميية الواقعة على خليج المكسيك بأكبر عدد من المراكز التى كانت تقام فيها الطقوس والمراسم والاحتفالات الحضرية. كما كانت شاهداً على أعظم أكبر البنايات وأكثرها. وتلك البنايات كانت تتعقد وتتشابك فيما بينها، كما حظيت أيضاً بوجود أضخم مراكز لممارسة الطقوس. وسنجد أنه قد جرى فى "سان لورينزو" حوالى عام 1200 ق.م. بناء تعلية على شكل هضبة أو منصة ضخمة لتحمى عدداً كبيراً من مواقع ومبانى إقامة الطقوس ومساكن الصفوة من فيضان النهر. وقد تناثرت مجالس العرش واللوحات الحجرية والرءوس الضخمة وغيرها من المنحوتات التى أبدع صنعها الإنسان فوق أرجاء تلك الهضبة. أما مجالس العرش فقد كانت أكبر تلك المنحوتات حجماً، وكانت تستخدم قبل ذلك كـ "مذبح" لممارسة الشعائر والطقوس. كما كان الملوك يجلسون عليها لرئاسة بعض الطقوس أو القيام ببعض المراسم بل ومن المحتمل أنهم كانوا يتولون منها القيام ببعض مهام الحكم.

كانت الأشكال المنحوتة على تلك المقاعد الضخمة تدل على أصالة عنصر الحاكم وعراقته كما كانت تشير إلى صلاته مع عالم ما وراء الطبيعة والغيبيات، وخاصة مع باطن الجبل الذى كان يعد مضماراً للخصوبة بكل ما فى الكلمة من معنى، فى حين كانت بعض الأشكال الأخرى المنحوتة فى الحجر تنبئ عن هوية وانتساب الحاكم إلى محور الكون وإلى إله الذرة. أما الرءوس الضخمة فقد كانت عبارة عن كراسى عرش قد أعيد تشكيلها. وهناك احتمال بأن كرسى العرش الذى كان الملك يستخدمه فى سنوات حياته، كان من نفس "المادة الأولية" التى تستخدم لنحت الوجه الضخم الذى يمثل ذلك الملك. وكانت الرءوس المنصوبة على الأرض مباشرة تبدو كما لو كانت تطفو فوقها... تبدو كما لو كانت شجرة وارفة... أو تبدو كنبات من نباتات الذرة...

ظلت سان لورينزو على مدى ثلاثمائة سنة مركزاً سياسياً لممارسة الحكم فى تلك المنطقة إلى أن حلَّ عام 900 ق.م حين هجرها قاطنوها بصورة مفاجئة بعد تحطيم ودفن الكثيرمن تلك المنحوتات. ثم ازدهرت فى تخومها عدة أماكن خلال الفترة الواقعة بين عام 900 ق.م. وعام 500 ق.م. إلا أن أياً منها لم يبلغ فى عظمته عظمة "لا بينتا" التى يمكن أن نعتبرها الموقع الذى نرى فيه البديل الحقيقى لسان لورينزو. وقد تم فى "لابينتا" بناء أول "هرم" فى أمريكا الوسطى وهو عبارة عن مخروط ضخم به تموجات وقد استخدموا فى بنائه المادة المتاحة أمامهم فى الأرض بعد دكها دكاً جيداً. وتحيط بالهرم ميادين وعدة منصات.

وكانت الرحلة بالنسبة لسكان "لا بينتا" من أجل الوصول إلى مصادر البازلت الموجودة فى توكستلا أطول فى مسافتها من رحلة سكان سان لورنزو إلى تلك المصادر... مع ذلك فإنهم ساروا على نهج أسلافهم فى القيام بين الحين والآخر برحلات إلى تلك المواقع بحثاً عن المواد الأولية، وكانوا ينقلون الحمولة على متن طوف يسلكون به الأنهار والسواحل. وحينما كان التيار لا يتيح لهم الابحار فإنهم كانوا يجرون بضاعتهم باستخدام جذوع أشجار يدحرجونها على الأرض. وقد أتاحت لهم تلك الأحجار أن يستمروا فى سان لورينزو على تقاليدهم الممتازة فى النحت بل وأضفوا عليها ثراءً بالإبداعات والابتكارات الجديدة التى أدخلوها على التقاليد القائمة مثلما حدث فى مقبرة الأعمدة البازلتية. ومع ظهور التباين والتنوع فى مرحلة ازدهار"لابينتا"، كانت هناك أعمال نحت صغيرة بأحجار كريمة مثل "تحتية الجاد" (أو اليشم). كما ظهر هذا جلياً بعد الاكتشافات الجديدة فى ذلك الموقع وفى مواقع أخرى مثل "سيرّو دى لاس ميساس" وفى "ريو بيسكيرو".

ويغرينا افتراض أن النجوع المزدهرة شبه الحضرية القائمة فى خليج المكسيك بسكانها من النحاتين والكهنة والمحاربين والحكام كانت تعبّر لنا عن شكل من أشكال المدن الكبيرة التى أفرزت لنا مظاهر أخرى من مظاهر حضارة الاولميك. ومع هذا وكما ذكرنا من قبل فإن المعلومات المتوفرة لدينا لا تزكى نظرية أن اتساع تلك الحضارة قد انطلق من خليج المكسيك، بل وبالأحرى، فإن التأثيرات التى نطلق عليها "التأثيرات الاولميكية" كانت متزامنة مع التأثيرات التى قد تكون المواقع الوليدة التى يحكمها النبلاء فى أمريكا الوسطى قد اكتسبتها. وكانت تلك المواقع على علاقات وثيقة فيما بينها كما كانت عمليات التبادل المختلفة تجرى كذلك فيما بينها.

ويمكننا أن نتمسك بإطلاقن اسم الاولميك على أولئك السكان الذين كانوا يقطنون سهل الخليج الرسوبى الطامى فى الفترة الوسيطة فى عصر ما قبل القرية الكلاسيكية. وهو اسم اختيارى أو افتراضى قد أطلقناه على مجموعة من الشعوب التى تنتمى إلى العائلة اللغوية "ميكسى – زوكى". لكن قائمة الأشكال والرموز المستخدمة فى تلك المنطقة لا تنم عن ظاهرة من ظواهر الانتماء العرقي، وإنما تلك الأشكال والرموز هى جزء من ظاهرة تتجاوز فى الواقع حدود منطقة خليج المكسيك.

وتبرز من بين المناطق ذات الطابع الاولميكى خارج خليج المكسيك كل من تيوبانتيكوانيتلان فى ولاية غيريرو، وتشالكاتزينغو فى ولاية موريلوس، إذ إنها فضلاً عن اتساع رقعة أراضيهما، كانتا تتميزان بوجود كثير من المواقع التى كانت تقام فيها الطقوس والشعائر ومراسم الاحتفالات. وفى كل منطقة من هاتين المنطقتين نجد آثاراً أصيلة. إذ إننا نجد على سبيل المثال فى أولى هاتين المنطقتين منحوتات حجرية منصوبة على هيئة حرف (T)، كما نشاهد "آثار الكهف" فى المنطقة الثانية وآثاراً أخرى تتعلق بالمطر. وتتبدى هوية الاولميك فى كلتا الحالتين وبكل جلاء وذلك من خلال المصنوعات اليدوية القديمة ومن خلال الرموز وتشكيلات الطرازات الاولميكية. وهنالك باقة أخرى من تلك الآثار موجودة فى تلاباكويو وفى تلاتيلكو (فى وادى المكسيك) وفى أماكن كثيرة أخرى فى أمريكا الوسطى.

أصول التنوع الاقليمى

لقد كان التماثل بين الآثار قائماً خلال الفترة الوسيطة فى عصر ما قبل القرية الكلاسيكية، فى حين كان التنوع الإقليمى هو السائد خلال الفترة المتأخرة من ذلك العصر (من عام 500 ق.م إلى عام 200 ق.م). وقد تلاشت مظاهر حضارة الاولميك حوالى عام 500 ق.م فى منطقة أمريكا الوسطى وحلت محلها حضارات إقليمية مختلفة برزت بقوة واضحة خلال بضع سنوات تدور حول هذا التاريخ. وقد تجلت تلك المظاهر من خلال ظهور طرازات معمارية جديدة تنطق أنماطها بعظمة التشييد، كما تجلت فى بروز تغييرات طرأت على سمات فن النحت وطرأت على الخزفيات والفخاريات المخصصة لممارسة الطقوس والمراسم والشعائر، كما تجلت كذلك فيما طرأ على نفس الرموز من تغيرات واضحة.

ورغم أن الغموض ما زال يكتنف أسباب ذلك التحول فى تاريخ حضارة أمريكا الوسطى، إلا إننا متأكدون أن تلك المناطق قد بلغت درجة من التماسك العرقى ومستوى من الثراء الاقتصادى لم تكن تلك المناطق تتمتع به طوال القرون السابقة. وأدى هذا النضوج الذى وسم تلك المناطق إلى ظهور تمركز سكانى هام فى أماكن عدة، كما أدى إلى التلاحم بين طبقة النبلاء التى تولت احتكار مهام القيادة، وكانت تلك المهام تحديداً ذات صبغة سياسية. وقد ترسخ وجود تلك المهام على أساس مبادئ القيادة، والتمثيل القوى للمجتمعات التى ينتسبون إليها، كما كانت تلك المهام تقوم كذلك على مقومات الكفاءة فى الاضطلاع بشئون الحكم وفى الانتصار فى الحروب وفى تنظيم الأسواق وتسيير وتنظيم أمور النطاق الذى يعيشون فيه وتحسين ظروفه الحضرية.

وكان ظهور مدينة "مونتى ألبان" حدثاً من الأحداث التى تعد علامة على بداية الفترة المتأخرة لعصر ما قبل القرية الكلاسيكية بعد أن كان قد توقف نمو كبريات النجوع التى قامت على أفرع نهر وادى "واخاكا" الثلاثة مع حلول نهايات وبدايات عام 500 ق.م. لتتجمع ثلاثتها فى مدينة واحدة هى مدينة بمعنى الكلمة. كانت مدينة مونتى ألبان عبارة عن جبل مليء بالأحجار ويفتقر لوجود المياه ويخلو من البشر، إلا أن المدينة كانت تتمتع بميزة خاصة ألا وهى وقوعها فى مركز الوادى، حيث كان النظر من قمتها يتيح للمرء أن يبصر التفريعات الثلاث للوادى فضلاً عن سلاسل الجبال المحيطة بها. ولعل التنظيم الذى قامت عليه المدينة منذ نشأتها بسبب نظام أحيائها الكبيرة هو ما أدى لازدهار النظرية القائلة بأن نشأتها كانت نتيجة لتحالف واسع جرى عقده بين مستوطنات الوادى نفسه.

لقد تم تطويع الروابى والتلال الصخرية تبعاً لاحتياجات النمو السكانى حيث بلغ عدد سكانها قبل نهاية الفترة المتأخرة فى عصر ما قبل القرية الكلاسيكية إلى ما يزيد على خمسة عشر ألف نسمة. وكان أول مبنى عمومى فى المدينة الوليدة هو ما نعرفه الآن باسم مبنى "لوس دانسانتيس" (الراقصون). وتُعزى هذه التسمية إلى الأشكال المنحوته على الألواح الحجرية التى تكسو المبنى، حيث تبدو كما لو كانت تتحرك أو تتلوّى. وهى لبشر عرايا لكن أحشاءهم بارزة خارج أجسادهم وربما كانت تمثل أشخاصا تم أسرهم فى الحرب، لكن المؤكد هو أن سلسلتهم الكاملة تدل على قائمة من الجماعات التى جرى اخضاعها.

إن العرض على العامة لمثل ذلك الانتصار الحربى كان قد ظهر من قبل فى سان خوسيه موغوتى، بل وبالتحديد فى نفس الحقبة التى ظهرت فيها مونتى ألبان إلى الوجود. وإذا ما انتقلنا إلى داينزو –وهى عبارة عن أحد النجوع التى تعتمد على مونتى ألبان وتقع على فرع تلاكولولا– فإننا نجد نحتاً بارزاً لبشر تعرضوا للتضحية بهم، وهم هنا مقطوعو الرءوس. ويشكل لعب الكرة جزءاً من المشهد المنحوت. وقد جرى حوالى عام 200 ق.م. تشييد مبنى على شكل طرف أو مقدمة السهم ويتشابه مع سابقه فى أنه مغطى بلوحات حجرية تشير إلى الانتصار العسكرى. إلا أنه بدلاً من نحت أسير مقطوع الرأس، نجد شعاراً بارزاً منحوتاً باسم مكان أو موطن كل شعب ومعه رأس منكفئة على وجهها.

ولعل تلك القرائن السابقة وغيرها من القرائن التى تعد شاهداً على العصر الكلاسيكى تبين لنا أن التلاحم السياسى فى مونتى ألبان فضلاً عن نموها الحضرى وهيمنتها الإقليمية قد نجما عن أعمال وجهود عسكرية مكثفة. ومن بين ثمار تلك الجهود العسكرية تلك المبالغ التى قام المنتصرون بتحصيلها كجزية من المهزومين وهو مما أسهم فى ثراء ورخاء تلك المدينة.

أما عن الفنون الجنائزية، فإننا ندرك أن آثار الزابوتيك فى تلك الحقبة الكلاسيكية كانت حاضرة بقوة خلال القرون الأولى من تاريخ مونتى ألبان، ونجدها فيما يلى: المقابر المشيّدة بكتلٍ حجرية قائمة على شكل صفوف وقد جرى تزيينها بالجص وبالنقش والرسومات، والتماثيل المصنوعة من الخزف وتتخذ شكل كوب ويطلق عليها لفظ "قارورة". وكان يتم رصها حول أجساد الموتى علماً بأنه لم يكن يجرى دفنها على ظهرها بل على جنبها.

لقد عرفنا كذلك عن وجود عمليات حضرية ملموسة فى وادى المكسيك فضلاً عن وجود تمركز للسكان يشبه ما جرى فى واخاكا، بل وكانت عملية التحضر أعظم شأناً إذا ما أخذنا فى الحسبان ظهور مدينتين على شواطئ بحيرة المكسيك خلال الفترة المتأخرة من عصر ما قبل القرية الكلاسيكية. إن الأمر يتعلق فى واقعه بفترة وجدانية مشوّقة من فترات تاريخنا، لكننا لا نعرف عنها الا النذر اليسير... بَـيْـــدَ إننا على ثقة ويقين بأن كويكويلكو كانت أكبر وأعظم من كونها هرماً له قاعدة دائرية: فهنالك جبانة ضخمة تغطيها اليوم مستوطنة حديثة وعدة روابى يمكن رؤيتها وأنت تسير عبر دروب المنطقة. وحسبنا أن نفكر فى عظمة حجم

تلك المدينة عندما نحكم على مدى اتساع المركز الدينى فيها... لكن هنالك طبقة كونتها الحمم البركانية ويصل ارتفاعها إلى 15 متراً تعوق الأبحاث ولن تتيح لنا أبداً تكوين فكرة كاملة عن تلك المستوطنة.

لقد كان التأثير الحضرى الذى أسبغته مدينة كويكويلكو على سكان جنوب الوادى مماثلاً للتأثير الحضرى الذى صبغت به مدينة تيوتيهواكان سكان شمال وشرق الوادى. وتشير التقديرات فى الفترة ما بين أعوام 200 ق.م. و 100 ق.م. إلى أن عدد سكانها قد وصل إلى حوالى 400000 نسمة. غير أن هنالك فارقاً هاماً للغاية، هو أن كويكويلكو كانت تتمتع بوجود مجمع للآثار الدينية لم يكن يتمتع به أى مركز من المراكز الدينية الأخرى فى أمريكا الوسطى. كما كانت تيوتيهواكان تضم الكثير من السكان الذين جذبتهم الصناعات القائمة على حجر السبج الاسود (الاوبسيديان) دون أن يكون لهم أى نظام للطقوس الدينية يمكن مقارنته مع ما كان لأهل كويكويلكو، بل إن تيوتيهواكان كانت بالأحرى عبارة عن مجموعة من القرى المجتمعة إلى بعضها، أكثر من كونها مدينة بمعنى الكلمة.

وقد بدأت مدينة كويكويلكو تفرغ من سكانها بعد ثورة بركان شيتلى التى وقعت عام 50 ق.م. لكن ساكنوها لم يهجروها تماما إلا بعد مرور مائة عام على هذا التاريخ وذلك عندما ثار البركان من جديد وطمرت حممه المدينة بالكامل. وقد اختفى من الوادى أثران من الآثار التى ميزت حضارة كويكويلكو بعد اندثار المدينة، هما: منصة الطقوس والشعائر والمراسم ذات القاعدة الدائرية، ومنطقة المقابر التى كانت تشيد على هيئة دمجانة أو دنّ، وهى تتميز بوجود حزام دائرى يؤدى إلى غرفة الدفن. ومن الغريب ظهور ما يماثل هذين الأثرين حوالى عام 200 ق.م. فى غرب المكسيك (فى ولايات خاليسكو، وميتشواكان، وناياريت، وكوليما)، وهو ما كان علامة أصبحت سمة على تلك المناطق على مدى الألف سنة التالية. غير أنه وإن لم تظهر بعد صلة بين كلتا الحضارتين، إلا أنه لا يمكن استبعاد أن مثل تلك الصلة كانت قائمة بالفعل.

هناك صلة بين ظاهرة الاولميك القديمة وبين تلك البنايات، فضلاً عن الأحداث التى تتسم بها حقبة الفترة المتأخرة فى عصر ما قبل القرية الكلاسيكية وبين عدة مناطق فى أمريكا الوسطى مثلما هو الحال بالنسبة لحضارة ميتزكالا (Mezcala) التى نلحظ فيها استمرار

الممارسات التى كان يتميز بها عصر الاولميك، وهى تتمثل فى النحت على قطع صغيرة من الحجر لآلهة لها سمات بشرية. ويبدو أن الاتجاه التجريدى فى أشخاص ميتزكالا قد نشأ عن اتجاه أقل ميلاً لمحاكاة الطبيعة، بعكس الاتجاه الذى كان يتميز به فن الاولميك. وهنالك شواهد واضحة على أن مدرسة "الظاهرة الاولميكية" قد انتقلت من خليج المكسيك إلى منطقة "المايا".

وفى الفترة ما بين أعوام 500 ق.م. و 400 ق.م. هجر أهل "لابينتا" أرضهم بصورة فجائية، رغم أن بعض الأماكن مثل "تريس سابوتيس" و "سيرّو دى لاس ميساس" ظلا على عهديهما فى قيام سكانهما بنحت المذبح واللوحات الحجرية باستخدام كتل كبيرة من الحجر، كما أنهم حافظوا على الكثير من سلاسل الأيقونات الاولميكية. وهنالك أهمية خاصة لذلك التشابه الكبير القائم بين أعمال النحت الموجودة فى أماكن يرجع عهدها إلى تاريخ ما بعد الاولميك وبين أعمال نحت أخرى تقع فى أماكن أخرى فى مناطق الجنوب مثل الأعمال الموجودة فى غريخالبا العليا وفى سواحل تشيّاباس وفى غواتيمالا.

لقد أتاح ذلك التشابه التعرف على مظهر من مظاهر الحضارة يعرِفونه باسم مجمع إيزابا، حيث كان أقصى طرف شمالى له يقع عند لاموخارّا فى فيراكروز وأقصى أطرافه الجنوبية يقع فى إيزابا بالمكسيك وفى أباخ تاكاليك وفى الباعول الواقعتين فى غواتيمالا. وتعد تشيّابا دى كورسو و لا ليبرتاد حلقة وصل بينهما. وتقع هاتان المدينتان فى أعالى مجرى نهر غريخالبا. وقد كان هذا الشريط المتعرج -الهابط من سهل الطمى الخليجى عابرا برزخ تيهوانتيبيك- شاهداً على تواجد العائلة اللغوية ميكسى-زوكى (*mixe-zoque*) فى العصر المتأخر السابق على المكسيك الكلاسيكية أو القرية المكسيكية الكلاسيكية. ولم يكن التواصل من الساحل إلى الساحل الآخر عبر ذلك الطريق تواصلاً جديداً. فعلى ما يبدو فإن المنحدّرين من الاولميك فى منطقة الخليج قد دعّموا أواصر صلاتهم مع جذع شجرتهم الأثنية (العرقية) بعد أن بدأ عالم العلاقات التجارية والسياسية للحقبة الاولميكية فى التفكك.

ولقد ظهر فى تلك الحقبة أهم الاختراعات فى تاريخ أمريكا الوسطى التى تراوح العيش فيها ما بين عسر الأزمات ويسر الأحوال، اختراع : "الحساب الطويل"، ويقوم على نظام عددى للتأريخ يسمح بالتأريخ بدقة متناهية لأى حدث، وذلك بأن اتخذوا لهم تاريخاً محدداً يبدءون به التأريخ لأنفسهم، تماما مثلما اتخذنا نحن تاريخ ميلاد المسيح للتأريخ لأى حدث.

وتاريخ ما نعنيه "بالتأريخ الطويل لأمريكا الوسطى" يعود إلى 13 أغسطس من عام 3114 ق.م. وليس لدينا أى خبر عما إذا كان هذا التاريخ يعنى أو يشير إلى حدث ما بعينه. وتعود أقدم التواريخ المعروفة عن "الحساب الطويل لأمريكا الوسطى" إلى شريط ميكسى- زوكى، وتتمثل فى ظهور أرقام الأعوام التالية: عام 36 ق.م. فى تشيابا دى كورسو، وعام 31 ق.م فى تريس سابوتيس، وعام 36 م. فى إلباعول، وعام 126 م. فى أباخ تاكاليك، وعام 143م. و156م. فى لاموخارّا، وعام 162 فى سان أندريس توكستلا. ومن ثم فإن هذا يدل على أن النظام الذى ندعى بأنه أصيل عن "المايا" ما هو فى حقيقة الأمر إلا اختراع قدمته لنا عقول أبناء الـــــــ "ميكسى-زوكي" فى مرحلة تراوحت فيها أحوال المنطقة ما بين الاعسار واليسار. كما لا ينبغى علينا كذلك أن نرجع إلى أبناء المايا اختراع النظام الذى يتألف من مذبح ولوحة حجرية، إذ إننا قد رأينا استخدامهما فى زمن الاولميك فى غيرّيرو وفى موريلوس وفى الخليج ومن ثمّ انتقلا إلى منطقة المايا وبالتحديد عبر ذلك الدرب الحضارى لمجمع إيزابا.

قامت للمايا مستوطنات زراعية فى الأحراش فى العصر الوسيط لما قبل المكسيك الكلاسيكية أو لما قبل القرية المكسيكية الكلاسيكية. وكانت المستوطنات مماثلة لتلك المستوطنات التى نشأت فى سيبال وفى ألتار دى ساكريفيسيوس الواقعتان على أحد أفرع نهر أوسوكاسينا المسمى فرع باسيون، كما نشأت غيرها فى تيكال وفى واشاكتون وفى ناكبي وفى الميرادور الواقعة فى إقليم "بيتين" فى غواتيمالا، وذلك غير بعيد عن حدود ولاية كامبيتشى المكسيكية. وكانت بعض تلك القرى مهداً لزعامات قوية. وفى العصر الكلاسيكى المتأخر نمت مناطق تجمعات صغيرة لممارسة الطقوس والشعائر وتتسم بأنها قامت فى بعض تجمعات من الروابى أو التلال الصغيرة يتوّج كل منها منصتان أو ثلاث منصات هرمية الشكل. أما عمارة وزخارف ونقوش تلك التجمعات فإنها شبيهة جداً مع عمارة وزخارف ونقوش العصر الكلاسيكى نفسه وإن كان قد غاب عنها بعض مكونات هذا العصر مثل تصاوير أشخاص الملوك والنصوص المنقوشة المقرونة بكتابة التواريخ.

كان لمجموعات بيتين أيضاً امتداد ما ناحية الجنوب فى اتجاه غريخالبا الا أنه من غير المعروف إن كان ذلك الامتداد قد تم حرباً أو سلماً، لكن هذا الامتداد أدى إلى اتصال قاطنيه بتقاليد وعادات إيزابا. ولعل كامينالغويو وأماكن أخرى فى هضبة غواتيمالا العليا كانت من المناطق التى أتاحت مجالاً للتشابه بين خط الميكسى-زوكى وخط المايا. وفى عام 292 م. ظهر

"الحساب الطويل" مقروناً مع كتابات وتصاميم معمارية للمايا فى الأحراش، إذ ظهر فى مدينة تيكال الوليدة التى ستصبح فيما بعد أكثر مدن المنطقة ازدهاراً.

حقبة الامبراطورية

شهد وادى المكسيك عدة أحداث هامة خلال الفترة ما بين عام 100 ق.م. وعام 200م. التى يتعامل معها بعض المؤلفين باعتبارها فترة تاريخية منفصلة عما قبلها وعما بعدها، ويطلقون عليها "الحقبة التى مهدت للعصر الكلاسيكى (المكسيكى)". فقد حدث وأن هجر كويكويلكو سكانها ونهضت تيوتيهواكان كمركز سياسى ودينى لا منازع له فى المنطقة.

وقد جرى خلال المائتى سنة الأولى من تقويمنا الميلادى تشييد هرم الشمس وهرم القمر ومعبد كيتزالكواتل كما ترسمت وظهرت معالم طريق الموتى. وبدأت فى تاريخ تيوتيهواكان مرحلة حضرية بكل ما فى الكلمة من معنى. ونحن إذا ما أردنا أن نتحدث عن مستوطنة تنتمى إلى عصر ما قبل قدوم الإسبان فإن مدينة تيوتيهواكان هى أفضل مثل على هذا. فلقد انتشرت المبانى والطرقات المرصوفة ببلاطات فى معظم أرجاء المدينة بل ودون أن تترك فراغات بينها للبساتين أو للحدائق، وذلك فى رقعة وصلت مساحتها إلى حوالى 20 كم مربع.

استوطنت غالبية سكان تيوتيهواكان فى بدايات العصر الكلاسيكى المكسيكى (من عام 200 م. إلى عام 650 م. فى تجمعات سكنية متعددة العائلات ومبنية بأحجار غير منتظمة (الدبش)، فى حين عاشت قلة من الناس فى عشش مبنية من الطوب اللبن وهو ما يعنى أن الرخاء كان يعم المستوطنة. وكانت التجمعات الاستيطانية تقام على منحدرات، غير أن الحوائط لم تكن لها نوافذ. وكان لها مدخل أو مدخلان يسمح أو يسمحان بالمرور إلى الداخل. وكانت غالبية المساكن عبارة عن دور أرضى مساحته حوالى 60 X 60 متراً وكان بعضها مستطيل الشكل أو على شكل حرف (L) وكانت أضلاع جوانبها متوازية، لكن نواصيها لم تكن متسقة مع بعضها أى أنها لم تكن بالضرورة مربعة الشكل. وكل تجمع كان يشكل مربعاً سكنياً فى حين

كانت شوارع تيوتيهواكان عبارة عن ممرات طويلة ظليلة تتلفلف بين منحدرات وأسوار مرتفعة ولم تكن الشوارع تتيح للمارين فيها رؤية ما يجرى داخل المساكن.

كانت الأفنية الموجودة داخل كل تجمع سكنى تؤدى إلى الغرف كما كانت لها فائدة أخرى إذ كانت توفر الاضاءة للغرف. وكان الفناء المركزى وعدد من الغرف الكبرى تيسر تجمع سكان تلك التجمعات فى أوقات معينة لممارسة الطقوس الدينية أو كانت تتيح القيام بالأنشطة الإدارية ذات الصالح المشترك. ومن المحتمل أن متوسط عدد عائلات كل تجمع كان يتألف من حوالى عشرين أسرة. وكانت تجمع بينهم حرفة أو مهنة واحدة كما كانوا جميعا أقارب لبعضهم البعض. وتدل التحاليل التى أجريت على الهياكل والعظام التى عثر عليها على وجود وشائج قربى وثيقة بين رجال كل تجمع أكثر مما كان عليه الحال بالنسبة للإناث، كما كان لكل تجمع شيخ أو كبير للمكان. وكانت النساء تعشن إلى جانب أزواجهن.

وقد لوحظ وجود عدد من التجمعات التى كانت تؤدى إلى تكوين أحياء، لكن الشوارع الداخلية فيها كانت أقل اتساعاً من الشوارع التى تحيط بها فى دائرتها الخارجية. علاوة على هذا كانت هناك تجمعات بين الأحياء وأحياء أخرى لتكوين أحياء كبرى، ويبدو أن كل حى من تلك الأحياء الكبرى كان له مركز خاص به لممارسة الطقوس والمراسم والشعائر، وكان يقام فيه مجمع من ثلاثة معابد تصب ثلاثتها فى ميدان واسع. وهذا الميدان الواسع كان كذلك بمثابة نقطة لتسيير الأمور الإدارية ويتجمع فيه ممثلو العائلات وممثلو الأحياء الصغيرة من أجل هذا الأمر.

وكان الجزء الأكبر من السكان – وقد يصل عددهم إلى النصف – من الذين كانوا يقطنون فى المنطقة الحضرية من تيوتهواكان من يشتغلون فى بعض الحرف اليدوية الزخرفية وكانوا يعملون حبات أو مشغولات من أحجار السبَج (أوبسيديان) أو مشغولات أو آنية من الفخار ومشغولات من العظام والصدف كما كانوا يقومون بنسج الأقمشة وجدل الحبال... إلخ. وعلى صعيد آخر، فإن وفرة الأراضى الزراعية وجودتها فى وادى تيوتيهواكان مع قلة عدد السكان القرويين فى ذلك الوادى تدفعنا إلى الاعتقاد بأن العديد من هؤلاء القرويين كانوا يمارسون شكلاً من أشكال الزراعة، وكانوا يعملون بعض الوقت أو كل الوقت.

ومن المعتاد أن نتصور أن جميع المجتمعات السابقة على الوجود الإسبانى كانت مجتمعات يحكمها طغاة، وكانت فيها مجموعة ذات ثراء فاحش تقوم باخضاع غيرها من الطوائف المنتجة التى تـستنزف جهودها فى العمل تحت وطأة السيطرة التى يمارسه عليهم نظام سياسى حديدى. ومثل هذه الأنظمة لم تكن ديموقراطية بطبيعة الحال، لكن نظامها الداخلى كان أكثر تعقيداً مما قد نتوهم. فهنالك معلومات أثرية عن تيـــوتيـــهواكـــان تكفينا لكى نعرف ونفهم على الأقل أربعة أمور تتعلق بتكوين الطبقات الاجتماعية :

1) أن قاعدة المجتمع كانت تتألف من جماعات من طوائف مختلفة أو جماعات من العشائر اتخذت لسكناها أحياءً حضرية.

2) وكان هنالك اختلاف بين العشائر وبعضها، إذ كان بين تلك العشائر عائلات أكثر ثراء من غيرها. وكان من المعتاد أن تكون الأماكن السكنية التى يعيش فيها رؤساء العشائر أكثر اتساعاً وثراء من باقى مساكن الحى. وكانت أجساد الموتى من أصحاب الطبقات العليا تتمتع بمعاملة جنائزية خاصة.

3) كانت أحياء أصحاب الحرف اليدوية والزخرفية والزرّاع وغيرهم من العمال تتمتع ببنية تحتية حضرية (مثل الشوارع – ممرات للوصول إلى الأسواق – نظام لتصريف المياه – مساكن متينة) تمنعنا من وصف جموعهم بالفقر. وبتعبير آخر، فإن هذه المساكن الشعبية لم تكن من الوجهة الحضرية تختلف فى عمومها عن مساكن قطاع الزعماء.

4) كانت زخارف المبانى الحائطية واتساع الغرف هو ما يدل على المساكن التى تخص طبقة النبلاء. ويبدو أن مجموعة المساكن التى كانت تقع إلى شرق هرم القمر وإلى شمال هرم الشمس كانت حرماً لمساكن القادة السياسيين والعسكريين. وفضلاً عن هذا، كانت هناك مجمعات سكنية يعتقد أنها كانت مخصصة للكهنة الذين كانوا يكرسون أنفسهم تماماً للقيام بواجباتهم الدينية.

ونحن نكاد لا نعرف إلا النذر اليسير عن ملوك تيوتيهواكان وذلك فيما عدا كيتزالكواتل الذى يبدو أنهم كانوا يعتبرونه الإله الأكبر الحامى لهم، وفيما عدا ملوك حقبة الاولميك الذين كانوا يعرّفون بأنهم آلهة الذرة. وقد نبعت سلطة الملوك فى تلك المدينة الكبيرة الواقعة فى وادى المكسيك من ريادتها فى مجال الأشغال العامة: فلقد ظهرت هناك الأهرام العظيمة والمدينة

الحضرية كبرهان على كفاءة الحكومة. كما أن تنظيم أعمال الحرف اليدوية والزخرفية وتشجيع أنشطة التبادل التجارى التى كانت تضمن وصول المواد الأولية وخروج المنتجات إلى مناطق أخرى قد أتاح ظهور طوائف أخرى متخصصة كانت تعتمد فى حياتها على التجارة.

لقد كانت الأحياء الصغيرة والأحياء الكبرى بل وكل أصحاب الحرف اليدوية والنبلاء والفلاحون الذين كانت تتشكل منهم الوحدة السياسية يجدون "هويتهم" فى أن يستظلوا تحت "صورة إله هو حامى حماهم" ألا وهو الإله "تلالوك" رب الماء وزوجته "تشالتشيوهتليكوى". ومن المرجح أن الهرمين ("هرم الشمس" و "هرم القمر" اللذين اكتسبا اسميهما من زوارهما من أبناء "الميخيكاس" Mexicas بعد بنائهما بعدة قرون) كانا فى الواقع للإله تلالوك وزوجته تشالتشيوهتليكوى. ولقد كان رمز هرم الشمس عبارة عن "أكمة كبيرة يحيط بها الماء"، إذ إن أهل تيوتيهواكان جعلوا حفرة تدور حوله وحفروا قناة مركزية صغيرة بحيث تعطى الإيحاء بأن الماء ينبع من كهف طبيعى يقع فى سمت الهرم لينساب بعد هذا من حوله. ولم يكن فى باحة هرم القمر إلا كتلة منحوتة تتخذ شكلا شبه هندسى لزوجة تلالوك أى تشالتشيوهتليكوى أو الإلهة ذات تـنّـــورة اليشم (حجر اليشم أو الجاد النفيس).

امتد تأثير مدينة تيوتيهواكان ومحيطها الزراعى بصورة أو بأخرى إلى كل أقاليم أمريكا الوسطى. ففى المقام الأول، كانت لدولة تيوتيهواكان اليد الطولى فى تنظيم الإنتاج فى وادى المكسيك بل وعلى وجه التأكيد وفى وادى تولوكا أيضاً. وتشير الأدلة المتاحة لنا إلى ترجيح وجود عنصرين من العناصر الاثــنية الكبرى التى كانت تعيش هناك: العنصر الاثــنى الأول هو أبناء "الناهواس" الذين كانت تتألف منهم غالبية سكان الحضر فى تيوتيهواكان، والعنصر الاثنى الثانى هو عنصر "الاوتوميانوس". وكان من بين الاوتوميانوس جماعات كانت تكرس نفسها للعمل بالزراعة فى حوض نهر "ليرما" (وهم أسلاف ما يسمون باسم "الماتلاتزينكاس")، كما كانت هناك جماعات أخرى تعمل فى استغلال الغابات وصيد الأيائل والزراعة وتصنيع نبات صبار الماجيى (للحصول على شراب البولكى المسكر، والحبال من أليافه، وخيوط للنسيج) وكانت هذه الجماعات لا تولى للزراعة إلا القليل من الأهمية (وهذه الجماعات هم أسلاف الاوتوميس والمازاهواس). وكانت مصادر الاوبسيدان فى أوتومبا

وباتشوكا ومحاجر الجير فى منطقة تولا- تيبـيـغى بين الموارد الاستراتيجية التى يبدو أن تيوتيهواكان كانت تسيطر عليها سيطرة مباشرة.

وفى المقام الثانى ينبغى علينا أن نذكر منطقة حوض نهر موريلوس بالنسبة لامتداد التأثيرات، حيث كان أبناء تيوتيهواكان يحصلون على القطن وعلى الكاكاو وغيرهما من المحاصيل الزراعية التى تنمو فى الطقس الحار، كما ننوه إلى وادى بويبلا – تلاكسكالا حيث كان يستخرج منه عجينة الطفلة التى تستخدم فى عمل الخزف "البرتقالى الرقيق" الذى يعد أحد أرقى منتجات الأشغال اليدوية الزخرفية فى المكسيك القديمة. ويعتقد أن تيوتيهواكان قد قامت بعمليات للتبادل التجاري بين هاتين المنطقتين وربما كانت تقوم بجباية رسوم من كليهما، غير إننا لا يمكن أن نجزم بأنها كانت تتحكم تحكماً مباشراً فيما كانتا تـــنتجانه.

وفى المقام الثالث فلقد كان للسلطة فى تيوتيهواكان تأثير كبير ظهر على مستوطنات تقع على مسافة مئات الكيلومترات من وادى المكسيك. ولقد أدى البحث عن منابع مادة السلقون القرمزية اللون إلى أن يسعى أبناء تيوتيهواكان إلى الوصول إلى ريو بيردى (الوادى الاخضر) فى المكان الذى تقع فيه الآن سان لويس بوتوسى. كما أدت بهم رغبتهم فى الحصول على ما يطلق عليه أحجار الحية وأحجار اليشب إلى السعى للوصول إلى حوض نهر بالساس من أجل الحصول عليها. ورغم إننا لا يمكن أن نجزم بأن أهل تيوتيهواكان قد نجحوا فى بسط سيطرتهم على المواد الأولية التى يحتاجون إليها فى أعمالهم، إلا أن الأرجح أنهم قد فرضوا على أبناء تلك المناطق رسوماً تجارية لا تتسم بالتوازن.

لقد كان تواجد أبناء تيوتيهواكان فى خليج المكسيك ضرورياً من أجل البحث عن المواد الأولية. ومن المحتمل جداً أن كان من بينها ريش الطيور الاستوائية والكاكاو والسلقون والكاولين الموجود فى توكستلا. وقد أنشأ أبناء تيوتيهواكان مستوطنة لهم فى ماتاكابان القريبة من بحيرة كاتيماكو. ومن ثم فلم يتمكنوا وحسب من تأمين حصولهم على المواد الأولية بل وحققوا لأنفسهم الإشراف على ميناء هام للتبادل التجارى، حيث كان هذا الميناء ملتقى للطرق التجارية القادمة من شمــــال فيراكـــروز ومن شبه جزيرة يوكاتان ومن سواحل غواتيمالا – عن طريق برزخ تيهوانتيـبــيك – فضلاً عن الطرق التجارية القادمة من ميكستيكاس عن

طريق تيوتيتلان – توكستيبيك. وتبرز من بين الأدلة القاطعة على تواجد أبناء تيوتيهواكان فى ماتاكابان استخدام أبناء هذه الأخيرة لمجمعات سكنية متعددة العائلات وبنفس الصورة التى كانت موجودة فى مدينة تيوتيهواكان الكبرى.

كانت العلاقة بين تيوتيهواكان وبين أبناء المايا والزابوتيك موضع الكثير من الجدل. لكننا على يقين من وجود صلة ما بينهما، وأن تلك الصلة قد استمرت على مدى عدة قرون كما أن تلك الصلة كانت صلة وثيقة. فقد وصلت إلى واخاكا وإلى منطقة المايا مشغولات مصنّعة فى تيوتيهواكان. كما قلّد أبناء الجنوب العديد من أشكال المنتجات من المشغولات اليدوية الزخرفية التى تميز بها أبناء تيوتيهواكان. ولكن كيف كانت طبيعة تلك العلاقات؟

لقد أمكن منذ خمسين سنة التوصل إلى التعرف لأول مرة وبشكل واضح على التأثير التيوتيهواكانى القوى فى أراضى المايا. وقد أكدت جهود الاستكشافات الأثرية ذلك التأثير فضلاً عن التقدم الذى تحقق فى قراءة الكتابات المنقوشة، كما نجحت فى تحديد سمات ذلك التأثير. إذ توجد فى عدة مدن من مدن المايا الواقعة فى البيتين (غواتيمالا) آثار واضحة على تأثير تيوتيهواكان فى المعمار وفى الخزف وفى الأزياء العسكرية وفى بعض الرموز. ومن المؤكد أن تيكال كانت المكان الذى ظهرت فيه سمات التأثر بتيوتيهواكان بصورة أكثر وضوحاً، وهو ما تجلى في التأثير بالأوانى التى تحمل شكل طرازات تيوتيهواكان مثل الإناء ذى الغطاء القائم على ثلاثة قوائم، كما عرفت تلك المدينة الكبيرة البنايات على المنحدرات والألواح الحجرية التى كانت شائعة فى تيوتيهواكان. وقد تم العثور مؤخراً على نموذج صولجان أو راية حجرية تكاد تتطابق مع ما نعرفه تحت مسمى "لوح التسجيل فى ملاعب الكرة" الذى تم العثور عليه فى حى "دى لا بينتيـــيّا" فى تيوتيهواكان.

وتظهر على إحدى الأواني التى عثر عليها فى تيكال صور لمحاربين مجهزين تجهيزاً تاماً بأسلحتهم ويرتدون ملابس تيوتيهواكانية ويتقدمون أمام شخصية من شخصيات المايا العظيمة التى تستقبلهم بالبخـــور. كما يظهر على أحد الحوائط فى منطقة قريبة من واكساكتون شكل لمحارب تيوتهواكانى يستقبله أحد نبلاء المايا بمراسم التبجيل. وقد أتاحت لنا إمكانيات قراءة نصوص الكتابات المنقوشه مؤخراً معرفة إحدى الوقائع التى جرت وعبرت

التصاوير لنا عما جرى خلالها، إذ إنه فى 31 يناير من عام 378 م. وصل إلى تيكال غريب يدعى سيـــياج كاك وثبت أن ذلك الشخص كان متواجداً قبل هذا التاريخ بثمانية أيام فى مدينة "بيرو" الواقعة على شاطئ أحد أفرع نهر أوسوماسينتا الذى يعتبر أحد المداخل الطبيعية لنهر البيتين، وكان قد وصل إلى تلك المدينة قادماً من وادى المكسيك. وفى نفس اليوم الذى وصل فيه ذلك الأجنبى الغريب يموت الملك تشاك توك إيتشاك الذى كان يحكم تيكال، وهو ما يعنى احتمالاً قوياً بأنه قد اغتيل على يد الغرباء.

كذلك فقد أبرزت النقوش الموجودة فى واكساتون وفى بيتوكال وفى ريو أسول (النهر الأزرق) وصول سيـــياج كاك. الا إننا لم نعثر على ما يبين أن سيـــياج قد استقر به المقام كحاكم هناك، إذ إن النقوش تشير إلى أن هذه الشخصية "سيـــياج" قد نصّـــب على كرسى السلطة ملوكاً آخرين. فقد كان الحاكم الذى نصبه سيـــياج فى تيكال هو التيوتيهواكانى "بوءو- لانسادارودوس". وبعد الاستيلاء على السلطة وجد أولئك الدخلاء أنه من المستحسن أن ترفع من جميع الأماكن العامة جميع اللوحات التى تذكّـــر الناس بملوكهم السابقين على فترة قدوم الحملة التيوتيهواكانية، وعليه فقد جرى تدمير تلك اللوحات أو استبعادها جميعاً من المدينة. لقد كان الأمر يتعلق بالتمكين لمملكة جديدة، ومن ثم فقد كانت شرعية الملوك فى تيكال منذ وقوع تلك الأحداث وعلى مدى الأجيال التالية مستمدة من انتمائهم إلى تيوتيهواكان. وظهرت صورة ابن بوءو – لا نسادارودوس و اسمه الملك ياش نون أيـــين الأول منقوشة على إحدى اللوحات الحجرية فى وضع يرتدى فيه زياً يخالف ما كان يعرف عن أزياء المايا. كما ظهرت صورة حفيد بوءو – لانسادارودوس أى الملك سيـــياج تشان ناويل الثانى فى هيئة هى أقرب لما كانت عليه صور المايا، إلا أنه كان جنباً لجنب بجوار شخصين آخرين فى حين كان والده يرتدى زياً كزى أبناء تيوتيهواكان ويحمل سلاحا يشبه أسلحتهم. وهنالك دلالات أخرى فى بيـــيدراس نيغراس على وجود ضغوط عسكرية تيوتيهواكانية، كما ترجح الأدلة أنهم قد فرضوا فى بالينكى مملكة أخرى فى عام 431 م.

وهنالك فى الهضبة العليا فى غواتيمالا نجد أن كامينالغويو قد عانت كذلك من غزو التيوتيهواكان حوالى عام 400 م. وعلى الرغم من عدم العثور حتى الآن على نقوش أو كتابات تؤيد هذه المقولة، إلا أن الأطلال الأثرية التى عثر عليها تصبح أكثر بلاغة فى تأكيد ذلك الغزو.

فهنالك فى كامينالجغويو أنشئت ما أطلق عليه ميتشل كوى "نسخة مصغرة من تيوتيهواكان". فقد بنى الذين كانوا يستوطنونها معابدهم على نفس نمط المعابد القائمة فى وادى المكسيك وكانت أشكال المنتجات الخزفية على شكل ما كان موجوداً فى المدن الكبرى. وكان السكان عند وفاتهم يفضلون دفنهم ومعهم آنية قد تم جلبها من المدينة التى يرجع إليها أصلهم. وكان من أهم أهداف استقرار التيوتيهواكانيون فى تلك المنطقة المرتفعة السيطرة على مصادر الاوبسيديان فى ذلك الموقع وخاصة فى مدينة تشايال.

ويبدو أن علاقة تيوتيهواكان مع مونتى ألبان كانت علاقة حذرة ومتكافئة. ففى حين كانت العلاقة فى حالة المايا تتسم بوجود مظهر من مظاهر العسكرية الواضحة، فإن العلاقة مع مونتى ألبان كانت علاقة دبلوماسية. وكان صانعو الفخاريات والخزف من أبناء الزابوتيك أقل حماساً للأنماط الموجودة فى تيوتيهواكان وذلك على عكس المشتغلين بالحرف اليدوية من مشغولات فنية وزخرفية فى تيكال. كذلك كان وجود الأنماط التيوتيهواكانية محدوداً فى مدينة مونتى ألبان. ولقد تم العثور على عتبة عليا لباب أو شباك تتحدث نقوشها عن زيارة لسفراء من تيوتيهواكان. ولكن أولئك السفراء كانوا من الكهنة وكانوا يحملون صرراً من الكتان تحتوى على قرابين، وهم لم يكونوا من المحاربين.

أما المعاملة مع واخاكا فإنها كانت قائمة على أساس المعاملة بالمثل وهى معاملة لم تكن قائمة بنفس الصورة مع أبناء المايا. كما كان فى تيوتيهواكان حى يسكنه الزابوتيك الذين حافظوا على عاداتهم لقرون عديدة. وكان الزابوتيك من أهل تيوتيهواكان يجرى دفنهم فى غرف تحت الأرض مثلما كان يحدث فى مونتى ألبان ولم يكن يجرى دفنهم بنفس أسلوب أبناء تيوتيهواكان. علاوة على هذا فإن رفات الموتى من الزابوتيك كان يحيط بها أوعية تتخذ لها أشكالاً بشرية، وتشبه تلك التى كان قد عثر على مثلها بالمئات فى وادى واخاكا.

لقد كان التواجد التيوتيهواكانى فى غرب أمريكا الوسطى أمراً مازال يكتنفه عدم الوضوح. وهناك من الآراء ما يرجح بشدة أن أبناء تيوتيهواكان قد وصلوا إلى أماكن مثل ساكاتيكاس وألتا بيستا لكى يسيطروا على حركة انتقال أحجار التركواز وليحققوا لأنفسهم مصالح وفوائد من أنشطة المناجم فى تلك المنطقة، لكن هذه الآراء لم تقم عليها بعد أدلة تؤكد

ثبوتها. ومن جهة أخرى تلفت مستوطنة تينغامباتو فى ميتشواكان الانتباه بسبب التشابه المذهل فى معمارها مع معمار تيوتيهواكان، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على وجود مثل هذا التشابه أو أية صلة بينهما عندما نتكلم عن المنتجات الخزفية. وأخيراً فلقد كانت هناك مستوطنات في نايَــاريت وفى خاليسكو وفى كوليما، وكانت فيها مراكز لممارسة الطقوس على هيئة منصة وأمامها ميدان مستدير ومجمعات جنائزية يتم الدفن فيها فى لحود، وخزفيات تتسم بالواقعية إذ كانت ترسم عليها مناظر لحيوانات ومناظر أخرى من الحياة اليومية. ولقد عاشت هذه المستوطنات فى نظام ذى طابع إقليمى، كما كانت لها روابطها مع شعوب سلسلة جبال سييرا مادرى الغربية وسواحل المحيط الباسفيكى، بل وكانت روابطها أكثر مما كانت روابطها مع تيوتيهواكان.

الأزمة والتحول

تعرف الحقبة الواقعة بين عامى 650 م. و900 م. بصفة عامة باسمين: فإذا ما تناولنا الأمر انطلاقاً من أن المكسيك كانت هى المركز، معتمدين فى هذا على وجهة النظر المتعلقة بسقوط تيوتيهواكان والتحولات الدراماتيكية التى تلت هذا السقوط، فعلينا أن نتناول هذه الحقبة تحت مسمى "الحقبة الكلاسيكية الوسيطة"، أما إذا ما تناولناها انطلاقاً من إقليم المايا التى بلغت فيها تلك المنطقة بحق إلى أقصى درجات الازدهار، فإننا نطلق عليها مسمى "الحقبة الكلاسيكية المتأخرة". وفى كل الأحوال، فان بدايتها تتفق تاريخياً مع تاريخ الأزمة التى قضت على الهيمنة التيوتيهواكانية، وتتفق نهايتها تاريخيا مع تاريخ تلاشى الحضارة الكلاسيكية للمايا. ولكى نكون أكثر دقة، فقد انتهت تلك الحقبة فى عام 909م، وهو آخر تاريخ جرى تسجيله على آثار كالكمول وتونينا.

توقف التأثير التيوتيهواكانى فى منطقة المايا قبل قليل من حلول عام 600 م. كما تلاشت آثار الوجود التيوتيهواكانى من أمريكا الوسطى بأكملها خلال الفترة ما بين عام 600 م. وعام 700 م : إذ تبدد ميناء ماتاكابان الذى كان مركزا للتبادل التجارى، واختفت الخزفيات التيوتهواكانية من منطقة مناجم استخراج مادة السلقون الحمراء (الزنجفر) الموجودة فى سان لويس بوتوسى، كما توقفت التجارة بين موريلوس ووادى المكسيك، أى أن الأمر يعنى فى بضع كلمات قليلة أن عصر تيوتيهواكان قد اضمحل ووصل إلى نهايته. ويبدو أن هذا الانحسار

العنيف للمنظومة التيوتيهواكانية يرجع إلى تولى المدن متوسطة الحال عملية إزاحة عنيفة لتلك الحقبة عندما كانت تبحث لنفسها عن دور أكثر نشاطاً فى شبكات التبادل التجارى. وهكذا، فإن الأمر بدا وكأن مناطق أمريكا الوسطى قد نفضت عن كاهلها ضغوط تلك القوة التيوتهواكانية التى كانت تسعى للتحكم فى الحياة الاقتصادية للجميع. علاوة على هذا، فإن هذه المدينة الكبرى قد فقدت خلال سنوات الأزمة أكثر من ثلاثة أرباع سكانها من البشر.

ويبدو أن اضمحلال التأثير التيوتهواكانى فى منطقة المايا كان قد شكل أحد الاسباب التى أدت إلى تسارع تطور الإقليم، إذ أضحت مدن المايا أكثر رخاءً وهو ما تمثل فيما يلى: المعمار والنحت، كما وصلت الصناعات الصغيرة المتعلقة بالطقوس وأوجه البذخ إلى درجة كبيرة لا سابق لها من التنوع والفخامة. وقد وصل عدد من مدن المايا الرئيسية إلى أوج ازدهارها خلال القرن السابع ومنها: بالينكى التى تقع على سفوح سلسلة جبال تشياباس ومدينة بيـــــيدراس نيغراس (الأحجار السوداء) وياكستشيلان الواقعة فى أوسوماسينتا وتيكال الواقعة فى بيتين وكالاكمول الواقعة إلى جنوب شبه جزيرة يوكاتان. ونحن نعرف الكثير من التفاصيل والسمات عن تلك الحقبة وعن بهائها وروعتها بل وأكثر مما نعرف عن تاريخ مناطق أخرى فى أمريكا الوسطى. وذلك لأن المايا استخدموا أحرفاً مكتوبة ومقروءة قادرة على الافصاح عن لغة الشفاه، كما استخدموا كما ذكرنا نظاماً أو منظومة للتأريخ الدقيق. وأحياناً ما تبدو مدونات المايا فى الحقبة الكلاسيكية مملة، إذ تتحدث عن الميلاد أو التتويج أو إعلان الحرب أو تتحدث عن كلمات مهداة إلى المعبد أو تتكلم عن الموت ...إلخ. ومع هذا، فإن نجاحنا خلال العشرين سنة الأخيرة فى القراءة الكاملة للنقوش والكتابات قد أتاح لنا اكتشاف الكثير من الصور والسمات والخصائص، ووجدنا أن تصرفات أى ملك من الملوك لم تكن بالضرورة تتشابه مع تصرف غيره من الملوك، كما أن كل مدينة لم تكن بالضرورة تحكى تاريخها على نفس منوال غيرها من المدن. وهنالك المئات من حكايات التاريخ التى نستنتجها من النقوش المتاحة أمامنا، والكثير منها يرجع إلى تلك الحقبة التى عاشت الازدهار خلال القرن السابع الميلادى.

وتتيح لنا نقوش ياكستشيلان التعرف على أحد الملوك الذين حالفهم الحظ بشكل خاص، ونعنى به إتزامناغ بالام الثانى الذى استمـــرت فترة حكمـــه من عام 681 م. إلى عـــام 742 م.

إذ يظهر على العتبات العليا للأبواب فى ياكستشيلان كمحارب عظيم وكحامى حمى المدينة. ولقد اتسمت فترة حكمه بالرخاء والازدهار وبطول عمره. فقد كان معمرا مثل والدته، وامتدت به سنوات حياته حتى سن التسعين. وكانت لهذا الملك عدة زوجات، لكن أهم زوجاته كانت السيدة كابال شووك: فقد خصص لها واحدا من أهم وأفخم معابد ياكستشلان وقام أعظم النحاتين الذين جلبهم من مدن أخرى بتزيينه من الداخل. وبعد أن وافت المنية كابال شووك بعد وفاة زوجها بسبع سنوات جرى دفنها فى المعبد الكبير ومعها قربان يتألف من عشرين ألف قطعة من حجر الاوبسيديان الكريم.

ويحدثنا عصر الرخاء عن باكال وعن ابنه كان بالام باعتبارهما سادة بالينكى (وكان يطلق عليها فى ذلك العصر اسم "لاكامها"). وقد فضل الفنانون نقش تاريخه على طبقة من الجص تكسو الحوائط كما نقشوه على أغراض أخرى مصنوعة من الحجارة لكنها لم تتخذ شكل اللوحات الحجرية. وبعد هذا تسلم كينيتش جاناآب باكال الأول – أو باكال العظيم – السلطة من والدته وهو أمر قلما يحدث فى مجتمع يفضل ويعلى من شأن نسل الأب من الذكور. ويبدو أن الأم (وكان اسمها ساك كوك) قد تولت السلطة بسبب عدم وجود ذكور كى يتولوا الحكم. وربما كان آخر أولئك الذكور قد لقى حتفه فى لقاء حربى مروع ضد كالاكمول. وبعد أن حكمت الأم لمدة ثلاث سنوات، تركت السلطة مع نوع من الوصاية لابنها الذى لم يكن له من العمر إلا عشر سنين فقط. وقد نجح باكال فى أن يرفع من شأن المدينة وحقق ثراءً كان كفيلاً بأن يمكنه من بناء أحد أكبر قصور المكسيك القديمة كما شيد ضريحاً أثرياً من أجل رحلته إلى "شيبالبا" أى إلى عالم الأموات : ويطلق على هذا الأثر اسم معبد الكلمات المنقوشة. وبعد أن استتبت الأمور فى عهد كينيتش غاناآب باكال الأول، نجح ابنه كينيتش كان بالام الثانى فى أن يحقق أقصى سلطة وقوة للمدينة كما اقتفى أثر والده فى أعماله فى التشييد والبناء: إذ إليه يرجع الفضل فى بناء مجمع المعابد الثلاثة الشهيرة وهى معابد لاكروز – ومعبد لا كروز فوليادا - ومعبد ديل سول.

وفى فترة معاصرة تماماً لفترة باكال العظيم كان هنالك يوكنوُوم–الرأس ويوكنوُوم العظيم إذ كانا سادة فى كالكمول. كان يوكنوُوم الرأس المتفرد فى شجاعته على تولي زعامة مدينة تعشق الحرب أكثر من غيرها من المدن القريبة. ولقد سعى من أجل إعلاء مكانة مملكته

وسلطته بكل غيرة وحمية لتكون فوق مكانة وسلطة المدن الأصغر. فعندما حاولت مدينة نارانخو الواقعة فى إقليم بيتين فى غواتيمالا أن تتحرر من إصاره، هب جيش كالاكمول من فوره لاخضاعها كما قام يوكنوُوم بنفسه بقتل ملكها. والقصة التاريخية تستخدم "الفعل" كوشاج *kuxaj* للإشارة إلى ما قام به يوكنوُوم إزاء غريمه، وهذا "الفعل" يترجم فى تلك اللغة بصيغتين: إما "عذبه" وإما "أكله". أما وريث يوكنوُوم – الرأس وهو كما نعرف يسمى يوكنوُوم – العظيم فإنه قد وجه جيوش مملكته للقتال ضد تيكال، إما محارباً إياهم بشكل مباشر أو مساندا لأعدائهم.

هنالك دلالة على سلطة وقوة ممالك المايا فى القرن السابع ويمكن أن ندركها من قدرات تلك الممالك على فرض تأثيرها ونفوذها فى مركز أو وسط المكسيك. ومما لا شك فيه أن ذلك التأثير أو النفوذ كان جزءاً من ظاهرة عم انتشارها فى الأقاليم التى كانت تتألف منها دائرة المنظومة التيوتيهواكانية. فلقد توغلت جماعات عديدة فى منطقة الوسط وفى منطقة شمال – وسط فيراكروز وعلى رأسها مدينة تاخين المزدهرة فى هواستيكا وفى الهضبة الوسطى. وتدل الأدوات التى تم العثور عليها فى مدينة تشولولا على تأثير واضح تركته عليها سمات وأنماط منطقة "الخليج" التى كانت تستخدم فى الزخارف والنقوش. وتوجهت كذلك جماعات أخرى من الميكسيك الى تشولولا. ومن المؤكد أنها قد أسهمت فى الإقلال من استخدام بعض العناصر والخطوط الفنية وخاصة فى مستوطنات بويبلا وموريلوس. وقد وشم المايا من جانبهم بصماتهم وتأثيراتهم بصورة حاسمة على حياة طبقة الصفوة فى مدينتين هامتين هما مدينة كاكاكستلا ومدينة سوتشيكالكو. إذ توجد فى الرسومات الحائطية الشهيرة فى كاكاكستلا صور لأشخاص ورموز تنتمى إلى الخليج وتنتمى كذلك إلى مقومات وعناصر الفن التيوتيهواكاتى. غير أن أنماط التصوير وتركيبات المناظر والتعامل مع الأشخاص تتسم بطابع المايا قبل أى شئ، إذ إن الفنانين الذين قاموا بعمل الرسومات كانوا قد اعتادوا – فضلاً عن قطاع من طبقة النبلاء المحليين– السير على نفس درب التقاليد الفنية المتبعة فى حوض نهر أوسوماسينتا.

أما فى حالة سوتشيكالكو، فإن تأثيرات التقاليد الإقليمية تفاجئنا بظهور أوضح صورة لها هناك. إذ إن المظاهر الحضرية الموجودة فيها تتشابه مع ما رأيناه فى مونتى ألبان، غير

أنها تقترب من النهج الذى اتبعه المايا فى إضافاتهم للمجمعات التى جرى إنشاؤها من أجل ممارسة الطقوس وتشييد الحصون. كما أن معمار تشييد المنصات يقوم على نفس أسلوب نقش الألواح وأسلوب البناء على المنحدرات وهو الأسلوب المتبع فى تشولولا، الا أنهم يضيفون فى أعلى البناء إفريزاً طائراً أى منحنياً ناحية الخارج فى الهواء يماثل المستخدم فى تاخين. والزخارف والنقوش الموجودة فى معبد "كيتزالكواتل" هى استنساخ لما هو معمول به فى تيوتيهواكان. إلا أنه مع هذا "الاطراء" لأعمالهم، فإن أبناء سوتشيكالكو تفادوا الاتصال مع تلك الحاضرة التى عفا عليها الزمن واكتفوا بما لديهم من مناجم فى ميتشواكان يتزودون منها بأحجار الاوبسيديان الكريمة، على الرغم من أنها كانت تقع على مسافة أبعد من المناجم الواقعة فى وادى المكسيك. وتظهر تأثيرات "واخاكا" بوضوح فى النقوش التأريخية فى سوتشيكالكو. وعلى الرغم من هذا فإننا نستطيع أن نستشف الجهود الرامية الى إبداع كل مدينة لأنماط تختص بها نفسها. بل والأكثر من هذا فقد وجدنا فى سوتشيكالكو عناصر لأنماط معمارية تماثل تلك العناصر الموجودة فى كاكاكستلا. وليس لهذا تفسير إلا القول بوجود اتصال وثيق مع مجموعات من صفوة القوم ونخبته ممن كانوا على معرفة جيدة بفن المايا. ومما لا شك فيه كذلك أن الأشكال البشرية المنحوتة فى معبد كيتزالكواتل تنتمى إلى التقاليد والعناصر الجمالية التى كان يطبقها المايا وربما كانت تنتمى كذلك إلى أهل "كوبان" البعيدة.

وإزاء الفراغ الذى خلفته تيوتيهواكان، يبدو أن الجميع -كلٌ فى إقليمه- قد اتجه إلى المسارعة فى إعادة بناء خيوط شبكة التبادل التجارى القديمة. لكن تلك الشبكة التى كانت تدار فى العهد السابق من خلال سلطة مركزية بدأت تتجه إلى تكوين مراكز تجمـــع يتقابل فيها أصحاب الصفقات. ولا شك فى أن تلك الحقبة كانت حقبة قلقة مليئة بالنشاط الحربى: ففى حين كانت تيوتينانغو الواقعة عند منابع نهر "ليرما" تأخذ بزمام التطور وكانت تقبع فى جبل يصعب مهاجمته، فإن سوتشيكالكو وكاكاكستلا كانتا قلقتين بسبب وقوعهما أعلى التلال فقامتا بإحاطة مدينتيهما بالخنادق والأسوار. وتحدثنا الرسوم الحائطية فى كاكاكستلا عن كيفية أن الصراع بين الماء والجفاف قد اتخذ شكل معركة ضارية. كما نجد فى هرم كيتزالكواتل نحتاً لأشخاص يظهر على الجزء الأعلى من جسد كل منهم درع كبيره، كما يرتدي كل منهم جرابا فيه بعض الحراب.

اشتدت أيضاً فى القرن الثامن الأعمال الحربية التى جرت فى منطقة المايا حيث وصلت حدتها إلى درجة لم تبلغها قط من قبل. فالنزاعات من أجل تحديد مناطق النفوذ كانت فى واقع الأمر نزاعات تحمل فى طياتها صراعاً من أجل الموارد الاقتصادية وهو ما أدى إلى تصاعد الأعمال الحربية التى لم تتوقف إلا بعد أن تم القضاء على حضارة المايا التى كانت قد ازدهرت على مدى قرون عديدة فى الأراضى المنخفضة. ويمكن أن تفيدنا الأحداث التى وقعت فى منطقة نهر دى لا باسيون ومنطقة بحيرة بيتيكسباتون فى إعطائنا صورة عن زمن تلك الحروب العصيبة. لقد وقع هنالك نزاع إقليمى خلال عقد الستينيات الذى يبدأ فى عام 760 م، وتورطت فى ذلك النزاع كل من دوس بيلاس وأغواتيكا وســــــيبال وأغواس كالييتنيس وأميليا. ووصل الأمر بمدينة دوس بيلاس التى كانت فى ذلك الوقت تتفوق فى القوة والسلطان على غيرها من المدن إلى أن هجرها نبلاؤها. أما السكان الذين بقوا للعيش فيها فإنهم قد بنوا سوراً مزدوجاً يحمى الميادين ومراكز إقامة الشعائر ومر اسم الاحتفالات. كما لجأ سكان أغواتيكا إلى بناء سور لتحسين وسائل الدفاع عن مدينتهم كما اتجهوا للجوء المؤقت إلى إحدى الجزر التى قاموا بتحصينها ثم عادوا إلى مدينتهم الأصلية بعد انتهاء بناء ذلك السور. وبعد انتهاء تلك الأزمة أى حوالى عام 830 م، كانت مدينة سيبال هى المدينة الوحيدة التى تتمتع بنوع ما من الازدهار. ونستطيع أن نؤكد بوجه عام على أن مدن المايا قد بدأت تدخل على مدى سنوات القرن التاسع الميلادى فى غمار أزمات لا حل لها. وكنتيجة لتلك الأزمات، أصبحت تلك المدن مهجورة من أهلها: فقد هجر سكان ياكستشيلان المدينة حوالى عام 808 م. فى حين هجر أهل بالينكى المدينة بعد هذا التاريخ بقليل وهجر سكان تيكال مدينتهم حوالى عام 870 م. أما كالكمول التى بدأت أحوالها فى الانحطاط والتدهور على مدى قرن بأكمله، فإن أهلها قد هجروها فى نهاية المطاف حوالى عام 909 م. وهو نفس التاريخ الذى هجر فيه سكان تونينا مدينتهم.

ويستبعد المؤرخون فى أحدث آرائهم فكرة "الانهيار الغامض" لحضارة المكسيك: إذ إننا نعرف الآن أن الحروب هى التى أدت إلى الكارثة الأخيرة التى حلت بممالك المايا القديمة. ومع ذلك فإنه ينبغى علينا أن نشدد على أن هنالك ما هو أكثر من النزعة الحربية اللامعقولة التى تدير الألباب وتقف وراء تلك المعارك. فمن المحتمل إننا إزاء أقوى تعابير الصراع وأكثرها حدة من أجل البقاء... صراع سكان أحراش غزيرة وفضفاضة فى المظهر، أما

المخـــــــبر فإنه هشٌ حينما يتعلق الأمر بمدى قدرتها على أن تحمل الثقل الذى تشكله كثرة السكان. كان المايا يستغلون فى زراعاتهم تلك الأراضى الخصبة الواقعة على ضفاف الأنهار وكانوا لكى يستفيدوا منها يزودونها بقنوات للرى. كذلك كانوا يزرعون الأراضى الواقعة فى الداخل ونعنى بها الأرض التى كانوا يكتسبونها من الجبال بأسلوب إسقاط الأشجار وحرق النباتات. لقد كانت الأراضى الواقعة على ضفاف الأنهار نادرة وكان لأسلوب "أسقط وأحرق" نقطة ضعفه وأضراره الكبيرة: إذ كان ينبغى ترك الأراضى الناتجة عن هذا الأسلوب بعد سنتين أو ثلاث من استخدامهم لها لكى "تستريح" لأكثر من عشر سنوات حتى تتعافى وتستعيد نباتاتها ومخصباتها الطبيعية.

وجد النبلاء فى الحرب حلاً سهلاً لزيادة مواردهم عن طريق الجزية التى كانوا يفرضونها على المهزومين إلا أن الجهد والوقت الذى كانوا يبذلونه فى هذه الحروب قد ترك أثرهما على النظام السائد بل وعلى عائد الزراعة وخاصة فى المناطق التى كانت تعتمد على الرى من الأنهار. وهنالك أدلة يقينية على أن غذاء فلاح المايا قد بدأ فى التدهور رويداً رويداً خلال العصر الكلاسيكى المتأخر، وذلك نتيجة لانخفاض الإنتاج الزراعى. وربما يعزى هذا أيضاً إلى إجبار تلك المناطق على دفع الجزية أكثر من مرة إلى طبقة رجال الصفوة الذين كانوا لا يشبعون ولم يكن لهم أى حدود فى المطالب حين كان الأمر يتعلق بإثراء المدن الخاصة بهم. من جهة أخرى، كانت هناك مجتمعات أكثر فقراً وأقل تلاحماً فيما بينها وكانت تحكمها طبقة من النبلاء تسعى بلا كلل من أجل زيادة دخلها ومواردها وتحسين أوضاعها من خلال الحرب وهو ما أوصل ممالكهم إلى نقطة حرجة. فلقد سقطت مدن كثيرة فريسة للغزو أو فريسة لاستنزافها كما خوت مدن كثيرة على عروشها بعد أن أدار فلاحوها ظهورهم لنبلائهم وولوا بعيداً عنهم: فلقد كان يكفى أن يغادر المزارعون أراضيهم ويتجهون إلى الجبل لعدة أشهر لكى تجد طبقة النبلاء نفسها بلا أى غذاء...

محاربو كيتزالكواتل

وبعيداً عن منطقة المايا، سنجد مدناً كانت تتمتع بالازدهار خلال العصر الكلاسيكى الوسيط إلا أن نموها وتطورها كان قد توقف جزئياً أو كلياً حوالى عام 900 م، مثل مدن :

تاخين – سوتشيكالكو – كاكاكستلا. أما مدينة تيوتيهواكان نفسها فقد نجت من هذا المصير طوال قرنين من الزمان تاليين على هذا التاريخ واستمرت خلالهما كمركز إقليمى، ثم حاق بها بعد هذين القرنين نفس المصير لتصبح مقفرة خاوية على عروشها. بعد هذا تبدأ الحقبة التى نعرفها باسم الحقبة الكلاسيكية المتأخرة أو الأخيرة التى امتدت حتى تاريخ الغزو الإسبانى.

كانت هناك ظاهرة اتسمت بها تباشير الحقبة الكلاسيكية الأخيرة ألا وهى الهجرة من مستوطنات شمال أمريكا الوسطى، وذلك فى صورة تدفق سكانى كبير نحو الجنوب. ونجد أن الكثير من الشعوب التى كانت تعيش على مدى قرون من الزمان فى باخيـــو وفى مرتفعات خاليسكو وفى سلسلة جبال سييرا مادرى الغربية قد سلكت طريق الهجرة نحو أودية بويبلا – تلاكسكالا والمكسيك وتولوكا ونحو هضبة تاراسكو. وكانت غالبية هؤلاء من الناهواس. إلا أنه يبدو أنه كانت هنالك عناصر أخرى من البام وربما بعض العناصر من البوريبيتشا، ويشار إليهم جميعا فى المراجع التى تتحدث عن العصر الاستعمارى تحت مسمى "تشيتشيماكاس". وكانت هذه الطائفة من بنى البشر قد اعتادت أن تعيش بالقرب من حدود الحضارة فى مناطق وعرة موحشة يرتادها صيادون وقاطفون وجامعون لما يقتات به. أما إذا تساءلنا عن وضعهم بالنسبة للقيادة العسكرية، فسنجد أن تلك المجموعات المغرمة بالقتال كان المحاربون منهم يتولون أعلى الدرجات الاجتماعية.

كان الوضع السائد خلال حقبة "ما بعد الحقبة التيوتيهواكانية" يتسم بالنزاعات المستمرة والميول القتالية التى كان يتسم بها القادمون من الشمال وهو ما أدى إلى أن تبرز الحرب فى بؤرة الحياة العامة لمدن العصر الكلاسيكى المتأخر. ويظهر المحاربون فى هذه الحقبة وقد خلعت عليهم ألقاب دينية، كما كانت المعارك تشن باسم الآلهة. وكانت الأضحيات البشرية تتم بعد الحملات الحربية باعتبارها ضرورية لسير النظام الكونى. كذلك وصلت صورة المحاربين ومرتبة الوجاهة الاجتماعية التى يحظى بها المحاربون إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وكانت الأوسمة التى تتحلى بها الصفوة العسكرية وخاصة وسام النسر والنمر الأمريكى بمثابة مكرمة جوهرية ويفتخر الملوك بها أيضاً. وكان وقوف النسر ونمر الجاجوار متحفزين متقابلين شائعاً فى نقوش الحقبة الكلاسيكية المتأخرة: فلقد كانت بمثابة "الكـــنـاية" المفضلة لمجتمع اعتاد أن يستخدمها ككناية عن الحرب.

على الرغم من هذا فلم يكن يتم حل كل النزاعات من خلال اللجوء إلى السلاح، كما لم يكن من الممكن أن تظل تلك المجتمعات على قيد الحياة لو ظلت تكرس نفسها إلى الأبد من أجل الحرب. فالواقع أن ممالك الحقبة الكلاسيكية المتأخرة قد سعت إلى ترسيخ الاستقرار وإدارة أمور النزاعات عن طريق التحالفات والاتفاقيات الدبلوماسية. وجرت العادة على أن تكون التحالفات ثلاثية الأطراف وأحيانا رباعية الأطراف، والهدف منها هو السعى لتنظيم السيطرة السياسية على الأقاليم مع الاعتراف لكل متحالف بنفوذه على منطقة بعينها وعلى سكان بعينهم، على أن يقسم بينهم العائد الناجم عن إجمالى الجزية المفروضة. ومن أشهر تلك التحالفات ذلك التحالف الذى نعرف أنه كان قائماً بين تشيتشين إيتزا – أوشمال – مايابان فى شبه جزيرة يوكاتان، وتحالف إهواتزيو – باتزكوارو – تزينتزونتزان فى ميتشواكان، وتحالف تينوتشتيتلان – تيتزكوكو – تلاكوبان فى وادى المكسيك. وعلاوة على تلك التحالفات بين "الأصدقاء" كانت هنالك أيضاً اتفاقيات مؤقتة كانت تسمح بقيام علاقة دبلوماسية بين ممالك تعيش فى حالة عداء مع بعضها. وفى هذا الصدد فقد كان من اللافت للاهتمام بشدة قدوم بعض السادة من علية القوم إلى ميتشواكان لحضور أعياد تتويج الميخيكاس، وبعد مشاركتهم طوال عدة أيام فى مآدب الطعام ومظاهر اللهو والترويح يعودون إلى أرضهم، لكن علية القوم من التاراسك على سبيل المثال كانوا بعد العودة إلى أرضهم يستأنفون عداءهم الصريح ضد وادى المكسيك – تينوتشتيتلان وحلفائهما.

كانت مدينة تولا هى أهم المدن فى مشارف سنوات الحقبة الكلاسيكية المتأخرة (من عام 900م إلى عام 1200م) وهذه المدينة تقع الآن فى ولاية هيدالغو: وقد امتزجت فيها جرأة وإقدام وشجاعة محاربى التشيتشيميك مع تقاليد وأعراف بعض أبناء الناهواس الجنوبيين الذين ورثوا تيوتيهواكان. ففى تولا كان المحاربون هم أبطال المشهد: لقد كانوا يحتلون قمة أهم أعلى بناية فى المدينة، وكان يزين قاعدة هذه البناية طابور على هيئة مسيرة تتألف من ذئاب ونمور الجاجوار ونسور وكلٌ منهم يقبض بين فكيه على قلب تسيل منه الدماء. وتكتسب ساحات لعب الكرة أهمية كبرى فى تلك المدينة. ومن المحتمل أنها كانت مسرحاً لمشاهد عن طقوس حربية كانت إيقاعاتها ترتفع لتكون قمتها هى قطع رءوس أسرى الحرب. وكانت تولا كذلك هى أول مدينة فى أمريكا الوسطى يظهر فيها استخدام مقبرة *تزومبانتلى* البشعة وهى عبارة عن مستودع ضخم كان يتكون كل عارض أو قطوع فيه من رءوس البشر منظومة على

هيئة عقد. وكان هذا النوع من المقابر أحد إسهامات شعوب التشيتشيميك خلال آخر القرون التى شهدت وجود تلك الشعوب، وهو ما أرّخت له المصادر التى تتحدث عن أمريكا الوسطى. وكانت تولا كذلك هى أول من استخدمت من المدن الرواق المخصص للنُصب التذكارية، حيث كان يتألف من عدد من الأعمدة الضخمة المتوازية ومذبح يتخذ هيكله هيئة إنسان ويعرف باسم *تشاك–مول*. وكلاهما يضربان بأصولهما وجذورهما إلى شعوب المستوطنات القائمة فى جبال المنطقة الغربية.

لم يكن نجاح تولا على نفس مستوى مدينة تيوتيهواكان بل كان متواضعاً على الرغم من الثقل السياسى والعسكرى الذى كان كافياً لإعطاء دفعة لها، فضلاً عن طرق التبادل التجارى التى كانت تمر عبرها وتصل إلى مسافات بعيدة فى اتجاه الجنوب، حيث تصل إلى عدة مدن تقع فى أمريكا الوسطى، كما تمتد منها أيضاً طرق تتجه إلى الشمال لتصل على أقل تقدير إلى سينالوا.

وقد تم العثور على أدوات ينتمى مصدرها إلى أمريكا الوسطى وذلك فى مستوطنات الواحات الزراعية الواقعة فى نويبو ميخيكو (المكسيك الجديدة) مثل مستوطنة بويبلو بونيتو وفى إلكانيون ديل تشاكو ويبدو أن تلك الأدوات تعود إلى عصر التولتيك، مع أنه لا يمكن أن نحدد بالتأكيد إذا ما كانت قد وصلت كنتيجة لذلك التبادل التجارى الذى تقوم به تولا أو كنتيجة لأعمال إحدى شبكات التجارة الإقليمية. ونحن نعرف أن القرى الزراعية الواقعة فى مسار نهر سونورا كانت تقوم بالتجارة مع شعوب سلسلة جبال سييرًا مادرى، كما توجد أدلة على وجود اتصالات بين سكان سلاسل الجبال فى تشيهواهوا وفى دورانغو وبين مزارعى أريزونا ونويبو ميخيكو (حالياً: نيومكسيكو). وكانت مستوطنة باكيمى الواقعة فى الطرف الشمالى للأراضى التى تشكل الحدود المكسيكية الحالية هى أكثر المستوطنات تكاملاً فى مقوماتها (ويطلق عليها كذلك اسم كاساس غرانديس وهى تقع فى ولاية تشيهواهوا). وقد شيد مجمعا سكني ضخم بالطوب اللبن فى تلك المستوطنة يضم العديد من العائلات ووصل ارتفاعه إلى أربعة أدوار كما كان يتمتع بنظام للتدفئة ونظام للصرف الصحى. وكانت تحيط به منصات وميادين لإقامة المراسم والشعائر الدينية. وهناك احتمال كبير بأن باكيمى كانت محطـاً هاماً للرحال فى طريق الجماعات التى كانت تحمل منتجات أمريكا الوسطى إلى مناطق الشمال. كما لم يكن مستحيلاً

على التجار القادمين من تولا أن يصلوا إلى باكيمى، على أقل تقدير تحت جذب وإغراء مصا التركواز الموجودة فى نويبو ميخيكو وكانت تجارتها رائجة فى ذلك الإقليم.

ولقد حدث للتولتيك نفس ما حدث لأبناء تيوتيهواكان، إذ كان للتولتيكيين حضوره الهام فى إقليم المايا، على الرغم من أنه من الصعب فى هذه الحالة أن نحدد بدقة كيف حدث العلاقة بين المايا وبين التولتيك. عادت مدينة تشيتشين إيتزا الواقعة فى شبه جزيرة يوكاتا لكى تظهر من جديد حوالى عام 900م، وذلك على جانب من جوانب المدينة التى كانت قائمة خلال عصور المكسيك الكلاسيكية. فقد بعثت للحياة مرة أخرى فى هيئة شخوص ومنحوتا تولا الرئيسية، كما يتبدى هذا فيما يلى: الرواق ذو الأعمدة العالية المشيد على شكل حرف (L) – معبد المحاربين الذى تقف على قمته حيـّـتان ذواتا ريش وتنتصبان وتتخذان شكل الأساطين، وتؤديان إلى بهو مسقوف. أما الأعمدة فقد نُحتت عليها شخوص لمحاربين – التشاك مول – أما الأفاريز فإنها عبارة عن نسور ونمور الجاجوار بل وفيها نحتت تلك المقبرة البشعة (*تزومبانتلى*) التى يظهر فيها ذلك العقد التولتيكى المنظوم بالجماجم. أترى أن من أعا بناء تشيتشين إيتزا هم من أبناء التولتيك المهاجرين؟!... أم كانوا من مجموعات قوية من التجار من نسل المايا (وكان قد جرى العرف على أن يطلق عليهم اسم البوتون) ممن كانوا يرتادون مدن الناهواس فألفوها واعتادوا عليها؟!... الواقع أن ما ينبغى علينا أن نستبعده تماماً هو أن فن المعمار الذى اتسمت به تلك المدينة الجديدة قد جرت خطوطه على يد من يجهل فن المعمار وأساليبه المطبقة فى تولا...

لقد أصبحت تشيتشين إيتزا حتى عام 1300م. هى الأقوى سلطاناً وشأناً فى شبه جزيرة يوكاتان على الرغم من أنها قد مارست سلطتها وهى فى تحالف مع أوشمال ومع مايابان. وقد تخلت مايابان عن تحالفها مع تشيتشين ايتزا وسيطرت على الإقليم وذلك حتى عام 1450م، ويبدو أنها كانت سيطرة استبدادية. مع ذلك فإن مكانة تشتشين إيتزا ومكانة طبقة الصفوة فيها التى كانت تسعى للإصلاح وكانت تعرف باسم كوكولكان (وهو اسم يوكاتيكى كان يطلق على كيتزالكواتل) قد استمرت حتى قدوم الغزو الإسبانى.

وبغض النظر عن الآثار المادية التى قدمتها لنا تولا فإنها قد قدمت لنا أيضاً لوحة المجد الذى توج هامتها ورفعها على بقية شعوب أمريكا الوسطى، فقد تجاوزت شهرتها شهرة أبناء الناهواس كما ظلت مرتبطة بالسلطة السياسية وبفكرة الحضارة.

حدث أمرّ مختلف مع ذلك الإله الأسطورى : الإله كيتزالكواتل، رب التولتيك. فقد كان يقال مثلاً إن أول ملك من ملوك المايا الكيتشي فى غواتيمالا كان تنصيبه على العرش على يد كيتزالكواتل الذى كان أبناء الكيتشى يطلقون عليه اسم الإله كوكوماتز. كذلك فقد كان أبناء الميكسيتيك يرجعون الفضل فى تأسيس مملكتهم التى كانت تتولى الحكم خلال العصر الكلاسيكى المتأخر إلى كيتزالكواتل. ويشير المايا والميكسيك على حد سواء إلى تولا فى حكاياتهم، إذ يؤكد المايا على أن أسلاف ساداتهم قد أتوا من تلك المدينة. كما يقول أبناء الميكسيك إن الملك الفاتح العظيم أوتشو بينادو- نمر الجاجوار- كان قد سافر إلى تولا حتى يتم تثبيته على عرشه. وتشير غالبية شعوب الناهواس فى القرن السادس عشر إلى تولا باعتبارها الموطن الأصلى للفصائل الحاكمة من بنى جلدتهم: سواء كانوا من التشالكا أو من التيــــتزكوكان أو من التشولولتيك، أو من الكواوهتينتشانتلاك فضلاً عن الميكسيك بطبيعة الحال وغيرهم.

إن تفسير التأثير العميق الذى تركته تولا وكيتزالكواتل على أفكار ومفاهيم شعوب أمريكا الوسطى لا ينبغى أن يقتصر على النظر إليه من خلال منظار التعاملات التى كان يقوم بها التولتيك من أبناء تولا وهيدالغو أو منظار منشآتها التجارية وقوتها العسكرية. بل هنالك شئ آخر: فكلمة تولا (وهى تنطق بلغة الناهواتل الصحيحة تولّان *Tollan*) تعنى منطقة نبات الخيزران حيث كانت تكثر تلك النباتات فيها وهى تسمى بلغة الناهواتل تولّـــــين *Tollin*. واستعارة هذا اللفظ قد أسبغت صفة تميــز مكانا معينا فى هذا الكون يقطنه إناس. وتظهر هذه الكلمة فى المصادر التى تتحدث عن التقاليد المتعلقة بالسكان الأصليين للبلاد خلال العصر الكولنيالى أى العصر الذى احتل فيه الإسبان البلاد، حيث تستخدمها فى الإشارة إلى مدينة أسطورية رائعة تسكنها آلهة مثل الإله كيتزالكواتل والإله تيزكاتليبوكا. كما استخدمت كذلك للكناية عن سلسلة من المدن سواء كانت منها القائمة حتى الآن أو غدت من المدن التاريخية مثل تشولولا ومدينة كولهواكان ومدينة تينوتشتيتلان ومدينة تولا نفسها الواقعة فى ولاية هيدالغو الحالية.

لكن ما كانت تتميز به تولا الحقيقية والمدن الأخرى التى كانت تكنى أيضاً باسم تولا هو أن الرخاء كان يشيع فى جميع أرجائها وأنها كانت تتميز باتساع نطاقها الحضرى وارتفاع مستوى درجة حضارتها وتديــن حكامها وارتفاع مستوى المعرفة فيها. لقد كانت تولا تعنى الفخامة والروعة وتعنى كذلك الأبهة التى انعكست على كل المدن التى كانت تكنى بهذا الاسم. ومن المحتمل جداً أن النموذج الأمثل لكل مدن تولا كان متمثلاً فى أعظم وأقوى وأكثر مدن المكسيك القديمة رخاءً ألا وهى مدينة تيوتيهواكان التى شهدت بواكير مشرق التقاليد والأعراف الحضرية للناهواس كما شهدت عبادة الإله كيتزالكواتل. ففى تولا هيدالغو ترسخت دعائم تلك الأسطورة الدينية القديمة التى يبدو أنها قد أفرزت عدة أفكار جديدة تتعلق بممارسة السلطة: كان الحاكم فى تولا يحمل اسم الإله كيتزالكواتل، وكان له اختصاص تثبيت ملوك المدن الأخرى فكان يقوم بهذه المهمة بثقب الحاجز الأنفى لكل منهم مرة بمخلب نسر وأخرى بمخلب نمر الجاجوار.

يعكس اتــباع أبناء المايا والميكستيك للمفاهيم السائدة فى تولا واتباعهم للإله كيتزالكواتل مدى تأثير الناهواس فى الجنوب. وكان هذا التأثير قد بدأ فى الحقبة التيوتيهواكانية إلا أن نتائجه السياسية والدينية قد تجلت فى حقبة التولتيك. وعليه فإن الإله كوكولكان الذى اختص به المايا أنفسهم كان يمكن اعتباره "الرب" فى تشيتشين إيتزا أيضاً بالإضافة إلى كونه الرب فى تولا التى يذكرها أبناء الميكستيك فى مصادرهم تحت اسم تشولولا (تولاَن تشولولاَن *Tollan Chollolan*). وهذه المدينة التى ظلت متمسكة بتقاليدها التيوتيهواكانية لقرون عدة، حافظت على صلات وثيقة مع واخاكا، كما اشتهرت فى الحقبة الكلاسيكية المتأخرة بكونها قدس الأقداس الرئيسى للإله كيتزالكواتل.

وفى واقع الأمر لقد كانت هنالك أكثر من مدينة يطلق عليها اسم "تولا"، بل وكان هنالك كذلك أكثر من كيتزالكواتل. كما أن عدة ممالك فى أمريكا الوسطى كانت على الأقل فى الحقبة الكلاسيكية المتأخرة جزءاً لا يتجزأ من هذا التاريخ، وكانت نفس رموز تولا جزءاً لا يتجزأ من استراتيجيتها التى تضفى الشرعية على وجود الملوك فى السلطة... وتلك الممالك كان عليها كذلك أن تعلن اعترافها برأس السلطة الأكبر الذى يخضعون له، وكانوا يقدمون فروض الولاء والطاعة له ولشجرة النبلاء المتفرعة عنه.

وإذا كان الميخيكاس يعــرفون تولا هيدالغو بأنها مدينة كيتزالكواتل المقدسة ويولونها أهمية تاريخية أكبر من تلك التى كانوا يولونها إلى تشولولا أو إلى تيوتيهواكان، فإن هذا مرجعه إلى أنها كانت مدينتهم الكبرى بل وكانت بمثابة تولا التى يختصّونها لأنفسهم. ولقد كان الميخيكاس الذين شكلوا جانبا من الأقاليم الشمالية لمملكة التولتيك (وربما كانوا يعيشون فى منطقة كيريتارو) قد هبطوا من الشمال متجهين إلى وادى المكسيك عندما حاقت الأزمات بحاضرتهم فهجروها، وذلك قبل عام 1200م بقليل. وكان الميخيكاس فى أيام عظمة تولا وتألقها يطــوفون بتلك المدينة القديمة التى عاش فيها الاتلانتيس والتشاك – موول، مستكشفين ومتنمــرين بحثاً عن أية قطعة أو أى شيء مما كان يقدم كقرابين فى تينوتشتيتلان. كما كانوا يجدون الإلهام فى النقوش والزخارف الموجودة فى تلك المدينة المهجورة ليستلهموا منها ويبدعوا أعمالهم الفنية الخاصة بهم. لقد كان الميخيكاس هم من ورثوا مباشرة حضارة تولا أما تيوتيهواكان فإنهم كانوا يرجعونها إلى ذلك الزمان السحيق،... ذلك الزمان الذى خــلق فيه العالم.

ويرجع انهيار تولا إلى حدوث نزاعات خطيرة، ويبدو أن هذا الانهيار ربما كان قد وقع حوالى عام 1200م. تقريباً وهو العام الذى يعد بداية الحقبة الكلاسيكية المتأخرة، وهى حقبة انتهت بالغزو الإسبانى للبلاد.

سادة المياه

كانت الحياة فى وادى المكسيك عشية الغزو الإسبانى تتسم بازدهار حضارى هائل. وكانت هنالك مدن كثيرة وكانت جميعها مأهولة بالسكان. وتحدثنا أخبار ذلك الوادى عن التجمعات البشرية فى الشوارع وعند مصادر المياه وتحدثنا عن صخب الميادين التى تنعقد فيها الأسواق، مثل تلك التى كانت فى كل من : تشالكو – أتينكو وفى سوتشيميلكو وفى كويواكان وفى كولهواكان وفى إتزتابالابا وفى تيتزكوكو وفى تلاكوبان وفى أزكابوتزالكو وفى ميخيكو (المكسيك)- تينوتشتيتلان وفى ميخيكو- تلاتيلولكو وفى غيرها من عشرات المدن المتوسطة الحجم مثل مدينة كواتلينتشان ومدينة ميكسواك أو تاكوبايا. وكان يعيش فى تلك المراكز الاستيطانية القائمة فى وادى المكسيك ما يزيد قليلاً على مليونين من البشر.

كانت غالبية تلك المدن تحت سيطرة شبكة نبلاء من سلالة الناهواس غير أن الكثير من تلك المدن كان يحكمها من ينتسبون إلى أعراق أخرى غير الناهواس مثل أعراق الاوتومي والماتلاتزينكا. وكان الناهواس يستخدمون مصطلح أو لفظ "ألتيـــبيتل" (وهى تعنى ربوة أو أكمة تتمتع بوجود المياه فيها) وذلك للإشارة إلى تلك المدينة بكل ما فيها من أراض وبشر. وكان يحكم أبناء "ألتيبيتل" من كانوا ينادونه باسم أو مصطلح "تلاتوانى" أى الملك، وكان يستعين فى أمور المُـلك بطائفة تتولى الإدارة وتتألف من القضاة والمحصلين والعسكريين والإداريين. وعلى الرغم من أن كل مدينة كانت تتمتع باستقلالية ذاتية كبيرة إلا أنه كانت هناك ثلاث ممالك تتمتع بمرتبه أعلى من غيرها من الممالك، وكانت هى التى تتولى تحصيل الجزية من غيرها من الممالك كما كانت هى التى تستدعى المدن الأخرى للمشاركة فى الحروب أو فى القيام بالإنشاءات العامة. والثلاث ممالك هى : مملكة تلاكوبان – مملكة تيتزكوكو – مملكة ميخيكو (المكسيك)– تينوتشتيتلان، وكانت هذه الأخيرة هى المملكة الأشهر فى ذلك التحالف الثلاثى الذى شهده العصر الكلاسيكى المتأخر. ولم تكن تلاكوبان تتحصل إلا على مقدار الخُمس من إجمالى الجزية التى كانت الممالك الأصغر تقوم بتحصيلها، كما كانت لا تشكل إلا ثقلاً محدوداً فى التحالف، فى حين كانت تيتزكوكو تتمتع إلى حد كبير بعلاقة الند للند مع تينوتشتيتلان فى كل الأمور فيما عدا شن الحرب، إذ إن لواء القيادة الحربية لقوات التحالف كان معقوداً لقادة الميخيكاس.

كان التحالف الثلاثى ضرورياً، إذ لم يكن فى مقدور أى مملكة من ممالك وادى المكسيك أن تدير بمفردها تلك المنظومة المعقدة من الطرق والميادين التى تنعقد فيها الأسواق ثم جباية الجزية من الأقاليم الأخرى فضلاً عن إدارة شبكة التكليفات والالتزامات التى يقوم بها أقرباء الملك من النبلاء. ولم يكن الأمر يتعلق وحسب بالقدرات الإدارية وحدها فقد كان من الضرورى أيضاً احترام السلطة التقليدية التى تمارسها الممالك على بعض المدن والتجمعات العرقية. وهذا يعيننا على أن نفهم لماذا قام الميخيكاس والتيتزوكانوس الذين كانوا قد انتصروا لتوهم على التيباتيكاس من أهل أزكابوتزالكو بدعوة من تلاكوبان للانضمام إلى التحالف – رغم أن تلاكوبان كانت مملكة تتبع التيباتيكاس– ولذلك كان من الضرورى الأخذ فى الاعتبار أن لأبناء التيباتيكاس اليد العليا على شعوب غرب الوادى وشعوب منطقة تولوكا وخاصة فى ماتلاتزينكاس. علاوة على هذا، فإن سوق ميدان أزكابوتزالكو كان له دور حاسم فى اقتصاد الوادى.

كانت الكثافة السكانية والتداخل الحضرى فى وادى المكسيك فى بداية القرن السادس عشر يقومان على الزراعة التى وصلت آنذاك إلى قمة الازدهار. ولم تتحدث المصادر الكولونيالية للاستعمار الإسبانى التى تحكى بالتفصيل عن الفترة السابقة على تبعية البلاد للتاج الإسبانى إلا عن مجاعتين فقط نجمتا عن فترات جفـــــاف وقحط طويلة. وكان العائد العالى للمحاصيل الزراعية يرجع فى الأحوال العادية إلى تعميم استخدام الرى فى قطع من الأراضى لها حدود ثابتة وإلى استخدام البساتين الخاصة فى أراضى الجزر وعلى شواطئ البحيرات فى إنتاج الخضروات والزهور. وكان السكان يهجرون الأراضى إذا حولتها المياه إلى أوحال تغطيها الطحالب أو إذا غطتها المياه الآسنة العفنة. كذلك كان المزارعون يستخدمون المشاتل التى كانت تتيح زراعة صنف واحد فقط فى كل قطعة أرض.

كانت المحاصيل الزراعية التى ينتجها الناهواس فى العصر الكلاسيكى المتأخر هى نفس المحاصيل التى كان يزرعها التيوتيهواكانيون والتولتيك وغالبية شعوب أمريكا الوسطى، مثل: الذرة والفاصوليا السوداء والبيضاء (فريخوليس) والقرع العسلى (خاصة من نوع *Cucúrbita pepo*) والفلفل الحار وأنواع عديدة من الطماطم (البندورة) والمَريمية (قُويـــــسة)، ونبات القطيفة (أمارانتو) وغير هذا من المحاصيل. علاوة على هذا فإن وادى المكسيك كانت له موارده غير الزراعية التى يتغذى عليها السكان، مثل : أنواع كثيرة من الأسماك – الطيور – الضفادع – الحشرات المختلفة – الثعابين – الارانب – الوعول، وكثير غيرها. وكان الملح موجوداً فى المنطقة العميقة من البحيرة (فى قطاع تيتزكوكو) كما كان من الممكن زراعة صبار الماجيـــــى فى الغابات القريبة من المدن التى كانوا يحصلون منها أيضاً على الحطب. وكانت فاكهة الزعرور المكسيكية والكريز مكملتين لمنظومة المنتجات الزراعية لتلك المنطقة.

يتمتع رعايا كل مملكة بالاكتفاء الذاتى من خلال إنتاجهم الزراعى بالاضافة إلى جباية الجزية من القرى والمستوطنات التى تدخل فى دائرة نفوذ كل مملكة. فقد كان على كل منتج فى أى مستوطنة أن يؤدى إلى سادته نصابة من الجزية على هيئة سلع، إضافة إلى إجباره على المشاركة فى الحروب وفى الأشغال العامة الخاصة بالمرافق. أما الممالك الكبيرة مثل تلك التى كانت منخرطة فيما بينها فى تحالف ثلاثى فإنها كانت تتلقى الجباية من مختلف الأقاليم الأصغر

منها كما كانت تملأ مخازنها من ريش طيور الكيتزال المكسيكية وببغاوات غواكامايا ومن الذهب والجواهر المشغولة والاردية المزينة والقطن وأحجار الجاد الكريمة والكاكاو وغير هذا من المنتجات. تلك الخيرات التى تتسم بالبذخ والترف كان يجرى الاحتفاظ بها فى تلك المخازن ليتمتع بها النبلاء ولاستخدامها فى الأعياد الدينية.

كان يجرى تقسيم السكان فى مدن الناهواس الواقعة فى وادى المكسيك إلى قسمين اجتماعيين أساسيين : طبقة النـــبلاء ويطلـــق عليـــها فى لغتهم بيبـــيلتين ومفردها بيلّى *(pipiltin- pilli)* ثم عامـــة الناس أو ماسيهـــوالتين ومفردهـــا ماسيـــهوالّـــى *(macehualtin – macehualli)* وكان الفرد يصنف من طبقة البيلّى أو من طبقة الماسيهوالّى طبقاً لمكان الميلاد. كما كان من الممكن –ولكن فى حالات خاصة جداً– أن ينضم أحد الماسيهوالى إلى طبقة النبلاء بسبب درجته العسكرية أو بسبب بلائه فى الحرب بلاء حسناً. وكانت طبقة الماسيهوالّى تتكون من المزارعين وصيادى الأسماك والحرفيين والعمال الذين يعملون فى مختلف المجالات، وكان عليهم أن يدفعوا الجزية للنبلاء. أما طبقة البيلّى فقد كانوا يتولون أعمالا تتعلق بالحكم وتسيير أمور العدالة وترتيبات الحروب وإقامة الشعائر الدينية. وكانوا يتعيشون من الجباية التى كانوا يفرضونها على الماسيهوالّى ويسلمونها إلى القصر، حيث كان يتولى مهمة توزيعها عليهم بصفة دورية من يطلقون عليهم اسم الجابى (تلاتوانى *tlatoani*)، كما كان بعض أبناء طبقة البيلّى يتلقون أموال الجزية مباشرة وبأنفسهم، وكذلك كان الحال بالنسبة لرجال القضاء إذ إن بعض الأراضى كانت مرتبطة بتلك الوظيفة. بل وكان هنالك أيضاً من يحوز بعض الاقطاعيات وكان من حقه التصرف فيها بالبيع أو بالتوريث، ونعنى بهم الضباط المتميزين فى الأعمال الحربية وبعض النبلاء الذين كان المسئول "التلاتوانى" يسعى لمحاباتهم، فأبناء كلتا الفئتين كانوا يستحوذن على تلك الأراضى لكى يتمتعوا بإنتاجها وبالخدمات الشخصية التى يقدمها لهم الفلاحون الذين يسكنون فى تلك الأراضى ويشتغلون فيها.

أما التشريعات المعمول بها فى ذلك الوقت فقد كانت تكرس الفوارق بين الطبقات كما كانت تسهم فى ترسيخ وتقوية مكانة النبلاء وسلطتهم. وكان النبلاء يستخدمون ملابس وجواهر وحلياً كانت محرمة على عامة الناس. بل وحتى إذا ما افترضنا أن أحد أبناء

الماسيهوالّى قد تمكن من شراء إحداها من الأسواق فإنه لم يكن فى استطاعته أن يتمتع باستخدام الحلى المصنوعة من حجر الجاد الكريم لأنه لو تحلى بها فإن جزاءه سيكون الموت... وكانت ملابس النبلاء من القطن ولم تكن من الألياف الخشنة التى يرتديها عامة الناس. كما كانت مساكن النبلاء تنم عن الثراء وتتسم بعلو طوابقها وبالزخارف التى تزينها. وكان النبلاء يستطيعون الزواج بأكثر من زوجة، وذلك على عكس أفراد الماسيهوالّى، كما كانوا ينامون على سُـــرُر مريحة عليها مراتب من الريش ووسائد وملاءات من القطن ومن جلود الوعول. أما الماسيهوالّى فقد كانت حياتهم تتسم بالتقشف.

وعلى الرغم من هذا فإن ذلك التقسيم الطبقى إلى طبقتين كان يتسم بسلسلة من الاستثناءات والخروج عن القواعد المعمول بها. فأصحاب الحرف الزخرفية لم يجبروا على العمل فى الأشغال العامة ولكن كان عليهم أن يقوموا بسداد الجزية على هيئة سلع بل والأكثر من هذا فقد كان منهم من يتمتعون بمنزلة كبيرة جداً ويرتبطون بالقصر وكانوا يسعدون بالعيش الهانئ الذى وفره لهم ارتباطهم بسادتهم. وكذلك كان التجار لا يؤدون الجزية، كما كانوا لا يجبرون على الذهاب للحرب مثل بقية الماسيهوالّى: فلقد كانت خدمتهم للمملكة تقوم على عمل حساس ألا وهو التجسس على المدن المجاورة التى كانوا يسافرون إليها دون إثارة الريبة فيهم أو المخاوف منهم. أما المحاربون من الصفوة من "كتائب" النسور ونمور الجاجوار والذئاب ومحاربى كتيبة الاوتومى فقد كانت لهم حياتهم المتفردة: لقد كانوا يندفعون إلى المعارك بشجاعة تفوق العقل وكثيراً ما كانوا يلقون الموت فى ساحة القتال أو على منصة الأضحية الحجرية على أيدى المقاتلين من الجانب الآخر. أما فى أيام السلم فإنهم كانوا يتمتعون بحياة متميزة تنم عن عرفان وامتنان فريد لهم، فكانت حياتهم حياة صاخبة لا تخلو من الرقص وشرب الكاكاو والتمتع بصحبة سيدات البلاط الملكى، وعندما يصل أحدهم إلى سن الشيخوخة، فإنه كان يكرس وقته لتعليم الشباب فى المدارس.

وكان من بين الفلاحين من يزرع الأرض باعتباره مالكاً لها بسبب انتمائه إلى أحد أحياء الـــ "كالبولّيس" (الحى الذى كانت تنتمى إليه إحدى العشائر) حيث كان الاعتراف به كحى من هذه الأحياء يرجع إلى كونه من أحياء ربَوات "التيبيتل". أما العمال الذين كان يقيمون فيها فكان يطلق عليهم فى بعض المصادر اسم كالبوليكى والمفرد منـــها كالبولى *(calpuleque – calpulli)*

calpule) وكانوا يسددون الجباية إلى المحصل (تلاتوانى) المكلف بهم. غير أنه كانت هنالك من بين الفلاحين من كانوا يعملون ويعيشون فى الأراضى التى تعرضت للغزو وجرى منحها كإقطاعيات إلى نبلاء أو إلى ضباط فى الجيش. ويطلق على أولئك الفلاحين فى بعض المصادر اسم مايـــيكى *(mayeque - maye)* والمفرد منها مايـــى ومعناها (واضع اليد)، وتشير الوثائق الكولونيالية (حقبة الاستعمار الإسبانى) إلى أن حال أبناء هذه الفئة كان أسوأ من حال الكالبولى. ويعزى هذا فيما يبدو إلى عبء الجزية الثقيلة التى كان عليهم أن يؤدوها إلى النبيل الذى يتولى أمر الأرض، سواء على هيئة بضائع أو مقابل العمل. ولقد وسمت بل وأثرت هذه الفئة من البشر ذلك السلّم الاجتماعى الذى كانت تعيش فيه فى ظروف مزرية وصلت فيها إلى الحضيض وكانت أسوأ وأتعس من تلك التى كان يعيش فيها عامة الماسيهوالّى. وقد وفرت المدن الغاصة بالسكان خلال العصر الكلاسيكى المتأخر ملجأً بين سكانها لمتشردين وخارجين على القانون وأشرار من كل لون. والواقع أن كل فرد منهم كان يعيش ويخضع لمجتمع ينتمى إليه ويحتمى به، ولكنه عندما ينفصل عنه كان من الصعب عليه أن يندمج فى مجتمع آخر ومن ثم فلم يكن لديه إلا خيار واحد ألا وهو أن يعيش مشرداً. وكان يمكن كذلك أن يحدث نفس الأمر عندما يقوم أحد المراهقين بالهروب من بيت والديه أو عندما يرتكب شخص ما جريمة فيقرر الهرب من المدينة ومن العدالة، بل وكان المجتمع أو المدينة أحياناً تطبق عقوبة الطرد أو النفى من المدينة على من يرتكب خطأً كبيراً. ومن ثم فقد أدى هذا إلى أن تظهر فئة الحمالين أو الـ "تاميميس" (وتعنى الحمال) وفئات الشحاذين وبائعات الهوى واللصوص وقطاع الطرق الذين تذكرهم تلك المصادر. وهناك بعض الحكايات التى تعرض لنا فى صورة درامية كبيرة حكايات أولئك الأشخاص الذين يرتدون ثياباً رثة، وشعرهم أشعث أغبر وأجسادهم متقرحة ويسيرون مترنحين فى الشوارع وينامون نومة سقيمة، أو كانوا من السكارى. وجميعهم كان يحيا على هامش الحياة الإنسانية، إذ كانوا يتجولون ليلاً فى ميادين الأسواق باحثين عن فضلات الأكل التى خلفها المتعاملون فى تلك الأسواق ليأكلوها.

إن وجود هؤلاء الأفراد طلقاء بين دروب المدينة يثير المشاعر، ويبدو أمامنا كأمر شاذ فى مجتمع تحكمه أنظمة صارمة. ومن المفترض أن ينتمى البشر هناك فى مجتمع أبناء الناهواس الذين يقيمون فى وادى المكسيك إما إلى العمال من فئة كالبولّى *calpulli*، أو إلى قبيلة من التجار أو إلى سلالة النبلاء. وكان عدم انتماء إنسان إلى أى من هذه الفئات، يعنى

بالنسبة لذاته أنه غير موجود... أما أخبار سلالة النبلاء، فقد كانت موثقة فى المخطوطات بكل دقة، كما أتاحت استمرارية العائلات التى كانت على رأس الحكم وتنتمى إلى شجرة عائلية واحدة أن تشكل فى كل جيل من أجيالها "بلاطاً" خاصاً بها، وهو ما سمح بوجود سلك إدارى بيروقراطى كبير يتولاه أقارب الملك. أما بالنسبة لطوائف العمال أى الكالبولّيس (المفرد كالبولّى والجمع كالبولتين : *calpulli - calpultin*) فنحن على علم ومعرفة بأنهم كانوا يشكلون النواة الرئيسية للنظام الاجتماعى فى الحقبة السابقة على الوجود الإسبانى. ولقد دار بيننا الجدل عما إذا كانوا ينتمون كجنس إلى مجموعات من العشائر، أم أن هذا التصنيف كان بسبب انتمائهم إدارياً لمناطق أو دوائر راجعة إلى تقسيمات إدارية من فعل السلطة. غير أن المصادر الوثائقية تشير إلى أن الرد على هذه الجدلية كان فى اللجوء إلى الحل الوسط : فليس هنالك شك فى أن الكالبولّيس كانوا يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، وكان أبناء الكالبولّيس أقارب لبعضهم بل وكانوا يعرفون أنهم يشتركون فى أسلاف من أصل واحد. فى الوقت نفسه، فإن الكالبولّيس بعد أن استقروا فى المدينة وخضعوا لقوانينها ظلوا يؤدون وظيفتهم باعتبارهم وحدات إدارية لها كيانها، وذلك عند جباية الجزية أو عند الدفع بهم للاشتراك فى الحرب أو عند ممارستهم لشعائرهم الدينية. ومع أنه كانت هناك حدود تحكم الجابى (تلاتوانى) فى التعامل مع شئون الكالبولّيس، إلا أن استقلالية تلك الطوائف كان لها أيضاً خطوطها وحدودها المستقرة. وهذه الحدود كانت تفرض عليهم الالتزام بالطاعة الكاملة للسلطة السياسية العليا. أما الأسباب البارزة التى حدت بتلك الطوائف إلى الانتماء إلى النظام السياسى فهى : الحياة الحضرية – السوق – الحماية العسكرية – بل وحتى الحماية الإلهية ...

كان لأبناء الكالبولّيس حياتهم الخاصة داخل أحياء الحضر التى يقيمون فيها. فكانوا يقيمون الشعائر الدينية للإله الذى يختصون به أنفسهم لكى يرعاهم. وكانوا يسهمون بالعمل حسب الدور المكلف به كل منهم من أجل الحفاظ على معبد هذا الإله، ويسهمون كذلك فى رعاية البؤساء المعوزين من أبناء طائفتهم. كما كانوا ينظمون الاحتفالات بالأعياد ويتجمعون يومياً فى ميادين الحى والأزقة للراحة وتجاذب أطراف الحديث وإلقاء النكات والفكاهات فيما بينهم. وكان كل كالبولّى *calpulli* يتخذ لنفسه رئيساً يسميه حسب المراجع باسم "الأخ الأكبر" حيث كان هو من يتخذ القرارات مستعيناً بمجلس كبار السن. وكانت اجتماعات ذلك المجلس واجتماعات آباء الأسر تتم فيما يمكن أن نطلق عليه اسم "البيت المحلى".

كان الجابى *tlatoani* يستعين بمحصلين ومشرفين يتولون الإشراف على الجزية التى كان يتوجب على الكالبولّى *calpulli* دفعها، كما كانوا يشرفون على تنظيم مشاركتهم فى العمل فى الأشغال العمومية. علاوة على هذا فإن شباب الكالبوليس كانوا ملزمين بالانخراط فى إحدى المدارس التى كانوا يتلقون فيها تدريبهم العسكرى وكان يطلق على تلك المدارس فى لغة أبناء الناهواس (الناهواتل) اسم تيلبوتشكالّى *telpochcalli* أى بيت الشباب، حيث كان شباب الشعب يتلقون تعليمهم على يد المحاربين من ذوى الخبرة الذين يمتازون بالشجاعة. وكان يمكن ترقيتهم إلى رتبة قائد أو محارب من محاربى النخبة باعتبارهم الأبطال الحقيقيين فى عيون ذلك المجتمع.

كذلك فقد كان شباب النبلاء ينخرطون فى الدراسة فى مدارس تذكر المراجع أنها كانت تسمى كالميكاك *calmécac* حيث كانوا يتلقون فيها تربية أكثر صرامة وتهدف بجلاء إلى إعدادهم للقيادة. وكانوا يتعلمون ما يلى فى تلك المدارس: الاستراتيجية الحربية – الكهنوت – الحكم. وقد يتجه بعض هؤلاء الشباب إلى المعابد ليصبح من كهنة المملكة وقد يتجه غيرهم للالتحاق بالإدارة وبالحكومة. وكانت مدارس الكالميكاك تراقب سلوك الشباب بكل عناية ودقة كما كانت تحرص على ألا يقيموا علاقات مع النساء، وعلى العكس من هذا فقد كان الضبط والربط في مدارس التيلبوتشكالّى أكثر تسيُّباً، إذ يبدو أن الشباب كانت له مغامراته مع شابات من نفس الطبقة وكان الشباب يتعرف عليهن فى حفلات الرقص الساهرة التى كانت تقام فى دار الغناء التى كانوا يطلقون عليها اسم كويكاكالّى *cuicacalli*.

أما الانتماء إلى وحدة أكبر أو إلى مملكة ما، فإنه كان يتحقق من خلال المشاركة فى الأعياد الدينية للمدينة وهى كانت كثيرة وتقام على مدار السنة. وكان الشباب فى سن الدراسة يمارسون الرقصات والتدرب على الألعاب وعلى فنون الاشتباك كما لو كانت طقوساً ينبغى القيام بها. وكان سكان المدينة يتفرجون عليها وهى تؤدى فى مكان يقع أعلى معابد المقر المركزى المقدس كما كانت لهم مشاركات أكبر فى تلك الطقوس التى كانت تؤدى فى شوارع وساحات المدينة وفى الأماكن المقدسة القريبة من مدينتهم.

أما أشد تلك الطقوس التى تحكيها لنا احتفالاتهم فقد كانت هى تلك التى تتضمن التضحية ببعض البشر... ولقد كان الميخيكاس يتميزون من بين كل سكان المكسيك القديمة بولعهم الشديد بممارسة تقديم الأضاحى من البشر، بل وبكيفيات متعددة. فأحياناً ما كانوا يقدمون على التضحية بعشرات من الأطفال تقربا من الإله تلالوك إله العواصف والمطر إذ كانوا يضحون بهم بإلقائهم فى دوامات من المياه أو تتم التضحية بهم على مذابح تقام فى الجبال. وفى عيد من الأعياد السنوية كان ينبغى التضحية بامرأة عجوز بقطع رأسها ثم يقوم أحد المحاربين بالعدو فى شوارع المدينة وهو يرفع بيده الرأس المبتور ملوحاً به فى كل اتجاه. أما إقامة الشعائر الدينية احتفالاً بالإله شيبى Xipe إله الربيع فقد كانت تتم بأن يدور فى المدينة أحد الكهنة وهو يتغطى بجلد أحد من جرت التضحية بحياته... لقد كان للجروح والأوصال المبتورة والقتل حضور دائم فى مدينة تينوتشتيتلان وفى غيرها من المدن القريبة منها. وكان للسكان فرصة التغلب على تلك المشاهد الدرامية بالمشاركة للتنفيس عن أنفسهم فى مختلف صور اللهو العامة التى كانت تقوم على الألعاب التى تقام فى الشوارع أو على تقديم الطقوس بصورة فكاهية مثل طقوس ما تسمى بالعصا المحشوة أو من خلال تقديم كوميديا هزلية، حيث كان يمكن للمشاهدين أن يسخروا فيها من شباب يرتدون ثياباً تأخذ شكل حشرة كبيرة طنانة ويتصنعون التعثر فى مشيتهم أو الوقوع على جانب الطريق، أو من خلال مشاهد لممثلين يتنكرون فى صورة عجوز أو قعيد أو عليل.

وعلى الرغم من الدلالة الدينية التى تنطوى عليها أيام الاحتفال بالتضحية بالبشر، فمما لا شك فيه أن هدفها كان أيضاً استعراض القوة العسكرية لجيوش التحالف الثلاثى. وكانت حملة أهويتزوتل Ahuítzotl الذى كان يعد أكثر الميخيكاس ميولا للحرب ضد الهواستيك Huasteca قد تكللت بنحر الآلاف والآلاف من أعدائه من الرجال والنساء والأطفال الذين ظلوا خلال أربعة أيام ولياليها يقفون فى صفوف أمام الدرج الخارجى لعدة معابد فى وادى المكسيك فى انتظار دورهم للصعود إلى منصة النحر الحجرية. وكما جرت العادة، فبينما كانت خطواتهم تسير بهم نحو الموت، كان عليهم أن يرددوا أغنية الطائر الحزين...

كان التحالف الثلاثى وعلى رأسه تينوتشتيتلان قد نجح قبل وصول الغزو الإسبانى للبلاد فى بسط سيطرته على أرجاء الأرض الممتدة من الساحل إلى الساحل ومن الشمال إلى الجنوب، ومن كيريتارو إلى واخاكا، علاوة على تحكمه فى منطقة سوكونوسكو الواقعة فى تشياباس. كما كان السهل الساحلى الواقع على خليج المكسيك خاضعاً للتحالف. وكان الازدهار يعم مدن التوتوناكاس Totonaca التى كانت تتمتع بشوارع مرصوفة بالحجر وشبكات مياه للرى كما تتمتع بالصرف الصحى... كانت فيها البساتين ومراكز إقامة الشعائر وكانت الأسوار ترتفع حولها...كما تتوافر فيها الذرة وأشجار الكاكاو والفانيليا والفواكه والقطن والأخشاب وغيرها من المنتجات. إلا أنها كانت وبصورة دورية لزيارات غير مريحة من القائمين على جباية الجزية الذين يرسلهم الميخيكاس إليهم، علاوة على أنهم كانوا ملزمين بالدفاع عن الأرض واستضافة التجار الذين كانوا يمرون بالمنطقة فى قوافل تنطلق من مدن الحلفاء. وعلى صعيد آخر، فإن الهواستيك- Huastecas (وهم الجيران الشماليون للتوتوناك) استمروا فى تحدي التوسع الذى قام به الميخيكاس لكنهم هزموا فى نهاية المطاف. وقد استغرقت عودة الميخيكاس إلى ديارهم للاحتفال بانتصارهم العسكرى على الهواستيك وقتاً أطول من الوقت الذى استمر فيه الهواستيك على رفضهم فى الإعلان عن خضوعهم وعلى رفضهم دفع الجزية... وتشير المصادر الكولونيالية عن عهد الاستعمار الإسبانى إلى أن غزو منطقة الهواستيك قد جرى على يد عدد من التلاتوانى، وفى هذا إشارة جلية إلى أن الميخيكاس لم يقوموا فى الواقع بهذا الغزو.

نجح الميخيكاس فى الجنوب فى فرض شروطهم على ممالك الميكستيك الواقعة فى سلسلة الجبال وفى وادى واخاكا Oaxaca بالنسبة لتحصيل الجزية والتجارة، كما فرضوها كذلك على الزابوتيك Zapotecas المقيمين فى الوادى. غير أنه كانت هنالك ممالك مستقلة على الساحل تجمعت تحت قيادة توتوتيبيك Tututepec كما كانت هنالك ممالك غيرها فى منطقة البرزخ. أما التلاباتيك Tlapanecos الذين كانوا يقيمون فيما نطلق عليه الآن ولاية غيرّيرو فإنهم كانوا من بين من يقومون بدفع الجزية للتحالف الثلاثى. مع هذا، فقد كانت هنالك أيضاً مناطق أبدت مقاومة عنيدة للمخيكاس. واقطاعية تيلولوابان Teloloapan التى كانت تعد

من أكبر المناطق إنتاجاً للكاكاو دأبت على رفض قبول مرور قوافل التجارة تحت حماية الميخيكاس فكانت هذه الاقطاعية ضحية لأشنع وأفظع الحروب التى جرت فى ذلك الوقت: إذ تمت إبادة سكان الاقطاعية إبادة كاملة (حتى الكلاب بل وحتى الدجاج الرومى فيها فقد طالته أعمال الإبادة)، ثم جرى استقدام مستوطنين من الناهواس من وادى المكسيك لإعادة إعمار المقاطعة. وعلى العكس من هذا فإن رناسات يوبيتزينكو Yopitzinco لم تخضع لهم قط بل ووصل الأمر بسكانها الذين كانت لغتهم تمت بصلة القرابة إلى لغة قبائل الاباش إلى أنهم كانوا يهاجمون بين الحين والآخر بعض المناطق التى كانت تقوم بدفع الجزية للميخيكاس. بل ووصلت إلى أن تقوم بمهاجمة حاميات الميخيكاس نفسها.

أما فى الغرب فإن التحالف الثلاثى قد واجه حدوداً منيعة. وكان مركز مملكة التاراسكو يقع على ضفاف بحيرة باتزكوارو (Pátzcuaro) التى يحكمها تحالف ثلاثى آخر يتألف من إهواتزيو – تزينتزونتزان وباتزكوارو (Ihuatzio - Tzintzuntzan – Pátzcuaro). وقد اتسعت مملكة التاراسكو لتشمل ميتشواكان بأكملها وأحد أجزاء ولاية غيرّيرو الحالية وكوليما وخاليسكو وغواناخواتو. كان البوروبيتشاس يقومون بتصنيع النحاس فكانوا يصنعون منه بعض الأدوات التى تستخدم فى فلاحة الأرض كما كانوا يصنعون منه كذلك بعض الأسلحة، وهو ما حمل بعض الباحثين على الاعتقاد بأن ميتشواكان كانت هى التى أدارت العجلة نحو التحول النوعى الذى لم تكن تكنولوجيا أمريكا الوسطى – ذات الطابع النيوليسينى- قد شهدت مثله منذ فجر التاريخ. ومع هذا فلا توجد شواهد أو أدلة مؤكدة على وجود أى منتج زراعى يختلف اختلافاً جوهرياً عن المنتجات الموجودة فى باقى أنحاء البلاد، أو أى شواهد أخرى أو أدلة مؤكدة على وجود مظاهر عسكرية مشابهة لتلك التى كان يتميز بها الاشوريون مثلاً فى العالم القديم فالاشوريون كانوا يستخدمون سيوفاً مصنوعة من الحديد. ولقد دافع البوريبيتشياس عن أراضيهم بقوة فأقاموا الأسوار وشيدوا حصوناً صغيرة ونقاطاً للحراسة والمراقبة كما نظموا حملات عسكرية تحت إمرة قيادة موحدة، ونجحوا فى مقاومة الجيوش الغازية القادمة من أودية وسط المكسيك. وفيما عدا هذا، فإن مدنهم وعمارتهم وملبسهم بل وحتى كتاباتهم ومنتجاتهم الفنية كانت شديدة التواضع إذا ما قارناها بتلك التى كان يتميز بها الناهواس منذ العهد التيوتيهواكاتى.

أما بالنسبة لمنطقة المايا فإن أكثر تركيز ديموغرافى أى سكانى فيها وأكبر عدد من المدن كان موجوداً فى مرتفعات تشياباس وفى غواتيمالا وفى شبه جزيرة يوكاتان بوجه خاص. وبعد سقوط مايابان، كان هنالك فى شبه الجزيرة ما لا يقل عن مائتى مقاطعة مستقلة. لكن هذا التفتت لم يشكل أى عائق لكى ينهض فيها اقتصاد مزدهر جداً لأنه كان يستفيد فيه من كثافة تدفق تجارة الساحل. وكان ميناء تولوم الذى يقع فى كينتانا روو نقطة للاتصال بين الطرق الملاحية التى كانت تربط بين شبه الجزيرة من جهة، وأمريكا الوسطى والكاريبى من جهة أخرى فضلاً عن أنها كانت أيضاً نقطة التقاء للطرق البرية التى يسلكها المترجلون الذين يقصدون تيهوانتيبيك حيث كانوا يتوجهون منها إلى الأراضى التى يتحكم فيها التحالف الثلاثى. ولقد كان للمايا أيضاً تجارتهم مع الناهواس خلال العصر الكلاسيكى المتأخر. ولم يكن للميخيكاس نفس قوة التيوتيهواكاتيون لكى يهاجموا تلك الأراضى. وفى واقع الأمر، فإن كفاءة وقدرة التحالف الثلاثى بين المكسيك-تينزكوكو-تلاكوبان على التوسع فى الأراضى كانت تبدو مزعزعة إذا ما قورنت بكفاءة وقدرة سلطة تيوتيهواكان على أراضيها مع اتساع أرجاء تلك الأراضى.

خاتمـــــة

رأى التوتوناكاس فى هيرنان كورتيس حليفاً مقبولاً لنفض سلطة الميخيكاس والتخلص منهم. ولعلـــه من الحماقة أن نلومهم على هذا التحالف لأن من نافلة القول أن نشير إلى أنه لم تكن لديهم وسيلة يعرفون من خلالها أنهم سيتعرضون للإصابة بالجدرى والحمى الصفراء وأمراض والتهابات القصبة الهوائية وأن مدنها ستصبح مهجورة موحشة وأن حقول الذرة والبساتيـــن ستتـــحول مع مرور الوقت إلى أرض مملوءة بالحشائش. ولقد آثر أبناء تلاكســــكالا Tlaxcala منذ البداية التوقف عن المقاومة واختاروا التحالف مع الإسبان لأنهم تصوروا أن هذا التحالف قد يوفر لهم على وجه التحديد وحدة أراضيهم وسلامتها... كما لم يكن لهم أى ولاء للميخيكاس بل كانوا -على العكس من هذا- أعداء لهم. ومنذ هبوط كورتيس على أرض يوكاتان وحتى انتهاء حصار تلاتيلولكو Tlatelolco بعد أن تم أسر كواوهتيموك Cuauhtémoc انضمت كثير من الاقطاعيات إلى صفوف كورتيس بعد أن لقيت الهزيمة على أيدى جنوده أو بعد توقيعهم لاتفاقيات مع كورتيس. وكان فتح تينوتشتيتلان

نصراً لأبناء تلاكسكالا ولأبناء تيتزكوكو وجماعات عديدة من سكان البلاد الأصليين كما كان ذلك الانتصار بمثابة آخر الحروب التى دارت فى المكسيك فى حقبة ما قبل الغزو الإسبانى، لأن من قام بتلك الحرب الأخيرة جيش صغير لم يكن ينتمى إلى الغزاة الإسبان.

بعد سقوط عاصمة الميخيكاس تمكن الإسبان من السيطرة على أجزاء كبيرة من الأراضى التى كانت تخضع للتحالف الثلاثى. وخلال الثلاث سنوات التالية وبعد معارك صغيرة وعدة اتفاقيات وتحالفات كثيرة، استطاع الإسبان أن يخضعوا للتاج الإسبانى القائم فى قشتالة كثيراً من الأراضى التى كانت قد حافظت على استقلاليتـــــها مثل: ميتشـــــواكان Michoacán وميتزتيتلان Mitztitlán وتوتوتيبيك Tututepec وتيهوانتـــبيك Tehuntepec فضلاً عن عدة مناطق فى مرتفعات تشيـــــاباس Chiapas إضافة إلى غواتيمالا. ولقد كان غزو يوكاتان بطيئاً إذ لم يتم فتحها تماماً إلا بعد حوالى مائتى سنة. كما أن اقطاعية تاياسال الواقعة فى بحيرة بيتين-إيتزا لم يتم اخضاعها للتاج الإسبانى إلا فى سنة 1697. كما لم يتم اخضاع واحتلال سييرا مادرى الغربية ومجموعة الأراضى الواقعة فى شمال أمريكا الوسطى التى كانت تقطنها جماعات من مقتطفى وجامعى ما يقتات به. ولم تصل المهمة إلى نهاية لها ولا حتى فى غضون القرون الثلاثة التى بدأت مع التاريخ الكولونيالى أى تاريخ الاحتلال الإسبانى.

عصر الاستعمار
حتى عام 1760

برناردو غارسيا مارتينيس

يعد عصر الوجود الاستعمارى الإسبانى فى المكسيك الذى يُعـــرَف بالعصر الكولونيالي ثانى أكبر حقبة فى تاريخ المكسيك. وهذا التعريف يعنى فترة السيطرة الإسبانية على الدولة (إذ غدا من الممكن أن نطلق عليها اسم: دولة). وقد اكتسبت وحدتها السياسية تحت اسم إسبانيا الجديدة (نويبا إسبانيا : أى إسبانيا الجديدة). ولهذا السبب فقد جرى العرف على اعتبار أن العصر الكولونيالي (الذى يطلق عليه كذلك عصر إسبانيا الجديدة) قد بدأ تاريخياً

بعد سقوط المكسيك – تينوتشتيتلان أى سنة 1521م، لكن هذا العصر انتهى بعد إعلان استقلال نويبا إسبانيا (إسبانيا الجديدة) بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون.

إلا أن هذا التدقيق فى التاريخ لا يصلح إلا فيما يتعلق بالوجود الرسمى لنويبا إسبانيا باعتبارها "وحدة سياسية" فقط دون أن يتناول أية جوانب أخرى، لإننا عندما نتحدث عن الجانب الاقتصادى أو الاجتماعى على سبيل المثال أو عن الجانب الديموغرافى أو الثقافى فإنه لا يمكن حينئذ الحديث عن عصر يبدأ منذ عام 1521 ثم ينتهى عام 1821. ففى مثل هذه الأمور يصبح من غير الملائم الحديث عن تواريخ محددة بعينها. فلقد كان اقتصاد السوق مثلاً قد بدأ فى التحول التدريجى، نظرا لأن الإسبان بدءوا فى توسيع نطاق أنشطتهم سواء التجارية أو الخاصة بالزراعة وتربية المواشى والدواجن أو المتعلقة باستغلال المناجم خلال القرن السادس عشر. لكن الجوانب والمظاهر الاقتصادية التى كانت قائمة فى عصر ما قبل الاستعمار الإسبانى ظلت قائمة إلى جانب أوجه النشاط الإسبانية الأخرى، بل والأكثر من هذا فإن هذه الجوانب أو تلك قد استمرت خلال سنوات الاستقلال دون أن تغير من جوهرها. وعلى الرغم من أنه قد حدثت هزة اقتصادية قوية فى بداية القرن التاسع عشر، إلا أن السبب فيها يرجع إلى الإجراءات المالية التى انتهجتها إسبانيا فى عام 1804، وقد عانى السكان من انخفاض عنيف فى عدد السكان فى الفترة من عام 1519م إلى عام 1575م. وبعد هذا استمرت البلاد فى تمتعها بفترة من الاستقرار النسبى لتدخل بعدها مباشرة فى فترة من النمو لم تتعرض للتأثر إلا حوالى عام 1736 وليس فى عام 1821م. أما بالنسبة للتاريخ البيئى الذى يدرس الأثر البشرى على الوسط الطبيعى أو البيئى، فإن هذا التاريخ يعترف بأن الغزو الإسبانى قد أدى إلى تغيرات هامة جداً فى صورة البيئة أو الطبيعة فى منطقة أمريكا الوسطى – وذلك هو ما حدث بالضبط بعدما دخلت إليها الماشية لأول مرة. لكن هذا التاريخ لا يسجل شيئاً ذا مغزى عند انتهاء العصر الكولونيالى، وإنما على العكس من هذا فإن التاريخ البيئى يسجل لنا أن سنة 1780 قد بدأت تشهد عملية قطع الأشجار بكميات كبيرة لاستخدام أخشابها فى بناء السفن. كذلك يسجل لنا التاريخ أن السكك الحديدية قد بدأت تؤدى فى عام 1880 إلى تلك التغيرات العميقة فى استخدامات الأرض فى النقل والتنقل.

وكنتيجة لما سلف فإن العصر الكولونيالى يمكن أن نضعه طبقاً لرؤيتنا بين حدين زمنيين. ولا تختلف تواريخ البدايات كثيراً لأنها تتوافق مع لحظات شهد فيها العالم كله تقريبا تحولات عظيمة تلت رحلات كولومبس وتبعتها الاتصالات والمبادلات التجارية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا والقارة الأمريكية. لكن تواريخ النهايات لا تتفق أو لا تتوافق مع بعضها لأن التحولات التى انطوت عليها إما لم تكن تتفق فى مستوى عمقها مع بعضها، أو أنها لم تتفق زمنياً مع بعضها. ومع ذلك فيمكن أن نتفق على أنه كانت هناك تحولات هامة تختلف طبيعتها أو درجتها من مكان لآخر لكن بداياتها جرت قبل أو بعد عام 1760 بقليل، وقد تناولت المجالات التالية : السياسية – الاجتماعية – الاقتصادية – الثقافية، وهو تاريخ مقبول أيضاً لوضع نهاية لتلك الحقبة من حقب التاريخ المكسيكى التى كانت بدايتها مع وصول الإسبان إلى أراضى أمريكا الوسطى. ونحن سنطلق على تلك الحقبة اسم العصر الكولونيالي (أى عصر الوجود الإسبانى الاستعماري)، مهما كان سبب هذه التسمية سواء كان طبقاً للعرف أو كان بسبب جدوى هذه التسمية. ومع ذلك، فنحن سنستبعد منها الخمسين أو الستين سنة الأخيرة من سنوات الحكم الإسبانى، لأنه يمكن اعتبار هذه السنوات فى مجموعها جزءاً منفصلا – على الرغم من "الانفصام السياسى" الذى وقع فيها – وسنضم لها كذلك السنوات التالية على الاستقلال.

مرحلة التكوين 1519–1610

انطلاقة الغزاة 1519 – 1530

اقترنت بداية العصر الكولونيالى مع سلسلة من الأحداث الملفتة للنظر، وهى الأحداث التى حدد بدايتها وصول الإسبان فى أول توغل لهم فى أمريكا الوسطى... وكان هذا التوغل هو بداية الغزو. ولا ينبغى أن نفسر مصطلح الغزوعلى أنه مجرد نصر عسكرى قد تحقق بل يجب تفسيره على أنه كان عملية مواجهات معقدة تخللتها فترات للراحة، وامتدت ولم تنته إلا حوالى سنة 1560م. والغزو بهذا التفسير قد استمر أكثر من أربعين سنة (تنقسم إلى : الفترة التمهيدية – وفترة الترسيخ) تلتها خمسون سنة أخرى لكى تدخل ثمرة الغزو فى نويبا إسبانيا (إسبانيا الجديدة) مرحلة النضج بعد أن ألقت وراءها بالسنوات التمهيدية لمرحلة التكوين.

وقبل أن ندخل فى تفاصيل الأحداث الأولى، ينبغى أن نُعْمِل الفكر بشأن الإطار الذى وقعت فيه تلك الأحداث، إذ إنها ستجعلنا نتناول بالسرد مدى التوسع الاقتصادى والثقافى الأوربى بدءاً من الاكتشافات البحرية البرتغالية التى اتخذت لها جيوباً تجارية فى عدة نقاط على الساحل الأفريقى وفى الهند وفى جنوب آسيا فضلاً عن احتلالها كابو فيردى (جزر الرأس الاخضر) وجزر الازور وعدة جزر أخرى فى المحيط الاطلسى. ولقد كانت تلك التحركات مدفوعة بالطلب الأوربى على التوابل والحرير علاوة على الاهتمام بزراعة قصب السكر فى الجزر. ولما كانت تلك الجزر خالية من السكان فضلاً عن أن معظم السكان الأصليين فى غيرها من الجزر المأهولة كانوا قد تعرضوا للإبادة، فإن اقتصاد السكر كان مبنياً على أساس قيام العبيد بالعمل. وفى هذا الإطار، فإن أولى الحركات التى قام بها العبيد الذين اشتراهم البرتغاليون وقعت فى غينيا وفى أنجولا. وكان البرتغاليون أنفسهم يقومون أحياناً بخطف الأفارقة وأسرهم لكى يستخدموهم فى العمل فى تلك الجزر. وقد قام جيران البرتغال فى قشتالة باستنساخ نفس التجربة البرتغالية فى جزر الكنارى...

ولقد كانت الرغبة التى اعتملت فى نفوس ملوك قشتالة وليون (فى إسبانيا) فى أن تكون لهم مشاركة أكثر فعالية فى تلك الدوائر التجارية هو الدافع إلى تمويل رحلة كريستوفر كولومبس (Cristóbal Colón) سنة 1492م بهدف اسكتشاف طريق جديد إلى الهند، ثم ما أدت إليه تلك الرحلة من نتائج معروفة. ولقد كان استعمار الإسبان لجزر الكاريبى وخاصة كوبا وجامايكا وسانتو دومينجو وبويرتو ريكو تطبيقاً حرفياً لتجربة إسبانيا فى استعمار جزر الكنارى، فقد كان أسلوبهم فى الاستعمار يجرى على النحو التالى: الاحتلال بالقوة، وإنتاج السكر، والقضاء على السكان الأصليين، وإدخال العبيد الأفارقة. مع ذلك فقد كان هنالك ما هو مختلف، ألا وهو الاهتمام فى قشتالة بالهجرة إلى تلك الأراضى الجديدة وتكوين مستوطنات ثابتة تقوم فيها حكومة رسمية، وإنشاء نظام قضائى، والحفاظ على روابط دائمة مع أرض الأجداد فى إسبانيا التى تنتمى إليها أصول المهاجرين، وأن ينقلوا معهم الماشية ومختلف الأنشطة الزراعية الأخرى، أى أنهم فى نهاية المطاف قد سعوا بقدر الامكان إلى القيام بعملية "إعادة إنتاج" للدائرة الحضارية والثقافية التى كانت قائمة فى قشتالة. وهذا يفسر السبب فى أن تلك المنطقة قد شهدت نمواً سكانياً كبيراً واقتصادياً كان قاصراً عن سد احتياجات الجزء الأكبر من السكان. بعد هذا، سار البرتغاليون على نفس خطى أبناء قشتالة ليقوموا أيضاً بعملية "إعادة إنتاج" ولكن على سواحل البرازيل.

إن تلك الأحداث التى وقعت بعد طرد المسلمين من شبه جزيرة إيبريا تصادفت فى عام 1492 مع ترسيخ دعائم الملكية فى عروش قشتالة وأراغون ثم ازدادت رسوخاً بعد وقت قليل بصعود كارلوس الأول دى هابسبورغوو من أسرة أوستريا الملكية ليصبح امبراطوراً على ألمانيا، وقد اشتهر كذلك باسم كارلوس الخامس.

ثم نجحت إسبانيا[*] فى أن تصبح القوة المسيطرة فى أوروبا نتيجة لوحدتها وبسبب القوة السياسية لملكها الجديد فضلاً عن المزايا التى اكتسبتها من وجودها فى القارة الأمريكية. ولقد أصبح هذا المفهوم حقيقة واقعة خاصة بعدما نجحت إسبانيا فى غزو المكسيك ثم غزو بيرو نتيجة لأن الإسبان أرادوا أن يذهبوا إلى أبعد من مجرد سيطرتهم على مجموعة الجزر التى كانوا قد احتلوها من قبل، فكان لهم ما أرادوا ونجحوا فى احتلال القارة الأمريكية.

فى الوقت نفسه، فإن "القارة الامريكية" التى لم يكن يطلق عليها هذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم "العالم الجديد" كانت قد بدأت تدخل دائرة التبادل والتعاملات التجارية، ورويداً رويداً نجحت فى أن تشمل مبادلاتها وتجارتها أرجاء العالم كله. وقد شملت تجارتها تجارة البشر والحيوانات والنباتات والمعادن والسلع المصنعة وكل ما يتعلق بكل هذا، بدءاً من "الأمراض" ومروراً بكل ما ذكرناه وانتهاءً بالثقافة. ومن الطبيعى أن تلك الأنشطة كانت تجرى مع إعطاء أولوية لتحقيق المصالح الأوروبية وتلبية احتياجاتها، وبخاصة المصالح والاحتياجات الإسبانية. ومن هنا نشأ الوضع الاستعمارى ونشأت التبعية التى اتسمت بها الأوضاع فى القارة الأمريكية خلال القرون التالية.

---

[*] استخدام اسم إسبانيا والإسبان فى إطار القرنين السادس عشر والسابع عشر هو استخدام خاطئ نسبياً لأن الممالك فى شبه جزيرة إيبيريا كانت كل منها تعتز بكياناتها منفردة عن غيرها، كما لم تكن قد ظهرت هنالك بعد "مملكة إسبانيا". ولهذا فعندما نذكر هنا اسم إسبانيا فإننا نعنى به مملكة قشتالة كما نعنى بالإسبان أنهم القشتاليون (سواء كانوا من إكستريمادورا أو من الاندلس لأنهم كانوا من رعايا العرش)، ولا نعنى بهم على سبيل المثال المنتمين إلى أراغون أو القطالونيين. وبعد هذا الإيضاح، فينبغى أن نلاحظ أن استخدام لفظ إسبانيا ولفظ الإسبان من وجه نظر أهل القارة الأمريكية وخاصة فى "إسبانيا الجديدة" يكون له ما يبرره هنا بعد أن درجوا فى تلك القارة على استخدام هذين اللفظين منذ القرن السادس عشر.

وبطبيعة الحال، فلقد كان هذا هو نفس الموقف بالنسبة للأحداث التى عاشتها المكسيك مع بداية عصر الاحتلال، ولكن بصورة أكبر... فقد بدأ انطلاق تلك الاحداث من كوبا على وجه التحديد، حيث كانت قد مضت عشرون سنة على استقرار الإسبان ورسوخ أقدامهم فيها. وعندما أرادوا التوسع جهزوا عدة حملات، وكانت إحداها تحت قيادة فرانسيسكو هيرنانديز دي كوردوبا الذى نزل بجنوده فى سنة 1517 على سواحل يوكاتان، لتكون تلك الحملة - التى كانت بالأحرى "بعثة استكشافية" - هى أول اتصال بين العالم الأوربى وأمريكا الوسطى.

ثم تلت تلك الحملة حملة أخرى ثم حملة ثالثة وكان من الواضح أن أهدافها كانت الغزو الذى تطلب من الإسبان أن يحددوا بدقة المسائل القانونية التى حددت ووضعت أحكام الامتيازات أو الحقوق التى يتطلع الغزاة إلى تحقيقها. وقد جهز ثالث تلك الحملات القائد هيرنادو كورتيس الذى انفصل عن معسكره فى كوبا فى عام 1519 ثم لجأ إلى اقامة مركز استيطانى – هو فيراكروز– وإقامة مجلس محلى فيه (مجلس بلدي أو هيئة حكم محلى حسب ما جرت عليه العادة فى إسبانيا). ومن ثم استطاع أن يبرر ويجهز غاراته داخل الأراضى المكسيكية بطريقة مستقلة. وقد وقعت أكثر من موقعة عسكرية خلال تقدمه هو وجنوده، ثم وصلت حملة الإسبان إلى ذروتها فى ميخيكو (المكسيك)-تينوتشتيتلان فى نهاية العام نفسه. وقد لجأ كورتيس إلى عدة مناورات سياسية من أجل تحقيق أهدافه وخاصة تحالفه مع بنادر أو محلات فى تلاكسكالا.

ويجدر التذكير بأن أمريكا الوسطى فى ذلك الوقت كان فيها المئات مما يجوز أن نطلق عليها اسم بندر أو محلة (*señorios*) وهذا المصطلح نعنى به بندراً أو محلة صغيرة أو كياناً سياسياً كان يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى. وكانت تسمى فى لغة أبناء الناهواس أى لغة الناهواتل مصطلح ألتيبيتل (*altépetl*) وعلى الرغم من أن هذا المصطلح كان له مقابل فى لغات أبناء البلاد الأصليين، فإن مصطلح الناهواتل كان أعم انتشاراً ثم قام الإسبان بعد هذا بترجمته إلى: "قرية" يقطنها من كانوا يسمونهم تجاوزاً بالهنود (وهم أبناء البلاد الأصليين). والحاكم أو "السيد" يرأس كل واحدة من تلك المحلات أو البنادر وكان المنصب يخضع للتوريث. وكان الحاكم أو السيد فى واقع الأمر ملكاً صغير الكيان، وهو الشخصية التى تتولى مهام الشرعية السياسية (تلاتوانى *tlatoani* فى لغة أبناء الناهواتل وقد ترجمها الإسبان إلى

الإسبانية بكلمة تعنى الزعيم). وكانت تلك المحلات أو البنادر تشكل الوحدات الأساسية فى حقبة ما قبل الوجود الإسبانى. وكان كثير من تلك الوحدات يقوم بسداد الجزية إلى التحالف الثلاثى (باعتباره الكيان السلطوى الحاكم الذى يسيطر على المنطقة) ومع هذا فقد كانت هنالك ممالك صغيرة تتمتع بالاستقلال مثل مملكة التلاكسكالتيكاس.

وعلى الرغم من أن دخول الإسبان إلى ميخيكو (المكسيك)– تينوتشتيتلان كان سلمياً من وجهة النظر الرسمية، إلا أنه قد تحول فى بضع أيام إلى احتلال عسكرى قام على اخضاع وأسر موكتيزوما ملك الميخيكا. وقد استغرق ذلك الاحتلال سبعة أشهر (من نوفمبر1519– يونيو 1520) وهى الفترة التى استغلها الإسبان فى الاستطلاع وجمع المعلومات وتوفير احتياجاتهم من أجل إقامة تحالفات مع محلات أو بنادر أخرى بحيث لا يشذون فى هذا عما كانت تتبعه الممارسات السياسية الأخرى فى أمريكا الوسطى. وخلال تلك الحقبة أثمر التلاحم السياسى للتحالف الثلاثى وآتى أُكُله، على الرغم من أنها قد شهدت كذلك حركات للمقاومة قام بها الميخيكاس، ثم تُوِّجت بخلع موكتزوما وطرد الإسبان وحلفائهم (وذلك الحدث يعرفه الإسبان وحلفائهم باسم "الليلة الحزينة" وهو حدث ينبغى أن يحتل مكانته الهامة فى تاريخ الشعوب).

وقد حل وباء الجدرى تقريباً بعد هذا الحدث مباشرة، وسرعان ما عم انتشاره فى جميع أنحاء البلاد، حيث ظهرت البؤرة الأولى للوباء فى فيراكروز حوالى سنة 1520 بعد أن جلبته إليها مجموعة إسبانية موالية لمصالح المستعمرة الكوبية. وقد وصلت إلى ذلك الموقع فى محاولة منها لإلقاء القبض على كورتيس (وتُعرف باسم حملة بانفيلو نارباييس العسكرية).

كان مرض الجدرى من "مكونات دائرة التبادل" المشار إليها سلفاً وشملت جميع أرجاء الكرة الأرضية، علماً بأن هذا المرض لم يكن معروفاً فى أمريكا الوسطى من قبل. ولهذا فقد كان لدى أهل المكسيك قابلية فائقة للإصابة بالعدوى: خلال أقل من سنة انتشر المرض إلى جميع أرجاء البلاد مما أدى إلى موت ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من البشر، وهنالك تقديرات بأن عدد من لقوا حتفهم بهذا المرض قد وصل إلى عشرة ملايين نسمة.

ثم يحين الوقت وتنشب الحرب بكل ما فى الكلمة من معنى من أجل غزو المكسيك. وهى حرب اتسمت بالضراوة القصوى وعدم التكافؤ بين محاربين يقاتلون من فوق ظهور الجياد ومحاربين يستخدمون الأسلحة النارية التى شكلت ميزة مقصورة على الإسبان وحدهم، وهو ما جعل الأمور تسير فى صالحهم. وكانت عملية حصار ميخيكو- تينوتشتيتلان (المكسيك العاصمة حالياً) أبرز وأهم أحداث تلك الموقعة الحربية. وعلى الرغم من أن انتشار وباء الجدرى قد أضعف حدة القتال، إلا أن المقاومة استمرت لمدة سنة وانتهت بالاستيلاء على المدينة وأسر آخر ملوكها الملك كواوهتيموك، وذلك فى الثالث عشر من شهر أغسطس من عام 1521 (وقد اتخذ الإسبان من هذا التاريخ رمزاً لانتصارهم وظلوا يحتفلون به فى كل سنة من سنوات احتلالهم للمكسيك). والواقع أن الحرب لم تقتصر على تلك الموقعة الحربية، وإنما امتدت لتطال عدة مدن أو محلات وبنادر أخرى - ومنها من كانت مستقلة عن التحالف الثلاثى- كما أن الاقتتال استمر حتى عام 1525 أو 1526. ولقد انتصر الإسبان فى جميع عملياتهم الحربية...، ومع هذا فلا تخلو انتصاراتهم من معارك طاحنة أو مصاعب كبيرة (لا نعرف عنها إلا القليل لأن جميع المصادر والمراجع تقتصر على سرد ما يتعلق بحصار ميخيكو- تينوتشتيتلان). كما يتزامن ذلك الانتصار مع ضغوط مختلفة ومناورات سياسية أدت إلى اخضاع الكثير من المحلات (البنادر) أو المدن الواقعة فى وسط وجنوب البلاد بدون عنف، أو على أقل تقدير بدون اللجوء إلى القتال المسلح، ومنها مملكة ميتشواكان بما لها من ضخامة وأهمية سياسية.

كانت النتيجة المباشرة لهذه العملية أن قامت علاقات رسمية بين الإسبان وبين تلك المحلات (البنادر) والمدن التى زاد عددها على الخمسمائة وهو ما تطلب نشاطاً سياسياً كبيراً فى الفترة من عام 1522 إلى عام 1525 حيث شهدت مناقشات ومفاوضات ووضع ضوابط اتسمت فى غالبيتها بالحدة. وتطلب قيام تلك العلاقة اللجوء إلى نظام "الوكالة أو النظارة" (*encomienda*) الذى كان يقوم على التعيين الرسمى لأحد الغزاة فى هذا المنصب ليتولى كناظر أو وكيل (*encomendero*) أمور أهالى المحلة (البندر) أو المدينة. والغرض من هذا النظام هو أن تحافظ كل وحدة من تلك الوحدات على طابعها ككيان سياسى وعلى مهام الحكومة فيها وعلى إمكانياتها فى جباية الجزية. وتقوم كل وحدة بتسليم الجزء الأكبر من حصيلة الجزية إلى الوكيل أو الناظر. وكان على هؤلاء الوكلاء أو النظار أن يظلوا فى حالة استنفار عسكرى

وأن يراعوا ألا يحدث تقهقر فى أى انتصار أو تحالف حققه الإسبان. وبالنسبة لبعض تلك المدن أو المحلات (البنادر) التى كانت تعتبر ذات أهمية كبرى أو ذات أهمية خاصة (مثل مدينة المكسيك نفسها أو مدن التلاكسالتيك على سبيل المثال) فإنها كانت تخضع لسيطرة من يمثلون التاج الإسبانى.

بدأ تنصيب الحكومة المركزية التى تمثل تاج قشتالة يسير سيراً حثيثاً فى نفس الوقت الذى كان الغزاة قد أكدوا إنجازاتهم ورسخوا أقدامهم باسم الملك. فكانت أول خطوة رسمية سياسية لتلك العملية هى التى أدت إلى ظهور فكرة مملكة إسبانيا الجديدة وإعطاء الشرعية لها، باعتبارها الابن الشرعى الذى يخلف "امبراطورية موكتزوما" (أى الامبراطورية التى كانت تعرف باسم التحالف الثلاثى). وتلبية لهذه الفكرة، فإن الغزاة قرروا إعادة تشييد مدينة المكسيك التى ذاقت الهزيمة وأصبحت نصف مدمرة وذلك لكى تقوم وتنهض كعاصمة لذلك الغزو الجديد (مع تفادى المشاكل الناجمة عن وقوعها عند بحيرة). وعلى هامش تلك الإجراءات ذات المضمون الرمزى، فإن تنصيب مثل تلك الحكومة قد تطلب وضع تشكيل لعدة مناصب ومهام، وخاصة فيما يتعلق بتحصيل الأموال وتسيير أمور العدالة، وهى القضايا التى كانت تشكل أهمية كبرى بالنسبة للتاج. وقد رأى التاج من جهته جدوى فك الارتباط ببعض الأقاليم والمناطق التى كانت تدور فى فلك سلطة المكسيك، لدرجة أنه اتخذ ترتيباته وأنشأ حكومات فى "بانوكو" (لم تستمر إلا فترة قصيرة) وحكومة فى غواتيمالا (بدأت مهامها سنة 1527) وفى يوكاتان (من سنة 1527 إلى سنة 1540 ثم حكومة أخرى اعتباراً من عام 1565).

اقترنت هذه التواريخ بقدوم العديد من الإسبان الذين بدأت تتأكد زيادة أعدادهم مع مقدم أفواجهم الجديدة بداية من سنة 1522 أو 1523. وكان يطلق على القادمين فيها لفظ "مستوطنون" وهذا للتفرقة بينهم وبين أولئك الغزاة العسكريين. ومع هذا فقد كان أبناء تلك الأفواج مجبرين على أن يكيفوا أمورهم مع العسكريين رغم أن مصالحهم بدأت تتعارض رويداً رويداً مع مصالح الغزاة. وقد بدأ بعض المستوطنين تدريجياً فى إنشاء مراكز سكانية لهم (وكانوا يقيمون فى كل منها هيئة لتولى إدارة أمور المستوطنة) كما أقاموا علاقات تجارية بين المستوطنات وبعضها فضلاً عن إقامة علاقات تجارية أخرى مع جزر الانتيل ومع إسبانيا، كما زادوا من حركة نقل الحيوانات والنباتات والسلع والمنتجات الأوروبية إلى إسبانيا الجديدة،

وقرنوا هذا بنشر أساليب خبراتهم فى هذه المجالات فى مجتمعاتهم الجديدة فطبقوها على تربية الماشية والزراعة والصناعات الصغيرة. وهكذا بذروا البذرة التى أثمرت مع الوقت أقاليم محددة المعالم ومميزة بطابعها الحضارى الإسبانى وكانت أبرزها بويبلا دى لوس آنخيليس.

وفى ذلك الإطار، لم يكن وصول جماعات الرهبان اعتباراً من عام 1524 أقل أهمية من وصول المستوطنين. وكانت تنتمى كل جماعة منهم إلى سلك كنسى بعينه (مثل الفرنسيسكان – الدومينيكان – الاغوسطينيين). كذلك لا ينبغى أن نقلل من أهمية أن كل جماعة من تلك الجماعات قد بدأت تدريجياً فى ترسيخ قواعد مذهبها أو قواعدها الكتابية المقدسة والإدارية الكنسية فى كل محلة جرى اخضاعها. وكان رجال الدين يتمتعون بمكانة عظيمة كما كانت أهميتهم الأساسية تكمن فى أنهم كانوا يقدمون التبريرات العقائدية للغزو، إذ إنه فى إطار الفكر المسيحى فإن التبرير العقائدى للغزو لم يكن مقبولاً إلا إذا سيقت الحجة على أن الهدف النهائى للغزو هو تغيير ملة أو دين أولئك الوثنيين. وفى الواقع العملى فإن الرهبان – أو بمعنى أصح الرهبان العقائديين– كانوا يقومون بمهمتهم بمساعدة الوكلاء أو النظار وخاصة الوكلاء أو النظار الذين كانوا من أبناء البلاد الأصليين. علاوة على هذا، فإن الرهبان كانوا يعتمدون على الجزية فى تسيير أمور معيشتهم. وبناء على هذه القواعد التى كانوا يعملون من خلالها وعلى الحماس الشديد الذى كانوا يخدمون به قضيتهم، فإنهم قد استطاعوا أن ينشروا خلال وقت قصير ممارسات دينية مختلفة مثل التعميد وحضور القداس (الذى كان يقام بمصاحبة الموسيقى والأناشيد والاحتفالات المختلفة) فضلاً عما تقتضيه المسيحية من تقديس القديسين. كذلك عملوا على الأخذ بالقواعد والمبادئ المسيحية بالنسبة للتعامل مع الأمور الجنسية والزواج.

أدت تلك الأحداث المشار إليها إلى سلسلة من الملاحظات التى أضحت علامة مميزة لأوائل سنوات العصر الاستعمارى. وأولى تلك الملاحظات تقول بأن عالم أمريكا الوسطى قد شهد تحولات جذرية على الرغم من أنه قد شهد أيضاً وجوداً واستمرارية لما كان قائماً فيها من قبل. وأكثر ما يلفت النظر في هذا هو الحفاظ على وجود واستمرارية "المحلة" ومن يقوم على شئونها باعتبارها حجر الزاوية فى الحكم المحلى وفى جباية الجزية وفى التنصير. ولقد كانت استمرارية كيان المحلات بديهية فى كل محلة عقدت تحالفات مع الغزاة، فظهر هذا جلياً

فى محلات تلاكسكالا (حيث ظلت تتمتع بأوضاع متميزة طوال عصر الاستعمار)، ومع هذا فقد ظهرت تلك الاستمرارية فى محلات من تلك التى جرى اخضاعها بالقوة حيث أنها بمجرد أن انتهت الأعمال الحربية، قام الإسبان بتنصيب ساداتها من الوكلاء أو النظار الجدد أو من المتحالفين معهم ومن ثم فقد ظلت مؤسساتهم فى المحلات مستمرة فى القيام بدورها.

وتفسير هذه الاستمرارية بسيط جداً: كانت أعداد الإسبان قليلة وكانت قدرتهم على الفعل محدودة. فعلى الرغم من أن السيادة والسيطرة كانت ملك أيديهم، إلا أنه لم يكن فى استطاعتهم (بل فى الواقع أنهم لم يكونوا يريدون) الاضطلاع بمهام الحكم التى لا نهاية لها وحكم بلد يتسم بالتنوع وترامى أرجائه. ومن ثم فقد برز تساؤل: كيف إذن يستكملون أهدافهم وكيف السبيل إلى الحصول على الثروات وغيرها من المنافع، وكيف يفرضون القيم التى أتوا بها، وكيف يحافظون على مستوى مقبول من الأمان لأنفسهم؟... لم يكن ليتحقق لهم هذا إلا بتفويض غيرهم للقيام بتلك المهام والأعمال التى لا يستطيعون القيام بها، أى فرض نظام غير مباشر للسيطرة. وقد أتاحت لهم أمريكا الوسطى هذا، سواء من خلال سابقة تجربة التحالف الثلاثى (الذى كان يقوم معظمه على أساس السيطرة غير المباشرة) أو لأن لديهم تجاربهم الخاصة بنظامهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى ينسجم مع غاياتهم. وكان محور هذا النظام يتمثل فى استمرارية نظام "المحلة ووكيلها أو ناظرها" وهو ما كان يعنى كذلك استمرارية مهام الحكم واستمرارية تسيير أمور العدالة واستمرارية الحفاظ على النظام والسيطرة، فضلاً عن استمرارية نظام العمل وجباية الجزية. وقد حققت تلك المبادئ النجاح المرجو بفضل صرامة سياسة كورتيس. ولعل هذا يحمل فى طياته مفارقة غريبة، لكن الواقع أن المئات من المحلات ووكلائها أو نظارها قد استمروا طوال تلك السنوات العاصفة دون أن يكون هناك أى تغير فى صلاتهم مع الحكم أو فى تركيبتهم الاجتماعية أو فى حياتهم الاقتصادية أو فى حدود أراضيهم أو فيما تحت أيديهم من ممتلكات أو بالنسبة لاستقلالهم الذاتى وحضارتهم الأساسية. وكانت مثل هذه "التسوية" فى نهاية المطاف مجدية بالنسبة لهم أو على الأقل كانت كذلك بالنسبة لطبقة الصفوة الحاكمة التى ظلت – ولو مؤقتاً– محافظة على وضعها المتميز.

كان التنازع فى العلاقات أكثر شدة بين الإسبان أنفسهم. فلقد تنافس الغزاة بضراوة فيما بينهم من أجل المواقع الأفضل: مثل المحلات(صيغة الجمع من: محلة) أو الدوائر التى كانت تدر أموالاً أكثر من غيرها من عوائد الجزية، أو يتنافسون للفوز بمناصب الحكم الكبرى. لقد أدى جشع البعض منهم أو افتقارهم إلى الشعور بالمسئولية أو العنف الذى كان يحرك الآخرين إلى إخماد صواب العقل والبصيرة. فما أن حل عام 1525 إلا وكان الإسبان قد انهمكوا فى نزاعات فيما بينهم حتى كاد مآل مشروع الغزو كله أن ينتهى إلى زوال. فتدخل التاج الإسبانى وعقد فى عام 1528جلسة أو محكمة عدل لها اختصاصات الحكومة كما وصل رجال دين للتدخل، فضلاً عن تدخل بعض المستوطنين وهو ما أدى إلى التلطيف من حدة عدم الاستقرار. وعلى الرغم من هذا، فأنهم قد بثوا أيضاً عناصر جديدة أدت بدورها إلى نزاعات أخرى وكان أكبرها متمثلاً فى شخص نونيو غوسمان (أو غوثمان) الذى ترأس حكومة مشئومة باعتباره الرئيس الأول للمحكمة وقام بعدها بغزو غرب أمريكا الوسطى بوسائل أكثر عنفاً وأقل حنكة سياسية مما كان يتبعه كورتيس... ولما كان شغوفاً وتحركه المطامع للاستئثار بما يجاور إسبانيا الجديدة، فقد بدأ غزواته بإعلان مملكة غالس الجديدة (مملكة نويبا غاليسيا) وعين لها حكومة خاصة بها فى عام 1531. وعلى الرغم من أن التاج كان قد اعترف بتلك المملكة رسمياً، فإنها لم تتمكن من توطيد دعائمها كمملكة مستقلة استقلالا تاما عن مملكة المكسيك.

ترسيخ الغزو

حدثت فى الفترة من عام 1530 وحتى عام 1560 تقريباً ما يمكن أن نطلق عليها فترة ترسيخ دعائم الغزو. إذ تعتبر هذه الفترة بالمقارنة مع سابقتها فترة هدوء إلا أنها وعلى الرغم من تمتعها بهذا الهدوء فإنها كانت تعانى تحت السطح من فوران شديد. والفقرات التالية ستقدم موجزاً لأهم سنوات فيها.

ينبغى فى المقام الأول وبشكل عام أن نذكر فترة السلام التى حلت كنتيجة لنهاية الحروب المستمرة التى كانت تقوم بين المحلات وبعضها باعتبارها ختاماً لمظاهر حروب الغزو ووقف النزاعات المسلحة بين الإسبان. لكنها تعزى بالإضافة إلى هذا أيضاً إلى صواب اللجوء

إلى نظام بسط السيطرة أو الحكم بالأسلوب غير المباشر المشار إليه سلفاً. وكانت هناك استثناءات لهذه الأحداث التاريخية، وقد قعت أحدها فى يوكاتان حيث استطال وتأخر أمد عملية الغزو، والأخرى كانت فى نويبا غاليسيا (مملكة غالس الجديدة) نتيجة لسياسة غوسمان التى أدت إلى انتفاضة الكاسكان (cascanes) أو حرب الميكستون (guerra del Mixtón) التى جرت موقعتها فى الفترة من عام 1540- 1542 إلى الشمال من خاليسكو.

والمظهر الثانى من مظاهر توطيد دعائم الغزو تجلى - على الرغم من أنه يشكل إحدى المفارقات - فى إزاحة الغزاة من كبار المسئولين من المناصب الرسمية التى كانوا يتولون فيها سدة السلطة وإحلال غيرهم فى أعلى دوائر الحكومة من المسئولين الذين يعرفون القراءة والكتابة (أو لأن سلوكهم كان أكثر تحضراً). ولقد كان هذا بمثابة إقامة حكومة مدنية، وهو ما أدى إلى الشعور بالأسى بين الغزاة. لكن التاج فرض نفسه وبعث فى عام 1535 بمن يمثله فى صورة أكبر سلطة يمكن وجودها، ألا وهو: الوالى (virrey) ويعنى فى الإسبانية حرفياً نائب الملك (vice-rey). وكان اختيار الولاة يتم من بين أبناء طبقة النبلاء العليا فى قشتالة.

كذلك فقد وضحت مظاهر توطيد السلطة فى ارتضاء البنادر أو المحلات - أى الوحدات الأساسية فى النظام السياسى فى عصر ما قبل الوجود الإسبانى - الخضوع لمنظومة الاحتلال. والواقع أن الأمر هنا يتعلق بعملية معقدة تأثرت بظروف مختلفة، منها ومن أهمها كذلك انتشار وباء جديد اعتباراً من عام 1545. وهذه المرة كان الأمر متعلقاً بوباء الحصبة وهو مرض لم يكن كذلك معروفاً فى أراضى أمريكا الوسطى. وقد أدى هذا الوباء إلى تقلص عدد السكان للمرة الثانية، بل وربما كان اجتياحه أخطر وأكثر انتشاراً بين السكان من الوباء السابق.

وبغض النظر عن تلك المأساة، فإن خضوع المحلات إلى المنظومة الكولونيالية قد اقتضى تغييرات عميقة، يمكن فهمها إلى حد ما على أنها الثمن الذى كان على المحلات أن تدفعه مقابل عيشها واستمرار وجودها. ولقد كانت الاختلافات الضخمة بين المحلات وبعضها انعكاساً تاريخياً لتنوع الظروف المعقدة فى عصر ما قبل الوجود الإسبانى، لكن الإسبان عملوا على إزالتها - من ناحية لأنهم كانوا غير قادرين على فهمها، ومن ناحية أخرى لرغبتهم فى

إضفاء التجانس على المشهد فى إسبانيا الجديدة. ولقد اتخذوا من أجل تحقيق هذا الهدف عدة إجراءات...

كان أول تلك الإجراءات يتمثل فى فرض نظام لمجلس يستوحى خطوطه من محليات مجالس الأعيان التى كانت قائمة فى إسبانيا وهو اجراء منطقى نظراً لأن كل مجلس كان معترفاً به كهيئة سياسية لها شخصيتها القانونية وحدود لأراضيه واستقلال ذاتى نسبى. وقد انعكس جزء من هذا الترتيب على قيام المحلة أو المحلات بإعادة تعريف نفسها على أساس كونها *قرية أو قرى للهنود* (على الرغم من احتفاظها بالشكل الذى كان قائماً عند أبناء الناهواس أى الناهواتل وكانوا يطلقون على القرية اسم محلة: ألتيبيتل *altépetl*). وكانت مجالس قرى الهنود تضم عمدة للمجلس ونواب يشكلون عضوية المجلس فيما يشبه بصورة أو بأخرى ما كان موجوداً لدى الإسبان. وكانت تلك المناصب محجوزة للنبلاء أو لمن كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة (أى من الأعيان) أما منصب الحاكم فقد كان يسند إلى الزعماء العسكريين. وقد تم سن نظام يحكم الانتخابات ويسمح بتداول السلطة بين مجموعات مختلفة أو بين أصحاب مصالح مختلفة كما أنشئت "الخزانة" أو صندوق المحلة على الرغم من أن المغزى الحقيقى من ذلك الصندوق لم يكتسب قيمته إلا رويداً رويداً بعد أن بدأ تعميم استخدام العملة. وعندما نتناول هذا الأمر نجد أن إنشاء الخزانة أو الصندوق كان يعنى أكثر من كونه مجرد اسم إذا أخذنا فى الاعتبار ما كان متبعاً فى عصر ما قبل وجود الإسبان. إذ إنه فى واقع الأمر كان تحولاً حقيقياً بل وكان موضع أخذ ورد...

وكان الاجراء الثانى يقوم على توحيد فئات الجزية بحثاً عن نظام أمثل يقوم بمقتضاه رأس كل أسرة فى قرية الهنود بأداء مثقالين ونصف مثقال (حوالى 5ر55 رطل) من الذرة إلى الوكيل أو الناظر أو - كما كان يحدث فى بعض الأحوال - إلى التاج مباشرة وذلك عن كل سنة، أو يؤدى نقداً ما يقابل نصاب كل منهم (ولا تدخل فى هذه الجزية الرسوم الأخرى المفروضة محلياً). وقد اقتضى ضبط هذا الاجراء وقتاً طويلاً (لأنه كان يستلزم تعميم تداول العملة أولاً) وبالطبع فإن أثر ذلك الاجراء قد تفاوت حسب ظروف كل مستوطنة أو محلة أو قرية. وكان النبلاء والأعيان يتمتعون بالإعفاء من تلك الرسوم كما كان التوابع الشخصيون لهم يتمتعون

بنفس الإعفاء من الرسوم الكثيرة التى كانت تطبق فى المحلات ومثلها فى هذا مثل الجزية الرسمية.

أما الاجراء الثالث فإنه كان يقوم على حث شعوب الهنود أو إجبارهم على تجميع أهلهم فى مستوطنات تتسم بطابع حضرى - كانت فى أصلها عبارة عن ميدان رئيسى وكنيسة ضخمة وشوارع مستقيمة - وهو النظام الذى استمر قائماً حتى اليوم. وبصفة عامة، فإن مناطق سكن الهنود كان يجرى تشييدها بنفس هذا النمط وعلى نفس السمات. وكانت المنطقة الرئيسية فيها تسمى "الرأس" والمناطق الأخرى تسمى "التوابع". وعلى الرغم من أن هذا الأمر كانت وتيرته تسير فى السنوات الأولى بصورة بطيئة جداً، إلا أن ذلك الاجراء أصبح فى نهاية المطاف واحداً من تلك العوامل التى رجّحت كفة قبول قرى الهنود للنظام الكولونيالى كما أسهمت فى التحولات التدريجية لهذا النظام.

ارتبطت عملية التنصير ارتباطاً وثيقاً بالإجراءات السابقة لأن الرهبان من أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة لم يكونوا بعيدين عن مسيرة الإجراءات المشار إليها. ولا ينبغى أن ننسى أن القرى الهندية كانت هى التى تشكل قاعدة العمل التى يمارس منها رجال الدين مهمتهم. فكان الرهبان يبنون الدير ويلحقون به كنيسة فى كل قرية من قرى الهنود (وكانوا يولون أفضلية لبنائها فى "الرأس") وكانوا يشجعون تقديس قديس بعينه تختص به كل قرية. علاوة على هذا فإنهم كانوا يتدخلون فى انتخابات هيئات مجالس القرى ويوجهون جزءاً كبيراً من الرسوم المفروضة للصرف منها على إقامة شعائر الدين. وقد أسهم كل هذا فى ترسيخ دعائم الهوية الجديدة لقرى الهنود وإبراز الدور المحورى الذى كانت تمارسه الكنيسة. وقد نجح الرهبان انطلاقاً من تلك البنية الدينية ومن بث تعاليم الدين فى الأطفال ثم تتابع الأجيال فى أن يحققوا (وأحياناً من خلال اللجوء إلى العنف) القضاء على الطقوس الدينية وكهنوت العصر السابق على الوجود الإسبانى أو على الأقل تهميش دوريهما. ولكنهم نجحوا فى الوقت نفسه فى ترسيخ دعائم الجوانب الايجابية لعملهم بنشر الثقافة والدراسات التاريخية واللغوية التى كانت لها أهميتها الخاصة. ونستطيع أن نلمس هذا فى أعمال الراهب فراى توريبيو دى موتولينيا والراهب فراى برناردينو دى ساهاغون. إضافة إلى هذا نجدهم يهتمون بتشييد أبنية أديرتهم الرائعة ذات القيمة الأثرية الكبيرة، حيث كان الهدف منها استقبال واستضافة

جموع القادمين من الناس وإنجاز مهامهم التى كانت تشكل جزءاً أصيلاً من مشروع الغزو والتثقيف.

ويأتى فى مقام آخر جانب جديد من جوانب مرحلة ترسيخ دعائم الغزو ألا وهو توثيق أواصر العلاقات مع العالم الخارجى على الرغم من أن توثيق تلك الأواصر كان محدوداً. فبالنظر إلى أن مقر التاج لم يكن يسمح لممتلكاته فى القارة الأمريكية بالتمتع بحرية إقامة مثل تلك العلاقات، فإن انتقال الأفراد والأموال ونقل الأنباء كان تحت سيطرة رقابة شديدة ويخضع للقيود ولفرض الرسوم وسلوك طرق وإجراءات بعينها. فكان ميناء أشبيلية فى إسبانيا هو الميناء الوحيد الذى يسمح من خلاله بإقامة اتصالات مع القارة الأمريكية، وفى نويبا إسبانيا كانت هذه الميزة الخاصة من نصيب ميناء فيراكروز. لكن التجارة مع دول المحيط الباسيفيكى كانت تحظى بحرية أكبر، كما قامت نويبا أسبانيا بإقامة صلات مع بيرو مستخدمة فى هذا موانئ مثل ميناء أواتولكو وميناء أكابولكو.

على الرغم من تلك القيود، فإن هجرة المستوطنين الإسبان كانت كبيرة. فقد وصل عددهم فى النصف الثانى من هذا القرن إلى 20000 مواطن. وقد تركزوا فى الأقاليم الداخلية (حيث أقاموا مدناً مثل مدينة أنتيكيرا ومدينة واخاكا ومدينة بلد الوليد ومدينة ميتشواكان)، لكنهم تفادوا الإقامة فى مناطق السلاسل الجبلية والمناطق الساحلية. وقد دعمت هذه المدن مكانتها كمراكز اقتصادية ومراكز للسلطة إلى جوار مدينة ميخيكو (مدينة المكسيك) ومدينة بويبلا (علاوة على وادى الحجارة – غوادالاخارا – فى نويبا غاليسيا ومدينة ميريدا فى يوكاتان). وقد أقيم فى كل منها مجلس يدير شئونها وكاتدرائية يرأسها أسقف (كما كان هناك مجلس مختلف هو المجلس الكنسى)، وقد شيدت أيضاً مساكن ذات طراز أوربى، وتطور الأسلوب الثقافى وتمايز فى خصوصيته. أما مدينة ميخيكو أى المكسيك فقد ظلت على القمة ولم يكن هذا بسبب ريادتها السياسية وإنما كان كذلك بسبب أهميتها الاقتصادية والثقافية (قامت بافتتاح الجامعة الخاصة بها فى عام 1553) إلا أن بقية المدن قد وسّعت من نطاق تأثيرها على مناطق أخرى وضمتها إلى أسقفيتها. وقد نشأت عن تلك المناطق بعد فترة من الزمن عدة مناطق إدارية جديدة خلال الحقبة الاستعمارية المتأخرة وهى التى شكلت ولايات الجمهورية المكسيكية فيما بعد.

ترتب على ما سبق بروز ظاهرة "المولدون" سواء بالمعنى البيولوجى أو بالمعنى الثقافى. وعلى الرغم من أن طائفة من الناس (وخاصة من الرهبان) كانوا يعترضون على الاتصال بين الهنود والإسبان وأن التشريعات كانت دائماً ما تكرس الفوارق بين البعض والبعض الآخر، فإن السكان من الجنسين (الإسبان والهنود) سرعان ما أقاموا علاقات وثيقة بينهم. وكانت العلاقات الجنسية غير الرسمية تشكل الغالبية الأعم فى تلك العلاقات ومع هذا فقد كانت هناك زيجات معترف بها وخاصة بين الإسبان والهنديات ممن كن يتمتعن بمكانة خاصة. وعندما حل عام 1550 كانت لغة الناهواتل (المنتمية إلى شعب الناهواس) ولغات أخرى تجرى بطلاقة على ألسن الكثير من المناطق التى يسكنها الإسبان. لكننا فى الجانب المقابل نجد أن عدداً ليس بالقليل من السكان الأصليين من الزعماء العسكريين والنبلاء سرعان ما خلعوا جلودهم واتخذوا من الإسبانية لغة لهم، كما وضعت بعض المدارس الدينية بين أيدى طبقة الصفوة من الهنود مناهج خاصة بعناصر الحضارة الأوروبية مثل البلاغة اللاتينية رغم أن هذا لم يستمر مدة طويلة. علاوة على هذا، يجب أن نضيف عنصراً جديداً ألا وهو انضمام أرتال عديدة من الأفارقة إليهم (حوالى 15000 أفريقى) جرى جلبهم كعبيد إلى إسبانيا الجديدة، وكانت غالبيتهم من الذكور وسرعان ما بدأ اختلاطهم بالهنديات.

جرت عملية الاختلاط أو الامتزاج بين الاجناس فى الوقت الذى بدأت فيه أنشطة اقتصادية جديدة تتوغل فى دائرة أمريكا الوسطى وبدأ الشعور بأثرها سواء على مستوى الداخل أو الخارج. ففى الداخل ظهر أثرها جلياً فى تربية الماشية (وخاصة تربية الضأن والأبقار) وإنتاج القمح والسكر وتربية دودة القز واستخراج الفضة من المناجم – وهو ما أدى إلى تحولات عميقة تركت بصماتها على البيئة – وفى الخارج ظهر هذا الأثر على تجارة إسبانيا وبيرو حيث تناولت عمليات التبادل التجارى تجارة الفضة والأصباغ الملونة والصناعات الصغيرة (المنسوجات – أدوات الحدادة – الأثاث). وفى الوقت نفسه ظهر سوق للعمل (خاصة فى أوساط أو مدن الحضر)، وظهرت وسائل جديدة للنقل (البغال كوسيلة عملية للنقل والجر) كما انتشر استخدام النقود التى بدأت المكسيك فى سكها اعتباراً من عام 1536. وبهذا جرى زرع بذرة اقتصاد رأسمالى ودخلت نويبا إسبانيا (إسبانيا الجديدة) إلى دوائر المبادلات الدولية.

أدى الطلب من جانب السكان الإسبان الذين أخذ عددهم فى التزايد والانفتاح على أطر ودوائر تجارية أخرى إلى تشجيع ظهور شكل خاص من الشركات الكبرى التى تعمل فى مجال الزراعة وتربية الماشية والدواجن وكانت ذات بنية تحتية قوية وأيد عاملة مقيمة ومستقرة وتنظيم فعال وأهداف واضحة لتحقيق الربح. وكانت مصانع تكرير السكر القائمة حول كويرناباكا أول مثل على هذا، حيث كانت تعتمد قوى عمالتها على العبيد من ذوى الأصل الأفريقى. وكان يمكن أن نرى فى كويرناباكا كيف كانت نشأة المزارع الكبرى التى كانت تعنى الكثير بالنسبة لأوساط نويبا إسبانيا التى تعيش فى الحضر.

وآخر تلك الإجراءات التى شاركت فى مرحلة ترسيخ دعائم الغزو تمثلت فى المشروع فى التوسع فى اتجاه الشمال حيث كان يتم هذا من خلال الحملات الحربية أو الحملات الاستكشافية التى كان يغذى بعضها الوهم فى العثور على الثروات التى كانت تنسب إلى تجوع سيبولا السبع" الخيالية، التى تقع فى مكان ما وسط القارة الأمريكية...، ولكن أقدامهم قادتهم إلى مناجم الفضة فى ساكاتيكاس *(Zacatecas)* الواقعة داخل أراضى نويبا غاليسيا، وكان ذلك فى عام 1548. وقد أدى هذا إلى وصول أعداد كبيرة من الناس من كل حدب وصوب وصنف إلى ذلك المكان وما حوله (كان يسكن تلك المنطقة فى سابق العهد قبائل من مقتطفى وجامعى ما يقتات به) وهو ما اقتضى مد الطرق وفلاحة مناطق زراعية جديدة وزيادة أعداد الماشية.

والواقع أن السلام كان قد حل فى معظم أرجاء نويبا إسبانيا، إلا أن هذا لم يكن يعنى غياب الصراعات، فقد كانت موجودة بالفعل وبشدة ولكنها كانت تحسم بدون صخب كبير. وبينما كانت السنوات السابقة شاهدة على أحوال الاتصال "الهندو- إسبانية" فى الفترة من 1530 – 1560، كان الشغل الشاغل هو تحويل نويبا إسبانيا إلى شيء أعظم من مجرد حلم راود قلوب الغزاة.

كانت هنالك بالطبع مشاريع كثيرة تهدف إلى بناء البلاد، وأدت كثرتها إلى إيقاظ نغمة المصالح بما فيها من اختلاف وتنوع. وقد اختص الإسبان أنفسهم بواحد من ثلاثة مشاريع رئيسية. كان أول تلك المشاريع نابعاً من الخبرة المكتسبة من أولى اتصالاتهم وكان حجر الأساس فيه ينهض كما شرحنا من قبل على استمرارية المحلات التى كانت قائمة خلال عصر

ما قبل الوجود الإسبانى، حيث انتهت مصائر أهمها لتصبح فى أيدى نظام الوكالة أو النظارة أو انتهت إلى أيدى رجال الدين أو إلى أيدى الزعماء العسكريين. أى أنه وبمعنى آخر كان على نويبا إسبانيا أن ترسخ دعائم وجودها كمجتمع يتولاه بلاط "المحلات"، أى كمجتمع مغلق ومحافظ، وتكون السلطة واتخاذ القرارات فيه بين أيدى تلك الطبقة من الشخصيات من أصحاب الحظوة. علاوة على هذا فإن حجتهم كانت تقوم على أن الغزاة يجب أن يحصلوا على المكافأة، وأنه ليس هناك أحد ينبغى أن يكافأ على "الإيمان" أفضل من الرهبان لأنهم كانوا يدعون إلى عقيدة الإيمان، ويضاف إليهم الزعماء العسكريون الذين كانوا يشكلون الفئة التى لا غنى عنها أبداً من أجل فرض السيطرة.

وعلى الرغم من هذا فقد كان هنالك من الإسبان من لا يفكر بمثل تلك الطريقة وخاصة الإسبان من سكان الأرض الجديدة وكان عددهم فى ازدياد... فلقد كانوا من حيث المبدأ يطالبون بأرض يختصون بها أنفسهم وحكومة تمثلهم نظراً لأنهم وكما هو منطقى لا ينبغى لهم أن يظلوا تحت إمرة الوكلاء أو النظار. ولما كانت لهم الغالبية بالنسبة لأعداد المقيمين فى المدن الجديدة فإنهم كانوا يفضلون "سيناريو" آخر يقوم على أساس مدن لكل منها مجلس قوى ويتمتع باستقلال ذاتى ونوابه هم من يقومون على شئون المدينة. كما كانوا يريدون أن يتوافر لهم الحصول على الأيادى العاملة من بين الهنود ولكنهم كانوا يصطدمون بالوكلاء أو النظار وبالرهبان وبالزعماء العسكريين الذين كانوا يحتكرون تلك الأيدى العاملة. وبالنسبة إلى الكنيسة، فإنهم كانوا يريدون أساقفة ورهباناً من العلمانيين. كانوا يريدون لنويبا إسبانيا أن تكون أكثر شبهاً بإسبانيا نفسها وهو ما كان يعنى مجتمعاً أكثر انفتاحاً وأكثر تحرراً، كما كانوا يريدون أن تكون لهم سيطرة مباشرة وموجهة لاستغلال الثروات.

أما المشروع الثالث فقد كان ذلك المشروع المتعلق بالتاج الذى كان يقبل بمنحهم مساحة للحركة إزاء الفئات المذكورة فى الفقرة السابقة ولكن مع إيلاء كل الاعتبار لإقامة حكومة مركزية قوية، بحيث ألا تقتصر مهامها على حكم الهنود وحدهم بل والإسبان كذلك. وعلاوة على هذا، فإن على تلك الفئات أن تقوم بالوفاء بمهمتها الجوهرية فى أن تبعث إلى التاج غالبية الموارد الناتجة عن الجباية والرسوم التى يتم تحصيلها من البلاد ومن المقيمين

فيها. ويبدو أن السيطرة على الإسبان كانت تكتنفها مصاعب جمة، لأن غالبية الإسبان الذين عبروا المحيط الأطلسى كانوا مدفوعين بالطموح بل وكانوا متمردين.

ولقد كان التاج يعرف أنه على الرغم من سلطاته، فإنه كان يفتقر إلى الوسائل الفعالة لكى يمارس نفوذه: كان لا يستند إلى جيش ولا إلى بيروقراطية إدارية. فكان إذا أراد فرض قوانين أو فرض تعيين بعض كبار المسئولين أو الحد من تطلعات بعض الوكلاء أو النظار أو الرهبان أو السيطرة على بعض محليات مجالس الأعيان أو المدن التى تخالجها نوايا عدوانية، فإن التاج كان يلجأ إلى وسائل تتحلى بالسياسة أو يلجأ إلى التحلى بالصبر. والواقع أن التاج كانت يداه مغلولتين وهو ما تجلى فى عام 1543 بقيام معارضة ضد محاولة التاج فرض سلسلة من القيود من خلال عدد من التدابير والإجراءات تحت مسمى "قوانين جديدة". فقد أدى الشعور بالضرر الذى حاق بالمصالح المحلية فى بيرو إلى الثورة التى أدت إلى اغتيال الوالى... وقد استوعب والى المكسيك أنطونيو دى ميندوثا الدرس فقد أدرك أن عليه أن يرخى للزمن حبال الزمن... فدعا إلى إصدار تشريعات مضادة للـ "قوانين الجديدة" وترك المواجهة بشأن هذا الأمر للناس، لكى يتدخل هو فى آخر لحظة ويقوم بدور الحَكَم بينهم... لقد أدرك أن هذا الأسلوب فى الحكم هو أفضل الأوضاع السلمية مع أولئك الإسبان الذين شقوا عصا الطاعة فى إسبانيا الجديدة. وقد برهن على هذا حين أوجد فى عام 1549 صيغة تحقق للمستوطنين منافع تتعلق بالجزية (وهو يعرف باسم"سجل الحصص المخصص للمستوطنين الإسبان – وهو يقوم على نظام للعمل الإجبارى وإن كان مدفوع الأجر، وتقوم به الشعوب الهندية لصالح أولئك المستوطنين) وذلك دون أن يسمح بالاعتقاد بتفسير هذا الإجراء على أنه جزء من حركة موجهة إلى الوكلاء أو النظار.

تمتع "مشروع التاج" بظروف مواتية له إذ إن الديناميكية الاقتصادية والتوسع جهة الشمال قد وهبا للمشروع صمام تنفيس لأكثر المستوطنين طموحاً ولأولئك الذين كانوا يشعرون بعدم الرضى. فقد أدى إلى تفادى مواجهات خطيرة ومحتملة مع الشعوب الهندية، بل ومن المحتمل أن مثل تلك المواجهات لم يكن من الممكن تحاشيها بسبب تفاقم نقص الموارد. كما أتاح المشروع أمام الهنود مجالاً واسعاً للاتجاه بقوة نحو تربية المواشى. بل وأكثر من هذا، فإن الهنود قد وجدوا فى تلك الديناميكية الاقتصادية وفى نمو البلاد منافع لهم فاستفاد بعضهم من ازدياد الطلب على العمالة، كما استفادوا أيضاً من الحرية الفردية التى لم يشعروا بها فى

السابق. ومن ثم فقد بدءوا فى الانتقال إلى المدن، كما أن الكثير منهم رحلوا إلى الشمال. كذلك فقد استفاد المولدون من تلك الفرص، إذ كانت تشيع بينهم مرونة حضارية فطرية تتيح لهم الاستقرار فى أى مكان بكل ارتياح.

انتهاء مرحلة التكوين (1560–1610)

نجح التاج فى ترسيخ أسس مشاريعه ونظام حكمه فى الفترة من 1560– 1610 تقريباً. وتتضمن تلك الحقبة أحداثاً مختلفة وبالغة التعقيد، والكثير منها فتح أمام إسبانيا آفاقاً لا سابق لها. ولعلنا نستطيع القول بأن هذه الحقبة قد قدمت لنا عربوناً للمستقبل لحقبة ستتميز بالوضوح كل الوضوح عما سبقها من حقب. مع هذا، فإن ما يحدد الإطار السليم لتلك الأحداث هو أنها قد أسهمت فى مجملها فى وضع الخطوط النهائية لتلك العملية التى صاحبت مرحلة التكوين فى نويبا إسبانيا.

وقد تميزت بداية تلك الحقبة بانطلاقة للتوسع جهة الشمال لهذا كانت تعرف باسم مرحلة "الانطلاق فى الأرض نحو الداخل" حيث كان الحافز الأكبر فى إنجازها هو العثور على مناجم الفضة التى كانت لها ثمارها المباشرة التى تضاف إلى ثمرة الفوائد التى نجمت أيضاً عن تربية الأبقار والماشية. وكان ما دفع الولاة إلى أن يضعوا خطوط نظمهم الخاصة بالاحتلال وإقامة حكومة منفصلة فى عام 1562 فى المناطق الواقعة شمال زاكاتيكاس هو إمكانية أن تكون ثمرة كل هذا لمصلحة نويبا غاليسيا على حساب مدينة المكسيك. وقد حافظت هذه الحكومة التى أطلق عليها مملكة نويبا بيسكايا أو بيثكايا (وهى الآن دورانغو وتشيهواهوا وسونورا والجزء الأكبر من سينالوا) على شكل من أشكال الحكم الذاتى، لكنها كانت– فى واقع الأمر– تمثل امتداداً لنويبا إسبانيا نفسها، فضلا عن أنها كانت تعنى أيضاً الحفاظ على المصالح. ولدى انتهاء تلك الحقبة، ظهرت إلى الوجود كذلك عدة حكومات منفصلة مميزة عن غيرها من حكومات المناطق التى جرى احتلالها فيما بعد طبقاً لمخططات حكومة الوالى، وهى: نويبو ليون ونويبو ميخيكو (نيو مكسيكو أى المكسيك الجديدة).وهذه التقسيمات الإدارية مازالت قائمة فى جوهرها حتى الآن.

شهد قلب نويبا إسبانيا نمواً كبيراً وكانت ثمرته المباشرة ظهور الاندماج السياسى والاجتماعى والاقتصادى للمناطق المحتلة فى بعضها البعض خلال الفترة الأولى من التوسع جهة الشمال. والمغزى الذى ينطوى عليه هذا النمو هو أنه حدث فى مناطق هى فى الأصل بعيدة عن أمريكا الوسطى، كما أنها أعطت لنا بعد فترة وجيزة صورة عن أكثر المناطق دينامكية – بل وكانت فى الوقت نفسه أكثرها ثراءً – فى نويبا إسبانيا، ويطلق على تلك المنطقة مصطلح الـــ "باخـــيُو". وقد أدى إنشاء الكثير من المستوطنات العديدة في هذه المنطقة إلى قيام ما نعرفه بالمزرعة الشاسعة أو الشركات الزراعية الكبرى وإلى زيادة تربية المواشى والأبقار باعتبارها عنصراً أساسياً من عناصر اهتمامات الاحتلال.

اقترن ذلك التوسع بولع وحمى إنشاء المدن الجديدة سواء كانت فى منطقة باخيو أو فى الشمال فظهرت مدن مثل: دورانغو (1563) ومدينة سانتا باربارا (1567) ومدينة خيريس وهى بالعربية شريش (1569) ومدينة سيلايا (1571) ومدينة زامورا (1574) ومدينة أغواسكالينتيس (1575) وسلمنكه وتقال فى العربية شلمنقة (1602) وسانتا فى (1609) وغيرها من المدن التى بدأت تفقد أهميتها مع مرور الزمن، رغم أنها ما زالت باقية. فضلاً عن هذا، فإن جماعات من الهنود قد قامت بدورها بإقامة مناطق فى تلك الأجزاء من البلاد، اقتصر العيش فيها على أبنائها الهنود من السكان الأصليين للبلاد. وقد قدموا للعيش فى تلك المناطق من تلاكسكالا ومن ميتشواكان اعتباراً من عام 1591.

مع تدفق الإسبان صوب الشمال انطلقت حلقة أخرى من حلقات العنف على الرغم من أنها كانت محدودة وأقل شدة عما شهدته البلاد خلال الحقبة الاستعمارية. ونعنى بها حرب التشيتشيميكا حيث جرت العادة على إطلاق تلك التسمية على عدة مواجهات مع القبائل شبه الرحالة فى "أراضى الداخل" التى كانت تتصرف وتقوم بغاراتها بمعزل عن غيرها من سكان البلاد. ولعل مثل هذا الأمر كان من الممكن ألا يقع لو كانت قد طبقت عليهم نفس المنظومة التى جرى تطبيقها فى منطقة أمريكا الوسطى. ولكن كان التباين الحضارى الكبير بين الإسبان وتلك القبائل التى لم يكن لها تنظيم سياسى مستقر أو نظام جباية يطبق عليها، هو ما منع التوصل إلى حل قابل للتطبيق، فضلاً عن أن طموح الإسبان كان لا رابط ولا حد له، بل كان يوجه اهتمامه إلى أسر أبناء البلاد الأصليين واتخاذهم عبيداً له (برز هذا بشدة فى ليون). ولقد

حاولت الحكومة أن تفرض إرادتها، فأنشأت سجوناً عسكرية كفلت لها ممارسة السيطرة على القاطنين فى تلك المناطق، لكن هذا أدى إلى تصاعد موجات من العنف. ولم ينته ذلك الصراع إلا عندما قام الوالى المركيز بيـــيَـــاماتريكى بتطبيق سياسة سلمية اعتباراً من عام 1585، بعد أن وقعت عمليات إبادة للكثير من القبائل. مع هذا، فقد شاع العنف فى الشمال ولم يمض وقت طويل إلا وقد اشتعل التمرد الذى طالت جذوته سكان الشمال (مثلما حدث تماماً مع الأكاشيس عام 1600 ومع التيبيهوانيس عام 1616).

كانت تلك السنوات كارثية بصفة عامة بالنسبة لأبناء البلاد من سكانها الأصليين، إذ لم تقتصر الكوارث على أبناء الشمال وحدهم... فقد حل بأبناء البلاد الأصليين وباء ثالث – ربما كان التيفود – وذلك فى الفترة من عام 1576–1581، فقد ضرب هذا الوباء تعدادهم السكانى فى مقتل ليهبط عددهم الكلى إلى أقل من مليونين من البشر بل وأدى إلى الدمار الشامل والنهائى للكثير من القرى فى المناطق السفلى وفى المناطق الساحلية من البلاد. ولقد كانت أقدار أولئك البشر قد كتبت عليهم أيضاً أن يتقلص عددهم بعض الشيء مرة أخرى خلال العقود التالية، إلا أن أعدادهم بدأت تزداد مرة أخرى مع السنين ولكن ببطء شديد.

كانت الأيام التى كان يمكن أن يجد عالم الإسبان فيها نفسه غارقاً تحت وطأة غالبية من سكان البلاد الأصليين من الهنود كانت قد ولّت مع الماضى الذى ولى. ففى سنة 1600 تقريباً وبدون أن نتحدث عن الفوارق الإقليمية، كنا نجد بإسبانيا واحداً من كل أربعة أو خمسة من السكان فى نويبا إسبانيا أو كان على أقل تقدير أحد من استوعبوا الحضارة الإسبانية. لكن نسبتهم كانت أكبر من هذا فى نويبا غاليسيا وفى يوكاتان، فى حين أنها كانت أقل من هذا فى غواتيمالا وفى يوكاتان حيث كان الوجود الإسبانى ضعيفاً.

كان لتقلص عدد السكان نتائجه على عدة مستويات. وكان أكثر ما لفت الانتباه فى هذا ذلك النزوح التدريجى لوكلاء ونظار ودعاة وزعماء دينيين بعد أن شعروا أن سلطاتهم ودخلهم المادى قد تضرر. فقد أدى تعاقب الأجيال إلى سهولة إزاحة الوكلاء والنظار من مواقعهم التى كانوا يشغلونها، ثم إن جباية الرسوم والجزية بدأت تأخذ طريقها إلى خزانة الحكومة. أما الدعاة الرهبان (ممن كانت الكنائس التى ينتمون إلى مذاهبها قد أخذت طريقها إلى الانهيار) فقد

حل محلهم رجال كنيسة من "العلمانيين" التابعين للأساقفة، فى حين أن الزعماء العسكريين عانوا التهميش والفقر ولم يقدروا على مواجهة بروز مجموعات جديدة تولت السلطة داخل قراهم ومحلاتهم، وعندما حل القرن السابع عشر كان قد جرى استبعادهم من غالبية هيئات البلاد.

ومن المفارقات التى وقعت فى ذلك الوقت وخاصة فى سنوات الغزو الأخيرة فضلاً عن الوباء الكاسح الذى حل بالبلاد، هى تلك المفارقة التى تمثلت فى قيام الرهبان بإنجاز تلك الأعمال المعمارية الرائعة (التى ما زالت تعد فى الواقع نتاجاً لظروف الغزو) وتطور عناصر الفنون المرتبطة بذلك المعمار مثل: فن التصوير وفن الأيقونات وفن النحت، الخ. وهكذا فإن تلك المجموعة من الأعمال التى انتصبت فى تناغم وتناسق فى العديد من قرى ومدن الهنود الموجودة فى وسط المكسيك (فيما عدا المنطقة السفلى من المكسيك باستثناء تشياباس ويوكاتان) قد أعلنت عن الفصل الأول فى "تاريخ الفن الكولونيالى الرائع فى المكسيك".

وهكذا وبعد أن استفادت الحكومة المركزية من انحسار مد المجموعات التى كانت لها السيطرة خلال سنوات الغزو، استطاعت تلك الحكومة أن ترسخ دعائمها بشكل نهائى وأن تؤكد سيطرة الوالى ومجالس الحكم، إضافة إلى توطيد سيطرة السلطات المختصة المنوط بها المسئوليات الحكومية، فضلاً عن تأكيد نفوذ غيرها من السلطات القائمة على تنفيذ مشروع سيطرة التاج.

فى نفس الوقت كانت الهيئة الكنسية التى نأت بنفسها عن الغزو وسيطرت الحكومة عليها قد مكنت لنفسها وعلا شأنها بسبب الامتيازات التى منحها البابوات إلى الملوك الإسبان (وهى التى تشكل ما يسمى بالأوقاف أو الرعاية الملكية). وفى هذا الصدد فقد كانت الكاتدرائيات تتلقى هى والأساقفة الدعم بفضل الدخل المتحصل من العشور وهى ضريبة كنسية كانت تفرض على الإنتاج الزراعى للمستوطنين الإسبان، حيث يزداد إجمالى المتحصل منها كلما ازداد عدد الإسبان.أما وصول الجيزويت فى عام 1572 فقد كان له مغزاه الكبير، إذ إنهم لم يكونوا يتدخلون فى الإدارة الدينية لأبناء البلاد الأصليين (فيما عدا المنطقة الشمالية) وإنما كانوا يركزون جهودهم على تعليم الإسبان وخلق صفوة من رجال الفكر.

وفى المجال التجارى، جرى فرض نظام مغلق وحمائى أضر بنويبا إسبانيا كما أضر بباقى الممتلكات الإسبانية فى القارة الأمريكية. وقد تجلى هذا فى اشتراط أن تتم التجارة عبر الأطلسى من خلال قصرها على أسلوب بعينه. إذ إنه ومنذ عام 1561 جرى وضع نظام لها بحيث تتم التجارة من خلال نظام الأساطيل، حيث يقتضى أن تتم التجارة بصورة رسمية وفى رحلة سنوية واحدة تسافر فيها البواخر معاً فى حراسة قوة مسلحة على أن يجرى حساب محتويات حمولاتها بكل دقة ثم اخضاعها للضرائب. ومن ثم فقد نشأت فى أشبيلية نقابة أو جمعية للتجار كان يطلق عليها مصطلح "قنصلية". ومع أن التجارة لم تكن قط تجارة حرة، فإن فرض "نظام الأسطول" فى التجارة قد زاد من القيود المفروضة عليها كما جعلها أكثر كلفة. وفى المقابل من كل هذا، فقد كان التهريب أكثر إغراءً...

اعتباراً من عهد الملك فيليبى الثانى (1556 – 1598) استعاد الإسبان – وبالتوازى مع الخط السابق – حلمهم القديم فى الوصول إلى آسيا عبر المحيط الهادى. وقد استطاعوا أخيراً أن يحققوا هدفهم حيث أقلعوا من ميناء نابيداد فى عام 1564 وفتحوا لهم طريقاً عملياً باستقرارهم فى مانيلا عام 1571. ثم اكتسبت التجارة عبر المحيط الهادى أبعاداً جديدة مع جزر الفلبين التى أصبحت من توابع نويبا إسبانيا. فكانت السلال المصنوعة من الخيزران الوارد من كانتون (الصين) تحمل إلى مانيلا التوابل والبهارات والحرير والأوانى المصنوعة من البورسلين فيشتريها الإسبان بالفضة المكسيكية ثم يرحلون بسفنهم ويرسون فى ميناء أكابولكو لتفريغها. وكانوا يستخدمون فى الابحار مراكب تعرف باسم"الغليون" فى رحلة سنوية تخضع لتعليمات التاج.

كان ميناء أكابولكو أيضاً نقطة اتصال للتجارة مع بيرو. وبالنظر إلى بلوغ التجارة فيها مستوى مشابهاً لتجارة نويبا إسبانيا، فإن ازدياد مبادلاتها التجارية عبر المحيط الهادى قد وصل إلى أعلى درجاته. وقد تجاوزت قيمة المبادلات التجارية التى تجرى عبر المحيط الهادى فى أواخر القرن السابع عشر حجم قيمة المبادلات التى كانت تجرى ما بين فيراكروز وأشبيلية. ونظراً لأن المبادلات عبر المحيط الهادى كانت متفقة مع مصالح شبه جزيرة إيبيريا، فقد قام التاج بالحد من تجارة بيرو مع المكسيك، ثم حرّمها فى عام 1631 ثم عاد وسمح بها بعد ذلك بثماني سنوات ولكن بشرط ألا تتضمن نقل بضائع صينية.

اقترن النمو التجارى فى نوبيا إسبانيا بميلاد طبقة الصفوة من التجار الأثرياء. فتشبه أعضاؤها بأقرانهم فى أشبيلية وأنشأوا فى عام 1592 قنصلية لهم فى المكسيك. فأصبح بين أيديهم أمر تسيير شئون الاتصالات الملاحية فى كلا المحيطين فضلاً عن التحكم فى الواردات وبالتالى التحكم كذلك فى الأسعار فتحولوا إلى محتكرين للبضائع والأموال، وازداد نفوذهم السياسى والاقتصادى باطراد. ثم بدأ التاج يميل إلى تحريم إنتاج بعض السلع الاستهلاكية فى القارة الأمريكية (مثل أدوات وعدد الحدادة والنبيذ والورق والمنسوجات الراقية). وعلى الرغم من أن الهدف من هذا يبدو وكأنه حماية لأصحاب الصناعات الإسبان، إلا أن الواقع كان يحمل فى باطنه تنازلاً أمام المصالح الجشعة لأولئك التجار الذين لم يقنعوا بما لديهم من امتيازات فزادوا من أرباحهم بالاستفادة أيضاً من التهريب...

• • •

رأينا مما سبق أن ما أحاط بالغزو من ظروف قد مضى وولى وراء الظهور وحلت محله منظومة للسيطرة الكولونيالية. وتبنَّـت قرطبة سياسة لاستغلال الموارد تتميز بمفهوم شامل وتخضع للواقع ولتعقيدات ومصالح عالم الإسبان... إنها سياسة بعيدة عن جو القيود والقلاقل التى يفرزها الغزاة والوكلاء والنظار... سياسة بعيدة كذلك عن اهتماماتهم تجاه الهنود من أبناء البلاد الأصليين الذين جعلوهم ضالعين بل وأخضعوهم لمشروعاتهم ومثالياتهم التى حملوها معهم إلى أمريكا، ومصداق هذا ما سارت الأمور عليه عندما جرى التخطيط لعملية التنصير.

لقد شهد النصف الثانى من القرن السادس عشر ذرف دموع الترحم على "عالم الغزو" الفقيد، الذى كان قد أوجد لنفسه جذوراً فى ماضى الإسبان وكان على حساب الحضارة التى كانت قائمة فى الأرض الجديدة قبل الغزو الإسبانى لها. ثم ينفتح المجال بعد هذا أمام أولى خطوات معالم نظام جديد فى جوهره...

قامت شخصية نوبيا إسبانيا بشكل كبير على استمرارية "الحقبة السابقة على الغزو الإسبانى" ولكن هذا لا يعنى أن وجود تلك الحقبة كان وجوداً جامداً... ولعل المرء قد فطن إلى الشروخ العميقة التى أثرت على تلك الاستمرارية. ونضرب على هذا مثلاً بأفُـول عهد الزعماء

العسكريين. علاوة على هذا، فإن "التحولات" قد بدأت تزداد وتتراكم لكى تفسح الطريق أمام عالم كان قد ابتعد مع مطلع القرن السابع عشر عن ذلك الماضى بصورة جلية وواضحة. كان وراء إسبانيا تسعون عاماً من الخبرة التى تحمل من وجهة النظر الإسبانية عوامل النجاح فى جوهرها. ولم تكن مشاكل عالم ما قبل الغزو الإسبانى قد تم حلها تماماً مثل مشاكل التبعية السياسية والسيطرة الاقتصادية والتعايش بين الناس واعتناق دين آخر وغيره، بل الواقع أنه قد جرى تجاوز تلك المشاكل فقط. أما ما أحاط بالاحتلال نفسه من أحوال وظروف تمثلت فى المشاكل التى خلقها الإسبان واستمروا فى خلقها حتى فيما بينهم، فإنه قد جرى التعامل معها بإجراءات كانت تسمح بأن "تؤخذ تلك المشاكل فى الاعتبار" وإذا لم يمكن تجاوزها فلتظل على أقل تقدير تحت السيطرة. إن من يتابع منظور التاريخ القومى يستطيع أن يستشف السمات الجوهرية لكل الخليط والعناصر التى شكلت الهوية لتلك الدولة التى حققت استقلالها فى عام 1821، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار توسعها جهة الشمال.

ينبغى أن نبرز المكانة التى كانت تحتلها نوبيا إسبانيا على مستوى العالم. فإن إنتاجها من الفضة (الذى كان يماثل ما تنتجه بيرو) لم يكن استنزافه على يد إسبانيا وحدها بل على أيدى جانب من بلاد أوروبا كذلك، فضلاً عن أن الهدف النهائى لإسبانيا كان سداد الديون الكبيرة التى كانت تثقل كاهل العرش ثم الحصول على ما كانت تحتاجه ولا تستطيع أن تنتجه. ولقد كانت الآثار التى خلفها على الاقتصاد الأوروبى ذلك المعدن "المسفوح" آثاراً ضخمة.

وعلى صعيد آخر، كان يجرى تداول العملات الفضية لنوبيا إسبانيا فى الصين (إذ كان تداول العملات المكسيكية معتاداً حتى القرن التاسع عشر) بل ووصلت تلك العملات عن طريق دوائر تجارية أخرى حتى الهند وإلى أماكن أخرى فى آسيا. وجدير بالذكر أن إحدى السفارات التجارية اليابانية عندما وصلت فى عام 1610 إلى المكسيك رأت أن كل شيء أمامها يدل على أن نوبيا إسبانيا أو على الأقل جانباً منها يحتل نقطة محورية فى تلك الخيوط المتشابكة التى تربط بين أرجاء الكون، وكان هذا مدعاة للدهشة بالنسبة لليابانيين خاصة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا تلك العزلة التى كانت تلف أمريكا الوسطى قبل ذلك ببضع عشرات من السنين... إضافة لهذا، فإن التبادل المشار إليه لم يكن تجارياً صرفاً بل اقترن أيضاً بتبادل ثقافى عظيم حيث وصل كلاهما إلى بيرو نفسها. لكن نوبيا إسبانيا كان من قدرها أن تصطدم خطواتها

بالإحباط، وبالذات فى نفس التوقيت الذى كان من المفترض أن تأخذ فيه مكانتها بين كبريات الدول.

ولعله ليس من التزيـد فى شيء ملاحظة أن إسبانيا قد شهدت فى نفس الوقت تقريباً تغيراً جوهرياً. كانت زيادة وتفعيل تحصيل الأموال أحد الدوافع التى حدت بالتاج الإسبانى إلى مد وتوسيع نطاق نفوذ جهازه الإدارى، وهو الموضوع الذى ازدادت أهميته بالنسبة لإسبانيا التى كانت تئن تحت وطأة سوء الحكم وزيادة الديون والفقر، فحاولت السعى للتعافى من آثار الصدمة النفسية التى كانت تعانى منها بعد هزيمة "أسطولها الذى لا يقهر" على يد الإنجليز فى عام 1588. فقام النقاد والمصلحون الاجتماعيون (الذين كان يطلق عليهم تعبير أهل الحل والعقد) باقتراح وتطبيق مبادئ للحكم وتقديم "الحلول" التى ترمى إلى تفادى أو على الأقل الحد مما كانت تراه الأعين فى جميع أرجاء إسبانيا، ونعنى بهذا: نهاية هيمنتها الاستعمارية الذى عوضه تألق وبزوغ "العصر الذهبى" الأدبى فيها ثم ميل ميزان السلطة إلى صالح بلاد شمال أوروبا، وهو ما كان يعنى بالنسبة للممتلكات الإسبانية فى القارة الأمريكية الاضطرار والرضوخ وبصورة جوهرية لمطالب اقتصادية متزايدة تفرضها تلك البلاد...

عصر النضج والحكم الذاتى والالتقاء مع العالم الخارجى (1610 - 1760)

انقضى فى التاريخ الاستعمارى بعد المراحل الثلاث التى عرضنا لها ما يمكن أن نطلق عليه عملية التكوين، ثم يبدأ ميلاد عناصر فترة النضج، بعد أن ظهرت مع مشرق تلك المرحلة وحتى منتصف القرن مرحلة تميزت بتفاعلاتها الكبيرة.

فلقد بات واقعاً أن الإنجليز والفرنسيين والهولنديين (الذين كانوا قد تحرروا قبل هذا بقليل من السيطرة الإسبانية) قد أصبحوا هم سادة البحار. وتجلى التوازن الذى فرضته القوى الجديدة عند إنشاء "الشركة الهولندية للهند الغربية" التى شكلت تهديداً للبواخر الإسبانية فى المحيط الأطلنطى وفى المحيط الهادى. ثم قامت القطع الحربية الهولندية بأسر أسطول البواخر

التجارية الإسبانية المغادرة لميناء فيراكروز وهو ما كان يعنى أفول شمس إسبانيا كما أدى إلى خسائر كبيرة لتجار المكسيك. وأصبح غياب الأمان فى الطرق البحرية مشكلة مزمنة...

وإزاء هذا المشهد وضع "أهل الحل والعقد" الذين كانوا قد وصلوا إلى السلطة فى شخص الكونت ـ الدوق أوليباريس (وكان من محاسيب الملك فيليبى الرابع) برنامجاً إصلاحياً طموحاً يشمل جميع أرجاء الامبراطورية. ثم جرى تكليف أحد الولاة وهو الماركيز خيلبيس للقيام بتنفيذ ذلك البرنامج فى نويبا إسبانيا وأوكلت إليه مهمة تحسين حصيلة الأموال ومكافحة التهريب والوقوف أمام أصحاب المصالح الشخصية. إلا أن ذلك الرجل كان يفتقر إلى الحس السياسى فتصرف بحماس شديد يفتقر إلى الحكمة والروية واستخـف بالتطلعات المحلية وهو ما وضعه فى عداء مع أقوى جماعات السلطة فى نويبا إسبانيا: مجالس المَحَلات ومجلس أعيان مدينة المكسيك والقنصلية (جمعية التجار) وكبار رجال السلك الكنسى، إلخ. وعندما وقعت المواجهة بينه وبين أسقف الكنيسة أصبح وضعه لا يقبل الاحتمال...

وكان التخلص منه حدثاً جللاً فى التاريخ الكولونيالى، فلقد جرى خلعه فى عام 1624 فى انقلاب دبره ونفذه مجلس الوكلاء الذى استغل إحدى الفترات الحرجة وطرده من السلطة بكل العنف والقسوة بحجة وقوع أحداث شغب شعبية. والمغزى الواضح من تلك الواقعة هو أن السياسة فى نويبا إسبانيا كانت تدار حسب ما تقتضيه قواعد اللعبة السياسية فى نويبا إسبانيا نفسها. وعلى الرغم من أن الحكومة المركزية كانت فى الواقع راسخة الأقدام حقاً، إلا أنها كانت أبعد ما تكون عن كونها مجرد كتلة صماء قامت لتكرس نفسها لخدمة عاصمة التاج. ورغم أنها كانت تعترف بسلطة الملك، إلا أنها كانت فى واقع الأمر أيضاً تضع حدوداً لتلك السلطة. فلقد كان الإسبان فى نويبا إسبانيا يعتزون بوجهات نظرهم ويغلبون مصالحهم الذاتية... وكان الوقت قد حان للتحديث وحث المسيرة على السير قدماً نحو أحد تلك المشروعات التى جرى التخطيط لها فى فترة "التكوين أو التكون" فى نويبا إسبانيا: كان هذا المشروع يتعلق بالمستوطنين وهو مشروع يسعى لإقامة مجتمع أكثر انفتاحاً وحرية وأقرب شبهاً بمجتمع حاضرة التاج. مجتمع المجال فيه مفتوح لكى تقوم المحلات بمجالسها من النواب والأعيان بدورها ويقوم فيها السلك الكنسى العلمانى بدوره وكذلك المزارعون والعاملون والمشتغلون باستغلال المناجم والتجار.

ثم كان على التاج أن يقبل بالواقع... لأنه إن لم يقبل به، فإنه يخاطر بأن تكون الخسارة أفدح. علاوة على هذا، فإن التاج كانت له أولويات أخرى ومن ثم فإنه كان فى حاجة إلى النوايا الطيبة من طبقة الصفوة المحليين. وكانت إحدى الأولويات تتمثل فى دعم ما أسموه فى حينه *"وَحْـدَة الأسلحة"* وهو نظام أو هيكل للتمويل تطالب فيه أكثر الهيئات ثراء فى الامبراطورية بالإسهام بمبالغ مالية كبيرة لمساعدة التاج. كما قام التاج فى عام 1635 بتشكيل هيئة الدفاع البحرية فى الكاريبى وأطلق عليها *أسطول بارلوبينتو*، على أن تتولى نفقاته مجالس الأعيان والتجار فى المكسيك. كذلك ازدادت ما كانوا يطلقون عليها *"الماليات"* وهى عبارة عن دعم مالى لإقامة التحصينات ودفع نفقات أجهزة الدفاع فى الأراضى الواقعة خارج نويبا إسبانيا.

وقد أدت تلك الإجراءات إلى نقص الأموال التى كانت تبعث بها نويبا إسبانيا إلى أشبيلية، وعلى العكس من هذا فقد ظلت الأموال ترسل إلى كل من: جزر الفلبين - كوبا - سانتو دومينغو - جامايكا - فلوريدا. وقد وصلت المبالغ المالية المخصصة لهذا الغرض إلى حوالى نصف الإيرادات المالية فى نويبا إسبانيا. وكانت الأموال التى ترسلها بيرو إلى حاضرة التاج تعوض ذلك النقص، وكانت بيرو تعيش فى ذلك الوقت أزهى وأكثر لحظات حياتها ثراء.

كان على نويبا إسبانيا أن تعتاد على التعايش مع المشاكل التى سببها لها الضعف الذى كانت عليه حاضرة التاج وأن تضطلع داخل الامبراطورية أيضاً بالدور الجديد الذى أعطته لها تلك الحاضرة، وهو ما يعنى أن على مجالس المحليات والتجار والشركات الكبرى أن تظل جيوبها مفتوحة... لكن هذا الأمر لم يكن سيئاً فى مجمله بالنسبة لهم ... بل على العكس فإنه قد دعم موقف المجالس والتجار والشركات فى التفاوض لكسب ميزات ليست باليسيرة، فضلاً عن التفاوض بشأن أوضاع اختلطت فيها الأمور السياسية الكبرى مع أمور أخرى ذات طابع محلى.

كانت أهم تلك الأمور هى تلك التى حدثت حين أغرقت المياه مدينة المكسيك لمدة خمس سنوات اعتباراً من عام 1629، وقد اكتسبت أهميتها نتيجة للتداعيات السياسية التى أفرختها تلك الكارثة وما نتج عنها من تغير فى المشهد الاقتصادى فى نويبا إسبانيا. كانت

المشكلة كبيرة كى يمكن إنقاذ المدينة من المياه وتطبيق الوسائل التى تساعد على تصريفها من حوض المدينة. وقد صرفت مبالغ كبيرة من أجل فتح أنفاق وقنوات لكن تلك الأموال لم تكن كافية بالطبع. وأدى هذا إلى توجيه اتهامات سياسية حادة (مثل اتهام الوالى المخلوع بأن شهوته فى التوفير قد أدت إلى أن يأمر بإلغاء مشروعات الأشغال العامة الحيوية الضرورية لتصريف تجمعات المياه). كما أدت إلى تقديم مطالب عاجلة لإعادة توزيع مهام العمل (من أجل إنجاز وتوسيع نطاق أشغال تصريف المياه) التى ألحقت الضرر بكل قرى الهنود الذين كانوا يقيمون فى منطقة وسط المكسيك. وكانت هناك اقتراحات بنقل المدينة من مكانها إلى مكان آخر مستواه أعلى قليلاً ويقع على شاطئ البحيرة ولكن "مصالح البعض" حالت دون ذلك... وفى غضون هذا استفادت بويبلا من تلك الظروف فتحولت وفى وقت قصير إلى أنشط مركز للتجارة والصناعات الصغيرة فى البلاد.

جعلت النتيجة غير المباشرة لغرق المدينة من المستحيل السكوت على "نظام توزيع حصص العمل للغزاة" الذى كان معمولاً به منذ عام 1549. وكانت الحكومة فى حاجة إلى أيد عاملة لأعمال تصريف المياه العاجلة مما اضطرها فى عام 1632 إلى تطبيق بعض الضوابط وكان أهمها استبعاد المستوطنين الإسبان من الانتفاع من مزايا نظام توزيع الحصص، رغم صعوبة اتخاذ الوالى لمثل هذا القرار، فلقد كان يعنى بالنسبة له أن يفقد سلاحاً كان يستفيد منه كعنصر من عناصر الضغط (على سبيل المثال فقبل هذا ببضع سنوات كان مجلس بويبلا قد أعلن الامتناع عن الإسهام فى "وحدة الأسلحة" ولكنه غير رأيه بعدما بلغه التهديد بحرمان أعضائه من الحصص التى توزع عليهم). وقد أبدى المستوطنون الإسبان امتعاضهم لبعض الوقت، لكنهم كانوا هم الفائزين فى نهاية المطاف بعد أن انفتح أمامهم سوق العمل المتحرر من القيود الحكومية. وقد حدث هذا وبالتحديد فى نفس الوقت الذى أصبحت فيه الأيدى العاملة نادرة ومطلوبة بشدة نتيجة لنقص عدد السكان.

بُذلت المحاولة الأخيرة للإصلاح السياسى فى عام 1640 أى قبل قليل على إزاحة المجموعة التى كانت تعمل على تطبيقه من سدة السلطة فى إسبانيا. وجرت تلك المحاولة على أيدى خوان بالافوكس أسقف بويبلا الذى أسندت إليه فى عدة مناسبات أعلى المناصب فى الحكومة المدنية ومنها منصب الوالى. واجه بالافوكس تعقيدات الأوضاع فى نويبا إسبانيا

بفطنة وذكاء وسعى إلى إيجاد توازن بين أصحاب لعبة المصالح. ولكنه لم يستطع تفادى المواجهات التى كان عليه أن يتغلب عليها فاضطر للعودة إلى إسبانيا فى عام 1649. وقد تحولت معركته مع الجيزويت بخصوص امتيازات الأساقفة إلى فضيحة سياسية حقيقية. وأدت أصداء تلك القضية وأضرارها إلى زعزعة الاستقرار وهو ما أدى إلى وضع نقطة النهاية لما كان قد تبقى من رغبة التاج فى الإصلاح. ثم تحول بالافوكس بدفاعه عن رجال الكنيسة العلمانيين إلى بطل للمشروع السياسى والاجتماعى للإسبان فى نويبا إسبانيا وما ترتب عليه من نتائج.

أسهم التاج فى القضية التى سنتحدث عنها وتتعلق بالأزمة الاقتصادية والمالية. فبالنظر إلى المأزق الذى حدث بسبب الأموال فى مواجهة عدة اعتبارات أخرى، كان من الضرورى أن تعطى الأزمة المالية أولوية خاصة. وقد ساند التاج بعض الإجراءات الحكومية التى كانت تضمن وفراً فى المصروفات الإدارية وتضمن كذلك إيرادات مؤكدة. وعلى الرغم من هذا، فإن تلك الإجراءات كانت محل جدل بسبب ضرورة الوقوف أمام مصالح البعض ومواجهة استخدام تلك الأموال بأسلوب يفتقر إلى النزاهة. وأبرز تلك الإجراءات تمثل فى "بيع بعض الوظائف العمومية" بمعنى أن تتنازل الحكومة وتمنح للخاصة امتياز تولى وظائف إدارية مدنية بعينها أو تبيع وظائف تتبع الخزانة العامة إلى الغير مثل وظائف الكتبة العموميين (أى وظيفة الموثق العمومى) وتوزيع البريد وإدارة دار النقد وتحصيل الجزية (أى وظيفة المأمور القضائى والعموديات الكبرى) وتحصيل ضريبة البيوع (التى كان امتياز تحصيلها لزمن طويل من اختصاص رئيس مجلس الأعيان فى المكسيك ثم تكفلت القنصليات بعد هذا بتحصيلها). ثم عُرض للبيع أيضاً نفس منصب رئيس مجلس الصفوة أو الأعيان كما كان بيع الوظيفة للمشترى مدى الحياة أحياناً. وكانت الوظيفة تعرض للبيع أمام من يتقدم بأعلى سعر لها، ومن البديهى أن السعر كان يختلف حسب قلة أو كثرة الفائدة التى يستطيع أن يتحصل عليها المشترى من ممارسة تلك الوظيفة أو حسب مكانة الوظيفة. وقد فتحت تلك الإجراءات الباب أمام عائلات من نويبا إسبانيا لدعم مكانتها وزيادة تدخلها فى شئون الحكومة.

من ثم فقد شهدت تلك المرحلة صعوداً تدريجياً لإسبانيين مولودين فى نويبا إسبانيا إلى مراكز إدارية ذات سلطة ونفوذ (كان يستثنى منها أعلى المناصب فقط) وبناء عليه فقد

شهدت بالطبع صعودهم التدريجى إلى مدارج الثراء. والواقع أن إطلاق صفة "إسبانى" كانت إما بسبب صلة قرابة الدم أو بالميلاد. لكنه كان من الطبيعى أن تختلف وجهات نظر ومصالح المنتمين منهم *إلى شبه جزيرة إيبيريا* عن وجهات نظر ومصالح *المولودين فى القارة الأمريكية* أى الكرينويوس (وهو مصطلح لا يستبعد أناساً تختلف فيهم نسب اختلاط الدم). وكانوا يختصون أبناء شبه جزيرة إيبيريا باكتساب أو شراء المناصب التى تجلب الفائدة والمكاسب (وإن كان هذا لا يحدث بالضرورة دائماً). وفى الوقت نفسه فإن عجز إسبانياعن ممارسة سلطاتها فى فرض القيود قد أتاح فى ذلك الوقت للكرينويوس مزيداً من حرية الحركة.

وتميزت تلك الحقبة أيضاً بالازدهار الثقافى الذى نبعت أسسه من دور مختلف المدارس والمعاهد التعليمية (وخاصة معاهد الجيزويت) إضافة إلى الجامعة كما تم توفير الموارد المالية المخصصة لنفقات بناء الكاتدرائيات وكنائس الأحياء والمناطق السكنية الحضرية وعمل لوحات وأعمال فنية يتجلى فيها فن التصوير وفن النحت والكتابات الأدبية والتأليف الموسيقى، الخ. فألقت تلك الحقبة وراء ظهرها فنون بيئة الحقبة التى عاصرت الغزو - وكانت فى غالبيتها بيئة ذات طابع ريفى - لتحل محلها مظاهر فن الحضر. فبرزت نتيجة لهذا صور من الثقافة الهجين ومن أهمها الكتاب التاريخى لفرناندو دى ألبا إكستليلسوتشيتل (ألفه قبل عام 1625) الذى يمجد فيه الماضى السابق على فترة الوجود الإسبانى. وتشيع فى روح الكتاب نفحات قصائد يعود تاريخها إلى فترة أقدم من هذا التاريخ. ومن تلك القصائد قصيدة "عظمة المكسيك" لبرناردو بالبوينا الذى يتغنى فيها بجمال وقيم نويبا إسبانيا. يضاف إلى هذا أن هوية نويبا إسبانيا يمكن أن نشهدها كذلك فى انتشار أديرة الراهبات خلال القرن السابع عشر، وكان نظامهن الكنسى يقوم على التأمل والانعزال الكامل ويختلف نظامهن الكنسى فى هذا عن الأديرة المخصصة للرهبان.

وأخيراً، لا ينبغى نسيان التقدم جهة الشمال الذى اكتسب دفعة قوية جديدة فى عام 1631 بعد اكتشاف مناجم الفضة فى بارّال. وفى تلك الحقبة أيضاً، امتد التوسع جهة الشمال إلى سينالوا وسونورا بتأسيس بعثات تبشيرية تقوم بمهامها من خلال منشآت يتولاها الفرنسيسكان والجيزويت وكان هدفها إعادة تأهيل وتغيير ديانة السكان الأصليين إلى المسيحية فى كل المناطق التى يجرى احتلالها. وكانت تلك البعثات التبشيرية تعتمد على البدء فى تقديم

المساعدات إلى مستوطنة بعينها ثم تكرر البعثات تطبيق نفس النظام وعلى نفس الصورة التى قامت بها من قبل فى المستوطنات القائمة بالفعل فى وسط البلاد، ثم تنتقل بعد هذا إلى مستوطنة أخرى لتكرار نفس الدور. وقد نجحت بعض تلك البعثات فى تحقيق أهدافها ولكن بعثات أخرى لم تثابر أو اضطرت لأن تلجأ إلى القوة لكى يظل معتنقو المسيحية الجدد على مسيحيتهم. كذلك فقد واجهت عدة بعثات بعض المواقف التى تمرد فيها الأهالى عليهم كما حدث مع أبناء تراومارا فى عام 1648.

وقد شهد الشمال أيضاً إقامة معاقل جديدة للحاميات وإقامة مواقع عسكرية ومستوطنات مدنية جديدة.

دخلت نويبا إسبانيا مرحلة النضج التى تميزت بخصائص مختلفة. وبداية، فإن أى جماعة من الجماعات التى وضعها التاج فى هيكل الحكم كانت لها سلطاتها اللازمة لكى تتولى تحريك خيوط السياسة. ورغم أن الحكومة المركزية كانت قد رسخت بالفعل دعائمها إلا أن الاختصاصات ودوائر نفوذ الولاة والمجالس لم تكن محددة تحديداً تاماً وكانت متداخلة مع بعضها البعض، بل وكانت هناك نقاط صراع وتنازع مع السلطات الكنسية وسلطات محاكم التفتيش ومع مجالس المحلات نفسها.

كان تفتت السلطة قد بدأ بالفعل منذ أيام كورتيس ولكن حدة ذلك التفتت اشتدت كنتيجة للتدابير والقوانين التشريعية المتعارضة التى أعطت الشكل أو الهيئة (بل بالأحرى أعطت "نصف" شكل أو نصف هيئة) لمؤسسات الحكم. ولعل السلطة لم تكتف بهذا وإنما كان التاج يقرر من حين لآخر إرسال "زيارة" وهو إجراء كان يقتضى إرسال أحد كبار المسئولين من إسبانيا مباشرة وهو يحمل تعليمات واسعة النطاق بصورة أو بأخرى للتفتيش ومراقبة سير الأمور. ولم يكن هناك أبداً أى خط فاصل يوضح من هو صاحب السلطات الأعلى: هل "الزائر" أم "المزور" ؟... وكان بالافوكس على سبيل المثال "زائراً" كما كان فى الوقت نفسه والياً. وينبغى أن يضاف إلى ذلك أيضاً هلامية الحدود مع المناطق المتاخمة وحدود الاختصاصات الإدارية والقانونية. وهكذا تحولت الأمور إلى مراكز ثقل أو قوى تقابلها مراكز ثقل أو قوى

أخرى، وهو ما أدى إلى إزكاء اختلاف الاتجاهات والأفكار فانكشفت المصالح – ولكن فى إطار الاعتراف بالسلطة العليا للتاج – وإن كان هذا لم يمنع أحياناً من تباعد تلك المراكز عن التاج.

لم تكن نويبا إسبانيا أرضاً مثالية كى يقيم فيها التاج الحكومة التى تلبى كل رغباته. فقد كان عليه – وحسب ما تقتضيه الظروف– أن يعطى هنا ويأخذ من هناك ويتنازل هنا ويفرض هناك. ومع ذلك فلم يحقق النتيجة المرجوة، لكن النتيجة على أى حال لم تكن كارثية. والواقع أن نظام مراكز الثقل التى تقابلها مراكز ثقل أخرى كانت نتيجته فى واقع الأمر فى مصلحة التاج ولم يذهب الجهد فيها سدى، فقد كفلت للتاج أن يحافظ على أملاكه سلمياً خلال تلك المدة الطويلة.

لم تكن منظومة السلطة نتاجاً عارضاً، وإنما نشأت عن المفهوم السائد عن ممارسة السلطة فى العالم الإسبانى. وكانت السلطة فيه ترتكز على أساس إقرار سلطة العدل أكثر من قيامها على إقرار السلطة التنفيذية. فكان تطبيق العدالة من الاختصاصات السامية للملك وممثليه ومفوضيه – بدءاً من الولاة وانتهاءً بمن يشغلون منصب المأمور القضائى وكبار العمد – وكانوا يمارسون مهامهم كلٌ فى مجال اختصاصه. ولهذا فقد كان من الشائع أيضاً إطلاق اسم *"قضاة"* عليهم. وكان سن التشريعات يجرى طبقاً لما تتطلبه القضايا، كما كانت التشريعات تمنح كبار المسئولين هامشاً واسعاً للكتمان والكياسة والحكمة فى تطبيقها. وعند تنفيذ التشريعات كان يجرى وقف التجاوزات المحتملة (وقد كانت شائعة) حينما كان الأمر يتعلق بالقضايا التى تحدث خلال فترة الإقامة فى نويبا إسبانيا. ففى مثل تلك القضايا كان جميع ممثلى التاج بمن فيهم الولاة خاضعين للرقابة العامة لدى انتهاء المهام المنوطة بهم. وكانت تفرض غرامات كبيرة على ما يرتكبونه من أخطاء وعلى استغلال النفوذ. وعلى الرغم من الأخطاء إلا أن تطبيق ذلك النظام قلما سجل لنا أحداثاً تتسم بالطغيان وحينما كان يكتشف إحداها كان يجرى حل المسألة بسرعة مناسبة.

وفى المقام الثانى نجد أن نظام مراكز الثقل ومراكز الثقل المضادة لها جعل من غير الضرورى الأخذ بخيار "النظام الشمولى" الذى يقوم على القوة المسلحة وذلك بسبب خطورته وتكلفته الكبيرة. وعلاوة على هذا فإن إسبانيا لم يكن فى مقدورها تطبيقه فى امبراطورية

واسعة الأرجاء مثل إمبراطوريتها. ولم تكن الأسباب وراء هذا تختلف عن الأسباب التى كانت تقف وراء نظام السيطرة غير المباشرة على المحلات (أو البنادر) التى كانت قائمة منذ عصر ما قبل الوجود الإسبانى.

وينبغى أن نأخذ فى الحسبان أن المفهوم السائد فى العالم الإسبانى خلال تلك السنوات كان يركز على المشاركة من جانب جميع الهيئات. وكان الأفراد يكتسبون مقاماتهم ومكانتهم من خلال انتمائهم إلى هيئة من الهيئات، حيث كانوا من خلال المكانة التى تميزهم يدخلون فى اللعبة السياسية. وقد وصلت نويبا إسبانيا إلى مرحلة النضج فى ذات الوقت الذى رسخت فيه تلك الهيئات لنفسها مكانة صلدة كما حددت مجالات عملها، وينسحب هذا على الهيئات التالية: مجالس الوكلاء أو النواب – مجالس الأعيان – القنصليات – هيئات السلك الدينى – قرى السكان الأصليين من الهنود – الجامعة – نقابات الحرفيين والمشتغلين بالأعمال الزخرفية الفنية، إلخ. وكان لكل هيئة مع ما لها من شخصية قانونية تمثيل الجماعة التى تنتمى إليها وتدافع عنها. وكانت تلك الهيئات تتنازل بعض الشيء أحياناً فى بعض النقاط – تماما مثل التاج – لكى تكسب فى نقاط أخرى. ومن الطبيعى أن نجد أيضاً تبايناً وخلافات فى المواقف فى قلب تلك الهيئات فقد كانت كل هيئة صورة مصغرة من عالم المجتمع الذى تعيش فيه. وقد بدأ الاختلاف والخلافات فى الظهور فى هيئات نويبا إسبانيا بين الكريويوس وأبناء شبه جزيرة إيبريا منذ حلول القرن السابع عشر بعد أن مالت اللعبة السياسية ناحية مصالح الكريويوس لأنهم عرفوا كيف يستفيدون من الثقل الذى يمثلونه داخل الهيئات. كما كانت الأحوال الاقتصادية قد ابتسمت لهم.

عاشت نويبا إسبانيا منذ منتصف القرن السابع عشر سنوات حصاد الثمار والازدهار – أو على الأقل هذا ما كان يتمتع به الإسبان. فقد شهدت المناجم نمواً مطرداً كما لقى إدخال وتربية الماشية وزراعة القمح نجاحاً كبيراً، كما نجحت غيره من الزراعات لتفتح الباب أمام صناعات كانت أوروبية الأصل. وأنتجت المطاحن كميات كبيرة من الدقيق وانتشر بين أبناء مجتمع نويبا إسبانيا استهلاك الخبز المصنوع من دقيق القمح، كما بدأت تدور عجلة معاصر قصب السكر ومصانعه لتزويد السكان بالسكر.وتجاوز عدد دكاكين الحرف والأشغال الصغيرة المئات وازدادت أيضاً المنشآت الخاصة بإنتاج المنسوجات التى يعمل في كل منها حوالى

خمسون عاملاً. وعلى الرغم من الأهمية التى تمثلها هذه الأعمال، إلا أن أكبر حصيلة على الإطلاق لمبالغ الإيرادات كانت مرتبطة بالأنشطة الاقتصادية المنتشرة فى نويبا إسبانيا مثل التجارة وخاصة تجارة ما وراء البحار. على الرغم من هذا فإن الأمور لم تكن سيئة بالنسبة للكثير من قرى الهنود، إذ كان انخراطهم فى الدوائر التجارية الجديدة يعود عليهم بالفوائد، وكانوا يحصلون على أسعار جيدة من بيع منتجاتهم (وخاصة صبغة الكوتشينيلا قرمزية اللون وكانت تستخرج من حشرة تعيش فى الصبار أو السنديان) أو من خلال سيطرتهم على جانب من نشاط الانتقال بالبغال والنقل.

وفى مقابل هذا المشهد، كان الوضع الاقتصادى السيئ للتاج يتعثر. فكلما كان التاج يجد نفسه غارقاً فى المصاعب الاقتصادية كانت تتقلص مصالحه. ونتيجة لهذا كان الشغل الشاغل لعاصمة التاج هو تحصيل أكبر قدر من الأموال من خلال فرض الضرائب والتبرعات الكبيرة وبيع الوظائف فاستطاع أن يتحصل على الكثير من الأموال، ولكن هذا كان على حساب التنازل عن جانب من سلطاته – مع العلم بأن تلك السلطات كان قد نجح التاج فى اكتسابها حين قلّص سلطات الوكلاء أو النظار ورجال الدين المسيحى والزعماء العسكريين خلال القرن السادس عشر– مع الأخذ فى الاعتبار أن ذلك التنازل كان لصالح فئة بيروقراطية من أبناء الطبقة الوسطى المؤلفة من التجار وأعضاء مجلس الأعيان، وكانوا بصفة عامة من طبقة الأقلية الحاكمة محلياً. أى أن الحكومة بعبارة أخرى قد دفعت الثمن لمن قام بدعمها، ومغزى كلمة "الثمن" هو: السماح بتقاسم السلطة بصورة واسعة وهو ما يعنى من منظور أبناء نويبا إسبانيا وجود مستوى له قيمته من مستويات الحكم الذاتى... والواقع أنه إذا أضفنا هذا إلى حقيقة أن إسبانيا كانت تعتمد على ممتلكاتها فى القارة الأمريكية لكى تظل محتلة لمكانتها (الضعيفة) فى المشهد الدولى، فإن كفة الميزان تصبح مائلة ميلاً شديداً لصالح نويبا إسبانيا– أو على أقل تقدير لصالح الصفوة المحظية...

الازدهار ومداه

طفت إلى السطح فى نويبا إسبانيا سلسلة تطورات شديدة التعقيد وبشكل خاص اعتباراً من الربع الثانى من القرن السابع عشر على الرغم من أن بعضها كان فى طور المخاض منذ

سنوات سابقة على هذا التاريخ. وتقدم لنا هذه المرحلة من تاريخ نويبا إسبانيا أدلة لا جدال فيها على المدى الذى وصلت إليه تلك التطورات. ومع هذا فقد كانت هنالك حدود لها...

وتجدر الإشارة إلى معـــلم من معالم تلك المرحلة – التى تعد فى الوقت نفسه استمراراً للمرحلة السابقة – ألا وهو: تجـذُّر وتطور الهوية الذاتية التى زرعت في صلبها وبكل نجاح تلك المقومات التى تنتمى إلى الحضارة الأوروبية مثل الأدب والموسيقى التى تعتمد فى عزفها على أكثر من عازف من الموسيقيين، كما نشأت فيها من ناحية أخرى مقومات وأنماط وأساليب فنية تنتمى إلى نويبا إسبانيا بشكل لا لبس فيه وظهرت بجلاء فى فن المعمار. وعلى سبيل المثال فإن الراهبة (الأخت) سور خوانا إينيس دى لا كروث التى يعود إنتاجها الأدبى إلى الفترة من عام 1680 إلى عام 1695 قد أصبحت من الشخصيات الأدبية التى تحتل الصف الأول فى الأدب الإسبانى، وعلى الرغم من أنها لم تغادر المكسيك مطلقاً فإن العالم أجمع يعترف لها بقيمتها ومكانتها الأدبية حتى يومنا هذا. وعند الحديث عن الإنتاج الموسيقى، نجد أن المجالس الكنسية قد قامت بدور كبير عندما تحمست للغاية لتشجيع مثل هذا الإنتاج. كذلك فقد أسهمت تلك الهوية فيما شهدته نويبا إسبانيا من عظمة وروعة المعمار وفى الديناميكية والحماس الذى ساد المراكز الحضرية التى تمتع أغلبها بعشرات من سنوات الإستقرار والنمو. أما "الكنيسة العلمانية" فقد جعلت غايتها الوصول إلى أكثر الأماكن تميزا فى كل مكان وفى أى مكان فيه بشر على الأرض، ووطدت حضورها فيه من خلال منشآتها المعمارية الجديدة التى استلهمت خطوطها المعمارية من فن البارُوك. وقد نافست فى عظمتها وروعتها أديرة الرهبان المنديكان القديمة (التى كانت شبه مهجورة). ولقد كان بديهياً أن الدين كان يسيطر على المشهد الثقافى – وكان يحصره أيضاً – ومع هذا فهنالك شواهد لا يمكن إغفالها عن رجال الدين، وهى تتحدث عن مدى معرفتهم بالعلوم وخاصة العلوم المتعلقة بالمناجم والكوزموغرافيا والرياضيات، والدليل عليها أعمال الراهب فراى ديبغو رودريغيث، وكارلوس دى سيغوينثا، وغونغورا.

إضافة إلى ما تقدم وخلال تلك المرحلة، وصلت بعض عناصر الحضارة إلى درجة النضج أو تفردت بالوصول إلى درجة النضج. ويمكن تعريف تلك العناصر الحضارية على أنها تنتمى إلى نويبا إسبانيا، أو تنتمى إلى المكسيك إذا طبقنا عليها منظورنا الذى نتعامل به فى

عصرنا هذا مع مثل تلك الأمور. ومن تلك العناصر:المطبخ – الملبس – الأثاث – اللغة – الموسيقى الشعبية – الرقصات – الخ. وقد اشترك فى كل هذا عمليات امتزاج وتفاعلات الحضارات التى استوعبت بصورة عظيمة تلك المقومات والعناصر التى كانت موجودة فى عصر ما قبل الوجود الإسبانى فى المكسيك كما أضيفت إليها عناصر إسبانية وكذلك آسيوية وإفريقية لاحقة على ذلك العصر (وقد ظهرت تلك العناصر على سبيل المثال فى انتشار استخدام الحرير والعاج والمصنوعات الخزفية فى بويبلا وفى الألعاب النارية وفى الذوق الشعبى وعشق شرب القرفة فضلاً عن بعض المظاهر الموسيقية). وكان استخدام العبيد من ذوى الأصول الإفريقية للخدمة المنزلية سببا أضاف إلى حياة الحضر نغمة جديدة. وقد اتخذ اشعاع تلك الظواهر الثقافية عدة مسارات. وعلى سبيل المثال فقد بـــَعدت لغة الناهواتل خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر عن الكثير من صيغها فى التعبير، وهذه الصيغ كانت متداولة قبل عصر وجود الإسبان فى الأمريكتين. كما شكلت بعض الظواهر الأخرى طابعاً بيئياً، إذ إن انتشار تربية المواشى على سبيل المثال قد أدى إلى ثورة زراعية (لأن استخدام الصوف والاستهلاك العادى للحوم قد غير فى ملبس ونظام غذاء السكان الأصليين للبلاد) كما أدى إلى أن تسهم تربية الماشية والحيوانات ونفاياتها إلى تغير دائم فى أنظمة الزراعة التى كانت موجودة من قبل.

تركت خصوصية حضارة نويبا إسبانيا الاهتمام بالشعائر الدينية ماثلاً بجلاء أمام الأعين بعد الصعود الذى شهدته تلك الحضارة وخاصة التكريم والتقديس للعذراء مريم. وقد احتل تكريم وتقديس عذراء غوادالوبى الصدارة على ما عداها وخاصة فى عام 1648 حيث بدأ اسمها وتقديسها ينتشر فى جميع أرجاء نويبا إسبانيا انطلاقاً من قدسها الأصلى القائم بالقرب من مدينة المكسيك.

وفى المجال الاقتصادى تجدر الإشارة إلى المظاهر التى وردت سلفاً عند الحديث عن المرحلة المذكورة. هذا من جانب، ومن جانب آخر ينبغى أن ننوه إلى رسوخ سوق العمل الحر– الذى كان قد انسلخ عن كيان جباية الرسوم والجزية – لصالح الشركات الزراعية الكبرى التى كانت تدار من جانب أفراد من الإسبان، خاصة من جانب هيئات أو كيانات مثل الأديرة أو مجمعات الجيزويت التى تحولت إلى مالكة من كبار الملاك. وكانت الأدلة على ذلك تلك الإصلاحات المطبقة على إجراءات "توزيع الحصص" فى عام 1632، وانتشار استخدام

العملة. كما بدأ العمال الذين كان ينتمى معظمهم إلى قرى الهنود فى عرض تقديم خدماتهم مقابل أجر. ودخل أصحاب المنتجات الزراعية فى دوائر أسواق كبيرة كمنافس بعد أن تخلصت من دفع الرسوم والجزية التى كان الغزو يفرضها.

ارتبطت تلك الأحداث بالبنية أو الشكل النهائى للمزارع الكبرى ومدى انتشارها. وكانت المزارع الكبرى القائمة على أساس "تجميع ملكية الأصول" عبارة عن شركات كبرى تعمل فى مجال الزراعة وتربية المواشى والأبقار ولكل منها مستوطنة ثابتة يقيم فيها البشر. وكانت سمتها الجوهرية وخلافاً لما كان عليه الحال فى المراحل المبكرة تتمثل فى عدم اعتمادها على العمال من العبيد (على الرغم من أن بعضها كان يعتمد على مثل أولئك العبيد)، أو لم تكن تلك المزارع الكبرى على الأقل مشاركة فى السلوكيات الاستعمارية وإنما كانت تعتمد على العمال الأحرار الذين كانوا يختلطون مع القرى الهندية الموجودة فى الأقاليم المركزية من المكسيك. وقد مثلت صورة تلك المزارع الكبرى الجديدة أحد أهم العناصر التى ميزت البيئة الريفية فى نوبيا إسبانيا. وقد تعزز وجودها، وأصبح من المألوف مشاهدة الكثير من السكان الأحرار من مختلطى الدماء وقد بدءوا فى السعى وراء أمكنة أخرى للسكن فيها أو نجد من بين الشعوب الهندية من يفضل هجرة قراهم (سواء بصفة مؤقتة أو دائمة) إما للاستفادة من فرص العمل أو للهروب من دفع الجزية. وقد وجدوا الاستقرار إما باعتبارهم من العمال الأجراء. وكان يطلق عليهم تعبير "الأنفار" أى الذين يشتغلون مقابل أجر مع الإقامة فى أرض تلك الشركات الكبرى، وكانوا يتمتعون نسبياً بحماية تلك الشركات (علماً بأن الأيدى العاملة كانت حينذاك نادرة وذات قيمة). وقد عمل الملاك فى الوقت نفسه على توسيع رقعة حيازاتهم إما بشراء أو بتأجير أراضى القرى المجاورة. وقد قامت بين القرى المجاورة وبين الملاك علاقة اتسمت بالتوازن وامتدت لمئات السنين.

كانت المزارع الكبرى قائمة على أساس الأراضى الشاسعة، ومع هذا فلم تكن كل المزارع الكبرى من الملكيات الكبرى. لكن قيمتها مثلما كانت تكمن فى إنتاجها فإنها كانت تكمن كذلك فى الأرض ذاتها. كذلك لم تكن كل الملكيات الزراعية فى الريف تشكل مزارع كبرى. وكان ملاكها يشكلون من جانبهم "مجموعة" لا ينقصها التجانس. كما كنا نجد أن من بين سكان أكثر تلك الملكيات الريفية تواضعاً أفراداً من ذوى الدخول المتوسطة أو من بين المنتمين إلى السلك

الكنسى، وكانوا كلهم تقريباً من الكريؤيوس أو من المخلطين (وكان من الصعب إيجاد فارق بينهم) لكن بعض الزعماء العسكريين المنتمين إلى القرى الهندية كانوا ينضمون أيضاً إلى المجموعة. وعلى الطرف الأقصى من السلم كان يقف التجار وأصحاب المناجم المتخمون بالثروة (منهم من كان من الكريؤيوس ومنهم من كان ينتمى لشبه جزيرة إيبريا) وقد شكلوا من أنفسهم حلقة مغلقة تسيطر على كبريات الأعمال وتتمتع بحيازة خمس أو ست مزارع من المزارع الكبرى، ويضاف إليهم رهبان السلك الكنسى - من الهيئات الكنسية (فيما عدا الفرنسيسكان) ومجمعات الجيزويت وأديرة الراهبات - الذين كانوا قد اكتسبوا ملكيات عديدة إما بالشراء أو بالهبات الخيرية على وجه الخصوص. كذلك تمتعت تلك الهيئات فى مناطق الحضر بملكية ما لا حصر له من المصانع.

وقد أتاحت لهم أموالهم الطائلة ممارسة أعمال القروض، كما ازدادت باطراد الأملاك التى كانت فى الأرياف وأصبحت مرهونة لصالحهم. وعلى الجانب المقابل من موضوع التوسعات نجد أن قرى الهنود فى جميع أقاليم نوبيا إسبانيا تقريباً قد دخلت فى مرحلة من التفكك السياسى اعتباراً من النصف الثانى من القرن السابع عشر. وتلك القرى هى التى توارثت "المحلات أو البنادر" التى كانت قائمة فى عصر ما قبل الوجود الإسبانى بعد أن انسلخت عن زعمائها العسكريين ثم مالت إلى التقسيم إلى أحياء أو أقسام. ثم بدأت فى عدم الاعتراف بهيئات الحكم الموجودة فى المكسيك، بل والمطالبة بإقامة هيئات ذاتية خاصة بها، لتفرز لنا هيئات لها سمات الوحدات الأصلية. ونتيجة لعدم اعتراض الحكومة على هذا الإجراء، تفتت القرية الواحدة التى كانت قائمة منذ مائة سنة إلى خمس أو ست قرى مصغرة يسكنها الهنود. وعلى الرغم من أن بعض الهنود كان يرى فى هذا تلبية لبعض احتياجاتهم العاجلة أو الطارئة (التمتع مثلاً بملكية أراض وبدرجة أعلى من الأمان) فإن هذا الإجراء قد ألغى أى مكانة سياسية كانت تلك القرى تتمتع بها. ويعد هذا الأمر برهاناً جديداً على "كيف ولّت أحوال الغزو" لتصبح أثراً من آثار الماضى.

لم يكن من السهل على القرى الهندية أن تجد لنفسها الوضع المثالى الذى يسد حاجاتها وهى تعيش فى ظروف شديدة التقلب. فقد اتسم النصف الثانى من القرن السابع عشر باضطرابات وهزات ترجع أسبابها إلى الفساد واستغلال النفوذ فى ممارسات الحكم، فضلاً عن

غلاء المعيشة والاحتكار ومفاسد أخرى على نفس المنوال. وكان أبرزها اتساع نطاق الممارسات التى كان يرتكبها الكثير من مأمورى القضاء وكبار العمد، ونعنى بها: توزيع حصص السلع" الذى كان معناه حينذاك "البيع الإجبارى" لجميع المنتجات إلى القرى الهندية (وبأسعار مبالغ فيها). وأحياناً ما كان يتطلب هذا استغلال الوظيفة استغلالاً فاضحاً حينما كانت القرية تجبر على شراء الخيوط بأسعار عالية ثم إجبارالقرى مرة أخرى" على بيع الخيوط بعد نسجها بأسعار متدنية... وكان البصر يُـغَض إلى حد ما عن مثل هذه الأمور باعتبارها "أحد أساليب دفع الجزية"، وهو ما عانت منه القرى أشد المعاناة. بل ووصل الأمر إلى قبول ذلك التصرف باعتباره وسيلة (غير مباشرة) لمنح المرتبات [إذ إنه فى واقع الأمر لم تكن المرتبات تصرف أو أن البعض كانوا ممن "اشتروا الوظيفة"). لكن استغلال النفوذ له حدوده الاجتماعية التى لا يمكن بعدها قبوله. فلو تجاوز استغلال النفوذ الحدود، كان يقابل بالاعتراضات المثارة بكل أشكالها، وهو ما أدى بالطبع إلى هبوب ثورات إقليمية (تيهوانتيبيك – عام 1660) وشغب فى بعض المدن (المكسيك – 1692)، وقد اتسمت بالعنف النسبى. وبطبيعة الحال، كان لتلك الثورات عواقبها السياسية. كما أنها أفرخت قطاع الطرق الذين أصبحوا سادة الطرق، ولم تكن المكسيك تعرفهم من قبل...

مع ذلك وفى إطار مختلف، نجد أن استغلال السلطة كذلك قد أدى إلى انتفاضة قرى نويبو ميخيكو (نيو مكسيكو) فى عام 1680، ونتيجة لذلك تم طرد الإسبان من الإقليم ولم يستطيعوا العودة إليه إلا بعد عشر سنوات. وكانت نويبو ميخيكو فى واقع الأمر إقليماً هامشياً نائياً ولكن الأحداث التى جرت فيه كان لها مغزاها الكبير إذ إنها أفرزت أول تقهقر عاناه التوسع صوب الشمال، أو كان قبل تلك الانتفاضة فى أوج توهجه. كما أعلنت بداية سنوات تلقت فيها الامبراطورية الإسبانية ضربات موجعة أخرى على الرغم من أن أسبابها قد اختلفت.

كان الفرنسيون الذين استمروا يشنون بلا هوادة حملاتهم العسكرية فى أمريكا الشمالية يكنون العداء لإسبانيا(لأنهم كانوا قد فرغوا من حرب معها استمرت خمس سنوات ثم سرعان ما بدءوا معها حرباً أخرى). وفى عام 1685 احتلت حملة فرنسية منكوبة نقطة على سواحل تيخاس (تيكساس)، ونقول منكوبة لأن جميع المشاركين فيها قد تم القضاء عليهم بعد وقت قصير من نزولهم إليها. ونظراً لأن الوساوس قد بدأت تساور التاج بشدة بشأن ما حدث

فى تلك البقعة من القارة الأمريكية، فقد قام من فوره بالرد على ذلك الحدث، وأرسل الملك قوة عسكرية تقدمت نحو كواهويلا (وهو ما أدى إلى إنشاء مونكلوفا فى عام 1689) ثم قام بدعم المنشآت العسكرية فى نويبا إسبانيا. ولكن كل هذا لم يفلح فى تفادى الحدث الذى لم تظهر أهميته الكبرى إلا بعد ذلك بسنوات، ألا وهو إقامة مستعمرة فرنسية هى مستعمرة لويزيانا. وقد عوضت إسبانيا تلك الضربة بأن احتلت باخا كاليفورنيا، بعد أن بدأ الجيزويت يحثون على احتلالها منذ عام 1697 وكان غرضهم الوحيد من هذا هو توسيع نطاق بعثاتهم التبشيرية التى لم تكن قد حققت إلا نتائج هزيلة.

وإذا كان ميزان الموقف فى الشمال قد أثار قلق التاج، فإن أنشطة الإنجليز والفرنسيين والهولنديين بدأت تثير مزيداً من القلق بعد أن استطاعوا السيطرة على الكاريبى من خلال القراصنة حيث كان من بين الهجمات التى قاموا بشنها هجومهم على فيراكروز وعلى كامبيتشى فاضرموا فيهما النيران وسفكوا الدماء وكان ذلك فى سنتى 1683 و1685. كما لم تنجح من قبل أموال السكان ولا دفاعات الإسبان الضعيفة فى تفادى قيام الإنجليز بالاستيلاء على جامايكا فى عام 1655، حيث اتخذوا منها قاعدة انطلقوا منها بعد خمس سنوات لاحتلال منطقة شاسعة فى شمال تاباسكو (بالقرب من لاغونا دى تيرمينوس) حيث ظلوا فيها حتى عام 1716، إضافة إلى جزيرة بيليس التى لم يغادروها، فى حين واجه احتلالهم القصير لكوبا فى عام 1692 فشلاً ذريعاً. ولم تستطع إسبانيا أن تعوض خسائرها إلا بالكاد حين أخضعتَ فى عام 1697 معقلاً صغيراً من معاقل المايا فى تاياسال الواقعة فى قلب "بيتين" وكان ذلك المعقل قد حافظ على استقلاله من الوجهة العملية.

والواقع أن توديع نويبا إسبانيا للقرن السابع عشر وعلى سواحلها مستوطنتان إنجليزيتان كان يحمل فى طياته مغزى كبيراً... فإن دخول الإنجليز إلى تلك الرقعة – وهو ما كان لا يمكن تخيله قبل ذلك بمائة عام – كان انعكاساً لتدهور القوة البحرية الإسبانية وصعود قوة أعدائها، بعد أن كانت نويبا إسبانيا قد وصلت إلى مرحلة النضج وفى نفس الوقت استطاعت أن تنطلق من عقال العزلة الذى كانت تعيش منغلقة فيه على نفسها خلال مرحلة التكوين. ولقد تركت الأحداث التى وقعت فى العالم الخارجى عليها أثراً مباشراً.

لم يكن ذلك الأثر المباشر كبيراً، لكن دخول الإنجليز عكر أيضاً صفو جزء من البلاد كان فى الواقع شبه مهجور من سكانه منذ نهاية القرن السادس عشر. علاوة على هذا فإن نويبا إسبانيا كانت قد وجهت توسعاتها ومصالحها ناحية الشمال لتبتعد عن عالم أمريكا الوسطى بل وحتى عن يوكاتان نفسها. ولو قلنا إن نويبا إسبانيا قد وجدت نفسها متورطة في خضم الأحداث التى وقعت فى الكاريبى، فإن هذا يعزى فى الواقع إلى مطالب التاج. لكن الخسارة العاصفة وقعت بفقدانها لنويبو ميخيكو (نيو مكسيكو)، واقتراب الفرنسيين من سواحل الشمال الشرقى، وهى أحداث أدت إلى القيام بالرد عليها رداً مباشراً وحاسماً. ومع ذلك فإن ما حدث قد أثر على المناطق المحيطة بالبلاد دون أن يؤثر على وسط نويبا إسبانيا وفى هذا فرق كبير...

على الرغم من ازدياد صلة نويبا إسبانيا بما يحدث فى العالم الخارجى، إلا أنها - وهى التى بلغت مرحلة النضج - كانت بلداً متمركزاً فى الداخل ومحيطه مغلق بالفعل من الخارج. ولم تترك الشواطئ ولا السواحل إمكانية للتبادل البحرى إلا عبر فيراكروز وكامبيتشى وأكابولكو. لكن عنصرا إضافيا ألقى بظلاله ليقلل من الرغبة فى العيش فى مناطق تطل على البحر ألا وهو الخوف من القراصنة وهو خوف كان له ما يبرره...

كانت نويبا إسبانيا قد تجاهلت جبهتها الشرقية كثيراً: تاباسكو ويوكاتان والحدود مع غواتيمالا. أما احتلال الإنجليز لجزيرة بيليس ولاغونا دى تيرمينوس فقد كانت تنظر إليه كحدث قليل الشأن ولا يستحق إجراءً عقابياً. كما بدأت تنحسر تلك الروابط التجارية مع غواتيمالا (التى كانت منذ قيامها تضم إقليم تشياباس) وكانت تلك الروابط تحتل مكانة مهمة حتى مطلع القرن السابع عشر. كما أصبح إقليم سوكونوسكو الساحلى - وهو إقليم شبه مهجور منذ آخر الأوبئة التى ضربته - مجالاً لنزاعات تتعلق بحدود مناطق الاختصاص الإدارى، وهى نزاعات لم يشغل فى الواقع أحد نفسه بالبحث لها عن حل. وفى غضون ذلك بدأ فى يوكاتان إزكاء نزعة لإعلاء شأن الخصائص التى تميز هويتها وهو ما جعل منها بالفعل كيانا منفصلا رغم أنها كانت تابعة للمكسيك فيما يتعلق بالشئون القضائية والكنسية. كما كانت حكومتها تعترف نظريا بخضوعها للوالى على الرغم من أن شئونها نفسها كانت تدار باستقلالية ذاتية تامة. أما إذا ما استجد ما يستحق، فقد كانت تلجأ فيه مباشرة إلى إسبانيا.

وكان اقتصاد الإقليم اقتصاداً مغلقاً كما كان هيكله عتيقاً حيث كانت تعتمد فيه على نظام الوكلاء أو النظار. ومع هذا فإن حكومة الوالى قلما أبدت اهتماماً بمثل تلك الأمور.

ظلت حدود الشمال (وكان قد جرى العرف على إطلاق اسم "الشمال" على تلك الرقعة) بلا معالم وكانت تمتد امتداداً لا تصل فيه إلى حدود معينة. وقد شكلت أول انتفاضة قام بها هنود الأتاباسكو المقيمون فى شمال القارة - الذين يطلق عليهم الأباش - مصدر قلق عظيم مما أدى إلى أن تقوم الحكومة بإنفاق مبالغ طائلة فى إعداد هياكل تنظيمية ترمى من خلالها إلى السيطرة عليهم. أما الفائدة التى عادت من المشاريع التى لا تحصى لإعادة تنظيم الشمال والدفاع عنه، فكانت مد سلسلة من التحصينات والمنشآت العسكرية من تيخاس (تيكساس) إلى سونورا، وهو ما أدى إلى نتائج هى محل جدل كبير بسبب القصور الواقع فى تجهيز الأفراد ونقص عددهم باعتبار أن واجبهم كان أن يتولوا مهام الدفاع عنها والمحافظة عليها. وعلى الرغم من وقوع أخطاء إلا أن هذه التجربة قد أسهمت فى رفع خبرة أولئك الأفراد، حيث جرى الاستعانة بهم بعد ذلك بقليل فى تشكيلات الكوادر العسكرية للجيش كما أسندت إلى بعضهم مناصب حكومية مهمة. ولقد كان الاعتياد على ترديد كلمة "الشمال" والاهتمام بمشاكله وأحواله هو الذى سيترك علامة كبيرة ومهمة على نويبا إسبانيا خلال السنوات التالية...

على الرغم من كل شيء وازدياد أهمية الشمال، فإنه ظل كأرض فضاء مهمشة تقريباً مثل سواحل نويبا إسبانيا ومثل جبهتها الشرقية. وينبغى أن نذكر هنا مرة أخرى أن نويبا إسبانيا كانت بلداً منكفئاً على الداخل. إذ تركزت فى هضبة المكسيك الوسطى كل المدن المهمة والأقاليم المليئة بالديناميكية والحركة وجميع الأنشطة الاقتصادية وطرق المواصلات والمظاهر الفنية والثروات والناس. هذه الصورة العامة للجو الذى نشأ وظل سائداً فى نويبا إسبانيا خلال القرن السادس عشر ووطد دعائمه خلال القرن السابع عشر مازال يسيطر حتى يومنا هذا على جغرافية البلاد. وهنالك غير هذا من الأسباب المناخية والبيئية ما يفسر هذا الأمر بالتفصيل، كما يفسره أيضاً وإلى حد كبير قيام نويبا إسبانيا الأصلية فى نفس البقعة التى كانت عليها ميخيكو (المكسيك) - تينوتشتيتلان ومع هذا فلا ينبغى الانتقاص من أهمية تعمد التاج الإسبانى إقامة نظام تجاري تحكمه القيود وجعله الحدود حدوداً مغلقة.

كانت تلك هى الخطوط العامة لخريطة نويبا إسبانيا التى عاشت وجودها لمدة قرنين تقريباً من الزمان، وعاش النضج فيها مئات من السنوات. فإذا نظرنا إلى اللُب وخاصة فى المنطقة التى تشكل عمودها الفقرى فإننا سنرى وبكل وضوح كيف ارتسمت خطوط أقاليمها التى كانت قد أقامتها الخبرة الإسبانية. وهناك من يتناول مع بعض التغيير تلك المنظومات الخاصة الموروثة منذ سنوات الماضى السابقة على فترة الوجود الإسبانى، وذلك مثلما جرى عند الحديث عن ميكستيكا ألتا وكثير من المناطق الجبلية. لكن هنالك مناطق أخرى كانت عبارة عن مناطق كولونيالية خالصة سواء بالنسبة لأصلها أو بالنسبة لتطور الحياة فيها مثل منطقة وادى بويبلا. ولم تكن منطقة باخـيُو التى ولدت فى طليعة مرحلة التقدم نحو الشمال من تلك المناطق البارزة أو التى تتميز بالديناميكية، ولكنها سرعان ما شكلت جزءاً لا يتجزأ من العمود الفقرى للبلاد. وكان إقليم إلباخيـو فى مطلع القرن الثامن عشر هو أكثر الأقاليم نمواً وأحسنها أيضاً من منظور التطور الحضرى، وأكثرها إنتاجاً فى مجال الزراعة وأفضلها ديناميكية اجتماعية وهو ما أدى إلى علو شأنه يوماً بعد يوم ليصبح الأبرز على مدى تاريخ نويبا إسبانيا.

لمحات عن الحقبة الأخيرة
(1760 – 1715)

جرى انتقال للعرش فى إسبانيا عندما حدث أن أصبح العرش بدون وريث. فانتقل المُلك من دار أو أسرة أوستريا (ويطلق عليها كذلك أسرة هابسبورغووو) إلى أسرة بوربون وهى نفس الأسرة التى كانت تتولى العرش فى فرنسا، فقد كان ملك إسبانيا الجديد فيليبى الخامس حفيداً للملك لويس الخامس عشر. وقد أدى هذا الحدث إلى زعزعة الأوضاع فى إسبانيا، بينما الأمور فى المكسيك تسير فى مسارها الطبيعى فكان هذا التغيير محدود التأثير أو كان بالأحرى لحظيا. ولم يدرك الناس فى المكسيك إلا فى عام 1715 أن زمناً جديداً قد حل. وقد أسهمت عدة أحداث سياسية أوروبية فى رسم صورة مرحلة أخرى من مراحل تاريخ نويبا إسبانيا، وهى تعتبر المرحلة الأخيرة فى هذا الفصل.

لم تنجح القرابة الأسرية بين إسبانيا وفرنسا فى إزالة عدم الثقة بين الدولتين ولكنها ضمنت لكليهما التعايش معاً فى استقرار. لكن الأمر كان مختلفا مع إنجلترا إذ إن العلاقات المتأزمة معها قد أدت إلى عدة حروب، ونبدأ هنا بأطول هذه الحروب التى ورطت إنجلترا فى النزاعات المتعلقة بخلافة العرش. ومع أن صلح أو معاهدة أوتريخت التى وضعت نهاية للحرب بينهما فى عام 1713 قد صدّقـــت على استمرار أسرة بوربون على كرسى العرش فى إسبانيا إلا أنها أجبرتها على تقديم بعض التنازلات التجارية لصالح الإنجليز، الذين حصلوا اعتباراً من تلك اللحظة على "موافقة" تقصر أو تحصر بين أيديهم وحدهم حق نقل العبيد الأفارقة إلى أمريكا.

وقد أرادت إسبانيا أن تستفيد من الموقف لكى تقوم بإجراء إصلاحات على النظام الصارم الذى كان يحكم التجارة عبر المحيط الأطلنطى، فانتقل النقل البحرى من أشبيلية إلى قادس كما أجريت بعض التعديلات على "نظام الأساطيل التجارية". وبالإضافة إلى التعديلات على نظم التحكم فى حركة تلك الأساطيل فقد تقرر إقامة مهرجانات تجارية سنوية يتفق تاريخها مع تاريخ وصول سفن القوافل إلى الأراضى الأمريكية. وبدأ احتفال نويبا إسبانيا بهذا المهرجان فى "خالابا" اعتباراً من سنة 1728. غير أن تلك الإجراءات كانت فى الواقع إجراءات سطحية ولم تعط الرد الشافى إزاء واقع كانت حدته تزداد سنة بعد أخرى. فلقد استغل الإنجليز الفرصة التى منحتها لهم "الموافقة" على نقل العبيد (لم يتجاوز نصيب نويبا إسبانيا فى تلك "الموافقة" إلا نسبة متواضعة) فقاموا بإدخال أعداد من البشر المنتمين إلى أوروبا وأجروا عدة اتصالات أتاحت لهم فى البدء فيما تحول سراعاً إلى نظام محكم للتهريب... وهكذا استطاعوا أن يأخذوا لأنفسهم نصيباً جيداً من العمليات التجارية التى كانت تتم مع الممتلكات الإسبانية فى أمريكا. والواقع أن القيود التجارية التى فاقت الحد وكانت تفرضها حاضرة التاج قد خلقت فى نويبا إسبانيا أرضاً خصبة لمثل تلك الأنشطة.

أدت الحرب الجديدة مع إنجلترا سنة 1739 إلى نتائج مباشرة فى مجال التجارة ويبرز منها الشلل الذى حاق بالأساطيل التجارية الإسبانية وظل قائماً حتى عام 1754. وكان أهم تلك النتائج: أنه إزاء غياب الأساطيل، فقد نجح استخدام مراكب تجارية بصورة فردية

(أطلق عليها "مراكب السجل") فى إرساء سابقة سيتم اللجوء إليها بعد عدة عقود لوضع أسس تحرير النقل التجارى البحرى تدريجياً.

ولم تكن تلك الأمور التجارية انعكاساً للأوضاع الجديدة، إذ إن التاج كان قد شرع من قبل واعتباراً من عام 1714 فى إعادة تنظيم وكالات الحكومة المكلفة بإدارة الشئون الأمريكية. وخلال السنوات العشرين التالية جرى تكليف اثنين من الولاة واحداً بعد الآخر بشئون نويبا إسبانيا (وهما مركيز دى باليرو ومركيز كاسافويرتى) حيث نجحا فى تشكيل حكومة مستقرة يجرى التنسيق بين أعضائها على خير وجه، وكانت تزداد كفاءتها على مر الأيام. وعلاوة على هذا، كان مستوى كفاءة الولاة الذين أتوا أفضل بصفة عامة ممن سبقهم. وحدث أيضاً تغيير مهم فى لغة الحكم، ومن ثم يمكن القول إن سير العملية البيروقراطية كانت أكثر فعالية.

كذلك كان لإقامة محكمة لا أكوردادا فى عام 1719 (وتعنى فى المكسيك محكمة الدرك لمكافحة اللصوصية) أهمية عظمى إذ مثلت أول هيئة بوليسية فعالة فى المكسيك، فكانت بمثابة رد على العدد الخطير من قطاع الطرق الذين كانوا يكمنون فى طرقات نويبا إسبانيا. وبالطبع فإن المغزى الأكبر لتشكيلها يكمن فى كونها أول إجراء محدد لفلسفة جديدة اتبعتها الحكومة وتؤكد بها على فعالية السلطة العليا والحاجة إلى توفير الوسائل الضرورية لها لتأكيد هذه السلطة. وتجدر الإشارة إلى أن القوة المسلحة الوحيدة التى كانت موجودة فى نويبا إسبانيا حتى ذلك الحين كانت هى حرس الوالى فضلاً عن بعض تنظيمات الميليشيات المحلية، وكان بعضها مؤقتاً والبعض الآخر ميليشيات نظامية مستديمة هدفها العمل على حماية السواحل والحدود الشمالية (أو على الأقل التظاهر بحمايتها). ولم تكن أى واحدة من تلك الميليشيات تضم عسكريين محترفين بل ولم يكن فيها على الإطلاق أى نظام لتسلسل الرتب ولا كان فيها مثل التنظيم الذى يطبق على الجيوش الحديثة.

وكان أحد الأحداث المهمة انتشار وباء التيفود أو ما كانوا يطلقون عليه اسم"ماتلازاهواتل *matlazáhuatl*" الذى انتشر فى الفترة ما بين عامى 1736 و1739 وكان عدد ضحاياه أقل من عدد ضحايا تلك الأوبئة التى حصدت مزيداً من الأرواح فى القرن السادس عشر على الرغم من أنه كان من الناحية الجغرافية أوسع انتشاراً، إذ بدأ فى اجتياح البلاد اعتباراً من النصف الثانى من القرن السابق. لكن مغزاه ينهض على تداعياته الاقتصادية لأنه

فتح الباب أمام التدخل الرسمى بعدة مشروعات بشأن أفضل السبل للسيطرة على هذا الوباء. ويمكن أن تعتبر هذا أيضاً كمثل من أول الأمثلة على موقف الحكومة للتغيير والتحديث.

ومن الملامح التنويه أيضاً إلى أن عدد سكان نويبا إسبانيا كان قد وصل عام 1750 إلى ما يزيد بعض الشيء على أربعة ملايين ونصف المليون نسمة، وكان نصفهم أو ما يزيد عن هذا قليلاً مرتبط بقرى الهنود (أى أنهم كانوا مصنفين على أنهم ممن يقومون بدفع الجزية عن أنفسهم وعن تابعيهم)، وباقى هذا العدد كان من الكريوليوس أو المخلّطين (أو من المولّدين أو من خليط مختلف وكان من الشائع أن يطلق عليهم تعبير "ذوى أعراق"). ويضم هذا الرقم جماعات خاصة لم يكن حجم عددها كبيراً جداً. أما عدد الأفراد الذين كانوا ينتمون إلى أصول إفريقية بمن فيهم العبيد والعتقاء فكان مجملهم يدور حول رقم 10000 شخص، فى حين لم يتجاوز عدد الإسبان القادمين من شبه الجزيرة عن 20000 نسمة. وكان المخلّطون يشكلون غالبية السكان فى عدة مناطق وخاصة فى الباخيُو ونويبا غاليسيا وفى الشمال.

أدى تزايد وجود المخلّطين والمولدين فى الوسط الريفى إلى زيادة ذات مغزى فى عدد السكان الأحرار الذين كانوا كذلك من صغار الملاك (أى أنهم لم يكونوا ممن يدفعون الجزية ولم يكونوا من قرى الهنود ولا من قاطنى المزارع الكبرى). وكان يطلق عليهم اسم "أبناء الكفور *rancheros*" نظراً لأنهم استوطنوا الكفور أو أماكن صغيرة. وكان البعض منهم كذلك من المستأجرين لقطعة أرض من أراضى المزارع الكبرى. وبعد أن أدرك أبناء الكفور المنافع القانونية التى ستعود عليهم من التحول إلى إنشاء المستوطنات الأكبر، بدأ بعضهم يكونون تجمعات مثل تجمعات القرى الهندية على الرغم من أنه لا تركيبتهم الاجتماعية ولا تاريخهم يتفق مع تاريخ الأقدمين ولا مع تاريخ الشعوب والقرى الهندية. ومهما كان الشكل الذى كان عليه وجودهم، فإن هذا الوجود كان يكتسب أهمية متزايدة لأنه أدى إلى عدد من التغيرات فى الهيكل الإجتماعى للوسط البيئى الريفى الذى كان هيكله يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

برزت أحداث الشمال إلى الساحة بشدة فى هذه المرحلة من مراحل حياة نويبا إسبانيا، ولم يكن هذا فقط بسبب الدور المهم الذى لعبته اكتشافات المناجم واستغلالها، وهو موضوع سنتناوله فيما بعد. كما ينبغى التنويه إلى الأهمية الكبرى التى مثلتها أنشطة البعثات التبشيرية

وخاصة الجيزويت فى سينالووا والفرنسيسكان فى تيخاس (تكساس) التى تم احتلالها نهائياً فى عام 1715. فعلاوة على المهام الدينية والتنظيم السياسى المحلى الذى قامت به، فإن بعض البعثات قد نجحت فى توطيد مكانتها كمواقع فيها إقامة مستقرة ويعيش فيها بشر وقامت بعثات غيرها بتشجيع هجرة مستوطنين إليها حيث قاموا بالإقامة إلى جوار مقارها مباشرة (ولم يكن هذا محل ترحيب من المبشرين). كما ازدادت كثافة وشيوع شبكات المبادلات التجارية وشاركت فيها جماعات مختلفة من أبناء الياكي والأوباتا والتراهومارا وغيرهم، فضلاً عن أعداد أخرى من المخلّطين المنتمين إلى أصول مختلفة ممن كانوا يتميزون بحبهم للتنقل من مجتمع إلى مجتمع آخر.

شكل احتلال تاماوليباس ونويبو سانتاندير فى بداية عام 1748 أهمية كبيرة بالنسبة للشمال وهو ما يجب أن نتناوله بالتفصيل لسببين: السبب الأول أنه أدى إلى انتشار السكان فى منطقة خالية حيث لم تكن سنوات التوسع قد طالتها، فبدأت المستوطنات الصغيرة تتناثر بين أرجائها. والسبب الثانى - ومغزاه أكبر من سابقه - هو أن تاماوليباس قد شهدت بهذا مولد نوع جديد من الهجرة تحكمت فيه الحكومة وتم التخطيط له بكفاءة وجرى تنظيمه بعقيدة عسكرية، وهو ما يقدم مثلاً آخر على روح التجديد التى كانت تتعامل السلطات بها مع مشروعاتها.

ومع كل هذا، فإن الكثافة السكانية فى "الشمال" ظلت محدودة وبدأت الإقطاعيات تسيطر على مناطق شاسعة غير مأهولة. ثم يبزغ فى غمار كل تلك الظروف نموذج حضارى مهم سيتأخر فهمه إلى فترة لاحقة ألا وهو "أسلوب الحياة الشمالية" الأصيلة، وهو أسلوب يختلف عن أسلوب الحياة فى وسط البلاد. لكن التعميم فى مثل تلك الأمور وعلى الرغم من أن له قيمته إلى حد ما، إلا أنه لا ينبغى أن يتجاهل الفوارق الكبيرة التى بدأ "الشمال" يدخلها على الحياة فيه على مدى التاريخ. والمثال على هذا إعلان حالة الطوارئ فى إقليم نايار (وهو إقليم يقع فى منطقة سلاسل الجبال التى يسكنها أبناء كورا وأبناء هويتشول) وهو محور يقع فى الوسط تقريباً إلا أنه ظل بعيداً عن سيطرة الحكم الإسبانى إلى أن تم غزوه عام 1722. ويمكن القول إن الحكومة قد بدأت فى تحصيل واستيعاب "دروس المواد" التى فاتتها، تماماً مثلما حدث منذ خمس وعشرين سنة فى الـــ "بيتين".

كانت الأولويات التى وضعت على الطاولة غالية الثمن وكان عليها أن تتصدى لمواجهة الحالة الاقتصادية المتردية للتاج، وكان ضعفها يزداد يوماً بعد يوم. ومن حسن حظ التاج أن نويبا إسبانيا كانت لا تزال تعيش أيام عزها الاقتصادى القائم على التجارة وعلى إنتاجها الزراعى وازدهار إنتاج مناجم الفضة التى لم يقتصر وجودها على مناطق "الشمال" فى غواناسيبى وفى كوسيهويرياتشيك وفى باتوبيلاس وفى تشيهواهوا وفى آلاموس، بل وكانت موجودة أيضاً فى أماكن قريبة من وسط البلاد مثل غواناخواتو وريال ديل مونتى وتاسكو، وقد عادت جميعها على الدخل بأموال طائلة. وبالطبع، فلم يفت التاج أن يحصل على نصيبه منها...

ولا يزال التاج يسعى للبحث عن موارد جديدة ومصادر تعود عليه بالفائدة. فيقوم باتخاذ خطوة أبعد من هذا وهى على نفس خط "سياسة بيع المناصب العمومية"، فيقْدم على عرض مناصب رفيعة مثل مناصب المجالس، وهو ما استفاد منه الكريويوس لتحسين أوضاعهم واتصالاتهم. كما يفتح التاج الباب لاكتساب الألقاب البراقة التى تمنح للنبلاء، وهو ما أدى إلى إضافة عنصر جديد لعدم المساواة وقد انعكس هذا على هيكل نويبا إسبانيا الاجتماعى الذى كان يعانى أصلاً من عدم المساواة (حيث كانت هناك ثلاث عائلات فقط عام 1700 هى التى تتمتع بتلك الألقاب ثم وصل عددها إلى أربع عشرة عائلة فى عام 1759). وقد كانت تلك الطبقة الجديدة التى اضطلعت فى "الشمال" بدور شاق تتألف فى غالبيتها من "أصحاب المنجم" الذين كان ينتمى معظمهم إلى شبه جزيرة إيبيريا أو أفراد كانت لهم أعمال جليلة، إضافة إلى أصحاب الأموال...

كانت نويبا إسبانيا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر قد حققت لنفسها تمكيناً ورسوخاً وجدت فيهما - رغم ظروف الاحتلال - عناصر كثيرة لتأكيد هويتها وهى نفس تلك العناصر التى عبرت عن نفسها فيما بعد فى صورة "المكسيك المستقلة". ولقد كان ترسيخ الهوية القومية أو بمعنى آخر الهوية الذاتية "الأمريكية" (أى المنتمية إلى القارة الأمريكية) هو الشغل الشاغل بصورة جوهرية لحضارة الكريويوس والمخلّطين. ويذكر أن بعض المؤرخين مثل خوسيه خواكين غرانادوس ممن تناولوا بالتحديد الصورة المطروحة لأبناء البلاد الأصليين (وهى التى انتشرت فى القرن الماضى) قد بعثوا الحياة أو بمعنى أصح خلقوا فكرة دولة التولتيك العظيمة - التى حفرت خطوط تاريخ "أرض الأناهواك" - التى هى بدورها دولة الملكية

الشرعية أو دولة "الامبراطورية المكسيكية". ومن ثم فلم تبق إلا خطوة واحدة لإسباغ تعريف أو مصطلح "المكسيكية" على هذه الجنسية التى بدأت تتبلور فى نوبيا إسبانيا.

وبالطبع فإن تلك المحاولات لتشكيل أو توصيف تلك الهوية قد اقتصرت فى نوبيا إسبانيا على آراء نخبة محدودة العدد من أصحاب الفكر، وربما لم يكن عددهم يتعدى الأف شخص، لأن العامة من الناس كانوا أبعد من أن يكون لديهم الوعى بمثل تلك المسائل. لكننا إذا ذهبنا بعيداً فسنجد أن التعليم فى أساسياته لم يكن إلا من نصيب قلة من الناس كما لم يكن يتطرق من قريب أو من بعيد إلى الموضوعات التاريخية. ولم يكن نقص الوعى يعنى عدم وجود أولئك الذين يطلقون أيضاً مسميات عامة لهويات أخرى، وبعض تلك المسميات قد جرى التنويه عنها عند الحديث عن الحقبة الماضية. من جهة أخرى كانت شعائر التقديس لعذراء غوادالوبى التى كانت شعبيتها تزداد يوماً بعد يوم عاملا فكرياً مساعداً ساهم فى تأجيج مشاعر الهوية. غير أن أكثر الهويات قوة كانت هى تلك الهوية المبنية على أساس إقليمى أو على نزعة فردية تؤمن بها القرى أو تؤمن بها بعض الأعراق كما كان الحال بالنسبة لسكان البلاد الأصليين. فعلى الرغم من تطورهم بل وكذلك تفتتهم فإنهم ظلوا المرجع الأساسى لتلك المسميات. وتجدر الإشارة إلى أن التعبير عن هوية التجمعات كان قوياً فى جميع صوره، ومن ثم فإنه كان يشكل ثقلا آخر فى مواجهة أى ثقل غيره.

ومن الممكن أن نرى فى المجال الاقتصادى معالم تدل أحياناً على التكامل الاقتصادى، كما نرى أدلة على غيابه الكامل أحياناً أخرى. ولقد كانت نفقات وعوائد إنتاج المناجم تغطى دوائر واسعة تكاد أن تغطى البلاد بأكملها سواء بالنسبة إلى عمليات التنقيب أو الائتمانات - التى كانت تنفق فى أوامر الصرف والمخصصات المالية وسداد مستندات الصرف وغيرها من المصارف المالية - وكانت المصروفات توجه ذات اليمين وذات الشمال، والرهونات الرسمية أو العقارية التى تدعم أنشطة الزراعة وتربية المواشى تنتقل ما بين مراكز الحضر وجميع الأقاليم. أما تحقيق الاكتفاء من اللحوم فكان يتم من خلال نقل بعض الماشية من أماكن إلى أماكن أخرى مهما بعدت مسافتها، وعلى سبيل المثال فإن الماشية كانت تنقل من سينالوا إلى مدينة المكسيك. وكان مثل ذلك التبادل التجارى يسهم بصورة أو بأخرى فى إقامة شبكة تربط بين جميع الأنحاء. وعندما ننتقل لعرض مظاهر أخرى من مظاهر الحياة الاقتصادية، فإننا نجد

أن غالبية المنتجات الزراعية أو المصنعة كانت لها أسواقها التى قلما كانت تتجاوز الإقليم الذى تنتج فيه. وكانت الفروق فى أسعار المنتج ووفرته تتفاوت من إقليم لآخر تفاوتاً كبيراً جداً. إضافة إلى ما تقدم، فإن الاقتصاد الذى كان سائداً فى الكفور وقرى الهنود كان يعتمد بصفة خاصة على اقتصاد الضروريات فقط التى تسد حاجة السكان.

كانت شبكات المواصلات كاملة من جهة وقاصرة من جهة أخرى. فكانت كل نوبيا إسبانيا يمكن قطعها سيراً على الأقدام أو فوق ظهور الدواب عبر طرق ومسالك فيها من يعملون فى ورش لتركيب حدوات الخيل، وكانت الطرق معبدة ببلاطات من الحجر، سواء كانت تلك الطرق فى أرض منبسطة أو فى دروب ومسالك الجبال، فيما عدا مناطق الغابات وتلك التى لا يعيش فيها إلا عدد قليل من السكان ولم تكن هناك معوقات للسير فى تلك الطرق إلا فى فترات المطر. أما وجه التقصير فقد تمثل فى سوء وقلة مسارات عربات الجر والجسور وأدوات النقل الجماعى ونقل البضائع والمنتجات المختلفة، وكانت قاصرة على وسط البلاد و"الشمال". والواقع أن حركة انتقال الأفراد كانت أكبر من حركة انتقال البضائع. فإذا ما جمعنا بين مشهد حركة النقل والحركة فى المجتمع نجد أن الصورة فى نوبيا إسبانيا كان لا ينقصها التناقض.

وكانت الفروق الطبقية الاجتماعية الصرفة فى أيام الغزو - أى الفروق بين الإسبان والهنود -موضع اعتراف بين المجموعات السكانية التى كانت تحافظ على المسافة الاجتماعية التى تبعدها عن غيرها أو تجعلها فى عزلة حضارية. ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات التى نجد فيها أن تلك الطبقية لم تكن قائمة لأن السكان كانوا مختلطين بدرجة كبيرة بحيث لم يعد هنالك معنى لأن نضع لهذا الأمر خطوطاً اجتماعية حاسمة أو فاصلة، بل إن السكان ظلوا يختلطون ببعضهم البعض سواء على المستوى العرقى أو على المستوى الحضارى. وكانت التشريعات تسمح بالمحافظة على الفوارق التى كان البعض يرى أن التأكيد عليها من مصلحته، أو أنه ينشد من ذلك تحقيق بعض المميزات لنفسه، ولكن هذا كان يمثل انخداعا بالواقع الاجتماعى. والحقيقة أن الواقع الاجتماعى فى تلك الحقبة من التاريخ الكولونيالى كان يبشر بظهور طبقات اجتماعية أخرى تضع اعتباراتها بشأن تعريفات الأوضاع الاجتماعية القائمة أكثر مما تضعه أية اعتبارات أخرى. أما الفوارق بين الأغنياء

والفقراء – وكان الأغنياء قلّة قليلة والفقراء كثرة كبيرة – فكانت تصنعها مصالح كل فئة إزاء الفئة الأخرى ودخل كل فئة منهما. والواقع أنه كان لكل فئة ثقلها الكبير فى ميزان التاريخ خلال السنوات الأخيرة لنويبا إسبانيا. كذلك كان هناك ثقل لفئة الصفوة من أصحاب الحظوة الذين يتمتعون بأكبر المميزات، وفى مقابلهم كان هنالك أيضاً ثقل آخر لدافعى الجزية وللأنفار ولساكنى الكفور والحرفيين وأصحاب الأشغال اليدوية والزخرفية ولأرق الناس حالاً ممن كانوا يعملون لدى الحكومة أو الكنيسة. فلقد كان لهم أيضاً ثقلهم فى ميزان هذا التاريخ. وقد كان الموقف دقيقاً بالنسبة لتلك الفوارق الاجتماعية – الاقتصادية، ومن ثم فإن التاج قد حول اهتمامه بالحفاظ على مبدأ الشرعية القائمة على العدل واستبدلها بالاهتمام والانشغال بتوطيد دعائم سلطته وإشباع نهمه إلى المال.

خاتمـــة

عانت إسبانيا من خسائر جمة حين ساندت فرنسا ضد إنجلترا خلال ما أطلق عليه "حرب السنوات السبع" (1756 – 1763) التى تعد أحد أهم الأحداث الأوروبية التى ألقت بظلالها أيضاً وبنتائجها المهمة على القارة الأمريكية. وكانت نتيجة استيلاء الإنجليز على هافانا فى عام 1762 القضاء نهائياً على نظام الأساطيل التجارية، وهو ما أدى إلى أن تتسم تصرفات الحكومة الإسبانية بالعصبية الشديدة. وعندما تم الاتفاق على السلام مع الإنجليز، استعادت إسبانيا هافانا وتمكنت من استئناف عملياتها التجارية، لكن إسبانيا كانت تنتظرها تجربة أليمة... إذ إنه بعد هزيمة "الأسطول الذى لا يقهر" فى عام 1588، بدأ ينمو القلق فى إسبانيا بشأن كيفية تجاوز حالة الضعف التى تمر بها الامبراطورية وكيفية استعادة شيء من البريق الذى كانت قد فقدته. ثم حدث مثلما كان قد حدث منذ قرنين عندما مد التاج يده إلى ممتلكاته فى ما وراء البحار. ولكن بغض النظر عن هذا التشابه، فإن الظروف كانت مختلفة. فبادئ ذى بدء، كانت القوى الأوروبية قد غيرت من مفهومها عن السلطة وعن الدولة وتخلت عن الكثير من آرائها وموروثاتها القديمة لكى تقدم ما عُرف باسم "الاستبداد المستنير". أى المناداة بأن تكون الحكومة متسلطة ومستبدة ومركزية وفى نفس الوقت على كفاءة وعقلانية وتهتم بالتقـدم المادى، وتهتم فى الوقت نفسه أيضاً – هذا إن لم نقل مهمومة أو مولعة – بأن توسع من قاعدة مواردها المالية مهما كلفها هذا من أمر. علاوة على هذا، فقد تولى عرش

إسبانيا فى عام 1759 ملك مشهود له بالنشاط الشديد وهو كارلوس الثالث. وقد أخذ على عاتقه هو ووزرائه القيام بعدد لا حصر له من الإصلاحات والإجراءات لضبط الأمور واستبدال الشخصيات التى تتألف منها الحكومة، فكان أن أتى جيل جديد من كبار المسئولين كانوا قد قدموا من إسبانيا، وكان الكثير منهم من المنتمين إلى السلك العسكرى الذين اكتسبوا خبرة نتيجة للظروف القاسية التى عاشوها فى "الشمال". وقد حلوا محل الطاقم البيروقراطي الكولونيالى الذى كان فى نظر أى عين حصيفة مفتقراً إلى الكفاءة ومنغمساً فى الفساد، غير أنه لا ينبغى لنا أن نغفل أن الكثير من مواقع السلطة قد ظلت فى أيدى الكريوليوس.

كان التاج يدير شئون نويبا إسبانيا خلال القرن السابع عشر وهى تتمتع آنذاك بجرعة كبيرة من الاستقلال الذاتى ونجح فى أن يظل القدر الأكبر من ثروات نويبا إسبانيا على الأرض الأمريكية. وكانت الأفعال والنوايا تبشر بتغيرات جوهرية. كذلك يمكن فهم أن بعض المؤرخين كانوا – من وجهة نظرهم – يعرفون تلك السنوات الواقعة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بأنها السنوات التى حسمت فيه حكومة التنوير النهاية لزمن العجز، لكى يبدأ زمن السلطة.

الإصلاحات فى عهد البوربون

لويس خاوريغى

نظرة عامة

شرع التاج الإسبانى منذ مطلع القرن الثامن عشر فى إجراء تغييرات فى أسلوب إدارة ممتلكاته الأمريكية الواسعة. وخلال النصف الأول من هذا القرن كانت الإصلاحات تجرى على استحياء، ثم جرى بعد هذا تطبيق إجراءات جديدة ذات فعالية كبيرة وجرى العرف على تسميتها بـ "الإصلاحات البوربونية". وسواء تمت تلك الإصلاحات على استحياء أو بجرأة، فإنها جميعاً قد لبت رغبات الأسرة البوربونية فى إسبانيا فى الإمساك بخيوط السلطة فى أمريكا – وخاصة فى نويبا إسبانيا باعتبارها أغنى تلك الممتلكات -- كى تبدأ فى عملية تحديث استمرت من الوجهة العملية طوال ذلك القرن.

وكانت قواعد التحديث البوربونى تستند على أسلوب فى التفكير ومنظومة للمقومات تعرف باسم "التنوير". وسمات حركة التنوير تستند إلى الثقة فى عقل الإنسان وعدم الرضوخ للتقاليد والوقوف ضد الجهل والدفاع عن العقل العلمى والتكنولوجى باعتبار أن هذه هى الوسائل الناجعة لتغيير وجه العالم، والبحث أيضاً من خلال العقل – وإلى حد كبير دون الدين – عن حل للمشاكل الاجتماعية. وإجمالاً للقول، فإن التنوير قد اتبع الطريق الأمثل ألا وهو الإصلاح. وكان تطبيق الإصلاح يقوم على عملية التحديث التى طبقها جميع ملوك أوروبا على الواقع خلال القرن الثامن عشر، ومن بينها تطبيق صيغ "الاستبداد المستنير".

وبالنظر إلى أن "التنوير" فى نويبا إسبانيا قد اصطدم مع مجتمع كان ملتصقاً كل الالتصاق بمقومات التقاليد السائدة فيه، فإن التنوير على أرض إسبانيا نفسها قد تحقق من خلال الطبقة الأرستقراطية وكبار المسئولين ورجال الكنيسة، وكان من هؤلاء بنيتو خيرونيمو فيـــيخوو الذى تناول فى أسلوب نثرى ممتع ومباشر أفكاراً شائعة وكان يراها أفكاراً خاطئة – ولكن فى إطار يتتبع دائما الخطوط الإيمانية الكاثوليكية. وكانت كتابات الأب فيـــيخوو كتابات شعبية جداً ومنتشرة بين القراء وكانت موضع تعليقات العلمانيين ورجال الكنيسة على حد سواء. من جهة أخرى، فقد كانت ممارسات أسرة بوربون فى الحكم مثلاً واضحاً على "الاستبداد المستنير". وقد أثر وزراء كارلوس الثالث (1759 – 1788) ووزراء ابنه كارلوس الرابع (1788 – 1808) فى روح الإصلاح لكلا الملكين. علاوة على نشر أفكار التنوير من خلال ما كان يطلق عليه اسم "جمعيات أصدقاء البلاد الاقتصادية" ومن خلال الصحافة الدورية الوليدة.

كان تطبيق الأفكار يسير فى إطار قالب يقوم على هيئة حكومة تنويرية لها ملك يتمتع بالحكم المطلق وسلطته لا تخضع للمساءلة. ولهذا السبب، جرى على مدار سنوات عديدة تطبيق تغييرات التحديث على صيغ حكم الولاة، وقد وقعت أبرز تلك التغييرات فى الفترة ما بين عامى 1760 و1808، وهى تعرف باسم "الإصلاحات البوربونية".

وكانت تلك الإصلاحات تمثل استراتيجية الحكومة الامبراطورية من أجل تطوير المصالح المادية وزيادة ثروة الملك من خلال إجراء تغييرات مهمة على النواحى المالية

والعسكرية والتجارية، فضلاً عن تشجيع الأنشطة الإنتاجية المختلفة. وجرى فى إطار الإصلاح أيضاً الحد من الامتيازات وتحسين أوضاع الهنود إلى حد ما ونشر الثقافة التى كان التاج يهتم بها اهتماماً كبيراً فأرسل من أوروبا شخصيات مرموقة مستنيرة لتطوير العلوم والفنون والصناعة. أما أبناء أمريكا، فقد كان لهم أيضاً نصيب فى الأخذ بالأفكار الجديدة، إذ كانوا يلتمسون الوسيلة من أجل الوصول إلى أفكار التنوير التحررية بل وحتى الثورية منها. وأدى النمو الثقافى والرخاء إلى أن يتضح أمام الكريوليوس أن السيطرة الإسبانية كانت موبوءة باستغلال السلطة وكثرة العيوب. ومن ثم فإن حقبة الإصلاحات البوربونية فى نويبا إسبانيا لم تقتصر أهميتها فقط على مجرد النجاح الذى حققه النمو الاقتصادى والانفتاح على عالم الأطلنطى. فلقد كانت كذلك حقبة أزمات لمجتمع قد فطن إلى أنه مقبل على عصر مختلف...

بدأ الإصلاح فى نويبا إسبانيا بثلاث زيارات (للتفتيش على الأفراد وعلى المكاتب) أمر بها الملك فيليبى الخامس (1700 – 174). وتلك الزيارات كانت تعكس وعى العرش الواضح بأن الأوضاع الإدارية فى نويبا إسبانيا كان يرثى لها. ونظراً لأن اقتصادها كان يعكس أداء فعالاً، فقد اتخذت إجراءات إدارية أتاحت للعرش الحصول على موارد للقيام بإجراءات أخرى كان لها مردودها الواسع العريض. وقد أطلق على تلك الإجراءات الإدارية اسم "مركزية الموارد الحقيقية" وكانت تعنى نقل عملية تحصيل الضرائب من بين أيدى الخاصة الذين لا ينتمون إلى الحكومة إلى كبار مسئولى الملك وتركيزها فى أيديهم.

أوضح احتلال الأسطول الإنجليزى لهافانا فى عام 1762 الحاجة إلى البدء فى مرحلة ثانية من مراحل الإصلاح وقد اتسمت بفعاليتها بصورة أكبر من سابقتها نظراً لزيادة إسهام العرش فيها بالدور الأكبر الذى قام به كارلوس الثالث، وكان قد تولى العرش قبل احتلال هافانا بعدة سنوات. وفى الحقيقة فقد كان العاهل الجديد يتمتع بخبرة أوسع فى فنون الحكم. ومع هذا فإن الظروف كانت هى التى أجبرته على اتخاذ إجراءات لإعادة التنظيم السياسى- الإدارى للأقاليم التى كانت تحت حكم الولاة حيث كانت فى الواقع مازالت أسيرة للأنظمة التى كانت تطبق منذ القرن السادس عشر. كانت تلك الظروف ذات طابع عالمى وذات سمات عسكرية فى أساسها. ولهذا فإن الإصلاحات التى أجراها كارلوس الثالث قد تناولت أيضاً تقوية النظام الدفاعى وخاصة فى الكاريبى وفى شمال نويبا إسبانيا علاوة على تركيز السلطة فى أيدى كبار

مسئولى الملك. وقد تطلبت هاتان المهمتان موارد مالية ضخمة مما استلزم إجراء إصلاحات عميقة على الإدارة المالية الملكية فى نويبا إسبانيا.

الواقع أن الولاة الذين حكموا فى نويبا إسبانيا خلال ولاية كارلوس الثالث على العرش، كانوا مختلفين بشدة عن الولاة الذين حكموها فى القرون السابقة. فقد كانوا عظماء حقاً، مع أن أياً منهم لم يكن من النبلاء بالميلاد وكانوا كلهم قد وصلوا إلى ذلك المنصب السامى بتزكية من جدارتهم الشخصية وحدها. كما كان الحماس الذى يعتمل فى نفوسهم هو الدافع لهم جميعاً لإجراء عملية تجديد فى الامبراطورية بشكل عام وفى نويبا إسبانيا بوجه خاص. ولم يكفهم هذا، إذ أمر العرش الإسبانى فى النصف الثانى من عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر بإجراء تفتيش عام على جميع الخزانات الملكية فى نويبا إسبانيا وكان هذا على يد "زيارة" خوسيه دى غالبيس (1765 – 1771). ومنذ اعتماد تعيين هذه الشخصية كوزير للأقاليم الهندية فى عام 1776، بدأ فى نويبا إسبانيا تطبيق الإجراءات الإصلاحية بحسم وصرامة، وهى الإجراءات التى أثبتت "الزيارة" ضرورتها... وبدأ فى تلك الحقبة أيضاً تشكيل هيئات للدفاع عن الأقاليم التى يحكمها الولاة كما أنشئت القيادة العامة للأقاليم الداخلية (1776)، كما بدأت فيها كذلك محاولة تقليص سلطة الوالى، وبدأ طريق الإصلاح يأخذ مجراه كذلك فى الإدارات الإقليمية بعد تعيين البعض فى مناصب رؤساء نظارات ونواب مفوضين (1786).

على الرغم من الدفعة القوية التى تلقاها برنامج التحديث فى بدايته، فإنه بموت خوسيه دى غالبيس عام 1786 – ثم تولى كارلوس الرابع العرش قد واجه ظروفاً دولية معاكسة أكثر مما واجه والده، فنلاحظ تغيراً كبيراً فى مسيرة الإصلاح البوربونية إذ إن تلك الدفعة قد واجهت نكسة نتيجة للمعوقات التى واجهتها. وعلى المستوى الاقتصادى، سنجد تفسيراً لتراجع الأداء الاقتصادى فى نويبا إسبانيا بالمقارنة بالعقدين السابقين. ويعود هذا إلى أن الخزانة الملكية بعد أن بالغت فى تحصيل الموارد المالية من أبناء نويبا إسبانيا بدأت تلجأ أكثر من أى وقت مضى إلى القروض والمنح بسبب النزاعات الدولية القائمة، علماً بأن نويبا إسبانيا قد "استفادت" من ظروف ما أُطلق عليها تعبير "التجارة المحايدة" (فى الفترات:1796 - 1804،1802-1808).

كان للإصلاحات البوربونية أثرها أيضاً على النواحى الاجتماعية والثقافية. وكان الشعب يشعر بالسخط على السلطة الإسبانية، إذ إن سيطرتهم لم تكن تسمح بترقى السلّم إلا لأصحاب الحظوة بل وكان عليهم أيضاً دفع الثمن ومساندة التاج. أما الكريوليوس فعلى الرغم من تراكم الاحتقان الذى كان يخالجهم خلال تلك الفترة، فإنهم قد استفادوا من صور التقدم التى كانت تتيحها لهم المؤسسات الثقافية، كما استفادوا من الانفتاح على مجتمعات الأطلنطى الأخرى. أما الهنود، فقد كانوا يعانون معاناة شديدة من السيطرة الإسبانية لكن معاناتهم كانت أشد وطأة نتيجة لأزمات المعيشة التى وقعت فى تلك السنوات وخاصة أزمة 1785 – 1787 وأزمة 1808 – 1810.

كانت نويبا إسبانيا فى حوالى العقد الأول من القرن التاسع عشر هى خزانة للموارد المالية الغزيرة للعاهل الإسبانى، إذ إن اقتصادها كان اقتصاداً راسخاً قوياً كما كانت له مقوماته وهويته الذاتية. وقد أدت الضغوط التى مارسها العرش على أبناء نويبا إسبانيا خلال السنوات الأخيرة من العهد البوربونى إلى إفقار جانب كبير من شعبها، كما أدت إلى القضاء على إمكانيات النمو الاقتصادى المستقبلى "للمكسيك المستعمرة" أى (نويبا إسبانيا) و"للمكسيك المستقلة". أما ما لم ينجح فيه الحكم الإسبانى وكذلك لم ينجح فيه آخر ولاته، فقد كان القضاء على الشعور بأن الموقف يمكن أن يتغير لصالح أبناء نويبا إسبانيا...

والنظرة الشاملة على الإصلاحات الرئيسية التى قام بها المستنيرون البوربون تقدم لنا إطاراً مرجعياً لآخر سنوات نويبا إسبانيا وأوائل عقود سنوات المكسيك المستقلة. بل إنه حتى عندما نقول بأن حقبة الإصلاحات البوربونية هى التى رسمت معظم خطوط التقسيمات الجغرافية التى تناولت جزءاً من "المكسيك الجمهورية"، أو نقول إن تلك السنوات قد ولدت فيها مشاعر العداء للاحتلال الإسبانى، فإنه يمكننا القول أيضاً بأن فترة الرخاء البوربونية فى نويبا إسبانيا كانت تحمل فى رحمها مخاض التدهور الاقتصادى الذى حل بالمكسيك المستقلة.

لم يطق الحكم الإمبراطورى فى إسبانيا رؤية كيف تجرى الأوضاع فى أكثر ممتلكاته ثراء فى أمريكا. فكان أن بعث بالثلاث زيارات المفاجئة التى جرت فى فترات مختلفة (1710-1715، 1716، 1729-1733) فأظهرت الحاجة إلى إجراء تغييرات على الأوضاع، فعلى سبيل المثال بدأت مخاطبة سلطات حاضرة التاج بأن الدخل من ضريبة البيوع أو الإتاوة (*alcabala*) (ضريبة داخلية يجرى تحصيلها مقابل عبور البضائع فى أرض تفرض فيها تلك الضريبة) كان يمكن أن يكون العائد منها أكبر لو كانت تحت إدارة أحد كبار المسئولين الذين يرسلهم التاج، بشرط أن ينزع هذا الاختصاص من الهيئات (وكان هذا المصطلح يطلق على فئة من التجار أو وكلاء المجالس من المواطنين الذين لا ينتمون للحكومة). والواقع أن المشكلة كانت تكمن فى معظم الأحيان فى أن الولاة كانوا يقررون تسليم العوائد إلى "الهيئة" بدلاً من تسليمها إلى التاج.

وقد بدأ الحال يتغير اعتباراً من عام 1732 بالنسبة لضريبة البيوع مثلما تغير بالنسبة لضرائب أخرى (مثل عوائد دار النقد والجزية وعوائد البارود والتبغ وأوراق اللعب والمحررات ورسوم خاتم الرصاص على المحررات وشراب البولكى المسكر، إلخ). وكان هذا التغير نتيجة لأن أهم المناصب فى دار النقد بمدينة المكسيك قد أصبحت تابعة للتاج وهو ما كان يعنى إلغاء بيع تلك المناصب لأحسن العروض. ثم استمرت مركزية العوائد والدخول طوال سنوات هذا القرن تقريباً. وأهم مثل على تلك المركزية كان ضم ضريبة البيوعات إلى الإدارة المالية لنويبا إسبانيا، وهو إجراء استغرق عدة سنوات (1754-1776). وكانت "زيارة" غالبيس قد أوقفت العمل بها لفترة مؤقتة. وكانت المركزية تقوم أيضاً على أساس التوقف عن "بيع" مهام أو وظيفة تحصيل الضرائب إلى هيئات خاصة، ومن ثم كان على التاج أن يتولى تلك المهمة وهو ما فتح الباب أمام إمكانية زيادة عوائد الأموال المحصلة وخفض النفقات.

والواقع أن تحقيق مركزية الدخل قد اضطر التاج إلى إنفاق مبالغ مالية كبيرة فى الوقت الذى كان عليه أن يقوى ويدعم الهيكل الإدارى لدار المال، أى خزانة نويبا إسبانيا. ولهذا كان من المفيد أن يثبت اقتصاد الولاة كفاءته فى أواخر القرن السابع عشر. وإذا ما قيس هذا الاقتصاد بمقدار الضرائب المدفوعة، نجد أن نمو أعمال المناجم كان معقولاً حتى عام

1750، علماً بأن جميع أشكال الاقتصاد الأخرى كان قد أصابها الركود خلال السنوات الوسيطة لذلك القرن ثم بدأت فى النمو مرة أخرى بشكل رائع فى العقدين السابع والثامن من القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن التغيير كانت له كلفته العالية، إلا أن البشائر الأولى للتغيير قد ظهرت نتائجها فى النصف الثانى من القرن فى صورة النمو الكبير فى دخل خزانة نويبا إسبانيا.

كانت الضربة التى تلقتها الهيمنة الإسبانية فى الأطلنطى فى نهاية حرب الأعوام السبعة (1756-1763) السبب الذى أدى إلى الإسراع فى عملية الإصلاح. فمن جهة، كانت الضربة قد أدت إلى انخفاض الدخل، والمثال على هذا أن ما حدث فى هافانا حدث أيضاً فى جزر الفلبين بعدما سقطت هى الأخرى، فأدى هذا إلى توقف وصول البواخر القادمة من الشرق الأقصى ومن ثم انقطاع الموارد التى كانت تلك البواخر تؤديها إلى خزانة نويبا إسبانيا. ومن جهة أخرى، ازدادت النفقات زيادة ضخمة بسبب الحاجة لإيجاد غطاء عسكرى لكل مناطق الأنتيل الكبرى وخاصة ميناء هافانا. وعندما احتل الإنجليز هذا الميناء، أصبحوا على مقربة من المصدر الرئيسى للثروات ألا وهو نويبا إسبانيا. وقد قام التاج فى عام 1764 برسم خطة ترمى إلى تقوية تحصينات فيراكروز وتأمين الطرق المتجهه منها إلى مدينة المكسيك ثم إقامة قاعدة لفرق من العسكريين المحترفين المحنكين ومن الميليشيات العسكرية. وفى شهر نوفمبر من تلك السنة نزل فى نويبا إسبانيا أول جيش دائم – فرقة جيش أميريكا – وكانت تحت قيادة خوان دى بـيَّالبا.

وفى نفس التوقيت كان يجرى التحضير "لزيارة" التفتيش واستعراض الوضع الإدارى والقضائى فى نويبا إسبانيا. وقد تم تعيين خوسيه غالبيس المنتمى إلى ملقة للقيام بهذه المهمة.

الزيارة العامة للمحاكم وللصناديق الملكية فى نويبا إسبانيا (إسبانياالجديدة)

لم يكن المطلوب من "الزائر" (أى المفتش) غالبيس أن يقدم تشخيصاً وحسب، بل فوضه التاج بصلاحيات وسلطات عريضة لإصلاح كل ما كان يستدعى التغيير. ومع هذا، فقد كانت التعليمات الرئيسية أمرين: زيادة ثروة دار المال أو الخزانة، وإدارة الدخل على أحسن صورة بمنع استغلال النفوذ والإسراف. قام "الزائر" فى تلبية أول التعليمات بدعم هيئة الاحتكار الملكية للتبغ، وكان هذا يعنى أن التاج قد اختص لنفسه مهمة زراعة وتصنيع وبيع التبغ وخاصة على هيئة السجائر التى كان استهلاكها كبيراً وخاصة بين النساء. وعند تقييم هذا الأمر، سنجد أن شركة التبغ كانت تمثل ثانى أكبر نشاط إنتاجى فى نويبا إسبانيا ولم يتفوق عليها إلا إنتاج المناجم. ومن جهة أخرى قام غالبيس بتقنين تجارة عَرَقى قصب السكر (المستخرج من العسل الأسود) حيث أن تحريم إنتاجه قد أدى إلى ضخامة استهلاكه غير المشروع مما كان يحرم خزانة العرش من مصدر من مصادر التمويل. وأنشأ غالبيس كذلك الجهاز العام للمحاسبات والضرائب وضرائب النفوس، حيث استطاع التاج أن يدير من خلاله موارد القرى والضواحى الراقية الناشئة والتجمعات السكانية. وأدت الإجراءات التى تم اتخاذها إلى تركيز كل تلك الموارد المالية فى الخزانات الملكية. وعلى الرغم من أنها لم تكن خالصة للملك إلا أنها بعد بضع سنوات شكلت إغراءً كبيراً للاستمرار فى تحصيلها، بعدما أصبحت الحاجة إليها ماسة لتمويل الحروب الامبراطورية...

أدى تعيين "الزائر" فرانسيسكو دى كروا (1766-1771) الذى كان يشارك غالبيس أفكاره نحو الإصلاح إلى تيسير أمور "الزيارات". فقد اتفق كلاهما على القيام بإجراءات التفتيش فى نويبو سانتاندير التى كان النسيان قد طواها تقريباً منذ ظهرت إلى الوجود فى عام 1748. كما قام الزائر شخصياً بالتفتيش على أراضى شمال نويبا إسبانيا، وكان الهدف من ذلك وضع استراتيجية تسمح بزيادة عدد السكان فى تلك المنطقة وتهدئة قلق الهنود واستغلال مناجمهم.

فى غضون ذلك ازدادت نفقات دار المال أو خزانة نويبا إسبانيا بصورة خرجت عن السيطرة. وتفسيرهذا يرجع إلى زيادة إنفاق المواقع العسكرية (ويعنى هذا زيادة المبالغ

المخصصة لدفع نفقات الدفاع) فضلاً عن الحاجة فى عام 1767 إلى تهدئة خواطر مثيرى القلاقل بسبب طرد الجيزويت وسنتحدث عن هذا الموضوع لاحقاً.

وجه "الزائر" مهمته إلى التفتيش على الخزانات الملكية والمحاكم، واتخذ لنفسه دون الوالى حق محاكمة الفاسدين وعزلهم من وظائفهم. وكان يأمر إذا اقتضت الضرورة بغلق المكاتب مثلما حدث فى خزانة أكابولكو التى كانت لا تعمل إلا ثلاثة أشهر فى السنة. أما بالنسبة إلى زيادة ثروة الخزانة الملكية فإن غالبيس ودى كروا قد دافعا عن القضية بإجراء يبدو وكأنه ضد مصالح التاج: إذ قررا إجراء خفض على سعر الزئبق (الذى كان ضمن احتكارات الملك) وشجع المناجم على إنتاجه باعتبار أنه من العناصر التى لا غنى عنها فى تصنيع بعض المعادن. وكان لتنفيذ مثل هذا الاقتراح كما كان لغيره فعالية كبيرة - ظهرت نتيجتها مع الوقت - فى دفع عجلة الاقتصاد، ومن ثم زيادة ما يعود به الاقتصاد على إيرادات الخزانة الملكية.

كان مبدأ حصول السلطة الكنسية على امتيازات ملكية مقابل خضوعها للملك هو الطابع الذى ميز حكم البوربون. وقد كان من رأى الملك كارلوس الثالث ووزرائه أن الامتيازات التى حصلت عليها الكنيسة لا تقارن بالنسبة للمصالح التى تعود على الدولة. ولهذا فقد بيتوا النية على وضع حد للمثل الذى كان يقول حينذاك "إن الملك هو الأب وإن الكنيسة هى الأم" بالنسبة للعائلة، وذلك لكى لا يبقى إلا المفهوم الذكورى وحده (أى الأب الذى هو الملك). وهو ما يعنى أن الرأس واحد فقط وهذا الرأس يعنى الملك. ولقد دافع الكتاب والسياسيون المستنيرون فى إسبانيا عن هذا الموقف الذى طرح للتصويت كل الهيكل القانونى للكنيسة ومشاركتها فى حياة المجتمع. ولم يكن لهذا الموقف أن ينجح ما لم يكن قد حظى بتأييد قطاع من الكنيسة أطلق عليه القطاع "الينسينى". وكانت هذه الطائفة تصف الكنائس المبنية على طراز البارّوك بأنها شاذة ومفرطة فى زينتها وذوقها سيء، وتدافع فى نفس الوقت عن بساطة واعتدال كنائس الطراز النيوكلاسيكى. كذلك كان أبناء الطائفة "الينسينية" سواء فى أوروبا أو فى أمريكا يهاجمون الجيزويت بشدة. وكان الجيزويت يدافعون عن سلطة البابا كما كانوا ينادون باستقلاله عن سلطة الأساقفة.

لم يكن طرد الجيزويت من نويبا إسبانيا كنتيجة لأمور أيديولوجية جرت فيها، وإنما كان من خلال مرسوم أصدره العاهل الإسبانى نفسه فى بداية عام 1767. ويلبى هذا المرسوم الرغبة فى القضاء على المقاومة التى كان يبديها هذا المذهب الدينى الكنسى وهو يحاول فى كل مرة الدفاع عن مبدأ الطاعة المطلقة للبابا.

كان الجيزويت فى نويبا إسبانيا يتمتعون فى الواقع بعدد كبير من الوحدات الإنتاجية ذات الكفاءة فى مجال الزراعة. كذلك كانوا من أهم ملاك الأراضى فى المناطق الحضرية. مع ذلك فإن تأثيرهم فى نويبا إسبانيا كان يعود إلى جهودهم فى مجال التعليم حيث كانت تقوم تلك الجهود على منهج أن المعلم يجب أن يكون صاحب فكر منظم. وكان مثل هذا الأسلوب فى التعليم يشكل خطورة فى تلك الأزمنة من القرن الثامن عشر بعدما بدأ التحديث يطال العلوم والفلسفة وذلك على الرغم من محاكم التفتيش. ولدى وصول مرسوم الطرد، أتاح التوافق فى أسلوب تفكير غالبيس مع أسلوب تفكير دى كروا أن يتم ذلك الطرد بصورة مفاجئة ومنظمة، بل ومثلما أراد الملك "لأنه...لا بد أن يعرف جميع رعايا العاهل المعظم الذى يجلس على عرش إسبانيا أنهم قد ولدوا لكى يصمتوا ولكى يطيعوا، ولم يولدوا لكى يناقشوا أو يدلوا برأى فيما يتعلق بالأمور العليا للملك". وقد أثار طرد "الرهبانية اليسوعية" القلاقل بين السكان وربما كان ذلك الطرد حجة وراء انتفاضتهم.

كانت أقاليم سان لويس دى لا باس، وسان لويس بوتوسى، وغواناخواتو، وبلد الوليد وميتشواكان ضحايا لذلك "الزائر" غالبيس (الذى كلفه الوالى بالمهمة) ليمارس فيهم قوة البطش التى كان يثبت بها ولاءه وطاعته العمياء للتاج، ورغبته فى استئصال أى شيء والقضاء عليه إذا أظهر أية بادرة على الانشقاق...

كانت قضية الجيزويت واحدة من الضربات القوية التى وجهها العرش إلى الامتيازات الكنسية. والضربة الأخرى قامت على جعل القوانين مرتبطة بقدرة الدولة على الحكم وعلى إدانة أعضاء الهيئة الإكليريكية الذين يخالفون القانون المدنى. وقد سبب طرد الجيزويت قلقاً لدى القطاع المتعلم من المجتمع، ذلك القطاع الذى كان يستفيد من المجمعات التعليمية للجيزويت فى واحد وعشرين مستوطنة تقع فى مختلف أرجاء نويبا إسبانيا، وتمتد من

تشيهواهوا إلى ميريدا... وهى قطاعات من المجتمع تلقت دروسها وتعلمت على أيدى أولئك الرهبان سواء حروف الهجاء الأولى أو قواعد اللغة اللاتينية أو الدراسات العليا فى الفلسفة والعلوم. وقد أثرت "الضربة" الثانية فى جميع سكان نويبا إسبانيا وخاصة فى الطبقة الأفقر من المجتمع التى تعانى أيضاً من الجهل إذ كانوا يرون فى كاهن الكنيسة كائناً نصف إلهى وفى درجة تختلف عن درجة العلمانيين. وفى نهاية المطاف، فإن استراتيجية البوربون ضد الكنيسة هى التى أدت إلى إضعاف نظام الحكم الكولونيالى.

* * *

كانت أهم فترات ازدهار الاقتصاد فى تاريخ نويبا إسبانياهى تلك الفترة التى أشرقت مع بداية عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر، حيث إنها قد تلت فترة ركود كانت قد بدأت حسب الإحصائيات حوالى عام 1750. وتوافقت سنوات الازدهار مع فترة الوالى أنطونيو ماريا دى بوكاريلى (1771-1779). وتفسر أسباب الرخاء فى ناحية مهمة منها إلى زيادة عدد السكان: ففى الفترة ما بين عام 1742 وعام 1810، ازداد عدد سكان نويبا إسبانيا من 3ر3 مليون إلى 1ر6 مليون نسمة. وهى زيادة ضخمة كان معظمها بين السكان الأصليين للبلاد. وكان معظم السكان الأصليين يقطنون المناطق الريفية أو فى حوالى 4682 موقعاً وكان عدد سكان كل موقع من تلك المواقع يتراوح ما بين 2000 إلى 3000 نسمة.

وعلى الرغم من أن غالبية السكان كانت تعيش فى مناطق ريفية إلا أن عدد التجمعات الحضرية والمدن قد ازداد خلال تلك الفترة. وكانت نسبة كبيرة من سكان الحضر تعيش فى حاضرة المكسيك التى كانت تعد العاصمة وكان يقيم فيها الوالى. وكانت تتشابه حاضرة غواناخواتو مع حاضرة بويبلا وذلك على عكس واخاكا ووادى الحجارة أو غوادالاخارا (التى كان يضم جزء منها ولاية خاليسكو) لأن المجتمع الريفى كان هو السائد فيها وكانت التجمعات الحضرية تقتصر على بؤرة أو بؤرتين فقط فى كل منهما، وقد تشابهت معهما بايادوليد أو بلد الوليد (وهى تقع فى ميتشواكان) وكذلك فيراكروز.

وبالنسبة للهيكل السكانى فقد كانت الغالبية فيه من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 16 سنة وكان متوسط أعمار السكان البيض ما بين 55 سنة و58 سنة فى حين كان متوسط

الأعمار أقل من هذا بين سكان البلاد الأصليين وبين بعض الأعراق الأخرى. ومن الحرى بنا أن نذكر فى هذا الصدد أن السلطات التابعة للولاة كانت مدركة لضرورة تحسين ظروف حياة السكان خاصة من وجهة نظر الاعتبارات الإنسانية وبالنظر كذلك إلى تكرار الأضرار البالغة التى كانت تلحق بأكثر السكان فقراً نتيجة لانتشار الأوبئة وكانت نتائجها مؤثرة على إمكانيات النمو الاقتصادى لأقاليم الولاة. وترجع إلى ثانى الولاة ريبيـاًخيخيدو (1789-1894) تلك الروح الحماسية العظيمة لوضع النواحى الصحية الوقائية موضع اهتماماته اليومية. وكانت أبرز وأهم الإجراءات التى اتخذها هى إنشاء المدافن ومنع الدفن فى الكنائس كما وضع معايير للتعامل مع الملابس المستعملة وأقام منشآت للحجرالصحى ومستعمرات معزولة لمرضى الجذام، إلخ. كما اختيرت بعض الأبرشيات كمراكز صحية وكان الرهبان يقومون على إدارة تلك المراكز.

سلطة الوالى ونظام الوكلاء أو النظار
(اللوائح والأنظمة الخاصة بالقائمين على المناطق الإدارية الجديدة)

اتخذ بوكاريلى خطوة كانت أكثر حكمة وفطنة من كونها مجرد خطوة لمعارضة أوامر التاج، إذ إنه قد علق إلى حد ما تنفيذ الإصلاحات التى كان غالبيس يريد تطبيقها. وقد كان معه كل الحق فى هذا فعندما تولى منصب الوالى كانت موارد الخزانة الملكية مازالت ضئيلة مع زيادة الديون عليها خاصة من جانب مقيمين فى دائرة ولايته. لكنه بعد خمس سنوات سجل زيادة جوهرية فى الدخل الصافى نتيجة لخطة طبقها بكل حزم ودقة لتوفير وخفض النفقات. وكان جزءاً مهماً من خطته للتوفير تقوم على المماطلة أولاً في إقامة أى مدن أو مناطق إدارية جديدة فى المناطق التى يحكمها، ثم معارضته التامة الواضحة كوال لإقامة أى مدن أو مناطق أخرى جديدة. وكان نظام إقامة المناطق الإدارية أو - بمعنى آخر - المدن الجديدة موروثاً عن "فرنسا القرن السابع عشر" وكان يجرى تطبيقه فى عدة أقاليم أمريكية يحكمها الولاة. وكان من أهداف غالبيس خلال "الزيارة" وضع وتنفيذ نظام يقوم على أساس تعيين "حاكم إدارى للإقليم" و"نواب المفوضين" التابعين لحكام الأقاليم، وذلك لكى يحلوا محل نظام العمدة الأكبر. ولم يكن وجه اعتراض بوكاريلى على هذا البرنامج الإدارى قائماً على أن البرنامج لا يلبى الاعتبارات

العملية، إذ كان له أيضاً خلفية سياسية لأن الوالى فى الهيكل الجديد كان سيفقد جزءاً من سلطاته. وكان هذا بالضبط هو هدف غالبيس...

كان الوالى يتولى كثيراً من المهام ومن بينها مهمة زمام القضاء وزمام الإدارة ومهمة المراقب ومحصل الضرائب والقائد العام ومن ثم كان على الوالى أن يستعين بجهاز أو هيئة من كبار المسئولين المحليين يطلق عليهم أسماء نواب المجالس أو العمدة الأكبر. ولم يكن أولئك الموظفون التابعون للتاج يتلقون مرتبات (أو يتلقون مرتبات ضئيلة جداً) وهو ما كان يجبرهم على القيام بأنشطة أخرى لا تتعلق بوظائفهم. ومن تلك الوظائف "توزيع البضائع"، التى كانت تعتمد على أن يقوم العمدة الأكبر بصفته وسيطاً لتجار القنصلية المكسيكية ببيع البضائع المستوردة أو التى ينتجها الإقليم التابع له وذلك بأسعار عالية فى مقابل أن يحصل على منتجات محلية بسعر منخفض. ولم يكن من الممكن السماح باستمرار مثل تلك الممارسات فى ظل وجود "حاكم مستنير أى يؤمن بمبادئ التنوير" لأن استمرارها كان سيعوق تطبيق المبادئ التى يفرضها الحاكم على السكان طالما أن العمدة الأكبر كان سينشغل بتجارته وأعماله الخاصة بدلاً من العمل على تطبيق مبادئ "الحاكم الإدارى".

واقترح غالبيس تأسيس هيئة أو مجموعة من المتعاونين يتولون أعباء مهام الوالى: اثنا عشر رجلاً يتولون مهمة تحصيل الضرائب وإقرار العدالة وتنظيم المليشيات وإدارة المدن والقرى الواقعة فى دائرة اختصاصه. وكل مهمة من تلك المهام كان يطلق عليها تعبير "قضية" ومن ثم فإن ذلك الحاكم الإدارى كان عليه أن يحيط بكل قضايا الخزانة والعدالة والحرب والشرطة (وكان لمفهوم "الشرطة" فى تلك الحقبة دلالات أوسع من مجرد مكافحة الجريمة). ومن ناحية أخرى، فقد كان فى ذهن غالبيس مبدأ "عسكرة المنطقة الشمالية" التى يحكمها الوالى فضلاً عن إنشاء مكتب يختص بالمسائل المالية وحدها وسماه: "الهيئة العليا للحاكم لشئون الخزانة". وكان الهدف من كلا الاقتراحين نزع الاختصاصات من الوالى. وقد اعترض بوكاريلى على تلك التغييرات ونجح فى وقف العمل بها خلال فترة حكمه، مستندا على أن وزير المستعمرات الهندية فى إسبانيا لم يكن ينظر بعين الرضى إلى هذين الإقتراحين، ورأى أنهما غير ضروريين لأن الأمور المالية فى نويبا إسبانيا كانت تسير على خير وجه. وفى عام 1776 تم تعيين خوسيه دى غالبيس كوزير للمستعمرات الهندية. واعتبارا من هذا العام وحتى وفاته

بعد عشر سنوات جرى تنفيذ كل الإقتراحات التى كان قد قدمها خلال "الزيارة". وهكذا شهدت نويبا إسبانيا طوفانا من الإصلاحات بدأت فعليا منذ تولى ابن مدينة ملقة الإسبانية مهام منصبه الجديد. فعلى سبيل المثال انشئت فى عام 1776 "الرئاسة العامة للأقاليم الداخلية" التى حققت بالفعل تقدماً مادياً وسكانياً وثقافياً فى أراضى الشمال المتسعة دون أن تخرج تلك الأراضى أبداً من تحت سيطرة الوالى الموجود فى مدينة المكسيك.

شهدت سنوات عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر تغيرات وتحولات عميقة. فمن جهة، أعطيت إلى نويبا إسبانيا حرية أكبر فى القيام بعمليات التبادل التجارى على الرغم من أن المبادلات التى كانت تجرى مع بيرو ومع نويبا غرانادا كان حجمها محدوداً. ومن جهة أخرى فإن غالبيس وجه على المستوى الإدارى ضربة إلى الوالى بإنشائه "الهيئة العليا للحاكم لشئون الخزانة" التى كلف أحد معاونيه القدامى بمسئولية إدارة شئونها. وكان الهدف من ذلك الإجراء تطبيق "سيطرة تكنوقراطية" تعينه على الوفاء بالاحتياجات المالية لحكم التاج. وكان هذا يعنى أن مهمة تحصيل الضرائب وتخصيص الموارد ستنسحب من أيدى الوالى وأيدى معاونيه لكى يقتصر عملهم على دور القضاء، وتسليم تلك المهام إلى هيئة كبار المسئولين الجديدة (وكلاء المفوضين للشئون المالية وشئون المدن الإدارية الجديدة). وقد فشل هذا المشروع لأنه افتقر إلى التخطيط الجيد كما ثبت وجود ثغرات قانونية فيه، وكان الزمن كفيلاً بإظهارها عند التطبيق.

وصلت نظم ولوائح المدن الجديدة إلى نويبا إسبانيا (التى تعد آخر الأقاليم التى تطبق نظام حكم الولاة) تنفيذاً للمشروع التكنوقراطى، وذلك فى غمار ظروف صعبة كانت تمر بها الامبراطورية، فبمجرد أن بدأ تنفيذ المشروع، مات وزير الأراضى الهندية خوسيه غالبيس سنة 1787. وفى عام 1788، ومع بداية تنفيذ هذا المشروع (وكان يطلق عليه أيضاً النظام أو اللائحة) يموت الملك كارلوس الثالث أكثر ملوك البوربون اهتماماً بالإصلاح. وعلى أى الأحوال، فقد استمر تنفيذ مشروع النظام أو اللائحة حيث جرى تقسيم نويبا إسبانيا بشكل أكثر عقلانية، لتلقى خلف ظهرانيها ذلك الغموض والتفكك الذى كان يخيم عليها فى الماضى. وقد جرى حسب النظام أو اللائحة إلحاق دوائر أو مناطق اختصاص جديدة إلى كل التقسيمات الإدارية الاثنتى عشرة الجديدة (دورانغو – وادى الحجارة أو غوادالاخارا – غواناخواتو – ميريدا – ميخيكو أو المكسيك – واخاكا – بويبلا – سان لويس بوتوسى – سونورا/سينالووا –

بلد الوليد أو بايّادوليد – فيركروز – زاكاتيكاس) وكانت تلك الدوائر أو المناطق قائمة بالفعل (فى صورة قضائيات أو عموديات كبرى) وكان يطلق على كل منها اسم ناحية. كان تطبيق البرنامج على كل التقسيمات الإدارية مليئاً بالمشاكل الفنية وترجع تلك المشاكل فى جانب منها إلى أن من طبقوه كانوا لا يعرفون خريطة الحدود. وكانت النتيجة بالطبع عدم تنفيذ التنظيم الخاص بأراضى نويبا إسبانيا بالشكل المطلوب. مع هذا، فإن التقسيم البوربونى كان هو الأساس الذى قام عليه فيما بعد تقسيم الحدود الجغرافية للبلاد فى الدستور المكسيكى.

شهد عقد الثمانينيات إزدهاراً ثقافياً وكان من بين عوامل ازدهاره النمو الاقتصادى المطرد على الرغم مما كان يكتنفه من مظاهر عدم المساواة. ففى عهد الوالى ماتيّاس غالبيس (شقيق وزير الأراضى الهندية) قام بمبادرة منه بتأسيس أكاديمية سان كارلوس للفنون الجميلة فى مدينة المكسيك، وخرجت إلى النور صحيفة لا غازيتا دى ميخيكو. وعلى المستوى الحضرى قام الوالى بتقسيم العاصمة إلى مربعات وعين عمدة على كل حى. كما قام ابن ذلك الزعيم واسمه برناردو دى غالبيس (تقلد منصب وال من يونيو 1785 إلى نوفمبر 1786) بإعطاء أوامره لوضع أسلاك شائكة حول مدينة المكسيك وبنفس المواصفات التى تم بها وضع تلك الأسلاك حول مدريد.

على جانب آخر، أدى الحماس "للتنوير" إلى القيام ببعثات للاستكشافات العلمية، وإلى قيام الوالى مانويل أنطونيو فلوريس (1787–1789) بإنشاء الحديقة النباتية فى مدينة المكسيك وأكمل إنشاءها خليفته الوالى الثانى من أسرة ريبييـاَخيخيدو الذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء كلية التعدين. وقد أوكلت إدارتها إلى مانويل تولسا المولود فى بلنسية. وكانت تلك المنشأة رائدة فى المناهج التعليمية العليا حيث أدرجت فى خططها الدراسية آخر التطورات الحديثة فى المجالات العلمية وآخر تقنيات التجارب الجديدة. وقد جرى افتتاح مبناها فى عام 1811 وهو بحق أحد أروع المبانى فى مدينة المكسيك العاصمة.

كان المشروع البوربونى للتحديث يرمى إلى تحقيق مركزية السلطة. ومع هذا فإن الأنظمة واللوائح الخاصة بالمناطق الإدارية الجديدة لم تفصح أبداً عن ذلك الهدف بل كان التاج يهدف بالأحرى من ذلك المشروع إلى تبسيط الإدارة فى نويبا إسبانيا. وانطلاقاً من تلك المجموعة من الأنظمة واللوائح والقوانين جرى إحلال كبار المسئولين مكان من كانوا يشغلون منصب العمدة الأكبر أو منصب مأمور القضاء. واقترنت تلك العملية بمنع نظام "توزيع حصص البضائع"، ورغم أن العمدة الأكبر لم يكن يتلقى أى مرتب إلا أن نواب أو وكلاء المفوض كانوا يتلقون بالفعل رواتب لهم. وكان من السهل القضاء على نظام "التوزيع" فى بعض المناطق فى حين أنه لا القوانين ولا الأفراد استطاعوا القضاء بشكل كامل على ذلك النظام القديم الذى لم يتحقق من عملية منعه فى الواقع إلا تغيير اسمه...

كان الهدف من وصول أولئك النظار والوكلاء القيام بعمليات الرقابة والمراجعة على عدد كبير من مسئولى نويبا إسبانيا ولهذا فإن النظم واللوائح إضافة إلى القوانين المكملة لها قد قوبلت بالمقاومة. وكانت وفاة أكبر المدافعين عنها خوسيه غالبيس فى عام 1786 سبباً فى أن يتخلى التاج عن ممارسة ضغوطه لتنفيذها. وهكذا فإنه قبل الانتهاء من تطبيق جميع تلك اللوائح والقوانين كان قد أعلن عن أن بعضها غير عملى وفى كثير من الأحيان عادت الأحوال إلى ما كانت عليه من قبل وهو ما أدى إلى أن تفقد صلابتها بل وأن تفقد بعض موادها أهميتها.

ثم ظهرت الفائدة من نظام إنشاء النظارات والوكالات فضلاً عن الأخذ بنظام المركزية فى تحصيل الأموال، وكان العمل به قد بدأ منذ بضعة أعوام، وسنتكلم عن هذا الأمر لاحقاً. مع ذلك فإن هذا النظام اعترته المشاكل بعد بداية تطبيقه. والحقيقة أن الوالى الثانى من أسرة ريبييّاخيخيدو الذى يعد أعظم الولاة الذين عينهم كارلوس الثالث كان يدافع عن النظارات ولكنه لم يكن موافقاً على تخفيض سلطاته كوال. ورغم ظهور النظارات إلى النور، إلا أنه بعد عام 1789 كانت الموافقة على قيام النظارات لا تتم إلا باعتماد الوالى... وفى المقام الثانى، فإن الأهمية الرفيعة التى كانت تولى لدوائر الاختصاص الإدارى المتعلقة بأراضى الاثنتى عشرة

نظارة فى نويبا إسبانيا كان لها نفس المستوى الرفيع من الأهمية التى كانت تتمتع بها الأسقفيات. ونفس الأهمية كانت تتمتع بها أيضاً بعض الدوائر المركزية المكلفة بتحصيل وتجميع ريع الدخل. ولو نظرنا إلى قضية تلك الدوائر المركزية فيمكن القول بأن العمل بنظام النظارات "قد وصل متأخراً أى بعد فوات الأوان"، لأن دار تحصيل ريع الدخل فى نويبا إسبانيا قامت بضم النظارات والوكالات إليها. ولو جنحنا إلى شيء من الخيال سنستطيع أن ندرك المصاعب التى كانت قائمة، فمثلاً كانت هناك مصاعب بين نظارة سان لويس بوتوسى ونظارة زاكاتيكاس لأن نصف ضرائب البيوع التى كانت تحصلها زاكاتيكاس كان المفروض أن تذهب حصيلتها إلى سان لويس بوتوسى. ويتعقد الأمر أكثر وأكثر إذا وضع فى الاعتبار أن كلتا النظارتين كان عليهما أن تقدما حساباتهما إلى "الإدارة العامة لضرائب البيوع ومبيعات شراب البولكى"، الموجودة هناك فى مدينة المكسيك، فى حين أن القانون كان يقتضى أن تقدما تلك الحسابات إلى وزارة الخزانة (الموجودة فى إسبانيا)، علماً بأنهما كان ينبغى أن تقدمها حسبما تقتضى الإصلاحات التى فرضها ريبيــياخيخيدو فى عام 1789 إلى الوالى فى نويبا إسبانيا... وتلك المشكلة الأخيرة انعكست فى صورة المشاحنات التى وقعت بين النظارات وبين الإدارة المركزية التابعة للوالى فى نويبا إسبانيا.

ومع كل هذا ورغم المشاكل فإن نتائج هذه القضية ونتائج الترتيبات التى فرضتها خطة الإصلاح كانت نتائج رائعة. إذ تشير البيانات الخاصة بالفترة ما بين عام 1765 وعام 1804 إلى أن عوائد الدخل الحقيقية قد تضاعفت أربع مرات. وتفسير هذا يرجع إلى أربعة عوامل هى: زيادة عدد أنواع الضرائب (سواء كانت من الضرائب المقررة العادية أو من الضرائب الطارئة) – الزيادة فى نسب فئات الضريبة – زيادة ممارسة الضغوط نتيجة للتغييرات الإدارية – النمو الاقتصادى. لقد كانت نتائج تحصيل تلك الموارد من الضخامة بمكان، لأن الحقيقة أن ما كان يسدده الناس فى نويبا إسبانيا كان يزيد بنسبة 70% عما يسدده الناس فى إسبانيا نفسها...

كانت الأعباء المالية المفروضة فى العقد التاسع من القرن الثامن عشر على نويبا إسبانيا قد أثقلت كاهل أهلها. والواقع أنه كان من المستحيل سياسياً بالنسبة للتاج الحصول على كل الأموال التى يحتاجها من الضرائب الاعتيادية المقررة وحدها. ولهذا وبسبب النزاعات

الحربية التى وجدت الامبراطورية الإسبانية نفسها متورطة فيها (الحرب ضد الفرنسيين فى عام 1793 والنزاع مع إنجلترا فى عام 1796) فإن التاج اضطر إلى اللجوء إلى القروض وإلى طلب المنح. وتختلف هذه المنح والقروض عن الضرائب التقليدية المقررة لأن الملك كان قد التزم بسداد الفوائد على المنح والقروض.

ظلت الأمور تسير على تلك الوتيرة حتى سنوات قليلة قبل حصول المكسيك على استقلالها. وكان الملك يدفع أتعاباً إلى أكثر "المحصلين" كفاءة فى نويبا إسبانيا، مثل: قنصلية المكسيك والقنصليات التى نشأت حديثاً (1795) فى فيراكروز وفى وادى الحجارة (غوادالاخارا) وإلى ديوان المناجم. مع هذا فقد كان الملك عندما تزداد الإحتياجات الطارئة الماسة يضع يده وبمساعدة النظار على الأموال التى لا تخصه، ولكنها كانت حسب القانون تحت رعايته. وكانت تلك الأموال هى عبارة عن الأموال الموجودة فى الحسابات الشخصية وفى أموال العوائد (المفروضة على موارد القرى والضواحى السكنية الراقية والتجمعات السكنية الحضرية)، وفى أموال طوائف الهنود (أموال الهنود فى صندوق "التوفير" التى كانت مخصصة للطوارئ) وفى أموال صناديق إعانات الأرامل (أموال من كبار المسئولين المدنيين والعسكريين كإعانة إذا ترملت زوجاتهم)، إلخ. وهذه الأموال لم يستردها أى أحد من هؤلاء على الإطلاق - كما لم يكن التاج يدفع عنها مطلقاً أية فوائد... وقد اختفت بعض الحسابات خلال مراحل التحرر (1808-1814 و 1820-1821) كما اختفت حسابات جديدة غيرها كان مقرراً أن يبدأ العمل بها اعتباراً من عام 1821.

دعم سندات الدين المَــلكية والاقتصاد فى نويبا إسبانيا

أصبح أكثر المواقف مدعاة ليأس التاج ضرورة العمل من أجل أن يتحقق "الاستقرار" لسعر الكثير من سندات الدين (السندات الملكية) التى كان الملك قد وقع على الكثير جداً منها. وكان يجرى تداول سندات الدين الملكية فى إسبانيا مثل النقود العادية*.

---

* معنى هذا أن الملك كان قد طلب قروضاً من رعاياه وأصدر مقابلها سندات دين (أوراق موقعة من الملك مطبوع عليها مبلغ الدين). وكان الأفراد يتداولونها كما لو كانت نقوداً. ومن ناحية المبدأ، فإن قيمة تلك السندات كانت مقبولة الدفع من الخزانة بقيمتها المطبوعة على الورق.

والغرض من توجيه النداء لأجل "دعم سندات الدين الملكية" كان يرمى إلى أن تقوم الكنيسة فى إسبانيا ببيع ممتلكاتها "وإقراض" الأموال الناتجة عن عمليات البيع للخزينة الملكية. ولم تكن للكنيسة فى نويبا إسبانيا أملاك كثيرة وكانت المزارع الكبرى الثرية للجيزويت قد آلت إلى خزائن الملك تحت اسم "أموال مؤقتة". والحقيقة أن الأموال كانت بالفعل فى حوزتهم لأنها كانت عبارة عن أموال كانوا يتقاضونها من الأغنياء لعمل قداس لصلاة تقام للتكفير عن أرواح الموتى. وقد قام ديوان "الأوقاف المكرسة للعبادة ولأعمال الخير" بإقراض الأموال للملك لكى تستمر الكنيسة فى عملها فى تشغيل المزارع الكبرى ومزارع المواشى والأبقار وغير هذا من الأعمال. لقد كان على الكنيسة أن "تجمع" الأموال ممن يسددونها إليها لكى "تقرضها" للخزانة الملكية...

صدر مرسوم "دعم سندات الدين الملكية" فى نويبا إسبانيا فى أواخر عام 1804 وكانت نتائجه كبيرة جداً وتمثلت فيما يلى: انخفضت القروض المقدمة وانخفضت رءوس الأموال التى كان من الممكن أن تشغل العديد من وحدات الإنتاج ونفدت أرصدة صناديق التوفير وسقط الكثير من الأفراد والمنشآت فريسة للفقر والحاجة. ثم ألغى ذلك المرسوم فى أوائل سنة 1809 كنتيجة لانقلاب أطاح بالوالى خوسيه إيتورّيغاراى (1803-1808) إلا أن آثار ذلك المرســـوم ظلت قائمة بسبب تقلص إمكانيات الاقتصاد فى التعافى على المدى القصير أو المتوسط.

وعلى أى الأحوال فان الاستنزاف الضخم للموارد الذى عانت منه نويبا إسبانيا خلال الحقبة البوربونية يحدثنا عن اقتصاد كان قد شهد نمواً عظيماً. ثم كان هذا النمو الاقتصادى سبباً فى ما أدمى جسد نويبا إسبانيا على يد السلطات القابعة فى إسبانيا...

كانت الزيادة السكانية المشار إليها من قبل تعنى زيادة الطلب فى الأسواق. وقد أدت زيادة عدد السكان إلى ازدياد عدد المبادلات التجارية وهو ما عاد بالفائدة على الأنشطة

مع ذلك وبمرور الوقت، وبالنظر إلى ازدياد عدد السندات المصدرة، فإن قيمتها بدأت فى الانخفاض. وكانت رغبة التاج أن يتحقق الاستقرار لسعرها، لأنه إذا لم يقبل أحد التعامل بهذه السندات الملكية أو انخفض سعرها فإن التاج لن يستطيع بعد هذا طلب قروض أو على أقل تقدير لن يستطيع ذلك من خلال آلية إصدار أوراق أو سندات دين أخرى.

الزراعية وأنشطة تربية الماشية والأبقار. ومن ثم فقد لوحظ أن الزراعة خلال تلك الحقبة كانت تتجه بشكل مطرد إلى أسواق المناطق الحضرية، ولم تعد تتجه إلى مناطق الأنشطة التعدينية والمناجم. وقد شهد قطاع التعدين والمناجم نمواً كبيراً اعتباراً من عام 1772 حيث ظل ذلك النمو يتحقق بصفة عامة حتى حلول عام 1795. وكانت ديناميكية قطاع التعدين تلبى تطلعات سياسة التشجيع أو التحفيز التى يتبعها التاج وتمثلت فيما يلى: الأسعار الخاصة للزئبق والبارود – الإعفاء من ضريبة البيوع المفروضة على ترويج المعدات المتصلة اتصالاً مباشراً مع هذا النشاط. وكان التحرير النسبى للتجارة هو أحد العناصر الأخرى التى تفسر أيضاً نمو قطاع التعدين، حيث أدى هذا إلى أن بدأت الممتلكات الإسبانية فى القارة الأمريكية فى التعامل عن قرب مع تجارة ذلك القطاع. والحقيقة أنه إزاء انخفاض الفوائد التى تدرها الأنشطة التجارية أعاد التجار توجيه استثماراتهم إلى الاستثمار فى المناجم.

مع هذا ومع النمو النسبى فى معدلات المبادلات التجارية، فإنه تجدر الإشارة إلى أن هذا لا يعنى أن تلك الحقبة كان لها سوق "وحيد" فى نويبا إسبانيا. فالواقع أنه كانت هناك عدة أسواق، وسنجد أن منطقة واخاكا مثلاً كانت تنتج الذرة وكانت تستهلك ما تنتجه من ذرة، كما لم يكن نقل الذرة إلى دورانغو ضرورياً. ولم يكن هذا ينطبق على منتجات أخرى كان سعرها فى أسواق أخرى يستحق أن تنقل إليها، بدون أن تقطع المسافات الطويلة عبر طرق سيئة ودفع ضرائب البيوع الكبيرة المستحقة عنها. ومثال على ذلك، منتجات الفضة والمنسوجات وعَرَقى قصب السكر (مشروب مسكر من عسل قصب السكر). إلا أن البضائع المستوردة كانت أكثر أهمية، حيث كانت تصل إلى البلاد عبر ميناء فيراكروز لتباع فى تشيهواهوا بل وترسل لكى تباع فى الشمال أيضاً.

نجحت الأسواق إلى حد كبير فى استيفاء احتياجاتها نتيجة لتحرير التجارة الخارجية التى وصلت إلى أفضل حالاتها خلال عام 1789 ونتيجة لما أطلق عليها آنذاك "التجارة المحايدة" التى وجدت إسبانيا نفسها مجبرة على قبولها نتيجة الحصار الذى فرضته إنجلترا على موانيها خلال الحرب التى نشبت بين إنجلترا وإسبانيا. ويقوم هذا الشكل من أشكال التجارة على تصريح للدخول والخروج من الموانئ يصدره العرش الإسبانى إلى دول أخرى غير متورطة فى النزاع. وكانت أهمية هذا الإجراء تكمن فى تيسير حركة نقل الزئبق الذى كان لا غنى عنه بالنسبة لنويبا إسبانيا. كذلك استطاعت سلطات حاضرة التاج الاستفادة أيضاً من

الأموال التى كانت تضخها هذه المستعمرة الثرية بعد عملية كانت تجرى على النحو التالى: يطلب ملك إسبانيا المال كقرض من أحد الممولين وليكن فرنسياً على سبيل المثال وهذا الفرنسى يسترد قيمة القرض ولكن من خزانة مدينة المكسيك حيث كانت تودع فيها الموارد المالية المحصلة من الضرائب العادية المقررة ومن القروض ومن المنح، ثم من الكنيسة أيضاً بعد صدور مرسوم دعم السندات الملكية وهى أموال كانت الكنيسة قد قامت بتحصيلها من المنتجين فى نويبا إسبانيا بغرض إقراضها للملك. والحقيقة أن تلك الأموال كانت تصب فى نهاية الأمر فى الخزانة الفرنسية التابعة لنابليون بونابرت كنتيجة لاتفاقية كان العرش الإسبانى قد وقعها معه فى عام 1803 كمساندة منه لفرنسا فى حملاتها العسكرية ضد إنجلترا. وهكذا فإن جانباً كبيراً من مدخرات نويبا إسبانيا قد جرى توجيهه لتمويل نزاع لم يكن لأهل نويبا إسبانيا ناقة فيه ولا جمل.

وكانت المناطق الداخلية فى نويبا إسبانيا تتمتع بأسواق تفيض بالحركة والديناميكية، إذ ظلت الأسواق فى الباخيـــو وميتشواكان تمد المناجم بما يكفيها من احتياجات، كما ازداد إمداد مناطق الحضر فى الداخل وجزر الأنتيل فى الخارج بحاجاتها من المنتجات المصنعة. وكانت بوبيلا تمد جزر الأنتيل كذلك بالدقيق الذى تحتاجه. وإذا كانت المنافسة من أمريكا الشمالية قد قضت على تلك الصفقات نتيجة "للتجارة المحايدة" فإن إنتاج المنسوجات قد وجد له مكاناً فى كل من زاكاتيكاس – سينالووا – دورانغو – واخاكا، فضلاً عن غواتيمالا.

أدى نمو عاصمة وادى الحجارة (غوادالاخارا) وازدياد عدد سكانها إلى وضعها فى مكان مهم جداً على خريطة الاقتصاد فى نويبا إسبانيا. وقد انتشرت فى تلك الآونة مراكز للصناعات وازدادت المبادلات التجارية بين الأسواق التى كان للمجتمع دور نشيط فيها. ولقد كان الجانب الأكبر من التقدم الذى تحقق فى وادى الحجارة (غوادالاخارا) راجعاً إلى الدفعة الكبيرة التى وجهتها هيئة قنصلية التجار فى تلك المدينة إلى الاقتصاد، وكانت تلك القنصلية قد أنشئت فى عام 1795. وعلى العكس من هذا، فإن هيئة قنصلية التجار القائمة فى المكسيك كانت قد لجأت منذ البداية إلى تطبيق مبادئ تتسم بالتحرر فى مبادلاتها الاقتصادية. وبفضل هذا، أقيم أكبر الأسواق التجارية فى نويبا إسبانيا فى سان خوان دى لوس لاغوس التى كانت توفر كفايتها من البضائع من القنصلية فى خاليسكو. وقد اتخذ ذلك السوق مركزاً له فى منطقة

السلع الضرورية التى تحتاجها مناطق التعدين والمناجم والمناطق الحضرية فى الشمال الأقصى. وقد ازدادت أهميته خاصة بالنسبة للشمال الشرقى بعد أن اكتشفت فيه مناجم جديدة.

ازداد من جهة أخرى النمو الاقتصادى بصورة كبيرة فى المنطقة الإدارية لسان لويس بوتوسى (وكانت تضم الولايات الحالية التالية: سان لويس بوتوسى – كواهويلا – نويبو ليون – تاماوليباس وجزء من تيخاس "تكساس") وذلك نتيجة النمو النسبى الذى شهدته المناطق الحضرية فيها ومن بينها سالتيـــيُو ومونتيرّى وعدة مستوطنات فى مستعمرة نويبو سانتاندير. ويرجع النمو النسبى فيها إلى افتقار المنطقة لوجود مناجم ذات أهمية كبيرة فيما عدا تلك المناجم الموجودة فى ولاية سان لويس بوتوسى. ومع هذا فإن ذلك النمو يرجع إلى تخصصها فى إنتاج سلع أتاحت لها ارتباطاً أكبر مع أسواق وسط نويبا إسبانيا. وكان من أهم الأمور كذلك موضوع إنتاج الماشية والأبقار والمنتجات القائمة عليهما وهو إنتاج وجد له فى نهاية القرن سوقاً كبيرة فى مدينة المكسيك وفى الأودية الواقعة فى وسط البلاد وفى الباخيـــيّو. وكان للمنطقة الشمالية من واخاكا نفس الظروف حيث كانت توفر لأسواق المناطق الوسطى احتياجاتها من الماشية والسكر، كما أن منطقة ميكستيكا العليا ظلت تنتج الصبغة القرمزية المستخرجة من الكوتشينيــيّا حيث كان يجرى تصديرها إلى الدول الأخرى كما كان الطلب يتزايد عليها. لكن نظام "توزيع حصص الغزاة" لم يكتب له أن يختفى بعد من تلك المنطقة، إذ إنه كان وما زال يمثل فى تلك الفترة عملية يسيل لها اللعاب سعياً وراء رضاء التاج. وكانت الأودية الموجودة فى محيط مدينة واخاكا تدير شئون اقتصادها من خلال توفير احتياجات هذه المدينة والتجارة مع منطقة البرزخ أى تشيـــياباس وغواتيمالا. أما يوكاتان، فإنها كانت تلقى معاملة مختلفة من التاج بخلاف المعاملة التى كانت تلقاها باقى أنحاء نويبا إسبانيا إذ إنها تمتعت بحرية التجارة فى عام 1770 وفرضت نوعاً من الحقوق لنفسها فى هذا الإقليم تجعلها تتمتع بوضع خاص. وهو ما سبب لها فيما بعد مشاكل دائمة خلال القرن التاسع عشر... وتحولت يوكاتان عبر ميناء كامبيتشى إلى مورّد للمنتجات الإقليمية لبقية مناطق نويبا إسبانيا وكوبا ونيو أورليانز كما أجبرها ازدياد عدد السكان فيها إلى استيراد المنتجات التى تحتاج إليها من هذه الأقاليم ومن أقاليم غيرها.

كانت عملية التغيير فى هيكل الحكم والأساليب الجديدة فى التعليم والمؤسسات التعليمية والانفتاح الذى سرت موجته – من وراء ستار تقريباً – على الفكر الأوربى وفكر أمريكا الشمالية إضافة إلى الأحوال الاقتصادية هى ما فرضت الحاجة إلى تغيير أفكار الناس فى نويبا إسبانيا. فكيف لا يحدث هذا وهناك مواجهة قائمة طوال تلك الحقبة بين القضايا السياسية الخاصة بالإسبان والاحتياجات الداخلية للناس داخل نويبا إسبانيا؟... فى بداية الأمر وقبل عقد التسعينات من ذلك القرن كانت هناك جهود حثيثة وأعمال إنشائية تجرى فى كل اتجاه تناولت الأشغال العامة وإنشاء المؤسسات الثقافية. وقد انتهت تلك المرحلة عندما خشى التاج من وصول أفكار الثورة الفرنسية فى الحرية إلى نويبا إسبانيا. وبدأت خلال عقد التسعينات تبرز خطوط الاختلاف بين أبناء شبه جزيرة إيبريا وأبناء القارة الأمريكية وبدأت الريبة تتسلل بينهما. وبدأ استخدام كلمات مثل كلمة الحرية والتقدم والأمة رغماً عن نظام الحكم. فها قد حل الزمن الذى تغير فيه أسلوب التفكير بين أبناء نويبا إسبانيا. ولقد تألقت قدرة وكفاءة أبناء نويبا إسبانيا منذ النصف الثانى من ذلك القرن فى العديد من الكتابات وفى القدرة على التأليف فى شتى نواحى الفكر، وذلك على النقيض من الفكرة السائدة فى إسبانيا من أنه ليس هنالك فى القارة الأمريكية ما يستحق الاهتمام.

كان "الإصلاح البوربونى" معنياً أيضاً بإزالة ما شاب أحاسيس الكريوّيوس، فبدأ أبناء شبه الجزيرة المعنيون فى العديد من المؤسسات المنشأة حديثاً (مثل أكاديمية سان كارلوس للفنون الجميلة ومجمع التعدين والحديقة النباتية الملكية) يتخذون من الكريوّيوس مساعدين للعمل معهم. كذلك كان أبناء شبه الجزيرة يحتلون المناصب الإدارية البيروقراطية العليا، إلا أنهم مع هذا كانوا على سبيل المثال يبرمون تحالفات مع حكام الأقاليم ومع الجماعات المحلية المقتدرة اقتصادياً وتلك التحالفات كانت تتم عندما يقتضى الأمر الدفاع عن بعض المواقف المتعلقة بالأوامر أو بالامتيازات الاقتصادية. وعندما دقت ساعة الحقيقة وبدأت حرب الاستقلال، سيطر على أولئك الإداريين البيروقراطيين ولاؤهم وانتماؤهم لسلطات شبه الجزيرة (أى إسبانيا).

كانت "التجارة المحايدة" عنصراً مهماً فى تفسير ظهور المشاعر القومية، لأنها أتاحت لأبناء نوبيا إسبانيا الاتصال بالخارج، وهو ما أدى بالتالى إلى ازدياد شعورهم بالثقة فى أنفسهم. ومن الغريب أن تأجج الشعور القومى فى النفوس يرجع إلى أحد ولاة العصر الكولونيالى من المعتزين بالدماء الإسبانية التى تجرى فى عروقه وهو خوسيه إتورّيغاراى عندما أنشأ ميليشيات الأقاليم (وهى تشكيلات عسكرية تشكلت من سكان الأقاليم). وقد كان هذا العمل الذى كان موجهاً للدفاع عن نوبيا إسبانيا بسبب الحرب بين إسبانيا وإنجلترا التى بدأت فى عام 1804 هو ما أيقظ وعى أبناء نوبيا إسبانيا إزاء القدرات العسكرية الكامنة فى الأمة.

وفى تلك الظروف، تغدو آخر سنوات البوربون (1808–1809) أصعب السنوات عليهم: إذ كان من بين الكثير من الأحداث التى جرت فى نوبيا إسبانيا استنزاف رءوس الأموال واشتداد السخط نتيجة للجفاف الذى حل بالبلاد خلال نفس هذه السنوات. كما كان للمرسوم الملكى المعروف وممارسات "دعم السندات" آثارها الاقتصادية ولكن أخطر تلك الأزمات كانت أزمة الثقة التى برزت بين أبناء نوبيا إسبانيا من جهة وبين حكم الوالى والعرش الإسبانى من الجهة الأخرى. وكان أول إنذار فى عام 1808 قد انطلق عندما جرى إحباط الثورة التحررية فى بلد الوليد (بايَّادوليد) وميتشواكان. والإنذار الثانى (1810) كان هو الذى أعلن البداية لنهاية استطال أمدها وكانت له نتائجه التى كتب لها البقاء...

لقد كانت النهاية شديدة التعقيد، وكانت الإصلاحات البوربونية هى الذروة الاقتصادية والثقافية التى لن تعود مرة أخرى خلال المائة سنة التالية.

من الاستقلال إلى ترسيخ دعائم الجمهورية

خوسيفينا سورايدا باسكييس

يتناول هذا الفصل فترة تبدأ من عام 1808 إلى عام 1876 أى فترة المشوار الذى بدأ مع الاستقلال وتأسيس الدولة القومية وانتهى بترسيخ دعائم هذه الدولة كجمهورية، بعد النجاح فى هزيمة التدخل الفرنسى وبعد فشل آخر محاولات التاج الإسبانى فى السيطرة. ويتعلق الأمر

بفترة انتقالية بدأت فيها النزعة التحررية والنزعة القومية تفرضان نفسيهما على الساحة الدولية وتشكلت "دول-الأمة" الجديدة، وهى ظاهرة كانت فيها الأمم الإيبيروأمريكية هى الرائدة.

كانت ثورات أمريكا الشمالية وفرنسا التى امتدت إلى المستعمرات الإيبيروأمريكية هى التى أدخلت مبادئ جديدة فى الحياة السياسية وفى العلاقات بين الدول. وهذه المبادئ التى وصفت فى عام 1812 بأنها مبادئ تحررية وتنص على أن الشعب هو مصدر السلطات، وبناء عليه فإن ممثلى الشعب هم الذين يختارون الحكم الذى تقوم ممارسته على ثلاث سلطات مختلفة هى: السلطة التشريعية – السلطة التنفيذية – السلطة القضائية، باعتبار تلك السلطات الوسيلة لضمان حقوق وحريات الأفراد. وتقوم ممارسته أيضاً على تخويل الفرد من الرجال الحق فى أن يكون ناخبا وفى أن يكون مُنتَخبا كممثل عنهم، وأن يتحول من رعية إلى مواطن. وقد أثرت تلك المبادئ على النظام وعلى العلاقات الداخلية للدول، ولكنها أثرت كذلك على العلاقات الدولية التى لم تعد علاقات بين ممالك تستند إلى السيادة الملكية وحصرية الأسواق وقصرها على المملكة، فأصبحت تلك العلاقات قائمة على مبادئ حرية التجارة وعلى حماية الفرد وحماية الملكية الخاصة كما روجت للحرية الدينية والمعاملة بالمثل، فضلاً عن ترويجها للحقوق البحرية للدول المحايدة فى البحار حتى فى زمن الحرب. وكان من الطبيعى أن يتطلب هذا التغيير العظيم فترة انتقالية طويلة حتى يفرض وجوده. ولقد كان هذا هو نفس الإطار الذى حصلت الدول الإيبيروأمريكية من خلاله على استقلالها.

كانت التغيرات القائمة على "التحديث" التى فرضتها الإصلاحات البوربونية فى نوبيا إسبانيا قد أخلت بالعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى قامت على مدى قرنين من الزمان، وأدت إلى وجود سخط عام بين أبناء نوبيا إسبانيا الذين أبدوا رغبتهم فى الاستقلال الذاتى. وقد تنامت هذه الرغبة مع ازدياد المطالب المادية من جانب عاصمة التاج وهى المطالب التى أثرت تأثيراً شديداً على جميع فئات المجتمع فى نوبيا إسبانيا. وهكذا فإن الإفلاس الذى حل بالتاج الإسبانى فى عام 1808 والثورة التحررية الإسبانية – وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً- قد تحولا إلى فرصة مفيدة لتحقيق الاستقلال بعد السماح لأبناء القارة الأمريكية أن يعبروا عن الضرر الذى عانوا منه وأن يتعرفوا على الاتجاهات التحررية للدستور الإسباني التى تركت أثراً

نجح فى أن ينفذ إلى لب الفكر السياسى فى القارة الأمريكية خلال العقود الأربعة الأولى من حياة الوطن.

وقد حدث مع أقاليم العالم الجديد التى يحكمها ولاة نفس ما حدث فى نويبا إسبانيا التى نجحت فى الحصول على استقلالها بعد نضال طويل وهو ما أدى فى نهاية المطاف إلى ميلاد دولة المكسيك. لكنها ولدت وهى تعانى من الوهن والديون ومن اقتصاد مشلول ومن مجتمع منقسم على نفسه كما كان اختلال النظام يسود فى أرجاء البلاد. وزاد الطين بلة أن شهرة الرخاء والثروة التى كانت نويبا إسبانيا تتمتع بها قد حولتها إلى هدف لمطامع القوى الجديدة فى مجال التجارة. مع هذا، فإن التفاؤل الذى سادها بأن تعود لكى تستعيد بريقها القديم قد انطبع على مشروعين بشأن الأمة، تصارعا فيما بينهما إلى أن انتصر مشروع هيكل الدولة الجمهورية التحررية.

الثورة من أجل الاستقلال

كان مجتمع نويبا إسبانيا عبارة عن فسيفساء بشرية. فكان أبناء شبه جزيرة إيبريا والكريوئيوس يشكلون مع نسلهم نسبة 17ر5% من عدد السكان وكانوا يقطنون المدن. فكانت مجموعة شبه الجزيرة الإيبيرية تشكل أقلية وكان أهل البلاد يفرقون بين من يقومون بالأعمال الإدارية وبين المقيمين بصفة دائمة. وكانت طائفة الكريوئيوس من المتعلمين وكان 5% منهم يمتلكون ثروات كبيرة بل وكان البعض منهم يتمتع برتبة من رتب النبلاء، لكن غالبيتهم كانوا من أصحاب المزارع التى تربى الماشية والأبقار أو من رجال الأعمال أو من كبار المسئولين ورجال الدين والعسكريين من ذوى الرتب المتوسطة الطامحين إلى رتب أعلى. فى حين كان السكان الأصليون يشكلون نسبة 60% من أهل البلاد وكانوا محتفظين بهيكل كياناتهم الذاتية. وكانت لغة الزعماء العسكريين وحكام الأقاليم وأصحاب المزارع الكبرى وكبار التجار المنتمين إليهم هى لغة "قشتالة castilla" (وتعنى اللغة الإسبانية) لكن الغالبية – التى لم تكن تتحدث إلا لغة واحدة هى لغتهم الأصلية – كانت هى قوة العمل الرئيسية وكانت تدفع الجزية. وأدت تقلبات المناخ الموسمية وتطور المزارع الكبرى إلى إجبار أعداد من العاملين فيها للبحث عن الرزق بالانضمام إلى طائفة عمالة الأنفار. ونسبة 22% تقريباً من أهل البلاد كانت من أعراق

مختلفة تتألف من خليط من الإسبان – الكريوئيوس، إضافة إلى الهنود من سكان البلاد الأصليين والسود والمولدين والمخلطين الذين كانوا لا يتمتعون بملكية أى أرض ولا يتمتعون بشغل أى وظيفة من الوظائف العامة أو حتى الوصول إلى درجة رئيس عمال. كانوا عمالاً يعملون فى أى نشاط غير ممنوع، وعلى وجه التحديد فيما يلى: عامل مناجم – من الخدم – فى الحرف الزخرفية اليدوية – ملاحظ عمال – مكار (يقود البغال) – رئيس خدم. كما كان منهم من انتقل إلى الشمال بحثاً عن الثروة واتجه البعض كذلك إلى الشحاذة أو البلطجة أو الجريمة وكانت لهم تجمعاتهم فى المدن وفى مراكز التعدين. ووصل بالكاد عدد السود إلى 0ر5% ، وكان منهم العبيد الذين يعملون فى مزارع السكر.

كانت مدينة المكسيك تتمتع بالهدوء عندما وصلها فى 8 يونيو سنة 1808 خبر تنازل كارلوس الرابع عن العرش لصالح ابنه فرناندو. ولم تكد تبدأ الاحتفالات بهذه المناسبة حتى وصل خبر جديد ليبدل المعنويات، ألا وهو أن: نابليون استولى على السلطة. واقترن الذهول بالقلق من العواقب التى يمكن أن يجرها هذا الأمر على نويبا إسبانيا. وقد وقعت تلك الأحداث فى إطار من التعقيدات إذ كان نابليون يسعى إلى فرض حصار فى مختلف القارات على بريطانيا العظمى التى تناصبه العداء، مما دفعه إلى أن يجبر إسبانيا على الموافقة على أن تعبر الجيوش الفرنسية الأراضى الإسبانية لاخضاع البرتغال التى كانت قد تحالفت مع بريطانيا. وقبل أن يسلم العرش إلى أخيه خوسيه دعا إلى جمعية عمومية للنواب ومنح الإسبان ميثاقاً دستورياً يخولهم بعض الحقوق ويمنح المساواة لأبناء القارة الأمريكية.

مع هذا، فإن الشعب الإسبانى رفض ما فرض عليه وثار حاملاً السلاح. واقتضى تنظيم الحملة المضادة لهذا الإجراء تشكيل مجالس إقليمية. وقد تم الاتفاق على توحيد كل المجالس فى "مجلس أعلى" لضرورة إيجاد تنسيق بينها والاتفاق أيضاً على من يمثلها. لكن المجلس الأعلى كان عاجزاً عن القيام بأى دور فعين وصياً على العرش ودعا لانتخابات من أجل مجلس النواب الإسبانى، كى يجرى التداول بشأن كيفية حكم الامبراطورية فى غياب مليكها الشرعى وذلك فى اجتماع سيضم ممثلى النبلاء ورجال الكنيسة والشعب.

وعلى الرغم من أن أبناء نويبا إسبانيا كانوا قد أقسموا على الولاء لفرناندو الس... فإن المجلس البلدى للمكسيك رأى مثلما رأت مجالس بلدية أخرى من مجالس الامبراطورية أ... نظراً لغياب الملك فإن السلطة مع ذلك ينبغى أن تؤول إلى المملكة، وهو ما يقتضى ضرو... الدعوة إلى إجتماع تحضره مجالس البلديات فى المكسيك لكى تقرر من يحكمها. وقد أعط... الوالى خوسيه إتوريغاراى موافقته لكن أعضاء الهيئة المكلفة بالرأى الحكمى فى المسـ... الملكية (وكان يرأسها الوالى نفسه) اعترضت خوفاً من أن يؤدى هذا إلى المطالبة بالاستقلا... والحقيقة أنه كان من بين أعضاء تلك الهيئة من يتعاطف مع هذه الفكرة وكانوا مقتنعين بوجو... الموارد التى توفر الرفاهية لأهل البلاد. والحقيقة أيضاً أن الغالبية من أهل نويبا إسبانيا كانـ... يطمحون فى الحكم الذاتى الذى كانوا يعتقدون أن لهم حقاً فيه.

بينما كانت المملكة تسعى إلى الدعوة لعقد مجلس مماثل، قامت بعض شخصيات الإدارة والتجار المنتمين إلى شبه الجزيرة بانقلاب فى نويبا إسبانيا حيث قام حوالى 300 فر... فى منتصف ليلة الخامس عشر من سبتمبر سنة 1808 بقيادة صاحب المزارع الكبرى الثرى غابرييل دى يرمو بالدخول إلى القصر واعتقلوا الوالى وعائلته، كما جرى اعتقال قادة المجلس البلدى. وفى نفس الوقت أعلن ديوان اتخاذ القرار تولى أقدم العسكريين فى المملكة منصب الوالى. ولم يكن الانقلاب مخالفاً للوسائل القانونية وحسب، وإنما انطوى كذلك على اتباعه لوسائل العنف. وقد أثار المثل الذى ضربه أبناء شبه الجزيرة فى العصيان مشاعر الإحباط لدى الكريوليوس الذين عبروا عن إحباطهم هذا باللجوء إلى التآمر فى فترة أدى فيها الجفاف إلى تأثر الزراعة وندرة إنتاج الحبوب. وبعد أن قام مجلس التاج فى أشبيلية (فى إسبانيا) بتعيين فرانثيسكو شابيير ليثانا فى منصب الوالى، ظهرت أولى تلك المؤامرات فى بلد الوليد (بايادوليد). وقد تم اكتشاف المؤامرة بعد وقت قصير، لكن الأسقف الذى كان فى الوقت نفسه يتولى منصب الوالى اتبع طريق اللين والهوادة، واكتفى بنفى المتورطين فى المؤامرة. مع هذا، فإن طريق التآمر امتد إلى كيريتارو التى كانت نقطة التقاء وعبور للطرق بين عدة مناطق وكانت تتمتع بالرخاء. وفى دار مأمورى قضاء الناحية ميغيل وخوسيفا دومينغيث كان يجرى تنظيم "منتديات أو صالونات ثقافية" وكان يحضرها القائد العسكرى القبطان أيـــندى وخوان ألداما وبعض كبار رجال الكنيسة والتجار وميجيل دولوريس قسيس ناحية دولوريس وميغيل هيدالغو الذى كان من الشخصيات المرموقة وكان رئيساً سابقاً لكلية سان نيكولاس فى بلد

الوليد. وكان يدور فى فكر المتآمرين القيام بثورة فى ديسمبر فى نفس الوقت الذى سيقام فيه السوق الكبير فى سان خوان دى لوس لاغوس. ولكن بعد أن تم الإبلاغ عنهم، لم يكن أمام أيـــندى وألداما وهيدالغو إلا خيار الانطلاق للنضال... ولما كان يوم السادس عشر من سبتمبر هو يوم أحد، دعا قسيس الكنيسة إلى إقامة قداس ولكن بعد أن اجتمع المصلون من أبناء الأبرشية دعاهم القسيس إلى الانضمام "للنضال ضد الحكم الفاسد". فهب العمال البسطاء (الأنفار) والفلاحون والحرفيون وسارعوا فى البحث عن النبال والمقاليع والعصى وأدوات الزراعة والأسلحة وحملوها وساروا خلف القسيس ومعهم كل شيء، ساروا وراءه ومعهم النساء والأطفال.

نجح أولئك الثوار فى الليلة نفسها فى احتلال سان ميغيل إلغراندى وبعدها نادت الحشود الثائرة بميغيل هيدالغو فعينته فى منصب فريق أول وأيـيندى فى منصب فريق. وفى أبرشية أتوتونيلكو سلم هيدالغو أول راية له إلى الجيش وكانت عبارة عن: صورة عذراء غوادالوبى. وبعد هذا بأسبوعين، وصل الثوار إلى أبواب مدينة غواناخواتا التى تتصف بثرائها الكبير. ثم قام هيدالغو باستدعاء رئيس المنطقة الإدارية خوان أنطونيو ريانيو وأجبره على الاستسلام ولكن هذا الأخير قرر أن يتحصن فى سوق غلال غراناديتاس مع جيرانه من الأغنياء ومعهم ثرواتهم. فأعطى هيدالغو الأمر بالهجوم عليهم وقامت الحشود باجتياح سوق الغلال بعد مقاومة عنيدة وطويلة وانطلقت فى قتال دام وغاضب، وانتهى بمجزرة وأعمال سطو ونهب لم يستطع لا هيدالغو ولا أيـــندى وقفهما. وكانت تلك الموقعة المأساوية سبباً فى إضعاف التعاطف مع الحركة مما أدى إلى تأخر تحقيق النصر.

فى تلك الآونة كان قد وصلت إلى العاصمة الدعوة لانتخاب 17 نائباً هم من سيمثلون نويبا إسبانيا فى مجلس "الهيئة المكلفة بالرأى الحكمى" (تماثل هيئة اتخاذ القرار) فى قادس (إسبانيا)، وهو ما أدى إلى حدوث فوران فى المجتمع. ثم جرى استبدال الأسقف وحل محله دون فرانثيسكو شابيـــير الذى أدى سوء حظه إلى توليه منصب الوالى قبل أن تندلع الحركة، وأصدر أوامر فورية إلى الجنرال فيليكس ماريّا كايـــيخا بالتقدم نحو مدينة المكسيك وإحضار تمثال العذراء من "لوس ريميديوس" ووضعه فى العاصمة.

على الرغم من المخاوف التى أدت إلى اندلاع العنف، إلا أن مشاعر عدم المساواة والظلم أدت إلى انتشار الثورة فى جميع أرجاء نويبا إسبانيا. ثم حضر خوسيه ماريا موريلوس الذى كان يتولى منصب قسيس كاراكوارو وقدم نفسه إلى ميغيل هيدالغو فتلقى منه تكليفاً بأن يستولى على أكابولكو. كما قام خوسيه أنطونيو تورّيس بالاستيلاء على وادى الحجارة (غوادالاخارا) ثم حدث نفس الأمر فى مناطق أخرى. وعلى العكس من هذا فإن مانويل أباد إى كيـيبو قد رفض لجوء الحركة إلى العنف وأصدر قراراً ضد هيدالغو بالحرمان من الكنيسة وكان يشغل منصب أسقف بلد الوليد المنتخب وكان يدعو بحرارة إلى التوصل إلى حل عادل لمشاكل نويبا إسبانيا. وعندما علم أن قوات الثوار قد أخذت طريقها نحو بلد الوليد هرب مانويل أباد إى كيـيبو من المدينة فى الوقت الذى قامت فيه سلطات المدينة بتسليمها إلى أولئك الثوار وذلك لتفادى أن يلقوا نفس المصير الذى حدث فى جواناخواتو، كما قام رئيس المجلس الكنسى للكاتدرائية برفع قرار الحرمان الكنسى عن دون ميغيل هيدالغو.

وفى أواخر أكتوبر كانت القوات التى تناصر هيدالغو على جبل لاس كروسيس على أبواب مدينة المكسيك وخاضت حشودها التى كانت تتألف من عناصر غير متجانسة المواجهة فى الثلاثين من أكتوبر ونجحت فى هزيمة ألف من الكريوُيوس التابعين للملك. وسقطت المدينة بالكامل... حاول هيدالغو مقابلة الوالى ولكن الأمر انتهى بأن أعطى أوامره للمقاتلين بالانسحـــاب، دون أن نعرف لماذا: فهل كان السبب هو الافتقار إلى تأييد الشعوب الهندية التى تسكن وادى المكسيك؟ هل كان الخوف من تكرار نفس التجاوزات التى كانت قد حدثت فى غواناخواتو؟ هل خشى من أن تدهمه كتائب كايّـــخا؟... لقد كان الشيء المؤكد هو أن مرحلة الانتصارات قد انتهت، إذ إنه بعد هذا ببضعة أيام اصطدم الثوار مع الجيش الملكى فى أكولكو حيث لقوا الهزيمة على يديه... أما أيـــيندى، الذى لم يكن متفقاً مع إدارة هيدالغو على القتال فإنه قد أخذ طريقه واتجه إلى غواناخواتو فى حين اختار القسيس أن يتجه إلى غوادالاخارا.

استقبلت المدينة هيدالغو بحماس. لكنه لم يقدر موقفه المزعزع واستمسك بلقبه السامى وألف حكومته وشجع انتشار الحركة وأمر بإصدار صحيفة *الموقظ الأمريكى* وأصدر مرسوماً بإلغاء العبودية وألغى الجزية التى يدفعها أبناء البلاد الأصليون كما ألغى الضرائب على التبغ وأعلن أن الأراضى المشاعة هى قاصرة على استخدام أبناء البلاد الأصليين وحدهم.

ولسوء الحظ، أمر بإعدام أسرى من الإسبان. وبعد قليل من وصول أيـــيندى مهزوماً، كانت قوات كايـــيخا وقوات خوسيه دى لا كروث (التى كانت قد وصلت لتوها من إسبانيا) تتقدم فى نفس الوقت نحو غوادالاخارا. وقد حاول أيـــيندى تنظيم دفاعاته على الرغم من أنه كان مقتنعاً باستحالة الدفاع... ثم حلت الكارثة فى السابع عشر من شهر يناير من عام 1811 فى بوينتى دى كالديرون حيث استطاع 5000 مقاتل ملكى منظمين هزيمة 90000 من الثوار...

نجح زعماء الثوار فى الهرب وقرروا الذهاب إلى الشمال طلباً للعون من أمريكا الشمالية. وقرر أيـــيندى وألداما فى مزرعة بابيـــيّون خلع هيدالغو من القيادة وقررا أن يسلموا إلى إغناسيو لوبيس رايون فى سالتيـــيّو الراية ليقود النضال. ولكن الخيانة سهلت إلقاء القبض على أيـــيندى وألداما وهيدالغو وخوسيه ماريانو خيمينيس وجرى نقلهم إلى تشيهواهوا حيث جرت محاكمتهم والحكم عليهم. وخلال المحاكمات قابل هيدالجو بشموخ وشرف التهمة الموجهة إليه بأنه "قد أطلق العنان للعنف وأمر بإعدام كثير من الإسبان بدون محاكمة" وأنه "لم يكن هناك أى مبرر لإعدامهم وأنهم كانوا أبرياء". وجرى إرسال رءوس الأربعة إلى غواناخواتو، إلا أن الحركة الثورية كانت قد أصابت الولاية على نويبا إسبانيا فى مقتل عندما كسرت الأوامر الاستعمارية، كما أثرت تأثيراً بالغاً فى الاقتصاد وفى الإدارة المالية.

فى غضون ذلك كانت "الهيئة المكلفة بالرأى الحكمى" فى إسبانيا تعقد اجتماعها لكى تقرر الأمر بشأن الحكم فى الامبراطورية فى غياب الملك الشرعى. وكان هناك فى نويبا إسبانيا تعطش للتعرف عما يدور فى المداولات وأخبار تلك الهيئة، وهكذا بدأ الناس فى نويبا إسبانيا يتعايشون مع السياسة. ثم أعلن دستور 1812 بعد مناقشات مطولة ثم كان القسم بالولاء له فى المكسيك فى شهر سبتمبر من نفس العام. وكان ذلك القانون السامى يقر الحكم الملكى الدستورى والفصل بين السلطات وحرية المطبوعات وإلغاء الجزية وإنشاء مجالس نيابية إقليمية (ست منها فى نويبا إسبانيا) وبإنشاء بلديات دستورية فى كل ناحية يصل عدد سكانها إلى ألف أو أكثر من ألف نسمة على أن تقوم البلديات بإنشاء ميليشيات قومية للحفاظ على النظام العام كما تقوم بواجب الدفاع إذا حل الخطر. وألغى نظام الولاة وحل محلهم رؤساء سياسيون. ولبى الدستور بعض تطلعات الكريوُيوس فى الحرية والتمثيل النيابى ولكنه لم يمنحهم المساواة ولا الاستقلال الذاتى الذى كانوا يحلمون به.

استفاد أبناء القارة الأمريكية من حرية الصحافة لكى ينشروا أفكارهم التحررية فى الصحافة وفى منشوراتهم ونشراتهم إلا أن بينيغاس ألغى كل هذا. وفى غضون ذلك كانت خطة كايّـــيخا فى مكافحة الثوار قد حققت بعض النجاح وهو ما كفل له تعيينه كرئيس سياسى ليخلف بينيغاس. وقد اتخذ من العمل بالدستور أداة لمناهضة الثورة ولكنه احتفل بإلغائه عندما عاد فرناندو السابع مرة أخرى إلى العرش فى عام 1814 لأن ذلك الدستور كان يحد من اختصاصاته. لكن أبناء نويبا إسبانيا كانوا قد ذاقوا طعم التحول الذى طرأ عليهم وطعم التعامل معهم كمواطنين.

فى الناحية الأخرى كان رايون يقف على رأس الثوار وكان قد أسس فى زيتاكوارو المجلس الأعلى لحكم أمريكا. وكان الثوار يتمتعون بالدعم والتأييد من جمعية "أنصار عزراء جوادالوبى" السرية التى كانت تبعث لهم بالمال والمعلومات والنصائح، لكن كايّـــيخا لم يطل به الوقت وأجلاهم عن زيتاكوارو. ثم بدأ يظهر نجم القس موريلوس كقائد عظيم، وكانت خلفيته كمكار(يسوق البغال) قد جعلته يألف الناس الذين اعتادوا على رؤيته كثيراً كما جعلته يعرف دروب ومسالك الطرق. أما موهبته العسكرية فإنها قد دفعته إلى القبول بخيار تشكيل جيش كان منظماً ومدرباً تدريباً جيداً على الرغم من قلة عدده. فى الوقت نفسه كان إحساسه العام ووعيه قد أهّلاه لكى يعرف كيف يستفيد من الظروف المزعزعة التى كان يتحرك من خلالها هو وجيشه. فكان أن حقق النجاح فى الاستيلاء على كل من "تشيلباتسينغو - تيكستلا - تشيلابا - تاسكو - إزوكار - كواوتلا" بمساعدة معاونيه إيرمينخيلدو غاليـــــانا وماريانو ماتاموروس (اللذين يستحقان أكبر قدر من التقدير الذى لن نستطيع أن نوفيهما حق قدرهما منه) ومعهم أتباعهم الأوفياء مثل نيكولاس برابو ومانويل ميير إى تيران وغوادالوبى بيكتوريا وبيسنتى غيريرو. وفى كواوتلا امتدت إلى شهرين فترة مقاومة موريلوس للحصار الذى فرضه كايّـــيخا عليه ثم نجح موريلوس فى الهروب بمعجزة كى يستعيد بعد ذلك زمام الأمور مرة أخرى. وبعد أن نجح موريلوس فى الاستيلاء على مساحات واسعة من الأرض، دعا إلى عقد مؤتمر بهدف تحقيق ممارسة السيادة وتنظيم الحكم. وقد افتتح المؤتمر فى 14 سبتمبر سنة 1813 فى تشيلباتسينغو بقراءة خطاب له وكان عنوانه "مشـــاعر الأمة". وأعلن فى المؤتمر أن أمريكا أصبحت حرة وأن الشعب مصدر السيادة ، وأن الحكم يجب أن يقوم على أساس الفصل بين السلطات الثلاث، وأن الجميع سواسية أمام القانون، وأن الحكم يجب أن يعمل على

التخفيف من زيادة الثراء الفاحش ومن حدة الفقر المدقع. وبعد أن وقع موريلوس على إعلان الاستقلال فوضه الكونجرس فى تولى السلطة التنفيذية حيث اتخذ لنفسه لقب "خادم الأمة". وكان الدستور الذى كتب الكونجرس مواده ثم جرى إعلانه فى أباتزينغان فى 22 من أكتوبر سنة 1814 قد استلهم جانباً كبيراً من مواده من الدستور الإسبانى. ولسوء الحظ، فقد استباح الكونجرس لنفسه كل سلطات موريلوس كما سلبه حرية العمل. وتستمر مسيرة النضال، وعلى الرغم من أن موريلوس قد نجح فى الاستيلاء على أكابولكو فإنه قد فشل فى الاستيلاء على بلد الوليد (بايّادوليد). ثم ترصدوه فوقع فى الأسر فى الخامس من نوفمبر سنة 1815. وبعد أن تعرض للمحاكمة والتجريد من حقوقه الكنسية جرى إعدامه رمياً بالرصاص فى 22 من ديسمبر فى مدينة سان كريستوبال إيكاتيبيك.

كانت المملكة تعانى فى تلك الآونة من آثار سنوات الحرب. وكانت مظاهر البؤس والإفلاس قد غزت قلب المملكة.

كما أدت ممارسات الثوار أثناء سيطرتهم على مناطق شاسعة فى نويبا إسبانيا إلى تفكيك أوصال الإدارة وإلى التسيب فى تحصيل الضرائب. وكانت ضروريات النضال قد أدت إلى أن رؤساء الكتائب والقادة العسكريين - من القوات الثورية ومن القوات الملكية على حد سواء - كانوا يتمتعون بممارسة صلاحيات مالية وقضائية واسعة على أمل أن تفيدهم كأساس لموقعهم المستقبلى المحتمل فى السلطة السياسية. على أى الأحوال، وبالنظر إلى أن الأمور فى نويبا إسبانيا كانت على ما يبدو قد هدأت، فإن الحكومة الإسبانية اختارت أن تجرب سياسة التصالح. وعندما جرى تعيين خوان رويث دى أبوداكا فى عام 1816 فى منصب الوالى، قام من فوره بإعلان عفو عام عن الثوار وقد قبله الكثير منهم. وبعد أن بدا أن النظام قد استتب وعم الهدوء، قامت فى عام 1817 حركة تحررية عابرة كان على رأسها الأب سيرباندو تيريسا دى ميير والكابتن الإسبانى فرانثيسكو شافيير مينا. فقد سار الأب سيرباندو تيريسا ومعه 300 من المرتزقة وتقدموا نحو الباخيــــيّو، ولكنه لقى الهزيمة على يد القوات الملكية وتم إعدامه رمياً بالرصاص فى 11 من نوفمبر من العام نفسه. أما ميير فقد جرى سجنه فى سان خوان أولووّا.

تزعزعت المكانة القديمة التى كان يتمتع بها التاج بعد أن تبين عدم قدرته على فرض النظام، وظهرت فى شهر يناير من عام 1820 فرصة مواتية لكى تحقق نوييا إسبانيا استقلالها. ففى أوائل يناير من هذا العام طالب القائد القومندان رافائيل دى ريجو بإعادة العمل بدستور 1812 وأجبر الملك على أداء القسم باحترام الدستور، وهو ما أدى إلى أن تنتشر الدعوة لاحترامه فى جميع أنحاء الامبراطورية ثم جرت الدعوة إلى عقد انتخابات لاختيار مجالس للنواب.

فى ذلك الوقت كانت سنوات النضال العشر قد غيرت من نوييا إسبانيا بل إن أبناء شبه الجزيرة أنفسهم كانوا قد مالوا إلى منح الاستقلال لها، على الرغم من أن كل طائفة فيها كانت تنظر إلى منح الاستقلال من وجهة نظر مختلفة. فكانت الرتب العليا فى الجيش وفى الكنيسة تحبذان منحه خشية أن تؤدى الاتجاهات الراديكالية فى المجالس النيابية الجديدة إلى إلغاء الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ومن بينها الاختصاصات المخولة لهم. وكانت هناك مجموعات ترغب فى دستور آخر يلائمها كمملكة بينما كان البعض الآخر يفضل قيام الجمهورية.

ثم قام النظام الدستورى بإطلاق سراح الثوار المحبوسين. وقد أدى عودة سريان العمل بقانون حرية المطبوعات إلى ظهور مطبوعات ونشرات معادية، وصب هذا كله إلى جانب انتخابات نواب المجالس ونواب الأقاليم ونواب البلديات الدستورية فى إزكاء الروح الحماسية... وفى غمار هذا الجو ظهرت بين صفوف الملكيين خطة للاستقلال... وكان صاحبها أغوستين دى إيتوربيدى رجلاً عسكرياً من أبناء الكريوُيوس. ولد فى بلد الوليد وكان يبدى تعاطفاً مع الحكم الذاتى، ولكنه كان يرفض لجوء حركة الثوار إلى العنف. وكان قد عبر منذ عام 1815 عن رؤيته عن إمكانية تحقيق الاستقلال فى يسر وسهولة وذلك من خلال أن يتوحد الأمريكيون من الجيشين المتحاربين فى جيش واحد.

ولم يكن دون أغوستين قد لقى أية هزيمة عسكرية طوال عمره الذى تخلله اتهام واحد قطع عليه مسار حياته. وعلى الرغم من أنه قد أعفى من التهمة الموجهة إليه، إلا أنه فضل التقاعد والعودة لممارسة حياته الخاصة. وقد أتاحت له خبرته الحربية وتقاعده عن العمل

فرصة التفكير ملياً فى الموقف. وكانت اتصالاته مع فئات كثيرة من مختلف طبقات المجتمع قد ساعدته على التعرف عن قرب على وجهات نظر أبناء نوييا إسبانيا، ثم ضمن وجهات النظر تلك فى خطته للوصول إلى الاستقلال بطريقة سلمية. ولقد كانت مكانته دافعاً للمجموعة المعارضة للدستور إلى الاقتراب منه. لكن أغوستين دى إتوربيدى لم ينجرف وراء التيار بل سعى إلى البحث عن التأييد العام. وعندما قدم له أبوداكا عصا القيادة لكى يصفى الأمر فى إقليم غيريرو وجد إيتوربيدى أن فرصته قد حانت للوصول إلى تحقيق أهدافه. ومن ثم قام بإبلاغ خطته إلى نواب نوييا إسبانيا الذين كانوا يولون قبلتهم إلى إسبانيا.

كان إيتوربيدى واثقاً من هزيمة غيريرو أو أن ينجح على الأقل فى جعله يقتنع بأن يقبل بقرار للعفو عنه. ولما كانت المهمة أعقد من المنتظر، فإنه دعا غيريرو إلى الانضمام إليه. ونظراً لأن غيريرو بدوره كان على وعى بمدى العزلة التى يعانى منها، إلا أن قناعاته قد أوصلته إلى نتيجة مشابهة، هى: أن الاستقلال لن يمكن تحقيقه إلا بالانضمام إلى قائد ملكى. ولقد راوده الشك فى بادئ الأمر فى نيات من كان عدوه القديم ولكن الخطة والضمانات التى قدمها إيتوربيدى له، أدت فى النهاية إلى اقتناعه ومن ثم فقد طلب من قواته الاعتراف بإيتوربيدي "كأول رئيس للقوات الوطنية".

لقد وضع إيتوربيدى خطته لكى يحوز من خلال توافق الآراء على ما يكفل ثلاثة أمور هى : الدين – الوحدة – الاستقلال ، التى كانت تلخص المبادئ التى آمن بها الكريوُيوس فى عام 1808 وهى نفس المبادئ التى كان الثوار يؤمنون بها. كذلك كان توحيد القوات يرمى إلى تهدئة بال أبناء شبه الجزيرة. وفى الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة 1821 تم إعلان الخطة فى إغوالا وأرسلت نسخة منها إلى الملك غير نسخ أخرى جرى إرسالها إلى جميع السلطات المدنية والعسكرية فى المملكة كما أرسلت أيضاً نسخ منها إلى الزعماء الملكيين وزعماء الثوار. وقد لقيت الخطة حماساً من جانب الشعب والجيش باستثناء بعض القادة الحربيين وبعض أفراد السلطة فى العاصمة فضلاً عن بعض القادة المنتمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية.

نجح نواب نويبا إسبانيا فى غضون ذلك وفى مدريد فى أن يتم تعيين خوان أو دونوخو كرئيس سياسى لنويبا إسبانيا وهو أحد المؤمنين بمبادئ التحرر. كذلك فقد قام النواب فى يونيو 1821 فى محاولة أخيرة منهم للحصول على الحكم الذاتى داخل إطار الامبراطورية الإسبانية بتقديم اقتراح للأخذ بنظام الفيدرالية وقد أدى عدم مناقشة هذا الإقتراح على الإطلاق إلى انسحاب أولئك النواب.

وصل أو دونوخو إلى فيراكروز فى شهر يوليو بعد أن كانت حركة إغوالا قد امتدت إلى جميع أرجاء نويبا إسبانيا وهو ما أقنعه بأن الاستقلال أمر لا يمكن التراجع عنه. ولهذا فقد أخطر العرش فى إسبانيا بأنه قد بات من المستحيل الوقوف أمام استقلال نويبا إسبانيا، فقال: "نحن أنفسنا كنا قد خضنا التجربة التى عرفنا فيها ما يريده الشعب، عندما يريد أن يحصل على الحرية". وقد قرر عن قناعة مقابلة إيتوربيدى ووقع معه اتفاقيات قرطبة التى يعترف فيها بالاستقلال وإقامة "الامبراطورية المكسيكية" ولكنه أنقذ ماء وجه الوحدة مع إسبانيا بعد أن أقام على رأس الامبراطورية أحد أعضاء العائلة المالكة الإسبانية. ثم قام أو دونوخو على الفور بالوفاء بشرط استسلام الجيش الذى كان يحتل العاصمة، وهو ما سمح فى يوم 27 من سبتمبر سنة 1821 بأن ترتدى المدينة حلة الزينة وتقام فيها أقواس النصر من أجل الاستقبال الحماسى لإيتوربيدى وغيرّيرو و"جيش الضمانات الثلاثة". وبين العروض العسكرية وألعاب المفرقعات والألعاب النارية وترديد الأغانى جرى الاحتفال بالاستقلال وبـــ"المحرر من الاحتلال" بينما كان التفاؤل العام مجرد قناع كانت تختفى خلفه المتناقضات القائمة بين الملكيين والثوريين...

قيام دولة المكسيك

غطى النضال ودستور 1821 على البلبلة التى كانت تسود النظام فى نويبا إسبانيا. وكانت أراضيها معرضة لأخطار نوايا التوسع من جانب الولايات المتحدة بسبب مساحاتها الشاسعة التى تعانى من سوء سبل الاتصال بين أرجائها وقلة عدد السكان فيها وتعدد الأعراق فوق أراضيها. وعلى الرغم من التفاؤل الذى عم جميع الأنحاء فإن الامبراطورية قد ولدت ضعيفة حيث كانت تعانى من الانقسام ومن سوء التنظيم ومن الإفلاس وديون بلغت قيمتها 45 مليون بيزو، كما كان أهلهـــا يفتقرون إلى الخبرة السياسية. وكان الاعتراف بأودونوخو قد

جعل الطريق يبدو ممهداً أمام الدولة الجديدة، لكنه توفى فى شهر أكتوبر فحرم الأمة من خبرته ومن الشرعية التى كانت تتجسد فى شخصه. وهكذا انتهت الاحتفالات وأصبحت الأمة أمام مهمة شاقة لحماية أراضيها واستئناف تحصيل الضرائب الاعتيادية وإيقاظ الولاء لها بين المواطنين والحصول على الاعتراف الدولى بها لكى تستطيع أن تقيم علاقاتها المنتظمة مع الخارج.

شكل إيتوربيدى مجلساً مؤقتاً للحكم من أفراد متعاطفين وموالين له وذلك بناء على اقتراحات مختلفة، ودون أن يكون منهم أى فرد من المنتمين للثوار. كما لم يتضمن المجلس أى فرد من الأعضاء الخمسة الذين كان المجلس قد اختارهم ليشكلوا مجلس الوصاية. قد دعا على الفور إيتوربيدى باعتبار أنه كان رئيساً لمجلس الوصاية إلى انتخاب نواب الكونجرس (المؤتمر) الوطنى الذى كان عليه أن يتولى أمر صياغة دستور الامبراطورية، ولكنه تجاهل دعوة فى عام 1810 لاختيار نواب المجلس واختار أن يكون التمثيل موكلاً لهيئة تميل لصالح طبقة الصفوة فى المجتمع. وبعد انتخاب النواب بدأ الكونجرس أعماله فى 24 من فبراير 1822. وكان قد وصل آنذاك خبر أثار عدم الرضا، وهو أن مجلس العرش فى إسبانيا قد تجاهل اتفاقات قرطبة... وحينئذ بدأ الملكيون على الفور فى مواجهة المجموعة التى كانت تحبذ تتويج إيتوربيدى.

كان الموقف معقداً. فقد تقلصت كذلك الموارد بعد أن انخفضت حصيلة الضرائب واضطرب نظام تحصيلها، إضافة إلى وجود اعتقاد سائد بأن الإدارة كانت قد أعفت السكان من دفعها، وهو ما أدى إلى انخفاض الموارد المالية. وكانت الحاجة الماسة لدفع رواتب الموظفين والعسكريين تتطلب أن يقوم الكونجرس بعمل تشريع لتنظيم الخزانة العامة والجيش تلبية لما ينص عليه الدستور ولكن قلة الخبرة عملت على تشتيت جهود النواب الذين اهتموا بالشكليات. كذلك كانت قلة خبرة إيتوربيدى سبباً فى أنه لم يعرف كذلك كيف يواجه الموقف، وعندما اصطدم بالكونجرس هدد بالاستقالة. استغل الرقيب (جاويش) بيـــو مارتشا سريان إشاعة استقالة إيتوربيدى والشعبية التى كان يتمتع بها، لكى يحرض فرقة سيلايا العسكرية على إثارة القلاقل والتحرك ليلة 18 من مايو والهتاف "يعيش أغوستين الأول إمبراطوراً للمكسيك" (هو أغوستين دى إيتوربيدى). ولم يتأخر عامة الناس فى الانضمام إليهم مطالبين بأن يناقش

الكونجرس اقتراحاً بهذا المعنى، أى بالمناداة به امبراطوراً. وبدلاً من رفض الاقتراح نا… الكونجرس هذا الأمر فى تلك الليلة ونظراً لأن الأغلبية كانت تؤيد هذا الطلب ووسط الصيحا… الصاخبة، صوتت غالبية النواب لصالح تتويجه امبراطوراً.

وتم تتويج إيتوربيدى امبراطوراً فى 21 من يوليو مع تقليص صلاحياته عن الصلاحيات التى كان يتمتع بها عندما كان وصياً على العرش. فى ذلك الوقت، كانت مشاعر الإحساس بالحرمان وعدم الرضا تسود بين الثوار. وقد أدت تلك المشاعر التى اقترنت بوصول مبير بعد إطلاق سراحه من سان خوان دى أولووا إلى فتح الباب أمام المؤامرات، فقام الامبراطور بحبس المشتبه فيهم، وهو ما أدى إلى تأزم الأوضاع ثم نصحه بعض النواب بحل الكونجرس. وقد قام بحل الكونجرس فى 21 من أكتوبر واستبدل به مجلساً تأسيسياً قومياً اختير أعضاؤه من بين أعضاء الكونجرس.

كان من نتائج هذا الحدث بالإضافة إلى مخاوف الأقاليم من المركزية التى كان يتعامل بها إيتوربيدى وطلبات القروض المفروضة إجبارياً، أن شاعت مشاعر القلق وعدم الرضا بين الناس وهو ما استغله العميد أنطونيو لوبيس دى سانتا أنّـا لإعلان التمرد. وفى الثانى من ديسمبر سنة 1822 أعلن دى سانتا أنّا من فيراكروز سحب اعترافه بإيتوربيدى وطالب بعودة الكونجرس وإقامة حكومة جمهورية. لكن أفكاره التى نادى بها لم تحصل إلا بالكاد على تأييد قليل، وفى المقابل فقد استفادت منها الجماعات السرية والمحفل الماسونى لعمل تحالف مع القوات التى أرسلت لمواجهة لوبيس دى سانتا أنّا حيث قامت فى الثانى من فبراير 1823 بإطلاق "خطة كاسا ماتا". وكانت تلك الخطة تنادى *بانتخاب* كونجرس جديد. ونظراً لأن الخطة كانت تعترف بسلطة مجالس النواب المحلية فإنها نجحت فى الفوز بتأييد الأقاليم. ثم قام إيتوربيدى بإعادة الكونجرس المنحل إلى الحياة السياسية بعد أن وثق فى أن "الخطة" لا تشكل تآمراً على شخصه. وعندما وجد أن القلق وعدم الرضا لم يخفت ضجيجهما بعد، تنازل عن عرش الامبراطورية فى 22 من فبراير ثم حزم حقائبه وغادر البلاد فى 11 من مايو متجهاً إلى إيطاليا. لكن الكونجرس من جانبه لم يقتصر على إصدار قرار بعدم شرعية "إعلان الامبراطورية" وإنما أعلن كذلك أن إيتوربيدى سيعتبر "خارجاً على القانون" إذا ما وطئت أقدامه

أرض المكسيك مرة أخرى. كذلك نص القرار على أنه إذا حاول العودة إلى الأراضى المكسيكية فى عام 1824 فإنه سيعدم رمياً بالرصاص...

وبعد أن فشلت الملكية وتجربتها السياسية، وجدت البلاد نفسها بدون سلطة تنفيذية. ويتردد الكونجرس الذى كان قد عاد لممارسة مهامه فى أن يتولى أمر السلطة ، فعين فى 31 من مارس لجنة ثلاثية من المستشارين لكى تتولى الحكم. وكانت تتألف من بيدرو سيليستينو نيغريتى وغوادالوبى فيكتوريا ونيكولاس برابو. وقد تولوا زمام السلطة التنفيذية العليا، لكن مجالس نواب الأقاليم رفضت الانصياع لأوامر اللجنة الثلاثية، وطالبوا بانتخاب كونجرس جديد طبقاً للخطة المعروفة باسم"خطة كاسا ماتا".

كان لمنطقة أمريكا الوسطى خلال حقبة الاستعمار إداراتها الخاصة لأنها كانت قد انفصلت عن بقية المناطق المستعمرة فى العالم الجديد التى ظل الاستعمار فيها قائماً. وعندما أعلنت كل من غوادالاخارا (وادى الحجارة) وواخاكا ويوكاتان وزاكاتيكاس أنها ولايات حرة وذات سيادة، بدا أن تفكك نويبا إسبانيا قد بات وشيكاً. ومن ثم فقد قام لوكاس ألامان بتعبئة الجيش بعد أن عينته السلطة التنفيذية وزيراً للعلاقات وقام تحريك الجيش ضد وادى الحجارة باعتبارها الأسوأ أوضاعاً بين تلك الولايات، وذلك فى محاولة منه لمنع تفتت أراضى الأمة. عندئذ اتفق ممثلو هذا الإقليم ومعهم ممثلو إقليم زاكاتيكاس على الإعتراف بسلطة الكونجرس، على شرط أن يكون نظام التعامل على أساس فيدرالى. وقد أبدى الكونجرس اعتراضه على قبول ذلك الشرط، ولكنه اضطر للتنازل عن الاعتراض خوفاً من تفتت الأمة كما حدث مع أقاليم ولاة الجنوب التى انفصلت ، ثم دعا إلى إنتخاب كونجرس دستورى جديد.

تشكل الكونجرس الجديد فى نوفمبر سنة 1823 وكانت غالبيته من أنصار مبدأ قيام الفيدرالية. وفى 31 من يناير سنة 1824 أصدر الكونجرس وثيقة نصت على قيام الولايات المتحدة المكسيكية، وأجرى بعد هذا مداولات مستفيضة انتهت فى شهر سبتمبر بشأن إعداد نص دستور 1824. بعد ذلك أدى أعضاء الكونجرس اليمين الدستورية وأقسموا على احترامهم للدستور الذى كان ينص على قيام جمهورية نيابية شعبية وفيدرالية تتألف من 19 ولاية، إضافة إلى أراضى أربعة أقاليم تابعة، وعاصمة فيدرالية، كما ينص على أن المذهب الكاثوليكى هو دين الدولة ولا يسمح بأى دين غيره وأن أساس الحكم يقوم على سلطات ثلاث بحيث تكون

السلطة التشريعية هى التى لها اليد العليا فى البلاد. وطبقاً للدستور، يتولى السلطة التنفيذية رئيس الجمهورية ونائب رئيس الجمهورية، وتضطلع المحاكم ومحكمة العدل العليا بمهام السلطة القضائية. وقد حافظ الدستور على نفس النظام الانتخابى الذى كان منصوصاً عليه فى الدستور الإسبانى. ونظراً لأن الانتخابات كانت تجرى بنظام الانتخاب غير المباشر، فإن ذلك النظام كان يعتبر نظاماً تحكمه القيود. وعلى الرغم من هذا فإن من بلغوا السن القانونية كان لهم جميعاً حق التصويت فى الانتخابات، كما كان الدستور يقضى بأن المجالس التشريعية للولايات هى المنوط بها الاضطلاع بمهمة انتخاب رئيس الجمهورية. ويظهر ذلك فى هذا الدستور تأثره بدستور الولايات المتحدة، فى حين كان أساسه مستمـداً من نصوص دستور عام 1812.

كان الاعتزاز التقليدى بالخصوصية الإقليمية للمكسيك هو الفيصل فى أن يكون تطبيق الفيدرالية أكثر راديكالية عما كان الأمر عليه فى أمريكا الشمالية، بحيث كان من المحظور على الحكومة الفيدرالية فى المكسيك ممارسة أية سلطة مالية على المواطنين. وعلى الرغم من أن تلك الحكومة كان من بين التزاماتها سداد الدين إضافة إلى مهام الدفاع وفرض النظام والسعى للحصول على الاعتراف الدولى بها، فقد كان مسموحاً لها بأن تحصل فقط على حصة مما كانت تقوم بتحصيله كل ولاية من الولايات المكسيكية – على الرغم من أن قلة من تلك الولايات كانت تؤدى ما عليها إلى الحكومة – كذلك شكل ما تقوم الحكومة بتحصيله من رسوم جمركية فضلاً عن بعض الإيرادات المالية الأخرى المتواضعة مصدراً من مصادر الدخل.

أسهم الانتهاء من اختيار السلطة التنفيذية فى تهيئة الأجواء المواتية لصالح قادة الثورة السابقين مثل غوادالوبى فيكتوريا ونيكولاس برابو لشغل منصبى الرئيس ونائب الرئيس، وجرى أداء اليمين الدستورية فى جو من التفاؤل المملوء بالثقة فى أن النظام السياسى الجديد سيكفل التقدم للبلاد رغم أن الواقع فيها لا يحمل أى بشائر من سمات التقدم المأمول. فلقد كانت إمبراطورية المكسيك تعانى من الديون ومن الإخلال بالنظام العام وكانت فى حاجة إلى قروض واعتراف دولى بها لكى تستطيع أن تضطلع بالدور المنوط بها كدولة مستقلة، إذ لم تكن قد اعترفت بها سوى كولومبيا العظمى وبيرو وشيلى والولايات المتحدة الأمريكية فى حين أن الأمر كان يتطلب اعتراف بريطانيا العظمى، حيث كانت الدولة الوحيدة بما

لها من قوة سياسية ومالية التى كان فى مقدورها تحييد أى تهديد بغزو المكسيك مرة أخرى، فضلاً عن قدرتها على مدها بالقروض التى تحتاج إليها. ولما كانت بريطانيا العظمى مهتمة بالفضة وبالأسواق المكسيكية فإنها قد أعلنت فى عام 1825 اعترافها بالمكسيك كما وقعت معها فى عام 1826 على إتفاقية للصداقة والتجارة. غير أن حرص رجال البنوك الإنجليز وولعهم بالمضاربة كان قد أدى إلى حصول المكسيك على قرضين قبل هذا الاعتراف. وعلى الرغم من أن شروط هذين القرضين كانت مجحفة للجانب المكسيكى إلا أنهما قد ساعدا أول رئاسة للدولة على تسيير أمور البلاد وأن ينجح فى طرد الإسبان من آخر معقل لهم على الأرض المكسيكية وهو سان خوان أولووا. لكن المكسيك لسوء الحظ، لم تستطع سداد فوائد الدين وذهب القرض سدى، وهكذا بدأ يخيم ذلك الكابوس الكئيب الذى يعنيه ما يعنيه الدين بالنسبة لأى حكومة من الحكومات...

كان المكسيكيون يتوقون إلى تحرير التجارة، وقد تحقق لهم ما أرادوا مع استقلال البلاد وهو ما فتح الباب أمام تجار أوروبا وتجار الولايات المتحدة للتعامل مع المكسيك. غير أن التجارة كانت تعانى من الشلل خلال العقود الأولى التالية على الاستقلال بسبب تأثرها بالركود الاقتصادى وسوء المواصلات وافتقار المبادلات التجارية للأمان اللازم لعملياتها فضلاً عن ارتفاع تكاليف النقل بالبغال ونقص العملات المتداولة. وكان إيتوربيدى قد لجأ إلى إصدار عملات ورقية ولكنها ألغيت بعد انخفاض قيمتها إلى أدنى مستوى لها، ثم حلت محلها "أذون الصرف". وفى عام 1829 جرى إصدار عملة نحاسية لتتلاءم مع عمليات التبادل الصغيرة غير أنه لم يمر إلا وقت قصير وكان تزييف تلك العملة قد انتشر على نطاق واسع، فتم سحبها وهو ما أدى إلى أن تتكبد الخزانة العامة خسائر فادحة.

لم يطل الوقت على تلك الآمال العريضة التى كان المكسيكيون يعلقونها على تحرير التجارة، بعد أن غدر الواقع المر بتلك الآمال، فتعرضت مسيرة التصنيع الوليدة للدمار، وهى مسيرة لم تكن قد رأت النور إلا فى أواخر القرن الثامن عشر. ومع هذا، فقد أدى قدوم السفن من أوروبا ومن الولايات المتحدة الأمريكية إلى موانئ المكسيك حاملة على متنها مختلف البضائع إلى انتعاش التجارة بصورة أو بأخرى. لكن أبناء بريطانيا سرعان ما سيطروا على تجارة الجملة للأقمشة المكسيكية الرخيصة وعلى تجارة الغزل والعدد والأجهزة والماكينات، أما سلع الرفاهية فقد كانت حقلاً مقصوراً على الفرنسيين.

قصرت المعاهدات والإتفاقيات الدولية تجارة التجزئة على المكسيكيين، وعلى الرغم من هذا فلم يكن هناك ما يمنع الإسبان والفرنسيين من اقتحامها والاشتغال فيها، وهو ما سبب مشاكل دبلوماسية خطيرة أجبرت الحكومة المكسيكية فى عام 1842 على إلغاء القيود القائمة التى كانت تحظر على غير المكسيكيين التعامل فى تجارة التجزئة. كذلك كان لتحرير التجارة عواقبها السياسية، فقد كان بعض التجار الذين يمثلون بلادهم فى السلك القنصلى فى مناصب القنصل أو نائب القنصل يتدخلون فى الشئون الداخلية أو يحرضون على التمرد وخاصة فى فيراكروز وفى تامبيكو وذلك مقابل الإستفادة من التمتع بخصومات على الرسوم التى كان عليهم سدادها فى تلك الولايات المتمردة.

ظلت الصادرات المكسيكية تعتمد بصورة أساسية على تصدير الفضة على الرغم من أن المكسيك كانت تصدر كذلك ريشة أو بوصة الكتابة بالحبر وصبغة النيلة والفانيليا وصبغة الكوتشنييا القرمزية وخيوط السيزال والسكر. وكانت معظم الصادرات تتم عبر فيراكروز وتامبيكو وماتاموروس وكامبيتشى وسيسال ومازاتلان وغوايماس وسان بلاس، غير أن بضائع تلك الصادرات لم تسلم من التهريب والمهربين. فكانت هناك بعض الدروب والمسالك الموجودة فى الشمال وخاصة فى المنطقة الواقعة بين سانتافى وتشيهواهوا وتيخاس (تيكساس) من ناحية، ومسالك ودروب أخرى موجودة على الناحية الأخرى فى الولايات المتحدة ويجرى التهريب من خلالها بكل نجاح. ولسوء الحظ فإن عمليات التهريب قد غذّت مطامع جار الشمال للاستيلاء على الأراضى المكسيكية.

على الرغم من الركود الاقتصادى فإن بريق الذكريات التى عاشت أيامها نويبا إسبانيا، فضلاً عن المطامع التى أيقظها نشر كتاب أليخاندرو هومبولدت والحاجة إلى الفضة المكسيكية قد شجعت على وصول رءوس الأموال البريطانية والألمانية للاستثمار فى مجال التعدين. غير أن ضخ رءوس الأموال وظهور آلة البخار لم يحققا النجاح المرجو فى الحفاظ على نفس المستوى الإنتاجى القديم إذ انخفض مستوى الإنتاج إلى النصف. وعلى الرغم من أن استعادة صناعة التعدين لمستواها كان بطيئاً في جميع المناجم فيما عدا منطقة زاكاتيكاس، فإن المكسيك قد استطاعت أن تصل بمعدلات صادراتها السنوية التى تجرى بصورة مشروعة إلى ما يعادل 15 مليون بيزو فضلاً عما يعادل 15 مليون بيزو كذلك من عمليات التهريب غير المشروعة.

كان تعافى الزراعة كذلك بطيئاً بسبب تأثرها بالفاقد فى قوة العمالة الزراعية والافتقار إلى الأمان وارتفاع تكلفة النقل. وقد استمرت المزارع الكبرى فى أيدى الكريؤيوس (أبناء المهاجرين من أوربا المولودين فى المكسيك) الذين درجوا على تنويع أنشطة شركاتهم لكى يحموا أنفسهم من التقلبات الاقتصادية. غير أن إنتاج السكر والبن وخيوط السيزال بغرض التصدير دفع المزارع الكبرى إلى اللجوء إلى غزو القرى فأدى هذا إلى نشوب حركات تمرد وانتفاضات فى القرى.

ولم ينجح البدء فى مد خطوط السكك الحديدية فى حل مشكلة المواصلات، حيث أدى العجز فى التمويل اللازم إلى تعطيل إنجاز المشروع، ولم يتم مد إلا 18 كيلومتراً فقط من السكك الحديدية، كما لقى مشروع إنشاء الأسطول التجارى نفس المصير. ولم ينجح فى هذا إلا أبناء يوكاتان الذين استطاعوا بناء أسطول صغير العدد، لا يمكنه الإبحار إلا بالقرب من السواحل.

ولم تفلت الحياة السياسية أيضاً من المعاناة فقد كابدت عدم الاستقرار بعدما شاع وباء التفسخ والانقسام فيها بسبب الدور الذى لعبته المحافل الماسونية ومحاولات الانقلابات العسكرية وهو ما أدى إلى تبدد السلام. مع هذا ينبغى التنويه إلى أن المحاولات الإنقلابية لم يكن لها تأثير إلا فى مناطق محدودة بإستثناء تلك التى شهدها عام 1832 وعام 1854. ولما كان المحفل الماسونى الإسكتلندى الذى أدخله الجيش الإسبانى إلى البلاد قد انتشر بين طبقات المجتمع العليا، فإن الراديكاليين من المحفل قرروا تأسيس محفل آخر أكثر شعبية. وقد حبذ رئيس الجمهورية فيكتوريا قيام ذلك المحفل لكى يقيم نوعاً من "التوازن" فى البلاد بين المحفلين، كما قام الوزير الأمريكى الشمالى جويل ر. بوانسيت بتسجيله فى الولايات المتحدة.

اتخذ ذلك المحفل المعروف باسم محفل "يورك" لنفسه خطاباً مناهضاً لخطاب المحفل الإسبانى. وكان يحظى بالقبول بين الطبقات الشعبية ثم ازدادت قوته بعد اكتشاف المؤامرة التى كان قد دبرها الأب خواكين أريناس للعودة إلى النظام الاستعمارى. وقد أدى هذا إلى اشتداد المواجهة بين الماسونيين، وهو ما عكر صفو مسيرة الأداء الحكومى ودفع بنائب رئيس الجمهورية برابو إلى الانقلاب على المحافل الماسونية والوقوف ضد تدخل الوزير بوانسيت فى

السياسة. لكن الأمور سارت على غير ما كان مرجواً منها فقد خسر برابو المعركة وجرى نفيه خارج البلاد، فتوطدت دعائم "محفل يورك" وتمت الموافقة على قوانين طرد الإسبان من البلاد.

جرت انتخابات عام 1828 فى جو مشحون بالتوتر لاختيار من يخلف أول رئيس للجمهورية لكن المكسيك أبت أن تنجح فى هذه التجربة، فبعد أن صوتت المجالس التشريعية لصالح مانويل غوميس بيدراسا، انقلب عليه الجنرال سانتا أنا من فيراكروز وأعلن مناصرته لغيريرو لتولى الرئاسة. وبعد أن أشعل الراديكاليون الشعب فى مدينة المكسيك وأعلنوا تأييدهم لانقلاب الجنرال، اضطر بيدراسا لتقديم استقالته. ثم قام الكونجرس وبدون سند من الدستور بتعيين غيريرو رئيساً للجمهورية كما عين أناستاسيو بوستامانتى نائباً للرئيس. لكن فترة الرئاسة تلك كانت فترة سريعة عابرة حالفها سوء الحظ واقترنت بأن خزانة الدولة كانت خاوية.

كان على غيريرو أن يستكمل طرد الإسبان من البلاد وأن يواجه كذلك حملة الغزو الجديدة التى كان يقودها إيسيدورو باراداس. وقد نجح الجنرال ميير إى تيران والجنرال سانتا أنا فى هزيمته. واقترن هذا النجاح بإعلان مرسوم إلغاء العبودية رغم أن إعلانه لم يلق الترحيب الشعبى المطلوب. غير أن جيش الاحتياط الذى كان يتخذ لنفسه موقعاً فى خالابا لدعم المدافعين عن البلاد قام فى ديسمبر من عام 1829 بإعلان سحب اعترافه برئاسة غيريرو، وفى شهر يناير من عام 1830 يصبح بوستامانتى رأس السلطة التنفيذية كما أصبح ألامان وزيراً للعلاقات.

أخذت إدارة بوستامانتى على عاتقها مهمة القضاء على حركات التمرد والثورات العسكرية وتنظيم الخزانة العامة وترتيب سداد الديون لبريطانيا ودفع عجلة التنمية الاقتصادية. كما قام ألامان بترتيب أمور الخزانة العامة وأعاد التفاوض بشأن الدين الخارجى علاوة على اهتمامه كذلك بالتنمية الاقتصادية والتصنيع، فأنشأ لهذا الغرض "بنك أبيّو" واستورد آلات النسيج وبذور القطن واستورد كذلك الماعز وحيوانات اللاما المنتجة للوبر، فأدت الجهود التى بذلها ونشره للمعارف العملية فى صحف مثل صحيفة "الميركوريو" إلى إقامة مصانع

المنسوجات استطاعت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن تصل بإنتاجيتها إلى درجة مرضية ولكن دون أن تصل لدرجة منافسة الإنتاج الإنجليزى من المنسوجات.

على الرغم من أن الجميع قد أبدوا اعترافهم بالمهارات التى كان يتمتع بها ألامان، إلا أن الشكوك كانت تراودهم بشأن مناوراته السياسية، لأنه كان قد نجح فى أن يقصى خصوم النظام فى حكومات بعض الولايات المكسيكية وهو ما أدى إلى شيوع المخاوف بين حكومات الولايات الأخرى من رغبته فى تركيز إدارة البلاد بين يديه. ثم أضيفت إلى تلك المخاوف مشاعر السخط التى سادت نتيجة لإعدام الجنرال غيريرو رمياً بالرصاص فضلاً عن آخرين غيره فى عام 1832. أما سانتا أنا الذى كان يطمع فى رئاسة الجمهورية فإنه قرر استغلال حالة السخط لكى يثور على الرئيس فى يناير سنة 1832 وأطلق ثورة كلفت البلاد الكثير كما ورطت الحكومة فى الإستدانة من الكنيسة ومن عوائد الجمارك بل ووصل بها الأمر إلى الاستدانة من أموال إيجارات المساكن والملاحات، غير أن هذه القروض صبت فى صالح من قاموا بالحصول عليها لتدبير شئون البلاد بصورة أو بأخرى.

تحقق لسانتا أنا النجاح فى مسعاه بسبب تأييد الميليشيات له وبسبب عوائد الدخل من جمارك فيراكروز وتامبيكو. مع هذا، فقد جعلت الولايات تأييدها له مشروطاً بعودة غوميس بيدراسا ليستكمل فترة رئاسته حتى نهايتها. وقد نجح سانتا أنا وباليntين غوميس فاريّاس فى الانتخابات التى جرت فى عام 1833 وتشكل الكونجرس المنتخب من نواب راديكاليين كانوا يفتقرون إلى الخبرة. ونظراً لأن سانتا أنا كان متواجداً طوال الوقت فى مزرعته أو على رأس الحملة العسكرية التى واجه فيها الثورة التى قام بها حكام ميتشواكان ومدينة المكسيك تحت عنوان "الدين والاختصاصات"، فإن نائب الرئيس غوميس فاريّاس كان هو فعلياً من يتولى السلطة التنفيذية خلال نصف السنة الأولى من ولاية سانتا أنا.

كان الراديكاليون مصممين على تطبيق الإصلاح التحررى ولكى يتأكدوا من عدم وجود معارضين مهمين لهم، فقد أصدروا قانوناً يقضى بالنفى للتخلص من عدد من الشخصيات ممن كانت تضمهم قائمة أسماء المشكوك فى ولائهم. وفى شهر أكتوبر من عام 1833 وبينما كانت البلاد ترزح تحت وطأة انتشار وباء الكوليرا، شرع الكونجرس فى إصدار عدة قوانين انعكست

آثارها السيئة على الكنيسة، كما كانت تنص على عدم لجوء الجهات العمومية إلى القوة من أجل جباية العشور أو النذور التى ينذرها الناس للكنيسة. وتقضى القوانين كذلك باضطلاع الحكومة بمهمة تعيين القساوسة فى الأبرشيات الخالية، وعلمانية التعليم العالى، أو غلق الجامعة. وقد اعتبر غوميس فارياس أن قيام الحكومة بتعيين القساوسة أمر لا يتفق مع سيادة الدولة فألغى هذا القانون، إلا أن الكونجرس صمم على أن يظل القانون سارياً وأن يحكم بالنفى على القساوسة الذين يبدون مقاومة فى تنفيذه. وقد أدى هذا الأمر بالإضافة إلى نفى عدد من المواطنين الآخرين إلى انفجار السخط الشعبى....

حظيت الإصلاحات الدينية بموافقة سانتا أنا. ولكن الكونجرس عندما بدأ فى مناقشة إعادة تنظيم الجيش، استغل سانتا أنا السخط العام ضد نائب الرئيس واضطلع بمهام الرئاسة مرة أخرى. وقد عين الجنرال سانتا أنا حكومة معتدلة وألغى كافة الإصلاحات فيما عدا تلك التى كانت تقضى بعدم اللجوء إلى القوة فى جباية العشور والنذور التى كان يستفيد منها من يتولون القيام بتحصيلها.

منذ أن حل عام 1829 أصبح شيوع انتهاكات الدستور واقعاً... فلقد انتهكه الكونجرس عدة مرات...، كما لم تستطع السلطة التنفيذية تسيير شئونها إلا من خلال "السلطات الاستثنائية". كما كان الوهن الذى حاق بالنظام الفيدرالى للدولة سبباً فى إضعاف الأداء الحكومى. وكان هذا يعنى الحاجة إلى إصلاح دستورى عاجل. وفى عام 1835 وبينما كانت الدولة تعانى من أوضاع دقيقة تمثلت فى قيام المستعمرين الذين كانوا يحتلون تيخاس (تكساس) بالإعداد للانفصال، وافق الكونجرس الفيدرالى على مرسوم لتقليص حجم الميليشيات التى تتألف من مدنيين، لكن ولايات زاكاتيكاس وكواهويلا وتيخاس قررت تحدى هذا القرار. وفى غضون ذلك بذل وزير العلاقات خوسيه ماريا غوتييريز دى إسترادا مساعيه لإقناع حكومة ولاية زاكاتيكاس بشرعية القانون وبعدم إمكانية أن تكون هناك استثناءات فى تطبيقه. وقد استدعت زاكاتيكاس الميليشيات الخاصة بها وأهابت بها أن تقاوم ذلك المرسوم، ولكن قوات الميليشيات قامت بالفرار بمجرد وصول قوات الجيش كما فر حاكم زاكاتيكاس من الولاية، وهو ما فتح الباب أمام الجيش لاحتلال عاصمة الولاية بدون اللجوء إلى العنف. ومع هذا، يبدو أن الوقائع على الأرض قد أثبتت صواب أعداء الفيدرالية...

تجربة المركزية والديكتاتورية
فى مواجهة التهديدات الأجنبية

كان تحدى زاكاتيكاس والتهديدات بانشقاق تيخاس (تيكساس) سبباً فى شيوع الرأى القائل بأن الفيدرالية ستزكى تفتت أراضى الدولة. وقد بدأ الكونجرس المنتخب فى عام 1834 فى إجراء مداولات بشأن إصلاح الدستور، إلا أنها قد انتهت بالرضوخ لمطالب الشعب بأن يتحول المجلس التشريعى إلى مجلس دستورى وأن يتبنى "صيغة أكثر مواءمة للاحتياجات وللأعراف" السائدة فى البلاد. ومن ثم، فبينما كان سانتا أنا يقود حملته العسكرية فى تيخاس، كان المشرعون قد بدءوا صياغة الدستور الجديد. فبدأ النواب يدرسون بعناية "الأخطاء" التى كانت فى قانونه الأساسى الأول ثم قاموا بالتداول بشأن أفضل صيغة لتصحيحها.

كانت "القوانين السبعة" - أى الدستور المركزى الأول - جاهزة فى شهر ديسمبر من عام 1836. وعلى الرغم من أن أنصار الفيدرالية قد وصفوها بأنها قوانين محافظة، إلا أنها كانت فى طابعها العام ليبرالية الاتجاه إذ حافظت على التمثيل النيابى والفصل بين السلطات التى زاد عددها بإضافة سلطة رابعة هى "سلطة المحافظة" أى السلطة التى تضطلع بمهمة المحافظة والسهر على قيام بقية السلطات الثلاث الأخرى بمهامها على خير وجه. وقد تسببت تلك الآراء التى كانت تقول بأن اتساع إطار التمثيل النيابى يؤدى إلى عدم الاستقرار فى تقليص دور التمثيل النيابى. ثم جرى الأخذ بنظام لإحصاء الأصوات يماثل النظام الذى كان معمولاً به فى الدول التى كانت تتمتع بتطبيق الأنظمة النيابية القائمة على أن الذين لهم حق التصويت هم فقط أولئك الذين كانوا يسددون الضرائب أو كانوا من أصحاب الأملاك. وكان الانتخاب يجرى بأسلوب غير مباشر. كذلك فقدت الولايات استقلالها الذاتى وتحولت إلى دوائر، وكانت السلطة التنفيذية تقوم باختيارحكامها من بين ثلاث شخصيات كانت مجالس الدوائر هى التى تتقدم بأسمائهم. كما تحول الكونجرس فى كل ولاية إلى مجلس للدائرة، ويتألف هذا المجلس من سبعة نواب، كما جرى خفض عدد البلديات ليصبح عددها هو نفس العدد الذى كان قائماً فى عام 1808، وتضاف إلى تلك الدوائر أية قرية يتجاوز عدد سكانها 8000 نسمة وأى ميناء يتجاوز عدد سكانه 4000 نسمة. أما بالنسبة لانتخاب الرئيس فإن الأمر كان أكثر تعقيداً إذ كان نص الدستور يقضى بأن يتقدم كل من مجلس الشيوخ ومحكمة العدل العليا بثلاثة أسماء ثم

يقوم مجلس النواب بإختيار ثلاثة من بينهم ثم ترفع الأسماء الثلاثة إلى مجالس الدوائر، ويقوم مجلس النواب بإحصاء الأصوات ثم يعلن رئيس المجلس اسم رئيس الجمهورية الفائز بأكبر عدد من الأصوات. كذلك بدأ تطبيق المركزية على الخزانة العامة لكى تدعم حكومة الأمة. ولكن على الرغم من مد فترة ولاية الرئيس إلى ثماني سنوات.

وإلغاء منصب نائب الرئيس، فإن السلطة التنفيذية ظلت تعانى من الضعف لأنها كانت خاضعة "لسلطة المحافظة" (السلطة الرابعة) وللكونجرس ولمجلس الحكومة. وعلى الرغم من أن "القوانين السبعة" قد جرى إقرارها وسريانها بعد كارثة تيخاس (تيكساس)، فإن الشعب المكسيكى الذى درج على الإيمان بالمعجزات قام بانتخاب الجنرال أناستاسيو بوستامانتى كرئيس للجمهورية فى جو مشحون بالتفاؤل باعتبار أن نظام حكمه هو "نظام حكم جديد وواعد".

ويعزو الجاهلون ببواطن الأمور إستقلال تيخاس (تيكساس) إلى المركزية التى كانت قائمة فى المكسيك. ولقد ظهرت تباشير ضياعها فى واقع الأمر بعد دخول المستعمرين من ذوى الأغراض التوسعية قادمين من بلد الجار، حيث إن الولايات المتحدة كانت قد أبدت فيما مضى رغبتها فى شرائها وهو ما كان قد عبر عنه بوضوح الوزير بواتسيت منذ عام 1825. والواقع أن التاج الإسبانى كان قد سمح بدخول أوائل المستعمرين الأنجلوأمريكيين إليها بسبب قلق إسبانيا من قلة سكانها ورغبتها فى أن يعمرها الناس فضلاً عن اهتمامها بمنح ملجأ لرعاياها الذين كانوا يعيشون فى لويزيانا وفى فلوريدا بعد فقدان إسبانيا لهما، فسمحت لأولئك الرعايا باللجوء إلى تيخاس (تيكساس) مع منحهم عدة امتيازات. وكانت حكومة المكسيك بعد الاستقلال قد انتهجت نفس السياسة انطلاقاً من رغبتها فى إعمار أراضيها الشمالية، واشترطت أن يكون المستعمرون لتلك الأراضى من الأنجلوأمريكيين ممن يعتنقون المذهب الكاثوليكى لكنها زادت من الإمتيازات الممنوحة لهم على أمل أن يتغير ولاءهم ويصبحوا مواطنين مكسيكيين. كما وافقت على منح مساحات كبيرة من الأراضى إلى بعض "رجال الأعمال" ممن تعهدوا بتسكين مستوطنين فيها من المستعمرين الشرفاء وجرى منحهم مساحات من الأراضى تعتبر من وجهة النظر العملية بلا مقابل، إذ كانت الحكومة تعطى لرجال الأعمال "مقابلاً" عند تخليهم عن

الأراضى وتقسيمها. وكانت ولايتا كواهويلا وتيخاس تحصّلان رسوم تسجيل الملكية ومقابلاً رمزيا لثمن الأرض.

لكن الحقيقة أن كارثة الانفصال حلت بالبلاد لأن الحدود المكسيكية هناك كان نائية وكانت تمتد امتداداً شاسعاً، فضلاً عن قلة الموارد المالية للبلاد وهو ما أدى إلى أن تدخل جماعات كبيرة أغلبها من البروتستانت ومن العبيد إلى تيخاس (تيكساس) منتهكة القوانين المشار إليها سلفا، بل ووصل الأمر إلى أن لا تسود فيها شريعة القانون.

والحقيقة أن الكونجرس الدستورى - الذى كان قائماً فى عام 1824 - تسبب فى مشاكل كثيرة عندما ضم تيخاس إلى كواهويلا لكن تلك المشاكل تم حل أغلبها مع حلول عام 1834. وكان مصدر الخلافات ناشئاً عن العبودية وإنشاء نقاط لتحصيل الرسوم الجمركية بعد انقضاء فترة الإعفاءات من الجمارك. كذلك فإنه عندما بدأ الكونجرس فى مناقشات دستور الدولة، عمل رجل الأعمال الأنجلوسكسونى إستيبان أوستن على أن يستغل أسوأ استغلال أولئك النواب الذين كانوا يريدون إلغاء العبودية وذلك عندما سألهم من أين سيأتون بالأموال لكى يدفعوا لأرباب العبيد ثمن عبيدهم الذين "يملكونهم". ولهذا فإن دستور 1827 قد اقتصر على النص بأنه "فى هذه الدولة لا يولد الإنسان عبداً". لكن غيريرو أعلن فى عام 1829 إلغاء العبودية فى المكسيك مع استثناء تيخاس (تيكساس) من هذا الإلغاء، على شرط ألا يجرى استيراد العبيد بعد هذا التاريخ. غير أن الهاجس من أن المستقبل القريب سيعنى بالنسبة للمستعمرين اختفاء العبيد من عندهم كان قد سبب لهم قلقاً كبيراً.

وعلى أى الأحوال، فإن قانون الأستيطان إى الإستعمار الذى صدر فى عام 1830 ويقضى بمنع هجرة الأنجلوسكسون إلى المكسيك كان هو الذى تسبب فى شيوع السخط الذى ازداد بسبب فتح أول مركز لجباية الرسوم الجمركية فى عام 1832. وقد تسبب فتحه فى قيام حركة مناهضة فى مدينة أناهواك أدت إلى عقد أول اتفاق بين الأنجلوسكسونيين وبعضهم البعض. وكان المراهنون على الانضمام إلى الولايات المتحدة الذين كانوا قد وصلوا إلى المكسيك فى أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر قد أخذوا على عاتقهم أن يستغلوا "الأضرار التى لحقت بهم" بكل مهارة لتحريض المستعمرين. كذلك فإن أوستن الذى كان يحظى

بصداقة العديد من النواب الراديكاليين قد نجح فى عام 1833 فى إلغاء القانون الذى كان يقضى بمنع هجرة الأنجلوسكسون إلى المكسيك كما نجح فى مد فترة الإعفاءات من الرسوم الجمركية كما كان يقضى بما يلى: أن تتولى كواهويلا إجراء الإصلاحات التى تسمح بزيادة تمثيل أبناء تيخاس – أن يسمح باستخدام اللغة الإنجليزية فى الإجراءات الإدارية والقانونية – أن يتم الحكم فى القضايا أمام هيئة محلفين وهو ما يعنى أن الذين يخرقون القانون ستجرى محاكمتهم أمام محاكم تتشكل من مواطنيهم أنفسهم. وبعد انقضاء فترة الإعفاءات من الرسوم واستئناف الجمارك لأعمالها فى عام 1835، بدأ القلق يساور الأنفس. كما أن القائد العسكرى لم ينجح فى حل المشاكل فعاد أنصار الانضمام إلى الولايات المتحدة إلى اللعب على وتيرة مخاوف المستوطنين من موقف المكسيك المعادى للعبودية، كما لعبوا لديهم على وتر إزكاء روح الاستقلال عن المكسيك. ثم سعى المستوطنون لدعم حركتهم فقاموا بتوجيه نداء إلى الأمريكيين للانضمام إليهم فى نضالهم من أجل الحرية، ولهذا فقد تشكلت فى الولايات المتحدة الآن النوادى التى كانت تجند المتطوعين كما جمعوا لهم السلاح والمال. وأعلن الرئيس الأمريكى أندرو جاكسون "الحياد" بالنسبة لأمر يعد مشكلة من مشاكل المكسيك الداخلية، ولكنه لم يلتزم باحترام ذلك الحياد...

اختارت الحكومة المكسيكية أن ترسل حملة عسكرية تحت قيادة الجنرال سانتا أنا بهدف القضاء على التمرد فى تيخاس (تيكساس)، ولكن فقر الخزانة المكسيكية والارتجالية التى سادت الجيش أديا إلى سوء الضبط والربط والتنظيم والإمداد والتموين. ومع هذا فإن الحملة بدأت بنجاح واستردت الحملة بعد معركة دامية حصن "ألامو". لكن هذا لم يمنع أبناء تيخاس من إعلان استقلالها فى السادس من مارس سنة 1836 وقاموا بتعيين حكومة مؤقتة تولى فيها المكسيكى لورينزو زافالا منصب نائب الرئيس. وشرع سانتا أنا فى مطاردة تلك الحكومة المؤقتة إلا أنه وفى غفلة منه وقع فى الأسر. وقد أطاع الجنرال بيسنتى فيليسولا الذى كان يلى سانتا أنا فى القيادة أوامر قائده بسحب قواته بعيداً عن خط نهر ريو غراندى (الذى أصبح اسمه فيما بعد: ريو برابو)، وهو ما شكل تأكيداً على استقلال تيخاس فضلاً عن التأكيد على الادعاءات بأن خط النهر هو الذى يشكل حدود تلك المنطقة. وكانت المصاعب الاقتصادية الجمة هى التى حالت دون إرسال حملة عسكرية جديدة، ومع هذا فإن تسلط فكرة استعادة

تيكساس لم تمنع الحكومة من أن تولى اهتمامها للتحذيرات البريطانية لكى تعترف باستقلالها خشية أن تتعرض لاحقاً لخسائر أكبر من هذا.

لم يطل الوقت على تطبيق "المركزية" لكى يتضح أن الآمال المعلقة عليها كانت آمالاً كاذبة. فما أن بدأ تطبيقها حتى كان فرض الضرائب التى كان على الجميع أن يؤدوها (ضريبة الرءوس) وإلغاء البلديات سبباً فى إثارة التمرد فى الأرياف وفى بعض الفيدراليات الكائنة فى شمال البلاد. وأصبحت السنوات العشر التى جرى فيها تطبيق المركزية فيها أشد سنوات عدم الاستقرار على مدى القرن التاسع عشر بأكمله. كما أدت إلى ازدياد الشلل الاقتصادى بصورة حادة. كذلك فتح ضعف الحكومة الأبواب أمام التدخلات الأجنبية بسبب عدد من المطالب التى لم تكن الحكومات المكسيكية المتعاقبة قد أعارتها الاهتمام المفروض. وفى واقع الأمر فإن غالبية تلك المطالب لم تكن عادلة بل وكانت تتسم بالمغالاة وهو ما أثبته التحكيم الدولى الذى لم يعط المطالبات الأمريكية الحق إلا فى 15% منها فقط. كما استغلت فرنسا تلك المطالبات وقامت بحصار وقصف فيراكروز وتامبيكو مما اضطر البلاد إلى الاستدانة من أجل دفع تعويضات غير عادلة على الإطلاق.

كذلك أدى انخفاض الدخل الشديد إلى زيادة اقتراض الحكومة وإلى إجبار الكونجرس على إصدار قرار بفرض ضريبة قيمتها 15% على السلع المستوردة وهو ما أدى إلى إفلاس كثير من التجار الأجانب وبعض التجار المكسيكيين. ومن ثم، بدأ البعض يرى قبل انقضاء فترة الرئاسة الأولى أن إيجاد الحلول للمشاكل التى تعانى منها المكسيك يقتضى إما التحول إلى الملكية على أن يولّى الإمارة فيها "أمير أجنبى"، أو أن تتحول المكسيك إلى ديكتاتورية يحكمها العسكريون. وعندما وصلت قناعة خوسيه ماريّا غوتييريز إسترادا إلى أن هنالك من يحيك مؤامرة لفرض الديكتاتورية، تجرأ واقترح تطبيق البديل الآخر ألا وهو التحول إلى الملكية. لكن دهاء ومهارة الجيش فجرا فضيحة للجمهورية وهو ما فتح الباب على مصراعيه للأخذ بالدكتاتورية كنظام يحكم البلاد. وقد قام التجار الأجانب فى عام 1841 بتحريض الجنرال أنطونيو لوبيز دى سانتا أنا والجنرال ماريانو باريديس والجنرال غابرييل فالنسيا على الانقلاب على الحكم وفى شهر أكتوبر من نفس العام قامت ديكتاتورية عسكرية فى البلاد وعلى رأسها الجنرال سانتا أنا. وعندما أبدى الفيدراليون المعتدلون تأييدهم للديكتاتورية بشرط الدعوة إلى

انتخاب كونجرس دستورى جديد، استجاب سانتا أنا لشرطهم ففاز الفيدراليون بالأغلبية وحددوا الطابع الذى سيكون عليه مصير البلاد خلال الفترة التالية. فقد جرى فى شهر ديسمبر من عام 1842 حل الحكومة لتحل محلها زمرة أو هيئة الأعيان التى تتألف من كبار الشخصيات وقامت بصياغة دستور أطلقوا عليه "قواعد النظام الأساسى". وقد ألغى هذا الدستور المركزى الجديد "السلطة المحافظة" الرابعة المشار إليها فى الدستور القديم كما منح دعمه للسلطة التنفيذية ووسع نطاق التمثيل النيابى كما زاد من السلطات المنوطة بالجمعيات التشريعية. لكن إفلاس الخزانة حال دون تحقيق الأهداف المرجوة.

وبعد إقرار "قواعد النظام الأساسى" للدستور الجديد أجريت الانتخابات فى عام 1843 وتم انتخاب سانتا أنا كرئيس للجمهورية ومعه كونجرس يتألف أعضاؤه من الفيدراليين المعتدلين الذين يتوقون إلى أداء مهامهم بأمانة وإلى تطبيق النظام الذى ينص عليه الدستور. ولهذا، فإنه عندما حاول حل الكونجرس فى شهر ديسمبر 1844 قاومه أعضاء الكونجرس بل وجردوه من مهامه وكان هذا بتأييد من السلطة القضائية والبلديات وعامة الشعب من أبناء العاصمة. وقد تولى رئيس الحكومة خوسيه خواكين دى هيريرا رئاسة السلطة التنفيذية لفترة انتقالية قام خلالها باختيار أعضاء مجلس الوزراء من بين الفيدراليين المعتدلين المشار إليهم بالبنان وركز اهتمامه على أن تكون حكومته حكومة نزيهة وأن تقوم بإجراء المصالحة بين الفئات المختلفة.

وقد أدرك المعتدلون استحالة قيام حرب جديدة، فاختاروا طريق التفاوض من أجل الاعتراف تيخاس (بتيكساس)، وذلك لتفادى شن حرب جديدة. لكن الجو العام على المستوى القومى والعالمى كان يحمل فى طياته اتجاهاً معاكساً... ولم تكن التهديدات موجهة إلى المكسيك من الولايات المتحدة وحدها، بل ومن جانب إسبانيا أيضاً التى كان البيت الملكى فيها قد دبر مؤامرة لقيام الملكية فى المكسيك وذلك بمباركة من فرنسا ومن بريطانيا العظمى. وقد دبر لهذا المشروع الوزير الإسبانى سلفادور بيرموديث دى كاسترو بمعاونة من بعض المواطنين المكسيكيين من ذوى النفوذ مثل ألامان.

أدى هذا المشروع إلى ازدياد الانقسام فى المشهد السياسى. ويبدو أن المكسيك لم يكفها ما حاق بها، إذ بلغ الخلل فى نسبة عدد السكان بين المكسيك وبين جارتها فى الشمال حد أن يصل عدد سكان الولايات المتحدة أكثر من ضعف عدد سكان المكسيك إذ بلغ عدد الأمريكيين 20 مليون نسمة فى حين كان عدد المكسيكيين يتجاوز بالكاد الملايين السبعة كما أن المكسيك كانت تفتقر إلى العناصر التى تتيح لها الوقوف أمام دولة تتصف بالديناميكية وتتوفر لها الموارد البشرية والمادية. ولسوء الحظ فإن الاقتراح المكسيكى لبدء المفاوضات الرامية إلى منح تيخاس (تيكساس) الاعتراف بها كان قد عفا عليها الزمن، ففى شهر يونيو من عام 1845 وافقت تيكساس على عرض من الأمريكيين بالانضمام إلى الولايات المتحدة وهو الأمر الذى استغله الفيدراليون لتوجيه اتهام إلى هيريرا والادعاء بأنه قد عمل على بيعها بل وبيع كاليفورنيا أيضاً إلى الأمريكيين.

وخلال هذا الوضع الدقيق، اتصل الملكيون بقائد فرقة الاحتياط الجنرال ماريانو باريديس إى أرّياغا الذى أراد انتهاز فرصة دعم الملكيين له للوصول إلى السلطة. والواقع أن نزاهة وسمعة الجنرال باريديس وكفاءته قد أتاحت توفير الموارد الحكومية له، انطلاقاً من أن تقوية فرقته العسكرية كان ضرورياً من أجل مساندة الجنود المدافعين عن منطقة الشمال المعرضة للتهديد. إلا أن باريديس بدلاً من أطاعة الأمر بالتحرك صوب الحدود، فإنه أعلن عدم اعترافه بالرئيس هيريرا وسار صوب العاصمة من أجل الاستيلاء على الرئاسة. لكن ديكتاتوريته العسكرية كانت صورة حقيقية للفشل إذ لم ينجح فى محاربة الفساد ولم ينجح فى إعادة ترتيب أمور الخزانة العامة للدولة كما لم ينجح فى دعم دفاعات شمال البلاد المعرضة للتهديد. وكما كان متوقعاً، لم يطل به الوقت بعد أن قامت حركة مناهضة له من الفيدراليين المعتدلين فى غوادالاخارا (وادى الحجارة). وعلى الرغم من أن الجيش الأمريكى كان يشق طريقه متقدماً فى الأراضى المكسيكية، فإن باريديس حول اتجاه بعض وحدات من الجيش لمحاربة الفيدراليين...

الواقع أن باريديس كان يحاول تفادى الحرب أيضاً، ولكن الرئيس الأمريكى جيمس بولك كان قد عقد العزم واتخذ قراره بالحصول على كاليفورنيا مهما كلفه الأمر. وكان بولك ميالاً إلى تفادى الحرب حتى لا تؤجج حدة المشاكل الإقليمية ولهذا فقد قدم رشوة إلى سانتا أنا

الذى كان منفياً فى هافانا محاولاً بها شراء الأراضى المكسيكية. وفى أواخر عام 1845 وصل مبعوث من بولك إلى العاصمة المكسيكية حاملاً معه عدة عروض لكنه لم يلق ترحاباً ولم يستقبله أى أحد. وبمجرد أن تلقى بولك نبأ فشل مهمة المبعوث الأمريكى قام بإصدار أوامره إلى الجنرال زخارى تايلور بالتقدم صوب ريو غراندى أى إلى الأراضى المكسيكية أو - على أسوأ الفروض - إلى الأراضى المتنازع عليها. وعندما تلقى بولك فى مارس نبأ حادث اتسم بالعنف، قام فى الثانى عشر من مايو سنة 1846 بإعلان الحرب متهماً المكسيك بأنها "قد سفكت دماء أمريكية على أرض أمريكية"، وهو أمر زائف تماماً...

وتجدر الإشارة إلى أنه قبل إعلان الحرب فى 12 من مايو كانت المكسيك قد لقيت أول هزائمها فى 8 و9 مايو من نفس الشهر. وقد سببت أخبار تلك الهزائم ذهولا بين أبناء المكسيك الذين قرروا عدم الاعتراف بديكتاتورية باريديس ولا بالمركزية التى كان يبشر بها. وأصدر الفيدراليون فى الرابع من أغسطس بيانا يعلنون فيه سحب اعترافهم بباريديس ويطالبون فيه أيضاً بتعديل دستور عام 1824 وهذا دون أن يأخذوا فى الاعتبار الأضرار التى يمكن أن تنجم عن أى تغيير سياسى فى زمن الحرب وهو ما أدى بالطبع إلى إعاقة ترتيبات الدفاع عن البلاد. وهكذا سلبت إصلاحات الفيدراليين من باريديس انتباهه عن أداء مهامه وتركته عمليا وحيدا فى مواجهة الحرب. هذا من جانب، ومن جانب أخر فإن التكالب على الفوز بالمناصب فى البلديات وتولى المناصب فى مختلف سلطات الدولة وفى الفيدراليات كان قد أدى إلى الإنشغال عن الإهتمام بالجبهة.

وما أن اندلعت الحرب إلا وقد حدث ما كان متوقعا لها من نتائج لأن المكسيك كانت تفتقر إلى كل شئ: كان عتادها وتسليحها قديما، وكان ضباطها قليلى الخبرة، وكانت الارتجالية وافتقاد الضبط والربط طابعا للجنود. كان على الجيش المكسيكى أن يواجه جيشا آخرا ربما كان يقل عنه عددا... لكنه كان جيشا من محترفى القتال المتمتعين بكفاءة الخدمات الصحية والإمداد والتموين وكانت مدفعيتهم حديثة وطويلة المدى، فضلاً عن تدفق المتطوعين الذين كانوا يتدربون ثم يستبدلون بغيرهم بصورة دورية. وبينما كان على الجيش المكسيكى أن يقطع الطريق منتقلا من الجنوب إلى الشمال، كانت الولايات المتحدة تبعث بعدة جيوش تتكون من فصائل تقوم بمهام خاصة وتهاجم من عدة جبهات فى وقت واحد. وفى الوقت نفسه، كانت

البحرية الأمريكية تحاصر وتحتل الموانئ المكسيكية لتحرم الحكومة من عوائد الجمارك كما كان الغزاة الأمريكيون يستولون على ما تطاله أيديهم من تلك الجمارك لتمويل الحرب.

وكانت التجارة قد بدأت تتحسن فى يوكاتان نظراً لخفض الضرائب، ولكنها عندما خشيت أن يحتل الأمريكيون موانئها، أعلنت حيادها فى الحرب لتفادى ويلات الإحتلال.

ومع حلول شهر يناير كانت نويبو ميخيكو (نيو مكسيكو) وكاليفورنيا قد جرى ضمهما إلى الولايات المتحدة وكانتا غير مأهولتين إلا بعدد قليل من السكان كما لم يكن هناك من يدافع عنهما. وقد كفل التفوق الأمريكى للولايات المتحدة النصر واحتلال شمال المكسيك ثم تلاها احتلال محور فيراكروز - بويبلا. أما الجيش المكسيكى فإنه كان يعانى من سوء التغذية وسوء التسليح ومن انخفاض الروح المعنوية سواء بسبب التفوق التقنى للعدو أو بسبب مشاهدته للإهمال الذى كان يلقاه الجرحى من أبناء الجيش المكسيكى وهو ما جعلهم على قناعة بأن التضحية لا جدوى منها. ومع هذا فقد قاومت مونتيرِّى وفيراكروز الجيش الأمريكى وهو ما كلفهما خسائر فادحة، كما ظل الجيش المكسيكى يحارب فى أنغوستورا لمدة يومين فى ملحمة بطولية رائعة وعندما انسحب منها حلت بها الهزيمة.

أما الجيش الأمريكى الذى نزل فى بويبلا فلم يمض إلا القليل إلا وكان قد احتلها، وهو ماجعل سقوط مدينة المكسيك أمرا لا مفر منه. وبعد أربع هزائم فى وادى المكسيك أصدر سانتا أنا أوامره بالإنسحاب من بويبلا لكى يجنب الجيش مزيدا من الخسائر. ولكن الشعب حين أدرك أن العدو يتقدم حاول الدفاع عن المدينة مما أدى إلى جريان نهر من الدماء ثم تم إعلان حالة الطوارئ. وفى الرابع عشر من سبتمبر من عام 1847 كان العلم الأمريكى يرفرف فوق سارية القصر الوطنى.

فى اليوم التالى أعلن سانتا أنا من ضاحية جوادالوبى استقالته من الرئاسة فتولاها مانويل دى لا بينيا إى بينيا الذى كان يتولى منصب رئيس محكمة العدل العليا. فقام بنقل مقر الحكومة إلى كيريتارو. وقد نجح المعتدلون فى عقد اجتماع للكونجرس ضم بعض حكام

الولايات لإعطاء انطباع بأن أمور الحكومة تسير بصورة ما بشكل طبيعى وذلك على الرغم من معارضة الراديكاليين وأنصار الملكية.

فى غضون ذلك، كانت الانتصارات قد ولدت بين الأمريكيين شعورا جارفا بالرغبة فى التوسع إذ طالبوا بالاستيلاء على المكسيك بأكملها... وكان الرئيس بولك قد أرسل من قبل مبعوثه نيكولاس تريست للتفاوض بشأن احلال السلام، لكنه بعد تحقيق الأمريكيين تلك الانتصارات أمره بالعودة كى يفرض نص معاهدة السلام القبول بحصول أمريكا على مزيد من الأراضى. وقد سبب هذا الأمر للمفاوض تريست مشكلة أدبية جعلته فى وضع لا يحسد عليه، علاوة على أنه كان قد قبل بأسماء الذين أخطرته بهم الحكومة المكسيكية وقامت بإخطارهم لإجراء المفاوضات معه، وهم: لويس غ. كويباس وبرناردو كووتو وميغيل أريستاين. وقد قرر تريست عدم أطاعة الأمر بالعودة، ثم بدء المفاوضات بعد أن حثه على ذلك كل من الجنرال وينفيلد سكوت القائد العام للجيش الذى كان قد غادر فيراكروز إلى المكسيك العاصمة كما حثه الوزير البريطانى على هذا أيضاً. ومن ثم، بدأ تريست المفاوضات التى توجت فى 2 فبراير من عام 1848 بالتوقيع على معاهدة السلام، فى ضاحية غوادالوبى. وقد اعترف تريست لعائلته بشعوره بالعار الذى تملكه، "فى كل الاجتماعات، [أمام] الرغبة فى شن الحرب، باعتبار هذا تعسفا فى استعمال القوة من جانبنا". وتعترف المكسيك فى تلك المعاهدة بفقدانها لما يزيد عن نصف مساحة أراضيها. كما تمت الموافقة على دفع تعويض عن الأضرار قدره 15 مليون بيزو وأن تتحمل الأراضى "الضائعة" حصتها من الدين الخارجى باعتبارها أراض جرى غزوها بالقوة المسلحة. وقد نجح المفاوضون فى انقاذ باخا كاليفورنيا (كاليفورنيا السفلى) وتيهوانتيبيك من أيدى الأمريكيين كما نجحوا فى التأكيد على حقوق المكسيكيين الذين كانوا يعيشون فى الأراضى المفقودة. وتعهدت الولايات المتحدة فى المادة 11 من المعاهدة بحماية الحدود المكسيكية من هجمات الهنود الحمر الذين كانوا يسكنون المراعى الشاسعة المتاخمة للمكسيك ولكن الولايات المتحدة لم تنفذ ذلك الشرط أبدا... وقد أشاد دى لا بينيا بالمعاهدة عند تقديمها إلى الكونجرس قائلا أن تلك المعاهدة قد تم التوقيع عليها من أجل استعادة المناطق المحتلة ومن أجل أن "تتجاوز الجمهورية الكارثة التى حلت بها".

وعلى الرغم من الموقف العدائى الذى أبداه أنصار الملكية والراديكاليون لتلك المعاهدة، فإن الحكومة قامت بإجراء الانتخابات كما نجحت فى أن يوافق الكونجرس فى اجتماعه فى كيريتارو على المعاهدة، وكان ذلك فى شهر مايو من نفس العام. وبعد أن أفرزت الانتخابات نجاح هيريرا كرئيس للبلاد، قام بنقل مقر الحكم إلى مدينة المكسيك ثم شرع فى إعادة تنظيم أمور الدولة فى جو من الإحباط العام وتهديدات انقلابية من جانب انصار الملكية والفيدراليين كما واجه انتفاضات السكان الأصليين فى بعض الولايات المكسيكية وخاصة فى يوكاتان. ولم يقتصر الأمر على هذا، فقد تعرضت البلاد لهجمات من الهنود الحمر الأمريكيين وغيرهم من الأمريكيين ممن كانت لديهم نزعات استقلالية وذلك فى محاولة منهم للفوز أيضاً برقعة أرض جديدة من أراضى المكسيك.

نجح حكم هيريرا فى إعادة النظام إلى الإدارة كما خفض عدد الجيش ولكنه لم ينجح فى تحييد الاستقطاب السياسى الذى كان قائماً بين الفيدراليين المعتدلين من جهة والراديكاليين وأنصار الملكية من جهة أخرى وذلك بسبب المجموعة التى كانت تدين بالولاء للجنرال سانتا آنا. وقد أدت المرارة التى كانت تشعر بها مختلف الجماعات السياسية إلى تبادل الاتهامات فيما بينها متهمة كل منها الجماعة الأخرى بأنها هى المسئولة عن الهزيمة، وهو ما أجبر كل فئة من تلك الجماعات على إعلانها عن المبادئ السياسية التى تعتنقها. وعليه فقد ظهر إلى الوجود حزب المحافظين فى عام 1849 وله برنامج قام "الامان" بصياغة بنوده بدقة وحذق وهو ما دفع الفيدراليون إلى الإعلان عن أنفسهم أيضاً تحت اسم حزب الليبراليين.

وفى عام 1851 قام هيريرا بتسليم مقاليد الرئاسة سلميا إلى خلفه ماريانو أريستا الذى كان أقل حظا من الرئيس السابق عليه إذ رضخ للهجوم الذى تعرض له وللمطالبات بتخليه عن الحكم فقدم استقالته. وبعد انقضاء الفترة التى أصبح فيها رئيس محكمة العدل العليا رئيسا للجمهورية بالنيابة، اتفق العسكريون على فرض الجنرال مانويل ماريا لومبارديني كرئيس للبلاد بينما كانت تجرى الانتخابات فى الولايات لاختيار رئيس مؤقت لكى يدعو إلى إنعقاد الكونجرس. وقد توصلت جميع الأحزاب فى ذلك الوقت إلى نتيجة واحدة ألا وهى ضرورة قيام حكم قوى. ومن ثم وبعد اجراء الانتخابات تم إنتخاب الجنرال سانتا أنا المنفى فى كولومبيا لتولى سدة الحكم.

ويعود إبن فيراكروز الذى يفتقر إلى الشعور بالمسئولية إلى الحكم فى ابريل من عام 1853. ويقدم "ألامان" نيابة عن المحافظين خطة تركز على ضرورة قيام حكم قوى ومسئول دون الخضوع للنظام النيابى بأى صورة من الصور، وقيام جيش قوى يحظى بالإحترام ويكون متحدا دينيا ويحظى بالتأييد الأوروبى. كما قام الليبرالى ميغيل ليردو دى تيخادا بتقديم خطة أخرى ترتكز على إجراءات اقتصادية بهدف التنمية. ولما كان سانتا أنا قد درج على لعب دور الوسيط بين الأحزاب المختلفة، فإنه قد وافق على الخطة التى عرضها عليه عضو حزب المحافظين "ألامان" الذى تولى رئاسة الوزراء وفى الوقت نفسه لم يعمل إلا على تنفيذ الاقتراحات السياسية التى تقدم بها ابن مدينته الراديكالى ليردو بعد أن قام بتعيينه أمينا عاما لوزارة جديدة للتنمية والتعمير والصناعة والتجارة.

بدأ سانتا أنا فى تنفيذ سياسة تتسم بالقهر كما قام بنفى الرئيس السابق أريستا. وفى غضون ذلك ولما كان المحافظون يعتبرون أن الديكتاتورية هى الجسر الذى يؤدى إلى إقامة النظام الملكى، فإنهم قد شرعوا فى البحث عن ملك ليحكم البلاد لكن بحثهم هذا صادف القليل من التوفيق نظرا لأن الإطار السياسى الذى كان سائدا فى أوروبا كان يركز على المشاكل التى سببها الأتراك لهم. ثم توفى ألامان فى شهر يونيو 1853 وبعد أن رحل ذلك المعتدل الذى كان يعمل على تلطيف الأجواء، شدد سانتا أنا من الرقابة المفروضة وزاد عمليات نفى أتباع حزب الليبراليين إلى خارج البلاد. ولم يطل به الوقت لكى يتوج مشاعره بنشوة السلطة، فحول حكمه الديكتاتورى إلى رئاسة لمدى الحياة واتخذ لنفسه لقبا ينادونه به هو "صاحب المقام العالى".

كان على ذلك الحكم الديكتاتورى أن يواجه المشكلة الأزلية المتمثلة فى قلة الموارد المالية والديون. لكن الديكتاتور كان قد آثر عدم التخلى عن أطماعه وأهوائه من أجل تسديد تلك الديون، فقام بفرض ضرائب جديدة تدعو للاستغراب. ومع هذا فقد كان لتلك الديكتاتورية إنجازاتها التى تمثلت فى نشر أول قانون للتجارة فضلاً عن الأداء الطيب لوزارة التنمية التى شجعت استيراد الآلات وحسنت مستوى المواصلات وشجعت انشاء المكتبات.

وجد سانتا أنا نفسه مضطرا إلى أن يواجه من جديد الأطماع التوسعية للولايات المتحدة التى لم تقنع بابتلاع نصف الأراضى المكسيكية فبدأت تمارس ضغوطها للاستيلاء على برزخ أو

لسان تيهوانتيبيك وباخا كاليفورنيا (كاليفورنيا السفلى)، بل والولايات الشمالية إن أمكن ذلك... وعليه فإن الوزير الجديد الأمريكى جيمس غادسدن الذى كان يعرف حق المعرفة ما تعانيه حكومة المكسيك من أزمات اقتصادية، ساوره الاعتقاد بسهولة شراء مساحة كبيرة من الأراضى المكسيكية. ولجأت الحكومة الأمريكية إلى التحجج بوجود خطأ فى الخريطة التى كانت المفاوضات قد جرت على أساسها عند التوقيع على معاهدة غوادالوبى ولهذا "فإن الولايات المتحدة تحتاج إلى أراضى منطقة الـ "ميسيا" من أجل مد خط للسكك الحديدية".

لم تستطع الحكومة المكسيكية أن تحظى بأية مساندة من أوروبا لتحييد التهديد الأمريكى. وخشى سانتا أنا من وقوع حرب جديدة فقبل فى شهر ديسمبر 1853 التفاوض مع الأمريكيين. وقد استغلت الولايات المتحدة التوقيع على المعاهدة الجديدة للحصول على منطقة الـ "ميسيا" وإلغاء البند الذى كان يضمن الدفاع عن الحدود ضد هجمات الهنود الحمر الأمريكيين. وقد ضمنت الملايين العشرة التى حصل عليها سانتا أنا استمراره فى السلطة، لكن الكلفة السياسية للمعاهدة كانت باهظة وفقد الناس ثقتهم تماما فى تلك الديكتاتورية. من جهة أخرى، كانت الآمال فى حكم "قوى" قد تبخرت. وبعد سنة من تولى سانتا أنا الحكم كان الرفض الشعبى للديكتاتورية قد عم جميع أرجاء البلاد. وانفجر السعى المعهود لقلب النظام فى شهر مارس سنة 1854 متمثلا فى "خطة أيوتلا" التى كان يقف من ورائها كل من خوان آلباريس وإغناسيو كومونفورت. وتسحب الخطة اعترافها بالحكم وترفض بيع منطقة "ميسيا" وتطالب بانتخاب كونجرس دستورى يعيد إلى البلاد نظامها الجمهورى النيابى الفيدرالى. وعلى الرغم من التأييد الأدبى الذى أولاه لهما الليبراليين المنفيون فى نيو أورليانز، فإن نقص المال جعل المتمردين يقتصرون على شن حرب عصابات، بينما يسرت الملايين العشرة لسانتا أنا محاربة المتمردين عليه مما أتاح له الإستمرار فى الحكم حتى سنة 1855.

الإصلاح الليبرالى والتدخل الفرنسى
والإنتصار الحاسم للجمهورية

ساعدت ديكتاتورية سانتا تجَــذُر المواقف السياسية. وعلى الرغم من أن كلا الحزبين كانت تحدوهما نفس التطلعات فى التقدم، إلا أن وسيلة تحقيقه كانت مختلفة لدى كل منهما. فقد كان المحافظون يرون أن التقدم لن يتحقق إلا من خلال نظام حكم ملكى ومجتمع تنتشر فيه الهيئات والنقابات والجمعيات وتساندها الكنيسة ويساندها جيش قوى. أما الليبراليين فقد كانوا يرون من جانبهم أن ضمان التقدم لن يقوم إلا على أساس جمهورية نيابية اتحادية فيدرالية وشعبية تشبه الجمهورية فى الولايات المتحدة وعليه فإنهم كانوا يرون أن هناك ضرورة ملحة لإزالة كل موروث كولونيالى والقضاء على أى جمعيات أو هيئات أو نقابات أو محافل وفك أوقاف الكنيسة وأملاكها من أجل تحويل المكسيك إلى بلد لصغار الملاك لكن الصيغة أو الوسيلة إلى تحقيق هذا أدت إلى شيوع الانقسام بين الليبراليين. أما أتباع الوسط أو المعتدلين منهم فإنهم كانوا يريدون أن يتم هذا ببطء لتفادى عنف المقاومة لهذا الإجراء ومن ثم فإنهم قد حبذوا إجراء إصلاحات على دستور عام 1824 المعدل. وعلى العكس من هذا كان أتباع حزب الأنقياء أو الصفوة يحبذون الإصلاح الحاسم الفورى وعليه ينبغى العمل بدستور جديد.

نجحت حركة أيوتلا فى الإستمرار بفضل احتمائها بجبال الجنوب وسهولة وصولها إلى البحر عن طريق أكابولكو ولكن الحاجة الماسة إلى موارد مالية أضطرت كومونفرت إلى السفر إلى الولايات المتحدة للحصول علي المساعدة ولكنه لم يحقق فى هذا إلا نجاحا محدودا. مع ذلك فقد ساعدته الظروف السياسية، إذ أشعل المعتدلون أو الوسط حركة تمرد فى إل باخيــيو ثم اشتعلت حركة أخرى قام بها أنصار الملكية فى سان لويس بوتوسى وكانوا يطالبون بتولى أغوستين إيتوربيدى الإبن عرش الإمبراطورية الجديدة. وقد أدى هذا إلى تحالف الليبراليين من الأنقياء مع الوسط وعودة المنفيين. وفى نفس الوقت كانت الحملة التى يقودها آلباريس تتقدم وتنتشر ببطء فإضطر سانتا أنا للهروب فى 17 أغسطس سنة 1855.

قام الليبراليين باحتلال العاصمة فى شهر سبتمبر من نفس العام. وفى 14 أكتوبر قامت هيئة نواب الولايات بإختيار خوان آلباريس كرئيس انتقالى فقام بتشكيل مجلس وزراء كان

جميع أعضائه من المنتمين إلى حزب الليبراليين وهم: ميلتشور أوكامبو – بينيتو خواريس – بونسيانو أرياغا – غييرمو بريتو وهم ممن كانوا ينتمون إلى جيل الشوامخ. وبدأ الإصلاح على الفور بعد إصدار "قانون خواريس" الذى ألغى امتيازات العسكريين ورجال الكنيسة وهو ما أرسى دعائم تساوى المواطنين جميعا أمام القانون. لكن الكنيسة التى كانت قد شرعت فى إعادة ترتيب وتنظيم أمورها منذ عقد الأربعينات وبدأت فى ترتيب الهجوم المضاد.

استقال خوان آلباريس من رئاسة البلاد فى 11 ديسمبر وحل محله كومونفورت وكان من أبناء الوسط المعتدلين وعليه فقد قام بتغيير الحكومة كلها وشكلَها من بين أعضاء الوسط. وخرج كومونفورت لردع حركة التمرد التى قامت فى بويبلا –وكانت حركة ذات اتجاه دينى وتطالب بإعادة الامتيازات للكنيسة– وبعد أن دحر تلك الحركة لم يتردد فى أن يفرض عقابا على القائمين بها وأن يصادر أملاك أسقف بويبلا. كما قام بإصدار قانونين من قوانين الإصلاح هما : قانون ليردو الذى يقضى بحل الأوقاف الخاصة بكل ضيعة موقوفة سواء كانت فى الريف أو فى الحضر وتمتلكها جهات مدنية أو دينية – والقانون الثانى هو قانون الكنائس الذى يقضى بمنع تقاضى أى أتعاب كنسية من الفقراء. وقد رفض أسقف المكسيك هذين القانونين معتبرا أنهما يشكلان موقفا معاديا للكنيسة.

بعد إجراء الانتخابات انعقد الكونجرس الدستورى فى 14 فبراير 1856 وكانت غالبيته من حزب الوسط أو المعتدلين إلا أن الأعضاء من حزب الأنقياء أو الصفوة (Los Puros) سيطروا على مناقشات الكونجرس التى اتسمت بالسخونة، وكانت أكثر المواضيع إثارة للجدل هى تلك التى كانت تتعلق بالتعليم وبالتسامح إزاء ممارسة العبادات. وقد كان الليبراليين يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على شئون التعليم لكى يتمكنوا من تشكيل عقلية مواطنى المستقبل ولكنهم وطبقا للأفكار التى كانوا يؤمنون بها أبدوا تساهلهم بشأن حرية التعليم، كما لم يقدروا على اعلان تسامحهم الدينى إزاء شيوع المخاوف من قيام تحرك شعبى. غير أنه جرى إلغاء الكاثوليكية كدين للدولة وتم الإعلان عن عدم منع "ممارسة أتباع أى ديانة لمعتقداتهم الدينية". وسعى الليبراليين إلى تطبيق النموذج الأنجلوسكسونى فى انتهاج القضاء لمنهج المحلفين باعتبار القضاء أحد مؤسسات الدولة الديموقراطية ولكن سعيهم قوبل بالرفض.

كذلك جرت مناقشات بشأن تطبيق الإصلاح الزراعى، غير أن نتائجها اقتصرت على أن يتضمن الدستور نصوص "قانون ليردو" التى تؤكد على حق الأفراد فى الملكية الخاصة.

لم يكن الدستور الذى صدر فى 5 فبراير سنة 1857 راديكاليا، ولكنه أدرج "حقوق الإنسان" فيه بصورة منهجية، وتناولت حقه فى : حرية التعليم والعمل – حرية التعبير – حرية الشكوى – حرية التجمع – حرية الإنتقال – حرية التملك ، المساواة أمام القانون وضمان عدم الاعتقال لأكثر من ثلاثة أيام بدون مبرر. كما أكد الدستور على سيادة الشعب المتمثلة فى دولته كـ "جمهورية نيابية ديموقراطية فيدرالية وتتكون بالنسبة لما يخص نظامها الداخلى من ولايات حرة ذات سيادة"، والحكم يقوم على أساس السلطات الثلاث، وسلطته التشريعيه ذات مجلس واحد وهى تعتبر السلطة المسيطرة. كما احتفظ الدستور بنظام الانتخاب غير المباشر وسن اجراءات مبسطة لانتخاب رئيس الجمهورية على أساس "انتخابات غير مباشرة فى أولى درجاتها على أن تتم بالاقتراع السرى"، بمعنى أن يتولى النواب انتخاب الرئيس بإعتبارهم النواب الذين اختارهم المواطنون.

أدت الانتخابات إلى أن أصبح كومونفورت رئيساً منتخباً ولكنه كان يفتقد الموارد المالية التى تعينه على تسيير دفة الحكم، كما تخلت عنه الآمال التى كانت تخالج الليبراليين فى أن بيع ممتلكات الكنيسة سيحل مشاكل الدولة المالية وكذلك "قانون ليردو" الذى لم تكن له إلا نتائج هزيلة بسبب تسهيلات السداد والتخفيضات فيها، وقبول سندات مقابل الديون التى لم تكن لها أية قيمة. وكان الغرض من القانون مراعاة صالح مستأجرى الأملاك، إلا أن الشكوك التى ساورت المستأجرين من ذلك القانون أو بالأحرى كان فقرهم هو ما أدى إلى أن يقعوا فريسة للمضاربين.

على الرغم من اعتدال الصياغة التى صدر بها الدستور، إلا أن النواب التابعين لحزب المحافظين كانوا يشعرون بعدم الرضى إزاءه كما كان نواب حزب الأنقياء أو الصفوة يرونه غير كاف. وكانت هذه الظروف التى أدت إلى إضعاف الكثير من رجال السياسة سبباً يضاف لصالح رصيد بنيتو خواريس الذى كان على يقين بصلابة قناعاته بشأن الدستور. وعليه، فإنه أبدى استعداده لأن يلعب بكل أوراقه من أجل هذا الدستور الذى كان هدفا أساسيا بالنسبة له.

وكان خواريس ينتمى عرقيا إلى أحد الأعراق المنتمية إلى سلسلة جبال واخاكا ولم يعرف إلا لغة واحدة هى اللغة التى يتحدث بها أبناء جلدته. وقد تلقى تعليمه فى المدرسة الإكليريكية ثم أكملها فى معهد العلوم التابع لولاية واخاكا. وتلقى الدعم خلال مسيرته من الفيدراليين الراديكاليين وكذلك من أحزاب الوسط. وأتاح له انتخابه فى الكونجرس المكسيكى سنة 1847 الدخول إلى ساحة الحياة السياسية القومية ثم عاد إلى واخاكا حيث تولى منصب حاكم الولاية من عام 1847 إلى عام 1851 ثم عاد لتولى منصب الحاكم مرة أخرى سنة 1856. وبعد إختياره رئيساً للمحكمة العليا للعدالة عاد مرة أخرى إلى العاصمة المكسيكية فى عام 1857.

أدان البابا بيو التاسع إجراءات حكومة الليبراليين وأوحى للأسقف أنطونيو بيلاخيو دى لاباستيدا بأن يحرض المحافظين على القيام بحركة تمرد ، لكنه لقى الهزيمة. وقد أدى هذا إلى مناداة الليبراليين بضرورة قيام ديكتاتورية إنتقالية للأحرار. وفى هذا الإطار، سعى الجنرال فيليكس سولواغا فى ديسمبر من عام 1857 للانقلاب على الحكم وطالب بإنتخاب كونجرس دستورى جديد. وقد أيده فى ذلك كومنفورت الذى كانت تراوده الشكوك بشأن الحكم بالدستور ومن ثم فإنه قام باعتقال خواريس الذى كان يرفض الانقلاب على الحكم. وبعد هذا بعدة أسابيع سحب الجنرال سولواغا اعترافه بكومنفورت وأعلن نفسه رئيسا للبلاد. فقام كومنفورت بإطلاق سراح بنيتو خواريس الذى حل محله دستوريا فى الحكم. ولكن وجود رئيسان للجمهورية فى نفس الوقت جعل من المحال درء نشوب حرب أهلية...

أحدث هذا انقساما فى البلاد. فقد أعلنت حكومات كوليما وغيريرو وغواناخواتو وخاليسكو وميتشواكان وواخاكا وفيراكروز وزاكاتيكاس تمسكهم بالنهج الدستورى. لكن غالبية الجيش إضافة إلى السلك الكنسى أعلنوا موالاتهم للجنرال سولواغا الذى كانت تدين له العاصمة بالولاء واعترف به ممثلو الحكومات الأجنبية كرئيس للبلاد. أما خواريس، فإنه كان على قناعة بأن تحقيق السلام الدائم فى ربوع البلاد يقتضى ضرورة فرض الشرعية، ولهذا فإنه سافر إلى غوادالاخارا (وادى الحجارة) لكن تهديدات المحافظين أجبرته على الإنتقال إلى فيراكروز التى كانت معقلا لليبراليين علاوة على أنه كان فى إمكانها تقديم الدعم إليه من عوائد الجمارك.

كان الجيش يتمتع بالتأييد من جانب المحافظين، فى حين أن قوات الليبراليين كانت تتألف من عناصر شعبية كانت تنتمى إلى الحرس الوطنى الذى جرت تعبئته سنة 1846 للدفاع عن التراب المكسيكى. لكن الإرتجال والإفتقار إلى الضبط والربط بينهم كان له ثمنه فسيطر المحافظون على وسط البلاد، خاصة بعدما حل الجنرال ميغيل ميرامون محل الجنرال سولواغا فى منصب الرئاسة. وكانت استراتيجية الجنرال ميرامون تقوم على تركيز الهجوم على فيراكروز التى فرض عليها الحصار من جهتين. ثم كان فشله فى المحاولة الأولى باعثاً على التخطيط لهجوم متزامن على فيراكروز من البر والبحر، ولهذا فقد نجح فى الحصول على باخرة تقوم بالهجوم من البحر فى الوقت الذى يحاصر هو فيه الميناء من البر. وقد استغل خواريس سحب الولايات المتحدة اعترافها بالمحافظين بسبب رفضهم بيع الأراضى المكسيكية لهم، وطلب من الأسطول الأمريكى القبض على تلك الباخرة بتهمة القرصنة. ومع أن قائد الأسطول الأمريكى لم يكن لديه التصريح اللازم لذلك، فإنه قد لبى طلب خواريس وبهذا أفشل الحصار البحرى. وقد جرى فيما بعد ونظرت محكمة أمريكية فى هذا الأمر، واعتبرت أن تصرف قائد الأسطول كان تصرفا غير قانونى.

كان خواريس فى حاجة إلى تأييد أتباع حزب الأتقياء أو الصفوة وطبقة رجال الأعمال التى كان لها اهتمامها بأموال الكنيسة ولهذا فإنه وحكومته بدءوا اعتباراً من الثانى عشر من يوليو سنة 1859 فى إصدار "قوانين الإصلاح" التى تقضى بما يلى: تأميم أموال الكنيسة - فصل الكنيسة عن الدولة - إلغاء الهيئات الدينية (الطوائف المذهبية - الجمعيات الدينية - جماعات الإخوة الدينية) - أن يكون الزواج مدنيا والعمل على إنشاء السجل المدنى - علمانية المدافن وحرية العقيدة الدينية.

وقد أدى نقص الموارد المالية إلى قيام كلتا الفئتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة بالتورط فى اتفاقيات أجنبية. وقد وافقت واشنطن على تأييد الليبراليين فى مقابل شراء أراض مكسيكية جديدة لكن هذا الأمر لم يخرج إلى حيز التنفيذ. كذلك قاموا بالتوقيع على "معاهدة ماكلين- أوكامبو" التى كانت تنص على منح الأمريكيين حق المرور بحرية فى منطقة لسان تيهوانتيبيك فى مقابل منح المكسيك قرضا بمبلغ 2 مليون بيزو إضافة إلى منحهم إمتيازات

تجارية وإمكانية التدخل العسكرى فى حالة الضرورة. ولحسن الحظ فإن مجلس الشيوخ الأمريكى لم يوافق على إقرار تلك المعاهدة.

أما المحافظون فإنهم قد لجأوا بدورهم إلى الأوروبيين ووقعوا مع الإسبان "معاهدة مون-المونتى" التى تعترف باتفاقية 1853 التى كان قد وقعها سانتا أنا ويقبل فيها ديونا هى موضع شك. وقاموا كذلك بالإتفاق على قرض باهظ التكاليف مع السويسرى جيكير وتنازلوا له عن أموال البعثة البريطانية وهو ما أفقدهم الثقة فى الخارج وزاد من المطالب الموجهة إلى الحكومة المكسيكية، علاوة على مطالبتها بسداد القروض المستحقة عليها.

أدى فشل حصار فيراكروز إلى شعور الليبراليين بالإنتصار. كذلك فتحت الانتصارات التى تحققت لهم فى سيلاو وفى كالبولالبان الباب أمامهم لدخول العاصمة، حيث دخلها خواريس فى 11 يناير سنة 1861، ولكن السلام ظل بعيد المنال. وبعد إقصاء المحافظين نتيجة لهزيمتهم، زادوا من مؤامراتهم فى أوروبا ولجأوا إلى الإغتيال فقاموا بإغتيال كل من أوكامبو ولياندرو وسانتوس ديجويّادو فقام خواريس بطرد المبعوث الرسولى للبابا وكبير الأساقفة وعدد من الأساقفة ومن الوزراء إلى إسبانيا وغواتيمالا والإكوادور لأنهم كانوا يؤيدون المحافظين.

وبعد أن فاز خواريس فى الانتخابات قام على الفور بإعادة تنظيم الإدارة والتعليم وأصدر مرسوما بتطبيق نظام القياس المترى والسنتيمترى بدلا من الياردة. وكانت قلة الموارد المالية قد أجبرته من ناحية أخرى على التوقف عن سداد ديون الحكومة سواء كانت تلك المتعلقة بفوائد الديون المستحقة لبريطانيا أو تلك التى كان الإسبان والفرنسيون يطالبون بسدادها. وقد استغل أنصار الملكية من المكسيكيين المقيمين فى أوروبا الفرصة لإغراء إمبراطور فرنسا نابليون الثالث بمشروع إقامة حكم ملكى فى المكسيك. وكانت الأحلام تراود ذلك الإمبراطور فى إقامة إمبراطورية "لاتينية" تكون بمثابة حائط صد أمام التوسع الأنجلوسكسونى ولهذا فإنه قد رأى فى توقف المكسيك عن سداد ديونها فرصة للتدخل فدعا بريطانيا العظمى وإسبانيا لمناقشة الأمر. وقد قامت الدول الثلاث فى 31 أكتوبر سنة 1861 بالتوقيع فى لندن على اتفاقية يتعهدون فيها بفرض حصار على الموانئ الواقعة فى خليج

المكسيك وذلك للضغط على المكسيك لإستئناف السداد ولكن دون التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد.

وصل الاسطول الإسبانى إلى فيراكروز فى ديسمبر ثم تبعه وصول الأسطول الفرنسى فى شهر يناير. وبعد أن تلقى خواريس الإنذار الذى أرسلوه إليه، بعث بالوزير مانويل دوبلادو للتفاوض معهم. ووافق خواريس على نزول القوات إلى البر لتفادى أوبئة الحمى الاستوائية وذلك على شرط أن تعود تلك القوات إلى سفنها إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق. كما أكد لهم دوبلادو أن التوقف عن السداد هو توقف مؤقت وأن السداد سيجرى إستئنافه بمجرد إمكان ذلك. فوافق البريطانيون والإسبان على هذا فى حين أن الفرنسيين لم يقتصروا على الرفض، بل وبدلا من عودة جنودهم إلى سفنهم قاموا بإنزال المزيد من القوات وكان من بينهم بعض المكسيكيين من أنصار الملكية مثل خوان ن. ألمونتى إبن موريلوس.

بدأ الفرنسيون تقدمهم فى 17 من أبريل. فأعلن خواريس فى تلك الظروف الحرجة عن إصدار عفو عن العسكريين المحافظين وسمح بتشكيل فصائل من الفدائيين للقيام بحرب العصابات. واستعد الجنرال إغناسيو ساراغوسا للدفاع عن بويبلا بأفضل جيش من بين جيوش العالم. لأن الكونت الفرنسى لورينسيه عندما لم يستمع إلى تحذيرات ألمونتى وذلك ثقة منه فى تفوق فصائله، نجحت فى الرابع والخامس من شهر مايو جماعة ضئيلة أو " شرذمة من مقاتلى العصابات " فى هزيمة لورينسيه شر هزيمة. وكانت تلك الإهانة التى لحقت بالفرنسيين وحدها هى السبب فى أن يقوم نابليون بإرسال 30000 جندى آخرين تحت قيادة جديدة.

وبعد سنة تجمعت الفصائل المكسيكية فى بويبلا ولكن بدون الجنرال ساراغوسا الذى لقى حتفه بعد إصابته بالتيفود. وبعد حصار طويل استسلمت المدينة وسقطت فى أيدى الفرنسيين، فوجد خواريس نفسه مجبرا على التخلى عن العاصمة وبعد هذا قام الفرنسيون باحتلالها فى شهر يونيو من نفس العام. ثم دعا الفرنسيون إلى عقد جمعية عمومية من كبار الشخصيات وأعيانهم وأعلن فيهم قيام الإمبراطورية فى التاسع عشر من شهر يوليو ثم دعا ماكسيمليانو دى هابسبورغو لتولى عرش المكسيك، وكانت الحاشية التى عينها مؤلفة من عدد من كبار الجنرالات وعدد من كبار الشخصيات المدنية وعدد من كبار رجال الكنيسة ومن بينهم

كبير الأساقفة لاباستيدا. لكن تلك الحاشية كانت "مجرد ديكور" لأن القرارات كان المارشال أكيل بازين يتخذها وحده، وطبقا لتعليمات نابليون الثالث. وفى غضون الفترة التى استغرقها وصول الإمبراطور، كان الجيش الفرنسى يتقدم محتلا مدينة وراء مدينة أخرى وذلك بفضل تفوقه العسكرى. إلا أن الحمية والجلد الذى كانت يتمتع به فدائيو حرب العصابات الذين شكلهم الليبراليين فضلاً عن الحنق الشعبى الكامن فى صدور الناس وغذّاه صلف وعنجهية الفصائل الفرنسية، قد أدى إلى صعوبة الحفاظ على تلك المدن المحتلة، وبدأ أبناء المكسيك استعادتها مدينة وراء مدينة.

كان الأرشيدوق ماكسيمليانو قد استقبل فى قلعة ميرامار زيارة قام بها المكسيكيون من أنصار الملكية. وماكسيمليانو هو شقيق إمبراطور النمسا الذى كان متزوجا من ابنة ملك بلجيكا كارلوتا أماليا. لكن الأرشيدوق اشترط على أنصار الملكية أن يكون الشعب المكسيكى نفسه هو من يدعوه لتولى العرش. وقد لبى أنصار الملكية فى المكسيك هذا الشرط بعد أن قاموا بجمع آلاف التوقيعات. وبعد تقديمها إليه فى 10 أبريل 1864، قبل ماكسيمليانو تولى العرش.

وقام الإمبراطور بالتوقيع على معاهدتين مع نابليون الثالث الذى أكد أن على المكسيك أن تدفع ثمن المغامرة... وقرر بقاء 28000 جندى من قواته فى أراضى المكسيك التى منحها قرضا قيمته 175 مليون فرنك فرنسى ولم يستلم منها ماكسيمليانو إلا ثمانيية ملايين فقط، أما الباقى فتم تخصيصه لسداد الدين المكسيكى المتضخم ونفقات الحرب والفوائد. أما المعاهدة السرية التى وقعاها فإنهما قد اتفقا فيها على زيادة عدد القوات الفرنسية إلى 38000 جندى، ثم يتم بعد ذلك تخفيض عددهم اعتبارا من عام 1865.

بعد أن قام الإمبراطور الجديد وزوجته بزيارة البابا، استقلا السفينة فى طريقهم إلى فيراكروز حيث وصلا فى أواخر شهر مايو سنة 1864. وقد جرى استقبالهم بفتور لأن فيراكروز كانت تدين بالولاء لليبراليين. وعلى العكس من هذا الاستقبال الفاتر، كان استقبالهما حافلا و"بأحلى ما فى المجتمع" فى أوريسابا وفى بويبلا وفى مدينة المكسيك نفسها التى بالغت فى الإحتفاء بالزوجين.

تعاون كثير من المعتدلين أو أنصار الوسط مع الحكومة الإمبراطورية، إذ كان يحدو نفوسهم الأمل فى أنها ستنجح فى حل المشاكل التى ظلت تثقل كاهل البلاد منذ عام 1821. وأعلن ماكسيمليانو - الذى كان تحررى النزعة عن قناعة- أنه سيمارس رعايته الملكية وأنه لن يلغى لا حرية العقيدة ولا تأميم ممتلكات الكنيسة حيث كان القاصد الرسولى للبابا قد طالبه بإلغائهما. وقد حرمه هذا القرار من تأييد الكثير من المحافظين كما اتخذه الليبراليين وسيلة للسخرية. وبدت المكسيك كما ولو كانت تحيا حياة جديدة بعد أن أضحت مقاما للبلاط الإمبراطورى. فارتدت المدينة زخرفها وازينت، وامتدت واستقامت الشوارع التى ازدانت بنباتات وأشجار الزينة ومصابيح تضاء بالغاز. وظهر إلى الوجود طريق الإمبراطورية الكبير الذى أطلق عليه الليبراليين لاحقا اسم"طريق الإصلاح"، وتم ترميم قلعة تشابولتيبيك. وبدأ الإمبراطور يعمل على وضع التشريعات، فبدأ بصياغة لائحة النظام الأساسى للإمبراطورية التى أصدرها فى 10 أبريل سنة 1865 ثم أصدر بعدها القانون المدنى وقانونا للزراعة والعمل أعاد به الأراضى إلى الشعوب الهندية المكسيكية كما منحها للمعدمين منهم كى يزرعوها. كما قرر هذا القانون أيضاً أن العدد الأقصى لساعات العمل هو 10 ساعات وألغى بمقتضاه الديون التى تزيد على 10 بيزو وحرّم العقاب البدنى وخفض عدد الحوانيت المقامة فى المصانع تحت اسم تينداس دى رايا tiendas de raya (تبيع من خلال قروض تقدم للعمال ولا يستلمون منها إلا المبلغ المقدم وتجبرهم المصانع على الشراء بأسعار باهظة بنظام يجعل العامل مدينا طوال حياته). كذلك لقى التعليم والبحث العلمى اهتماما كبيرا منه فى حين كانت زوجته الإمبراطورة تشجع تعليم الإناث. وقد قرر ماكسيمليانو كذلك تقسيم البلاد إلى 50 دائرة كما اهتم بالتنمية الإقتصادية ووقع على عقد لمد خط سكة حديدية إلى فيراكروز وصرح بفتح " بنك لندن - المكسيك - أمريكا الجنوبية" لتسهيل التبادل التجارى.

أجبر الإحتلال الفرنسى خواريس على أن يرحل إلى الشمال، وكان على هذا الرئيس ألا يواجه الفرنسيين وحدهم بل وأن يواجه الخونة كذلك. وقد نجح الجمهوريون خلال عام 1864 فى السيطرة على كوليما وغيريرو وتاباسكو وتشيّاباس الواقعة فى شمال البلاد، ولكنهم بحلول عام 1865 لم يكن تحت أيديهم إلا قلة من المعاقل المنعزلة عن بعضها البعض. فى غضون ذلك ومع دقة الأوضاع وحرجها، قام الجنرال خيسوس غونساليس أورتيغا - من مقره فى الولايات المتحدة الأمريكية وبصفته المدعى العام رئيس محكمة العدل العليا - بالمطالبة بتسلم مقاليد

رئاسة الجمهورية متذرعا بانقضاء الفترة القانونية لولاية خواريس. لكن خواريس تذرع بدوره بتلك الحجة المقنعة ألا وهى أن البلاد ترزح تحت نير الإحتلال وقرر مد فترة ولايته فى الرئاسة. وقد أدى قراره هذا إلى فقدانه لتأييد الكثيرين من حزب الأنقياء أو الصفوة.

ومع نهاية عام 1865 كانت الظروف قد بدأت تتغير. فبعد انتهاء الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة، نجح الليبراليين فى التوقيع على اتفاقية مع الأمريكيين بقرض قيمته 3 مليون بيزو كما نجح خواريس فى اقناع الجار الأمريكي بالإحتجاج على التدخل الخارجى فى المكسيك. أما فدائيو حرب العصابات من الجمهوريين فإنهم قد تحولوا إلى جيش حقيقى، ثم بدأ هذا الجيش فى التقدم...

وبعد نفاد القرض الفرنسى، وجدت الإمبراطورية نفسها محاصرة بمشاكلها المالية الأزلية وبالشائعات التى راجت عن أن نابليون الثالث سيسحب قواته من المكسيك بسبب التهديد الذى شكلته لفرنسا ازدياد قوة الإتحاد الألمانى الكونفيدرالى.

كان من الصعوبة بمكان السيطرة على دولة عظيمة الاتساع، كما كانت الإرهاصات بمقدم الإنهيار تلوح فى الأفق. وكان ماكسيمليانو يحاول تكوين جيش وطنى فأرسل فى طلب الجنرالات المحافظين الذين كانوا فى بعثات دبلوماسية فى أوروبا. كما تمكن شقيقه فرانسيسكو خوسيه من أن يرسل إليه قوة من النمسا قوامها 4000، لكن اعتراض الولايات المتحدة حال دون نزولهم إلى البر... وعرضت الإمبراطورة أن تسافر من المكسيك إلى أوروبا لتطالب الأوربيين بالوفاء بما التزموا به فى المعاهدات، لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح فلا الإمبراطور نابليون الثالث ولا البابا استجابا لتوسلاتها، وهو ما أدى بها إلى الجنون. وكانت تلك الأخبار كافية لإقناع ماكسيميليانو بأن ليس أمامه إلا التنازل عن العرش، لكن معارضة وزراءه لهذا الرأى جعلته يتراجع عن التنازل... ولكنهم تركوه فيما بعد وحده ليواجه مصيره المحتوم.

أدى التقدم السريع للقوات الجمهورية إلى أن تتقلص الإمبراطورية فى بداية عام 1867 لتنحصر بين بويبلا وفيراكروز. وانسحب الإمبراطور إلى كيريتارو حيث انضم إليه

ميغيل ميرامون وتوماس ميخيـا. وبعد أن استولى بورفيريو دياس على بويبلا فى 2 من أبريل، اقترح ميرامون التخلى عن كيريتارو، غير أن مكسيمليانو رفض الهرب وقرر مواجهة الحصار وأدى وقوعه فريسة للخيانة إلى إلقاء القبض عليه. وشرع خواريس وليردو فى أجراءات تطبيق قانون 1862 عليه، ولهذا فقد جرت محاكمته أمام مجلس حرب. وقام بالدفاع عنه إثنان من المحامين المرموقين، ولكنهم لم يتمكنوا من تفادى توقيع أقصى درجات العقوبة عليه أى الإعدام. وقد وصلت رسائل تطالب بالعفو عن هابسبورغو ولكن خواريس رفض أن يتنازل عن موقفه. والواقع أن الإمبراطور عندما واجه لحظة الموت أبدى شموخا وإعتزازا عظيما بنفسه. وبعد أن قام بكتابة رسالتين إلى والدته وزوجته وقف شامخا أمام فصيلة جنود الإعدام التى حصدت روحه إضافة إلى روحى ميرامون وميخيـا حيث تم إعدامهم فى منطقة سيرّو دى لاس كامباناس فى التاسع عشر من يونيو سنة 1867. وقبل أن يتلقى مكسيمليانو رصاصات الإعدام، صاح قائلا "فلتكن دمائى طابعا تنطبع به كل نكبات وطنى الجديد".

وبعد سقوط الإمبراطورية فى 16 أبريل سنة 1867، عاد خواريس إلى مدينة المكسيك. وقد استقبله بكل الحفاوة التى هو جدير بها لأن الشعب أدرك قيمة نضاله من أجل الحفاظ على سيادة بلاده. ومع أن انتصار الجمهورية قد أدى إلى القضاء تماما على أنصار الملكية، إلا أنه لم يضع خط النهاية للفوضى ومحاولات الانقلاب التى بدأت تحاك الآن خيوطها بدافع من المطامع السياسية لليبراليين أنفسهم.

سارع خواريس بالدعوة إلى إجراء الانتخابات فى شهر أغسطس 1867. وبعد اختفاء حزب المحافظين انحصرت المواجهة على منصب الرئاسة بين ثلاثة مرشحين هم : خواريس – وسيباستيان ليردو دى تيخادا – وبطل الحرب القائد العسكرى بورفيريو دياس. ومع إنتصار خواريس فى انتخابات الرئاسة، تضاعف عدد أعدائه سواء بسبب إعادة انتخابه أو لكونه كان السبب وراء الإصلاحات الدستورية. والحقيقة أن تجربة خواريس السياسية كانت تجربة فريدة حقا، لأنه استمر فى الحكم لمدة عشر سنوات والبلاد فى حالة حرب وكانت له صلاحيات فائقة ولكنه من الناحية العملية كان بدون كونجرس. ولقد ساعده هذا فى دعم سلطة التنفيذية ولكنه الآن فى موقف مختلف، إذ أن دستور سنة 1857 كان يضع السلطة التشريعية فوق السلطة التنفيذية وهو موقف مخيف لأن الدستور لم يكن ينص إلا على مجلس واحد. ومن

ثم فإن خواريس سعى لإيجاد توازن أفضل بين هاتين السلطتين. وبعد أن قام بإختيار جميع أعضاء حكومته من بين المدنيين الدستوريين، ثارت حفيظة مجموعة من العسكريين تجاهه حيث كانوا يعتقدون أنهم أصحاب النصر العسكرى وكانوا يحبذون فوز بورفيريو دياز بمنصب الرئاسة. ونتيجة لكثرة أعدائه، أصبح خواريس ووزراء حكومته هدفا للقدح ولرسوم الكاريكاتير السياسية التى تتهكم عليهم، وعلى الرغم من كل هذا فقد ظلت الحرية التامة للصحافة قائمة طوال فترة تعافى الجمهورية.

ولم ينجح الانتصار فى أن يحد من الصورة المعقدة التى كانت تسود البلاد، إذ أن الكفاح الطويل قد جدد المواجهات القديمة بين الأقاليم المختلفة وبين مركز البلاد حيث أن السلطة فى العاصمة كانت قد قامت بتقاسم السلطة بعد أن وجدت أن العسكريين كانوا يتمتعون بامتيازات مالية واسعة. وقام الكونجرس بتأييد خواريس فى إنهاء تلك الإمتيازات وفرض النظام فأصدر قرارا بإلغائها. ومن جهة أخرى كانت العقوبات التى أنزلها خواريس بأعضاء حزب المحافظين قد أثارت السخط، فحاول خواريس التلطيف من حدته وعمل مصالحة وطنية فأصدر فى عام 1870 مرسوما بالعفو العام مما سمح بعودة كبير الأساقفة لاباستيدا إلى المكسيك حيث لقى كل ما يستحقه من تبجيل وإحترام تام.

كانت الجمهورية تئن من وطأة الحرب وكان الأمر يتطلب دفع عجلة الاقتصاد. وكانت التجارة ضحية للفوضى على الرغم من انشاء منطقة للتجارة الحرة فى شمال البلاد مما أسهم فى انعاش المبادلات التجارية وخلق قطب يسهم فى نمو البلاد. وكان القطن الذى تنتجه دولة الولايات المتحدة المجاورة للمكسيك يجرى تصديره خلال فترة من فترات حرب الاستقلال الدائرة عبر ماتاموروس، كما كانت المكسيك تبيع لها الطحين والأغذية والكثير من مختلف السلع المكسيكية. وقد أسهمت هذه الحركة التجارية فى نمو مونتيريى وبييدراس نيجراس ولاريدو وماتاموروس.

عانت البلاد كذلك من وطأة نقص الموارد المالية، ولم ينجح بيع أملاك الكنيسة فى توفير الثمرة المرجوة على الرغم من أن العائد من بيعها كان قد أسهم فى إصلاح حال المالية العامة، وذلك لأن أموال حصيلة البيع جرى استخدامها فى استهلاك سندات الدين الداخلى

المطروحة فى الدولة. وكانت أولويات ذلك البرجماتى خواريس هى القيام بإعادة ترتيب الأنظمة العامة الجارى العمل بها فى الدولة وإجراء إصلاحات على الخزانة العامة باعتبار ذلك ضروريا للحصول على الأرصدة الضرورية لدفع عجلة التنمية. ومن ثم فقد قام وزيراه خوسيه ماريا إغلسياس وماتياس روميرو بعمل دراسة شاملة عن الخزانة العامة وعن الديون المستحقة على الدولة. وبعد استعراض وتحليل الديون البالغة 450 مليون بيزو وضبط أرقامها التى وصلت بتلك الديون إلى رقم 84 مليون بيزو - بعد استبعاد ديون الإمبراطورية-، قاما بوضع جدولة جديدة لسداد تلك الديون. كذلك عملا على إجراء وفر أو خفض فى بعض بنود الميزانية ومن بينها خفض عدد أفراد الجيش إلى 20000 فرد. واستطاع روميرو فى عام 1870 أن ينجح فى تقليص حجم المخاطر التى كانت تعانى منها الخزانة العامة منذ حصول المكسيك على الاستقلال، كما أصبحت الصورة واضحة بالنسبة للإيرادات والمصروفات، وتم ولأول مرة عمل ميزانية للدولة.

إلتزم خواريس باعتباره من الليبراليين الحقيقيين بالعمل على التنمية والتقدم، وكانت تخالجه الرغبة فى أن تستفيد كل فروع الإنتاج من تشجيع الدولة، وكان يعنى بها: الاستثمارات والمواصلات (وخاصة خطوط التلغراف والطرق والسكك الحديدية) والتعمير. وهو لم يقتصر على الموافقة على عدد من المشروعات الاستثمارية الأمريكية بل واعترف بالاتفاقية التى كانت المكسيك قد عقدتها فى عهد الإمبراطورية لإنشاء ومد خطوط السكك الحديدية من فيراكروز إلى المكسيك العاصمة. كما كان يخالج وزيره روميرو الطموح فى إنشاء بنك وطنى يتولى إصدار العملة وذلك لتوحيد نوعية العملة المتداولة، ولكن نقص الموارد حال دون تحقيق أمله، فقنع بوجود "بنك لندن - المكسيك - جنوب أمريكا" وأدائه.

كذلك كانت تجربة خواريس الشخصية سببا فى أن يولى الأولوية إلى التعليم، فأبدى منذ البداية استعداده لدفع عجلته باعتباره الوسيلة للوصول إلى التقدم المأمول وإلى اندماج الأصول العرقية المختلفة لكى تحتل مكانتها اللائقة بها فى إطار الأمة. ولهذا فقد أصدر فى عام 1867 قانونا بمجانية التعليم وأسس المدرسة القومية الإعدادية.

كان تطبيع علاقات المكسيك مع غيرها من الدول من أكبر الاهتمامات الأساسية لخواريس نظرا لأن الحرب كانت قد أدت إلى قطع العلاقات مع كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا ولكن الجو العالمى لم يكن مواتيا لتحقيق رغبته. كما كان بعد المسافة وعدم وجود سبل المواصلات سببا فى إعاقة اتصاله مع الدول الإيبيروأمريكية (دول أمريكا اللاتينية) علاوة على وجود مشاكل حدودية مع غواتيمالا ولهذه الأسباب عمل خواريس على تفادى أى شئ يمكن أن يعكر جو العلاقات مع الولايات المتحدة. وعلى الرغم من الخلافات القديمة معها وأنه لم يلق منها تأييدا خلال تدخل الدول الثلاث فى بلاده، فإن العلاقات بين الدولتين كانت تمر بأحسن فتراتها. وكانت مرحلة التصنيع فى أمريكا بعد الحرب قد حولت النزعة التى كانت تحركها من نزعة للتوسع فى الأراضى إلى نزعة للتوسع المالى والاقتصادى. مع هذا برزت مشكلتان بين هاتين الدولتين: الأولى تتعلق بعبور الحدود من الرُحّل وقطاع الطرق والثانية تتعلق بالمطالبات الأمريكية. ولقد ظلت المشكلة الأولى معلقة لأن الواقع أنه لا خواريس ولا ليردو كانا يسمحان بأن يعبر أبناء الولايات المتحدة الحدود لمطاردة "المذنبين". كما سعى خواريس لحل مشكلة المطالبات فوافق على أن يتم تشكيل لجنة ثنائية للنظر فى إيجاد حل لها، وقد توصلت اللجنة إلى رأى بشأن المطالبات الأمريكية لكنها تركت المطالب المكسيكية معلقة. ثم أتيحت الفرصة فى عام 1869 لتوسيع نطاق العلاقات المكسيكية مع دولتين جديدتين هما: المملكة الإيطالية والإتحاد الكونفيدرالى الألمانى الشمالى.

وعلى الرغم من أن شعبية خواريس كانت قد انخفضت، فعندما حان الوقت لإجراء الانتخابات تم انتخابه مرة أخرى. ولم يستسلم بورفيريو دياس هذه المرة لهزيمته فى الانتخابات فأطلق "خطة دى لا نوريا" فى الثامن من نوفمبر "لمواجهة إعادة الانتخاب لفترات غير محددة" وعلى الرغم من صلاته الوثيقة بالعديد من الأقاليم، إلا أن تقدم التحرك الذى نادى به سار سيراً بطيئاً. وقد أتاحت مهارة خواريس السياسية له أن يستثمر الانقسام فى صفوف الليبراليين لكى يستمر فى الحكم خلال فترة ولايته الرئاسية، وذلك على الرغم من بعض المسائل الشخصية التى ألمّت به ومنها تأثر حالته الصحية، ثم توفى بعد ذلك وهو فى مقعد الرئاسة فى 18 يوليو سنة 1872.

تولى ليردو باعتباره رئيسا للمحكمة العليا رئاسة السلطة التنفيذية استنادا إلى ما ينص عليه الدستور فاصدر عفوا عاما وضع به نقطة النهاية لـ "خطة دى لا نوريا" الساعية للانقلاب على الحكم. ثم عجل بالدعوة إلى اجراء الانتخابات التى فاز فيها بأغلبية ساحقة. ولم تعهد دون سيباستيان بالسير على مبادئ خواريس، كما اتاحت له حنكته السياسية إعادة ترتيب أمور مجلس الشيوخ وتحويل قوانين الإصلاح إلى بنود يتضمنها الدستور. أما بالنسبة للأمور الدينية فإنه كان أقل مرونة بصددها فقام بطرد راهبات "أخوات الرحمة" على الرغم من دورهن الجوهرى فى الرعاية فى المستشفيات. وقد حوله اتجاهه "المعادى للكنيسة" إلى هدف للهجوم عليه كما أدى إلى عدد من حركات التمرد الشعبى، ثم ازدادت تلك الحركات بالمواجهات التى قامت بين أبناء قبيلة الياكى وهى حركة يطلقون عليها اسم ثيران كاجيمى وحركة مانويل لوسادا الرهيب فى تيبيك. وقد لقى مانويل لوسادا مصرعة بعد أن جرى اعدامه رميا بالرصاص فى أواخر عام 1873. واجه ليردو كذلك النقابة الكبرى لعمال المكسيك بسبب الإضرابات التى قام بها عمال النسيج وعمال المناجم، كما واجـه المصالح الخاصة المتمثلة فى منح امتياز لمد خط حديدى يربط بين المكسيك والولايات المتحدة، وذلك على الرغم من افتتاح الخط الحديدى بين فيراكروز والمكسيك فى 1873.

تعود مرة أخرى مسألة الخلافة فى كرسى الرئاسة لتصبح سببا للخلافات، إذ كان ليردو يتوق إلى أن يعاد انتخابه مرة أخرى ولكن بورفيريو دياس لم ينتظر هذه المرة وأخذ زمام المبادرة وانقلب على ليردو وأعلن "خطة توكستيبيك" التى اتهم فيها ليردو "بانتهاك نصوص الدستور". وكان بورفيريو دياس قد استوعب الدرس من فشل حركة "خطة دى لا نوريا" ولهذا فإنه قد أخذ حرصه هذه المرة، وانتهز فرصة تدخل ليردو فى انتخابات واخاكا وشكل ضده تحالفا قويا تألف من عدة ولايات مكسيكية. وبعد أن تأكد دياس من التأييد لموقفه، سافر إلى براونزفيل فى أواخر عام 1875 وهناك دعا حكام الولايات والقادة العسكريين للانضمام إليه لمواجهة ليردو. ونظرا لأن الحركة كانت مركزة فى الشمال الشرقى وفى واخاكا، فإن ليردو عدل خطته وأعلن عن منح درجات عسكرية شرفية وألقاب لتكريم العسكريين الذين يساندون حركته وهو ما أدى إلى تضاعف مراكز حركات التمرد.

وقد استطاع الجنرال ماريانو إسكوبيدو وقف التمرد. ثم أجريت الانتخابات فى شهر سبتمبر سنة 1876 وأعلن فوز ليردو بمنصب الرئاسة. ثم انضم رئيس محكمة العدل العليا خوسيه ماريا إغلسياس إلى حركة "توكستيبيك" وسحب الاعتراف بليردو كرئيس للجمهورية بحجة أن نتيجة الانتخابات "قد تعرضت للتزييف" وأنقلب على الرئيس الجديد من مقره فى سلامانكا. والواقع أن إغلسياس لم يلق إلا تأييدا ضعيفا، ولكن تمرده صب فى صالح قضية بورفيريو دياس الذى قام على رأس الجيش فى 11 نوفمبر وهزم القوات الفيدرالية فى منطقة تيكواك. وأدى هروب ليردو إلى غموض الموقف لأن بعض حكام الولايات أعلنوا اعترافهم بإغلسياس كرئيس للبلاد، ومن ثم كان ينبغى أن تجرى مفاوضات بين الخصمين إغلسياس و بورفيريو دياس لحسم الأمور. وقد عرض دياس خلالها أن يكون إغلسياس رئيسا مؤقتا وأن يجرى تقسيم المناصب الحكومية بالمناصفة بين أنصار كل منهما على أن يتولى دياس منصب وزير الحربية. وعندما رفض إغلسياس العرض، سار دياس على رأس جيش يقوده إلى العاصمة المكسيكية وقام بإحتلالها بالقوة فى شهر نوفمبر 1876. وبعد إحتلاله للعاصمة بإسبوع، تولى بورفيريو دياس منصب الرئاسة.

التحول البطئ من النهج القومى
إلى النهج الجمهورى

وصل عدد السكان الذين يقطنون نويبا إسبانيا فى سنة 1821 إلى ستة ملايين ونصف المليون نسمة، وكانوا يشكلون شعبا متعدد الأعراق كمحصلة للتجربة التاريخية والدينية. ولم يكن يتحدث الإسبانية فيها إلا قلة قليلة من الناس. ولقد رأت غالبية سكان المكسيك كيف انقلبت حياتهم رأسا على عقب بصورة أو بأخرى بعد أحد عشر عاما من النضال، كما شهدوا كيف تغير النظام الذى كان سائداً طوال 300 عام، ليبدأ عصر طويل يتسم بالتغيير. وكانت الليبرالية الإسبانية قد أدخلت على حياة السكان مفاهيم جديدة، فقاموا فى كثير من الأحيان بالتكيف ما تعنيه طبقا لتقاليدهم. صاحب خيبة الأمل التى شعر بها أهل البلاد بسبب إعتمادهم على إسبانيا شعور لدى طبقة الصفوة ولدى أبناء الطبقة الوسطى بالتفاؤل فى الوعود التى بشر بها النظام الجديد، وهو شعور أسهمت الأحداث الأليمة المتتالية فى القضاء عليه...

كان هذا العدد القليل من السكان يتركز فى وسط وجنوب البلاد التى وصلت مساحتها فى عهد إمبراطورية إيتوربيدى إلى أقصى اتساع لها وهو أربعة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة. وكان من الصعب نمو عدد السكان بسبب تأثرهم بالأوبئة التى كانت تعصف على الدوام بهم، لدرجة أن هذا العدد لم يتجاوز الملايين السبعة بالكاد إلا فى النصف الثانى من القرن. لكن العدد وصل إلى تسعة ملايين فى نهاية عقد سنوات 1870. ومع هذا فإن عدد سكان العاصمة كان حوالى ربع المليون نسمة ثم يليها فى العدد وبعد هذا بكثير كل من بويبلا وغواناخواتو وكيريتارو وساكاتيكاس وغوادالاخارا (وادى الحجارة). وكانت صعوبات أو عدم إمكانية الاستيطان فى المناطق الشمالية إضافة إلى التحولات السياسية والتهديدات الخارجية سببا فى أن تتقلص مساحة أراضى المكسيك نتيجة لما يلى: انفصلت غواتيمالا عن المكسيك سنة 1823 وغزت الولايات المتحدة نيومكسيكو وكاليفورنيا العليا ثم ضمتهما إلى أراضيها فى عامى 1846 و1847، ثم جرى بيع أراضى ميسيًا فى عام 1853 لدرجة أن مساحة أراضى البلاد انخفضت فى نهاية عهد الجمهورية المكسيكية إلى 1972546 كيلومتر مربع. أما الولايات التسعة عشر والأراضى الأربعة الملحقة والعاصمة الفيدرالية فقد تحولت فى عام 1869 إلى 28 ولاية وأرض واحدة ملحقة.

ترك الاستقلال وإقامة الجمهورية مع استمرار تسلسل وقائع الأمور أثرهما منذ البداية على مجتمع الأعمال. كما أدت الصراعات والإقتتال إلى ظهور حراك، خاصة بين الكريوبوس والمخلطين. وقد ظلت "المساواة" فى جميع الأحوال مجرد وعد، بعد الفشل فى التخفيف من حدة البؤس المزرى المنتشر بين عامة الشعب وكان مدعاة للخجل أمام الثراء الفاحش الذى تتمتع به قلة كانت تحتكر الثروة. والحقيقة أن التغيير السياسى كان قد ترك أثره على الجميع. كما أدى غياب الأمن فى الطرق إلى خسائر عانى منها التجار وأدى إلى استشراء الكساد فى المزارع الكبرى. كما عانت كثير من المناجم من البوار. ونتيجة لنقص الموارد المالية اللازمة لتشغيلها جرى بيعها أو دخلت رءوس الأموال الأجنبية شريكة فيها. وبعد الاستقلال فقد العاملون فى الإدارات الأمان خوفا من ضياع وظائفهم، لدرجة أنهم كانوا يقفون إلى جانب أى تغييرات فى الحكم على أمل أن يتحقق لهم استلام رواتبهم المتأخرة أو العودة من جديد إلى الوظائف التى كان البعض قد فقدها. أما المهنيون فإنهم باستثناء بعض الأطباء والمحامين اللامعين فقد لحقوا بدورهم بطبقة الإداريين ليزيدونها تخمة على تخمة. وقد أدى رحيل أبناء

شبه جزيرة إيبريا من الإسبان الأغنياء التى قضت القوانين بطردهم إلى إتاحة الفرصة أمام الكريوبوس لكى يحتكروا أعلى المناصب فى البلاد.

فقد العاملون فى المناجم أيضاً المميزات التى كانوا يتمتعون بها وجرى نقلهم من أعمالهم ليحل محلهم فنيون من أوروبا. كذلك أثر دخول أقمشة ذات نوعية أخرى إلى الأسواق إلى التأثير على سوق العمالة بالنسبة للمصانع القديمة التى تنتج المنسوجات المكسيكية. أما بقية أهل البلاد فقد حاول كل منهم أن يدبر حاله حسب الحدود التى فرضتها عليه ظروف الزمن، فى حين كان كل خسيس و كل من فقد الحياء يحاول أن يستغل الفوضى لكى يفوز بجزء من الغنيمة.

عانى السلك الكنسى أيضاً من فقدان بعض أعضائه نتيجة لإشتراكهم فى النضال من أجل الإستقلال كذلك فإن علمَنَة الحياة ببطء قلصت الميل إلى الدين. من ناحية أخرى، عانت الكنيسة طيلة أربعة عقود من مدى التناقص فى مواردها وفى رءوس أموالها بعد أن أصبحت أموالها هدفا مفضلاً تستهدفه كل الحكومات مهما كانت اتجاهاتها. وعلى الرغم من هذا فإن البقية الباقية من تلك الأموال لم يكن يتمتع بها إلا 10 أساقفة و177 من القساوسة الذين يعملون على تطبيق القوانين الكنسية فى كان بقية رجال السلك الكنسى العاديين والعلمانيين يعيشون عيشة الكفاف، كما كان شعب أو أبناء الأبروشية يشعرون بالسخط والامتعاض وهم يقدمون تبرعاتهم للكنيسة.

وكان الجيش هو المجموعة التى استفادت حقا من الحروب ومن شيوع الفوضى. ونتيجة لنقص الأموال، فقد انخفض هذا العدد إلى 30000 جندى بعدما كان عددهم فى عام 1821 يبلغ 75000 جندى، وهو عدد غير كاف لحراسة أرض المكسيك المترامية الأرجاء. ونظرا لأن كثير من الضباط كانوا يتعيشون من السياسة، فإن ترقياتهم كانت تتوقف على مشاركتهم فى الانقلابات على الحكام وهو ما أدى إلى عدم اكتسابهم الحنكة والخبرة العسكرية المرجوة وأن يصل عدد الجنرالات إلى رقم مبالغ فيه بالنسبة إلى جيش يتميز بقلة عدد فصائله. وكان الجيش يعانى مثل موظفى الجهاز الإدارى للدولة من تأخر الرواتب الشهرية.

ولهذا فإن الضباط كانوا يسعون للحصول على أعمال مقاولات من الجيش، فى الوقت الذى كانت الكتيبة التى تئن من الحاجة تسعى لإستغلال أول فرصة تلوح لها للهروب من الجندية.

بدأت الاحتفالات وطقوس المهرجانات المدنية التى شرعها النظام الجديد تلعب دورها فى محاولة لمنافسة الاعياد الدينية. وكان أبرز ما لوحظ من تغيرات يقع فى الموانئ التى كان يحل بها الأجانب. فكان وصول أية باخرة لا يعنى وحسب وصول البضائع بل وكان يعنى أيضاً وصول الجديد من الأزياء والاختراعات كما كان يعنى تطور وزيادة التسهيلات للسفر إلى الولايات المتحدة وأوروبا. كذلك كان استخدام وسائل النقل الكبيرة التى تسع مزيدا من المسافرين سببا فى خفض مدة الرحلات الداخلية. وعلى سبيل المثال: كانت الرحلة من المكسيك إلى فيراكروز يمكن قطعها فى 7 أيام، والرحلة من جوادالاخارا (وادى الحجارة) تستغرق 13 يوما، وإلى سانتا فى تستغرق شهرا.

لقد كان الناس يؤمنون بأن التقدم الذى أوحى به التنوير سيظل قائماً وكان هذا الإيمان نابعا من الثقة فى أن التعليم سيحل مساوئ المجتمع. وجرى تكليف هيئة لانكستر التى أسسها بعض كبار القوم عام 1822 بمهمة محو الأمية. كما وفد معلمون أجانب إلى البلاد حيث تقدموا للعمل كنظار أو لإنشاء مدارس خاصة. ولكن الجامعات كانت على عكس المأمول منها قد بدأت تفقد مكانتها، وبدأت تحل محلها أكاديميات تتولى نشر المعارف العلمية، كما نشأت معاهد جديدة للعلوم والفنون بتشجيع من الجمهوريين لكى تتولى تعليم ذلك الجيل الذى سيكون له دوره فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن.

ظهرت كذلك التقاويم والرزنامات التى تنشر الأنباء العلمية وتؤرخ للأحداث التاريخية. كما كانت السياسات التى بدأ تطبيقها اعتبارا من عام 1808 ودستور الدولة الجديد عاملاً محفزاً ومشجعاً لظهور الصحف والمنشورات الإعلامية والإعلانية بل والنشرات المطبوعة الموجزة التى كانت تهتم بها مجموعات كبيرة من الناس الشغوفة بمعرفة ما يجرى من أخبار بل وكان هناك من البشر من يستمعون لمن يقرأها لهم بصوت عال فى صالونات الحلاقة والمقاهى والميادين العامة. وكان هذا الإهتمام السياسى سبباً فى زيادة الإهتمام بالجوانب التاريخية خاصة المتعلقة بكل من: سيرباندو تيريسا دى ميير - كارلوس ماريّا دى بوستامانتى

- لورينزو دى سابالا - خوسيه ماريّا لويس مورا - لوكاس ألامان. وفتح الأدب كذلك مصراعيه فترك لنا شهادته على ما حدث من تغيرات إجتماعية فى تلك الأعمال الأدبية التى تركها لنا خوسيه خواكين فيرنانديس دى ليساردى ومانويل إدواردو دى غوروستيسا وفرناندو كالديرون.

لكن التغير الحقيقى لم يحدث إلا بعد نصف قرن بعدما ترسخت دعائم العلمانية فى المجتمع. كذلك فإن الكنيسة التى لم تكن قد ضاعت منها وحسب السيطرة التى كانت تمارسها على طوال عصر الولاة، فقد ضاع منها أيضاً دورها فى الإمساك بسجلات المواليد والزواج والوفيات إضافة إلى أموالها خلال فترة الإصلاح. وقد جعلها كل هذا عاجزة عن القيام بخدماتها الاجتماعية التى كانت تقدمها فى المستشفيات وفى المدارس وفى الملاجئ. كذلك أدى بيع أصول الكنيسة إلى هدم كثير من الأديرة أو جرى تخصيصها لأغراض أخرى تختلف عن الغرض الأصلى الذى أقيمت من أجله. أما بعض الكنائس التى جرى التخلى عنها لبعض الكنائس البروتستانتية، فإنها لم تسلم كذلك مما كان يثير حفيظة سلكها الكنسى. وعلى الرغم من هذا فلم تختف المدارس الدينية الخاصة، لكن التعليم العام جرت علمنته بشكل كبير.

أجبرت المواجهات السياسية رجال الفكر المنتمين فى غالبيتهم إلى الصحافة على التعهد برفع راية التحدى أمام الرقابة والوقوف ضد الديكتاتورية. وأتاحت الممارسة المهنية للصحافة إجراء تحليل دقيق للمشاكل القومية، كما قام عدد من رجال الفكر الليبراليين بنشر مؤلفات لهم عن القضايا الإجتماعية. فنجد أن الأديب الروائى المعروف مانويل باينو المتخصص فى الروايات التى تتناول العادات والتقاليد، قد قام بأبحاث عميقة تناولت الديون العامة وحل أوقاف الكنيسة والإصلاح. كما قام ميغيل ليردو دى تيخادا أيضاً بعمل أبحاث عميقة عن التجارة والاقتصاد فى حين قام ميلتشور أوكامبو بعمل أبحاث أخرى عن مشاكل الكنيسة والدولة. ولهذا لم يكن من المستغرب أن تحقق الصحافة خلال العقد ما بين عام 1860 و1870 درجة كبيرة من النضج وأن تحترم حكومات الليبراليين الصحافة على الرغم من تجاوزاتها، وهى نفس التجاوزات التى أدت إلى اعتبارها "السلطة الرابعة".

أدت قسوة قطع العلاقات التى سببتها الحروب إلى فتح الباب أمام رواد حركة الإصلاح فى الجمهورية لكى يمنحوا أولوية قصوى إلى لم شمل البلاد من خلال التعليم والثقافة باعتبارهما الوسيلة التى تحمى الأمة من نزاعات جديدة تفتت شمل المكسيكيين. ولهذا فبمجرد استعادة العاصمة المكسيكية، سارع وزير العدل إلى تقديم خطة لتعميم التعليم شملتها تلك القوانين الصادرة فى عامى 1867 و 1869 وهى تعطى أهمية قصوى للتعليم الأولى، كما تم بموجبها انشاء معهد نموذجى للتعليم المتوسط، تحت إسم: المدرسة القومية الإعدادية. ويطبق فيها منهجا وضعه أوغوستو كومتى لتطبيق مناهج تتسم بالإيجابية فى مواجهة التعليم التقليدى حيث استبدل المناهج الدينية والميتافيزيقية بمناهج أخرى لتدريس العلوم والمنطق. وكان يرمى بهذا إلى تبصير العقول وتفتيحها لمن سيكونوا قادة المستقبل. كذلك لم يقتصر خواريس وليردو على إجراء التعديلات التشريعية وإنما ضاعفا مدارس التعليم الأولى إلى ثلاثة أضعاف ما كان قائماً. غير أن جهود خواريس لتطبيق ونشر اللغة الإسبانية بين السكان الأصليين للبلاد لدمجهم فى المجتمع واجهت بعض المعارضة، كما أثار التطبيق الرسمى للمناهج التى تتسم بالإيجابية والموضوعية فى المرحلة المتوسطة والعليا من التعليم جدلا فكريا استمر طوال سنوات الإصلاح وسنوات حكم بورفيريو دياس، وذلك لأن كثيرين من الليبراليين كانوا يعتبرون تلك المناهج مناهضة لمبادئهم.

وعلى صعيد آخر، أدى التدخل الفرنسى إلى إيقاظ النزعة القومية التى بدأت تكتسى بها كل مظاهر الثقافة والفن والأدب والموسيقى. ويعزى الفضل فى هذا إلى مانويل ألتاميرانو الذى أخذ على عاتقه دفع عجلة تلك النزعة من خلال منتدياته الأدبية ومجلته ريناسيمنينتو (أى النهضة) التى فتحت صفحاتها أمام الكتاب الليبراليين والمحافظين على حد سواء ومنهم: مانويل باينو وإغناسيو راميريس وغيـيرمو بريـيـتو وخوسيه توماس دى كويـيار وبيسنتى ريبا بالاسيو وفرانسيسكو بيمينتيل وخوسيه ماريا رووا بارسينا وأنسيلمو دى لا بورتيـيًا. كذلك كانت الأجواء مواتية لتأسيس هيئات أكاديمية مثل الجمعية المكسيكية للجغرافيا والإحصاء والليسيه المكسيكى والأكاديمية المكسيكية للغة.

أدى إحياء النزعة القومية لدى المكسيكيين إلى ازدهار الرواية التى تتناول العادات والتقاليد والرواية التاريخية وبدأت طباعتها بحيث يتم تسليم النسخ ليد من يطلبها. واحتلت

الدراسات التاريخية مكانة متميزة. كما أن الحاجة لتنمية مشاعر التلاحم القومى أدت إلى ظهور أول كتب مدرسية عن "تاريخ الوطن". كذلك نجد أن المحافظين من أمثال فرانسيسكو دى لآغويز ومانويل أوروسكو إى بيرّا وخواكين غارسيا إيكاسبالسيتا فضلاً عن الليبراليين من أمثال غيـيرمو بريـيتو وبيسنتى ريبا بالاسيوس قد عكفوا على بذل الجهود لتفسير ماضى البلاد "القومى". ولم يخل الأمر من تغليب تعاطفهم الأيديولوجى، فكانوا يميلون إما لدراسة الأحداث المعاصرة أو لسبر أغوار وإعادة تفسير الماضى البعيد سواء المتعلق بالحقبة الاستعمارية أو بفترة ما قبل وجود الإستعمار الإسبانى على أراضى المكسيك.

ومن جهة أخرى، كان للعائد من طرح أوراق اليانصيب (اللوترية) الفضل فى تجديد أكاديمية سان كارلوس خلال فترة الحرب مع الولايات المتحدة، كما أن الفنون التشكيلية بدأت تستعيد أهميتها رويداً رويداً. كذلك قام خواريس بإعادة افتتاح المدرسة القومية للفنون الجميلة حيث احتضنت جنباتها النحات مانويل بيلار وكل من الرسام بيلغرين كلابيه وإيوخينيا لانديسيو ليستكملوا مهمتهم فى نقل التقنيات والأساليب التى كانت تسير عليها أوروبا. ومع هذا فإنهم لم يقدروا على كبح الحمية والمد القومى الذى سرى فى نفوس المكسيكيين، فانتهى بهم المطاف بأن قبلوا بتطبيق الروح القومية فى أعمالهم. ثم بدأت المناظر الطبيعية والمواضيع التاريخية تحل محل المشاهد والمواضيع الدينية. وفى غضون ذلك تحولت الطباعة بالليتوغراف والرسوم الكاريكاتورية إلى أداة هجوم جرى تسخيرها فى النقد السياسى. كذلك يجدر التنويه إلى الأعمال الرائعة التى صور فيها خوسيه ماريّا بيلاسكو الطبيعة فى المكسيك وجعلت منه بلا أدنى شك أبرز الشخصيات فى هذا المجال. وكان من الطبيعى كذلك أن تغزو اتجاهات الفن الجديدة إنتاج الفنانين فى العاصمة، فى حين أن غيرهم من الفنانين الذين كانوا يعيشون فى الأقاليم ظلوا محافظين على تقديم نضارة وطلاوة الصورة الحديثة التى يرونها أمامهم فى لوحات تقدم لنا الطبيعة الصامتة ولوحات تحكى لنا عن العادات والتقاليد مثل لوحات خوسيه ماريًا إسترادا وإيرمينخيلدو بوستوس. وقد استفاد فن النحت كذلك من التكليفات بعمل تماثيل لهؤلاء العظماء الذين تزين تماثيلهم حتى الآن باسيو دى لا ريفورما (جادة أو طريق الإصلاح). أما فن العمارة الذى كان الوهن قد أصابه بصورة كبيرة خلال العقود الأولى من المسيرة القومية، فإنه لم يقدم لنا إلا مبنى المسرح القومى وبعض الأسواق والمنشآت العقابية، ولكنه استفاد من الخبرات التى أتى بها المعمارى خابيير كافالارى فى استخدام الحديد فى التشييد.

بدأت الموسيقى كذلك تصدح وتحلق عاليا. فبعد انتصار الجمهورية، شغلت فرقة موسيقى الفيلهارمونى (تأسست سنة 1866) المبنى المغلق الذى كان فى سابق عهده مقرا للجامعة، وكانت الفرقة تنظم فيه دراسات ومحاضرات وتقيم حفلات تعزف فيها أكثر من كونشيرتو. ومن الجدير بالذكر أن ننوه هنا إلى أن المارشات الشعبية للموسيقى المعروف أنيسيتو أورتيغا تعبر تعبيرا صادقا عن الروح القومية لموسيقاه.

وأفسحت الروح القومية أيضاً المجال لإلهام البعض لعمل توصيف لطبيعة البلاد الجديدة، فكانت جهودهم دافعا لعمل دراسة عن الأرض ومواردها الطبيعية. وكانت الإنطلاقة العلمية الكبرى والأخذ بالمناهج الإيجابية فى التعليم قد أعطيا دفعة قوية للأخذ بأسباب العلم والمعرفة ولتطبيق تلك المناهج. ومن ثم فقد تضاعف عدد الأكاديميات المتخصصة التى شجعت ودفعت عجلة التخصص المهنى بعد أن كانت الجامعة قد أغلقت أبوابها نهائيا فى عام 1865.

كذلك استفاد البحث العلمى من جهود وأعمال الأطباء وعلماء الطبيعة والجغرافيا والكيمياء والجيولوجيا بعد أن لقوا التشجيع من "اللجنة العلمية الأدبية الفنية للمكسيك" (1864-1869) كما زادت اللجنة وشجعت الاتصالات ورحلات المهام العلمية إلى "العالم القديم". وعلى الرغم من أن قطوف الثمر لهذه الجهود لم تظهر إلا فيما بعد، فإن نشر الترجمات والتقارير فى *نشرة الجمعية المكسيكية للجغرافيا والإحصاء* قد أرسى الدعائم لقاعدة تطور البحث العلمى.

• • •

ترك مشوار اليوم الطويل الذى بدأ مع مشرق القرن التاسع عشر وحتى الثلث الأخير من هذا القرن أثره العميق على المجتمع المكسيكى. واختفى مجتمع الهيئات الطائفية بعد أن تحول المجتمع إلى العلمانية نتيجة لتطبيق الإصلاحات. وبعد أن ترك هذا التحول آثاره على عادات الأمة، أصبحت الحياة الاجتماعية حياة مختلفة، وجرى تيار الفوضى أو "البلْيَة" فى شرايين الحياة حسب الكلمة الشعبية المأثورة، وتأثرت الأحوال نتيجة التجنيد الإجبارى الذى كان يطيح بالمواطنين من أقصى البلاد إلى أقصاها ومن مكان إلى آخر. وفى غضون ذلك

يستوعب المواطنون لغة قشتالة تماما (أى اللغة الإسبانية) وفتحت المدارس العمومية أبوابها لفرض تعلمها باعتبارها "اللغة القومية".

ولقد ترك فشل التجارب السياسية والهزائم العسكرية الناجمة عن التهديدات الخارجية آثارهما كذلك على الحياة... كما كان ازدياد الارتياب والحذر إزاء الحكم شائعا آنذاك بين فئات المجتمع، الذى لم يكن على الرغم من أى شئ قد فقد آماله فى التقدم. وبعد أن انتصرت الجمهورية وانتصرت الليبرالية، سعى المكسيكيون لنشر السلام على ربوع بلادهم لكى يتحقق لهم التطور المادى المأمول، فقد كانت نفوسهم مهيأة لقبول مخطط يكفل لهم التقدم وفرض النظام على المجتمع كما كانوا مستعدين لدفع الثمن. لقد كان هذا هو الأمل الذى يتطلعون إليه، وقد عرف بورفيريو دياز كيف يستفيد منه ويستغله.

عهد بورفيريو دياس (العهد البورفيرى)

إليسا سبيكمان غيــرّا

استمر بورفيريو دياس فى سدة الحكم لمدة ثلاثين من أربعة وثلاثين عاما امتدت من سنة 1877 إلى سنة 1911. ولهذا فقد أصبحت تلك الحقبة معروفة باسمالعهد البورفيرى نسبة إلى بورفيريو دياز. وتتحدد بداية ونهاية عهده بحدثين سياسيين هامين هما: الحدث الأول يرسم خط البداية له اليوم الذى تولى فيه بورفيريو دياس فترة رئاسته الأولى للجمهورية فى عام 1877 بعد هزيمة أنصار ليردو دى تيخادا وأنصار خوسيه ماريا إغليسياس. ثم كان خط النهاية لهذا العهد فى عام 1911 بعد قيام الثورة وتخلى بورفيريو دياس عن السلطة ثم مغادرته البلاد إلى المنفى.

ويشار إلى بورفيريو دياز على أنه البطل الذى ناضل ضد المحافظين وضد الإمبرياليين المستعمرين. وقد ولد فى واخاكا عام 1830 أى أنه كان أكثر شبابا من خواريس ومن سيباستيان ليردو دى تيخادا. لكنه اختار لنفسه -وعلى العكس من خواريس وليردو- السلك العسكرى ووصل فيه إلى رتبه جنرال، كما اشترك ثلاث مرات فى الحملات الانتخابية لمنصب رئيس الجمهورية. غير أنه لقى الهزيمة فى المرات الثلاث على يد خواريس وليردو، كما

رفض الاعتراف مرتين بنتائج الانتخابات واستعان بالجيش فى محاولة للانقلاب على السلطة. وكانت محاولته الأولى سنة 1871 مقدمة للخطة التى أطلق عليها "خطة نوريا"، والمحاولة الثانية كانت سنة 1876 وقدم فيها الخطة التى أطلق عليها "خطة توكستيبيك". وقد رفع فى كليهما راية مناهضة النظام الشمولى ونظام المركزية فى الحكم، لأنه كان يرفض السلطة الزائدة عن الحد التى كان رئيس الجمهورية يتمتع بها على حساب السلطتين التشريعية والقضائية وعلى حساب سلطات حكام الولايات أيضاً. بالإضافة إلى هذا فإنه كان يعارض مبدأ إعادة الانتخاب لفترة تالية كما ناضل من أجل تقليص الصلاحيات المنوطة بالسلطة التنفيذية إلى الحدود التى ينص عليها الدستور، وسعى فى المقابل إلى دعم صلاحيات الحكم فى الولايات، بل وسعى إلى دعمها أيضاً فى القرى التى كان يرى مساندة حقها فى أن تختار سلطاتها البلدية الخاصة بها وأن تكون لها صلاحياتها فى اتخاذ القرارات المتعلقة بشئونها الداخلية.

حظى بورفيريو دياس بتأييد القادة العسكريين والزعماء المحليين باعتباره ممثلاً ومدافعا عن المصالح وعن الجماعات الإقليمية. كذلك حظى بتأييد العسكريين الذين كان خواريس قد نقلهم من مواقعهم إلى مواقع أخرى. وكان يتمتع كذلك بتأييد القرى وفلاحى الزراعات المجمعة الذين كانوا يدافعون عن استقلالهم السياسى الذاتى فى مقابل فك وقفهم أى ربطهم على أراضى هذه الزراعات أو تقسيم تلك الأراضى بينهم، طالما تم ذلك حسب الضرورة وحسب الأعراف والعادات السائدة. كما منحته التجمعات الحضرية تعاطفها باعتباره الرجل الوحيد القادر على الحفاظ على وحدة البلاد وسيادتها وإنهاء حالة الحرب التى أثقلت كاهل البلاد لمدة خمسين سنة.

دخل منتصرا إلى مدينة المكسيك فى شهر نوفمبر من عام 1876 وبعد فوزه فى الانتخابات تولى رئاسة الجمهورية فى عام 1877. وخلال فترة ولايته الأولى أعرب عن احترامه لشعار عدم إعادة الانتخاب: إذ كان فى عام 1878 وراء إصلاح دستورى يقضى بعدم جواز إعادة الإنتخاب فى فترة الولاية التالية مباشرة، وفى عام 1880 قام بتسليم مقاليد الرئاسة إلى عرّابه مانويل غونساليس، ليكتسب بهذا رصيداً سياسياً ازدادت قوته خلال فترة حكم غونساليس التى تمكن خلالها من إقامة ارتباطات وتحالفات جديدة. ثم ينجح للمرة الثانية فى الانتخابات حيث تولى الرئاسة فى الفترة من عام 1884-1888، وذلك بعد انتهاء فترة

ولاية غونساليس، لكنه خاض تلك الانتخابات كمرشح وحيد للرئاسة ففاز فيها بالتزكية. إلا أنه لم يكن ينوى التخلى هذه المرة عن كرسى الرئاسة فقام فى عام 1884 بإجراء تعديل دستورى جديد يسمح بإعادة الانتخاب لمنصب الرئيس لفترة رئاسية تالية مباشرة على فترة توليه الرئاسة وهو ما أتاح له فترة رئاسية جديدة مدتها أربع سنوات من عام 1888-1892. وفى عام 1890 وبعد تعديل دستورى جديد تم إلغاء جميع القيود التى تمنع إعادة الانتخاب ثم جرى مد فترة الرئاسة فى عام 1903 لتكون مدتها ست سنوات بدلا من أربع سنوات، ليعلن فوزه بمنصب الرئاسة بدون معارضة كبيرة، وعليه فإنه قد تولى الرئاسة خلال الفترات التالية: 1892-1896، 1896-1900، 1900-1904، 1904-1910.

وقد جرت تحولات كثيرة خلال تلك السنوات للدرجة التى تجعل من المستحيل الإستفاضة هنا فى الحديث عن العهد البورفيرى، ولكن ينبغى الحديث على أقل تقدير عن عهدين أو بالأحرى مرحلتين من حقب العهد البورفيرى، علاوة على "مرحلة الأزمة".

السياسة البورفيرية

المرحلة الأولى

وتبدأ المرحلة البورفيرية الأولى فى عام 1877 وتنتهى مع بداية فترة الرئاسة الثالثة لبورفيريو دياس (1888) أو بالأحرى عند إلغاء القيود التشريعية على إعادة الانتخاب (عام 1890). والأمر هنا يتعلق بمرحلة البناء وبسط رداء السلام على ربوع البلاد والوحدة والمصالحة والتفاوض، وقد اتسمت هذه المرحلة كذلك بالإجراءات القمعية.

ولقد كان على بورفيريو دياس حين تسلم مقاليد الرئاسة أن يواجه عدة تحديات. وبداية تلك التحديات كانت تكمن فى ضرورة عمل الكثير لترسيخ دعائم الدولة والأمة. والواقع أن الدستور المعلن فى عام 1857 إضافة إلى مشروع "الليبراليين أو الأحرار" المتعلق بالدولة والمجتمع لم ينجحا فى تحقيق الآمال المعلقة عليهما بشكل كامل. وحسب ما ورد فى الجملة السابقة فإن "الكارتا ماجنا" (ويمكن ترجمتها: الميثاق الغليظ ولكنها هنا تعنى الدستور) كانت تنص على مجتمع يتمتع فيه الأفراد جميعا بالمساواة أمام القانون كما كانت تلزم الحكام بضمان حقوقهم. وكانت تقضى أيضاً بالفصل بين السلطات لتلافى تمركز السلطة، فنصت على وجود

سلطة تنفيذية (تضطلع بمسئولية تنفيذ القوانين) وسلطة تشريعية (تضطلع بمهمة إعداد القوانين) وسلطة قضائية (تضطلع بمهمة مراقبة تنفيذ تلك القوانين) كما تكلف الشعب بانتخاب أعضاء تلك السلطات (رئيس الجمهورية – حكام الولايات – مستشارى محكمة العدل العليا – مستشارى محاكم القضاء العالى – إضافة إلى بعض القضاة). وتقضى فى نهاية الأمر بالفصل بين الدولة والكنيسة. وقد وضعت "الماجنا كارتا" المكسيكية بين يدى الحكومة أنشطة أخرى مثل التعليم والأعمال الخيرية لضمان الحرية الدينية.

كان الدستور قد تعرض عند تنفيذه لمعوقات نجمت عن الحرب بين المدافعين عن الدستور وبين الذين حاولوا النيل منه، بل وظلت تلك المعوقات قائمة حتى بعد انتصار الجمهوريين فى عام 1867 بسبب وجود مشاريع متباينة تتعلق بالأمة. ولم يكن هذا هو العائق الوحيد، بل كانت هنالك عوائق أخرى منها أن الدستور عند الحديث عن توازن القوى مثلا كان فى صالح السلطة التنفيذية، ولهذا كان من العسير أن يفرض رئيس الجمهورية سيطرته أو أن يتمكن من إخضاع السلطات الإقليمية لسلطته أمام المعارضة التى كانت تبديها بعض الهيئات. ومن ثم فقد عمد خواريس وليردو إلى أن يركزا فى أيديهما سلطات تفوق تلك السلطات التى كانت تنص عليها القوانين. علاوة على هذا فإن البعض كان يرى أن "الكارتا ماجنا" لا تقترب مع الواقع الذى تعيشه البلاد فى تلك الحقبة، وكان هذا الأمر أيضاً مثار جدل كبير خلال عهد بورفيريو دياس. غير أن العديد من المفكرين كانوا يرون أنه على الرغم من نص الدستور على أن المجتمع المكسيكى مجتمع متكامل إلا أن ذلك المجتمع كان فى واقعه مجتمعا غير متجانس وأن أفراده كانوا مازالوا يشعرون بأن كل منهم يشكل جزءا من طائفة أو جماعة بعينها وأنه يعمل أو يتصرف من خلالها. ولهذا كان المفكرون يرون ضرورة تأجيل تطبيق مبدأ تكامل المجتمع.

وخلاصة القول أن الوقت لم يكن مبكرا وحسب بالنسبة لترسيخ أسس وقواعد الدستور، وإنما كان ما يزال مبكرا كذلك على النظام السياسى لكى يثبت كفاءته. علاوة على هذا، فعلى الرغم من أن خواريس وليردو وبورفيريو دياس كانوا يتمتعون بشعبية كبيرة فى عدد من الأقاليم، إلا أن الضرورة كانت تقتضى عليهم الحفاظ على شرعية وجودهم فى الحكم وعلى اجتماع الرأى عليهم، بل وأن يمتد هذا إلى كافة أفراد الأمة وبالذات إذا كان الأمر يتعلق

بتلاحم القوى السياسية والإقليمية للقضاء على أخطار الانقلابات أو أخطار تفسخ وحدة أراضى الدولة.

على صعيد آخر، لم يكن التلاحم كاملا بين أفراد الشعب، كما لم يكن هذا الشعب يتمتع بهوية قومية تميزه، إذ ظلت هنالك أعداد من القرى المنعزلة التى لم تكن تشعر بانتمائها كجزء من كل متوحد" قادر على تجاوز واقع القرى الانعزالى، كما كان لحكام تلك القرى المنعزلة موروثهم الخاص بهم الذى يجعلهم بعيدين عن مشاكل بقية طوائف المجتمع. وتصل الأمور إلى أقصاها حين نجد أيضاً أن حدود البلاد كان من السهل اختراقها وأن التهديدات الأجنبية كانت تتربص بتلك الحدود.

كانت التحديات أمام بورفيريو تتركز إذن فى توحيد عناصر الأمة وتحقيق تلاحم القوى السياسية والإقليمية فى البلاد، علاوة على إضفاء سمات الشرعية والقانون على الحكم، مع احترام أو التظاهر باحترام الدستور والحصول على الاعتراف الدولى بالمكسيك.

ولكى يحقق بورفيريو الشق الأول من هذا، فإنه قد تبنى سياسة مماثلة للسياسة التى كان كل من خواريس وليردو يراعيان تطبيقها. إلا أنه لم يقم فى بعض الأحيان بالوفاء بالتزاماته تجاه الجماعات الإقليمية وتجاه مزارع الفلاحين الجماعية. وفى الواقع فإنه قد سار فى طريقين: الطريق الأول هو المصالحة والتفاوض. فحرص على الحفاظ على ولاء الجماعات المؤيدة له وجذب إليه المعارضين القدامى، وقام بإلحاق الجنود الذين كانوا يدافعون عن "خطة توكستيبيك" فى صفوف الجيش كما ضم الجنود الذين قام خواريس أو ليردو باستبعادهم بل وقام كذلك بضم أنصار ليردو وأنصار إيغليسياس. تزوج كذلك من كارمن وهى ابنة مانويل روميرو روبيو الذى كان أحد زعماء اتباع ليردو السابقين ليدشن بهذا التزاما إزاء تلك المجموعة السياسية. وضم إلى حكومته أيضاً عددا من الليبراليين الذين كانوا ينتمون إلى السلك العسكرى وجرى استبعادهم خلال فترة "إعادة بناء الجمهورية". وضم كذلك عددا من الليبراليين ممن كان لهم خطهم السياسى أو الفكرى الخاص بهم، ودون النظر إلى انتماءاتهم. فعلى سبيل المثال ومع حلول عام 1884 كانت الحكومة تضم وزيرا واحدا فقط يمكن تصنيفه على أنه من أتباع بورفيريو فى حين كان هناك وزيران من أتباع خواريس ووزيران من أتباع ليردو، ووزير

واحد من أتباع الإمبريالية. وهكذا فإنه علاوة على توحيد الصف بين الليبراليين فإنه قد استقطب بعض الإمبرياليين وخاصة المناصرين للكنيسة الكاثوليكية.

كانت الهيئة الكنسية فى تلك الآونه فى منتهى الضعف فقد حرمت من أملاكها كما جرى التضييق على مواردها فأصبحت تعتمد ماليا على الدولة. كما أنها فقدت جانبا من القائمين عليها لأن الدولة لم تكن تسمح في الكنيسة إلا للعلمانيين. وكانت الكنيسة قد فقدت كذلك بعض مجالات المشاركة الاجتماعية بعد تحريم إقامة الشعائر والمراسم الدينية خارج نطاق الكنائس كما حُرّم على رجال الدين العمل فى المراكز التعليمية والتربوية أو فى الجمعيات الخيرية أو فى المراكز الصحية والمستشفيات. وقد تغير كل هذا تحت حكم بورفيريو دياس الذى لم يقم بإبطال القوانين المناهضة للكنيسة لكنه لم يقم أيضاً بتطبيقها كلها... وقد وافق أيضاً على أن تستعيد الكنيسة بعضا من ممتلكاتها وأن يعاد العمل بالنظام الكنسى الاعتيادى القائم على نظام الرهبان والراهبات فبدءوا فى عمل تجمعات تقوم ببعض الأنشطة وتكرس نفسها من أجل التعليم ورعاية المرضى والمحتاجين. كما كانت زوجات كبار المسئولين تشاركن فى المناسبات الدينية. وبدأت الاحتفالات تقام فى الساحات العمومية كما كانت بعض تلك الاحتفالات فى بعض المناسبات صاخبة، مثل الاحتفال بعيد تتويج عذراء غوادالوبى فى سنة 1892. وفى مقابل هذا قام كبار القساوسة بالعمل لصالح هذا الزعيم وشجبوا المحاولات الانقلابية الشعبية التى قامت باسم الدين كما ساهموا فى تنصير أبناء قبائل الياكى والمايا. والواقع أن عودة الكنيسة للعمل فى المجالات الخيرية قد سد فراغا كان يصعب على الحكومة القيام به لو اعتمدت على الموارد الحكومية الخاصة بها.

كانت العلاقة بين دياس وفلاحى المزارع الجماعية ومع القادة العسكريين والزعماء الإقليميين علاقة تتسم بالتعقيد والتذبذب. ففى بعض الأقاليم، حرص رئيس الجمهورية دياس على مراعاة اتفاقة مع شعوب تلك الأقاليم فاحترم استقلالها الذاتى وأوقف حل الأوقاف. لكنه لم يستطع فى بعض المناطق الأخرى أن يمنع تفتت ملكيات الشركات الكبرى ولا قيام البعض باحتلال قطع من الأراضى غير المزروعة بزعم إدخالها فى العملية الإنتاجية وخدمة الأسواق أو أن يمنع استيلاء تلك الشركات على بعض الأراضى التى كانت فى حوزة المزارعين، بل كان دياس أيضاً يمنح ثلث قيمة الأراضى إلى شركات تحديد علامات الأراضى وتقسيمها. والمشكلة

أن تلك الشركات كانت تهجم على تلك الأراضى التى كان يقيم بالفعل فيها من يعمل بها ويزرعها ولكن لم يكن بحوزة أصحابها سند الملكية الخاص بتلك الأراضي. ولقد كان من بين تلك الأراضى التى تهاجمها الشركات مناطق تعود لسكان قرى انتهى بهم الأمر بأن فقدوها تماما نتيجة سلوك تلك الشركات.

كانت الصلات متذبذبة كذلك بين بورفيريو وبين حكام بعض الولايات وزعمائها. فقد كان يسعى بوجه عام إلى وضع من يدينون له بالولاء على رأس الولايات، على أن يكونوا ممن يتمتعون بموافقة الجماعات السكانية التى يتشكل منها أهالى الولايات نفسها. وعندما كان أحد الموالين لبورفيريو يستوفى شرطى الولاء وينعم بمباركته –وكانوا فى الغالب من الزعماء العسكريين- وموافقة الجماعات، فإنه كان يفصله من السلك العسكرى ولكنه كان يساعده على تولى مهامه فى حكم الولاية أو على التعيش من مواردها. أما إذا لم يكن يستوفى هذين الشرطين فإنه كان يستبعده من العمل فى ميدان السياسة ولكنه كان ييسر لهم السبل التى تضمن لهم الثراء. وهكذا تمكن بورفيريو دياس إما من كسب الزعماء المحليين إلى صفه، أو أن يكسر شوكتهم. فنجح فى أن تكون حكومات الولايات فى أيدى رجال يدينون بالولاء له. كذلك كان يرخى لهم حبال الحرية فى التعامل فلم يكن يتدخل فى عملهم طالما نجحوا فى الحفاظ على السلام والاستقرار فى منطقتهم.

تصالح بورفيريو دياز أيضاً مع الخارج محققا بهذا ثالث أهدافه أى الاعتراف الدولى، ونجح فى إقامة علاقات دبلوماسية مع كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وبلجيكا وهى دول كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بالمكسيك بعد قرار خواريس بوقف سداد الديون المكسيكية، كما لطف الأجواء مع الولايات المتحدة. ولقد كان يكتنف العلاقات مع هذه الجارة مشاكل مختلفة منها الدين المكسيكى الخارجى وعبور قبائل من الهنود الحمر ولصوص الأغنام إلى الأراضى المكسيكية وبالتالى عبور القوات التى تطاردها إلى الأراضى المكسيكية. يضاف إلى هذه المشاكل وجود منطقة حرة معفاة من الضرائب كانت المكسيك قد فتحتها على الحدود من أجل جذب مستوطنين مكسيكيين جدد لإعمار تلك الأراضى فزادت عبرها عمليات التهريب، وأخيرا مشكلة هجرة العمالة المكسيكية إلى أراضى الولايات المتحدة. وعلى الرغم من هذا، فإن الولايات المتحدة قامت فى عام 1878 بإعلان اعترافها بحكومة دياس ويرجع الفضل فى هذا

إلى عدة أمور من بينها سداد الديون والتعويضات والتيسيرات المقدمة للمستثمرين الأمريكيين. ورغم هـــذا الاعتراف، فإن الرئيس المكسيكى دافع بقوة وتصميم عن السيادة الوطنية لبلاده.

وعلى أى الأحوال، فعندما كان التفاوض أو المصالحة تستعصى على بورفيريو دياس، فإنه كان يختار الطريق الثانى وهو استخدام القوة واللجوء إلى القمع... ولهذا، استخدم الجيش والشرطة الريفية لتحقيق أغراضه. وعلى سبيل المثال فإن حاكم فيراكروز أمر فى عام 1879 بإعدام تسع متمردين من أنصار ليردو رميا بالرصاص، وربما كان فى هذا مبالغة فى تنفيذه لأوامر رئيس الجمهورية الذى كان قد طلب منه معاقبة رءوس التمرد الذين كانوا من بين ضباط البحرية المكسيكية. وهنالك من يقولون بأن حاكم فيراكروز كان قد تلقى برقية من دياس وفيها تعليمات موجزة تقول: "اطرق الحديد وهو ساخن. اقتلهم! ". كما آل مصير حركات تمرد المزارعين التى اندلعت فى سونورا وفى يوكاتان إلى الغرق فى بحر من الدماء وهو ما سنتناوله بالحديث في الصفحات التالية. كذلك فإن قطاع الطرق من أمثال خيسوس أرّياغا (الشهير بلقب تشوتشو إلروتو) وهيراكليو بيرنال (الشهير باسم صاعقة سينالووا) قد تم القبض عليهما وإعدامهما بعد أن تطبيق "قانون الهاربين من العدالة" عليهما.

وننتقل الآن إلى مشكلة شرعية نظام الحكم أى مدى اقترابه أو ابتعاده عن أحكام الدستور. فلقد كان بورفيريو دياس يتدخل فى تعيين حكام الولايات كما كان يتلاعب فى انتخابات النواب وأعضاء مجلس الشيوخ واختيار مستشارى القضاء الفيدراليين، كما كان انتخابهم يجرى بإسلوب الانتخاب غير المباشر وكان هذا يعنى أن من لهم حق التصويت هم الذكور المولودين فى المكسيك من أبوين مكسيكيين أو من أبوين حصلا على حق التجنس وسنهما أكبر من 18 سنة إذا كانا متزوجين أو أكثر من 21 سنة إذا كانا غير متزوجين (ولم يكن للمرأة حق التصويت) على أن يكونا متمتعين "بوسيلة عيش شريفة". وكان التصويت يجرى فقط لاختيار من سيتولون انتخاب النواب وأعضاء الشيوخ...إلخ. ثم يقوم المختارون بانتخاب ممثليهم. والواقع أن عملية التصويت الفيدرالية كانت فى العادة عبارة عن تمثيلية هزلية وتتم على النحو التالى: كانت صناديق الانتخابات خالية الوفاض وكانت بطاقات التصويت لا يقوم بمن له حق التصويت بملئها... وعلى الرغم من هذا فإن نظام الحكم لم يكن ليتوانى

أبدا عن إجراء العملية الانتخابية... فقد كانت القوائم تطبع باسماء المرشحين ويجرى تجهيز مقار الانتخابية كما كانت تحصى وتطبع أعداد أصوات الناخبين. فلقد كان الأمر عبارة عن مجرد طقوس غايتها إظهار كفاءة النظام السياسى وإسباغ المشروعية على ذلك النظام. ولم يكن الأمر يختلف عن هذا بالنسبة لانتخابات الولايات التى كانت تجرى فى بعض الحالات بأسلوب الانتخاب غير المباشر. وهكذا، فإذا كانت العملية الانتخابية لا تجرى كما ينبغى، فقد كان هناك اهتمام بالتظاهر بإسباغ صبغة الشرعية أو على الأقل التظاهر باحترام الصيغة الشرعية. ولم تكن مثل تلك الإجراءات بعيدة عن غير هذا من المجالات، ونذكر فى هذا الصدد القوانين المناهضة للكنيسة التى لم تكن تطبق فى معظم الأحيان. ومع هذا وعلى الرغم من إلحاح كبار رجال الكنيسة برتبهم المختلفة كى يتم إلغاء تلك القوانين، فإنها لم تلغ بل وأبقاها نظام الحكم لتظل تشكل تهديدا مستمرا فوق رأس الكنيسة الكاثوليكية. فعلى سبيل المثال، كانوا قد سمحوا بإعادة السلك الكنسى المعتاد، ولكن السلطات كانت تقوم بين الحين والحين بإغلاق أحد الأديرة بحجة أنه "دير سرى"...

وخلاصة القول، أن النظام كان يتأرجح ما بين الشرعية والتظاهر بالشرعية. وعلى صعيد آخر، وعلاوة على التعديلات التشريعية واللجوء إلى القوة فى المرحلة الأولى، فقد نجح بورفيريو دياس بفضل اللجوء إلى التفاوض والمصالحة فى الحصول على الاعتراف الدولى بالمكسيك كما حقق تقدما مشهودا فى تلاحم الأمة نتيجة للروابط التى أقامها مع الأحزاب والأقاليم والقطاعات الإجتماعية المختلفة. ونظرا لأن الشائع فى الميدان السياسى كان قيام الأفراد بتمثيل التجمعات (مثل العائلة أو القرية أو المزرعة الكبرى أو أبناء حرفة أو مهنة بعينها) ، فإن استقطاب الرئيس لبعض الأفراد، كان يحقق له استقطابا للجماعات التى ينتمى إليها أولئك الأفراد. وهكذا فقد استغل بورفيريو صلات مؤيديه ونجح فى أن يضع نفسه على قمة هرم من الأوفياء الموالين له. ولهذا، فبدلا من أن تقوم الجماعات ذات النفوذ بالتحول إلى بؤر تبشر بالتفتت فإنه قد نجح فى توحيد وربط سلاسل الذين يدينون بالولاء له لكى يرفع قواعد بناءه السياسى.

المرحلة الثانية

كانت بداية المرحلة الثانية هى الفترة ما بين عامى 1888 و 1890 وكانت نهايتها حوالى عام 1908 تقريبا. وتتسم تلك المرحلة بمركزية طاغية وبحكم بورفيريو دياز وحكام الولايات الفردى الشمولى الذى كانت شكيمته تزداد يوماً بعد يوم.

ولقد اقترن هذا التغير فى التوجه بالتغير المتوالى للسياسيين بعد أن توفى الكثيرون ممن صاحبوا دياز خلال سنوات حكمه الأولى فى مسيرته نحو الصعود إلى الحكم. لكن هذا التغير فى الشخصيات كان ناجماً أيضاً عن تصارع القوى. وقد اضطلعت ثلاث شخصيات - خواكين باراندا وخوسيه إيبيس لامانتور وبرناردو رييس - بدور مهم فى الصراع وفى الانقسام الذى حل بالنخبة من أنصار بورفيريو دياس. وكانوا يمثلون جماعات وأقاليم مختلفة كما كانوا يمثلون صوراً متباينة للممارسة السياسية ولأفكار الأمة.

كان بارّاندا هو أول الثلاثة فى الانضمام إلى مجلس الوزراء حيث تولى منصب وزير العدل فى عام 1882، وكان قبل شغل هذا المنصب يتولى منصب حاكم ولاية كامبيتشى لأن صلاته كانت قوية مع هذا الإقليم. كما أقام أيضاً صلات قوية من خلال أخوته مع ولايات تاباسكو ويوكاتان. كذلك كان لصلاته مع تيودورو ديئيسا الفضل فى عقد اتصالات قوية مع فيراكروز، وكان تيودورو نائبا عن الليبراليين فى مرحلة "الإصلاح" التى كانت تدعو للحكم المدنى وللتمدين والتحضر. وكان هذا يتطلب جهازاً سياسياً محدوداً.

أما ثانيهما فى الانضمام إلى الوزارة -لكنه كان آخر الثلاثة فى الظهور فى المشهد السياسى- فقد كان ليمانتور الذى شغل منصب وزير الخزانة فى الفترة من عام 1893 إلى عام 1911. وكان عضواً بارزاً فى جماعة "العلماء" التى تألفت من شخصيات بارزة مثل خوستو سييرا وميغيل إى بابلو ماسيدو وروسيندو بينيدا وخواكين كاساسوس وفرانسيسكو بولنيس. والأمر هنا يتعلق بمهنيين مرموقين ينتمى بعضهم إلى عائلات تتمتع باليسر والثراء وآخرين مرتبطين بتلك العائلات وكانوا فى الأصل من زمرة مانويل روميرو روبيو. ويضاف إليهم مؤسسو "الاتحاد الليبرالى" وهى هيئة أو جمعية كانت تنادى بحكم المؤسسات الدستورية،

كما كانت تحارب من أجل دعم المؤسسات القائمة، ولأجل هذا اقترحت عدداً من الإصلاحات الدستورية مثل وجود نائب لرئيس الجمهورية. ومن جهة أخرى فإن "العلماء" كانوا يرون من وجهة نظر فلسفتهم الموضوعية فى العمل الإيجابى أن المنهج العلمى ينبغى تطبيقه على دراسة المجتمع وحل مشكلاته. أى بتعبير آخر، كانوا يرون أن الدراسة المنهجية للمجتمع ستسمح لهم بأن يتناولوا دراسة القوانين التى تحكم هذا المجتمع وأن يتولوا بأنفسهم ترسيخ دعائم تطبيقها، فيستطيعون بهذا القضاء على المعوقات التى تحول دون التقدم الاجتماعى. وكان يحدوهم العزم والتصميم لتطبيق "سياسة علمية" نابعة من هذا المنهج على أن تضطلع بتنفيذها مجموعة مؤهلة لوضع التصورات المتعلقة بها، ثم العمل على تطبيقها. ولهذا كانوا أهلاً لأن يطلق عليهم لقب "العلماء". وعلاوة على هذا فإنهم كانوا يعتقدون أن الوطن فى حاجة إلى حكومة قوية قادرة على تنمية الاقتصاد وعلى إصلاح المجتمع. ولهذا، فإنهم أبدوا اهتماما كبيرا بوضع برامج للصحة والتعليم. أما عن درجة اتصالاتهم، فقد كانوا يمثلون جماعات تنتمى إلى العاصمة وكانوا ممن يتمتعون بنفوذ وقوة اقتصادية كبيرة، غير أنهم كانوا منعزلين عن الوطن فى الداخل وعن القطاعات الوسطى والشعبية فيه.

أما برناردو رييس فقد كان ثالثهم فى الانضمام إلى مجلس الوزراء على الرغم من أنه كان طوال الفترة السابقة على انضمامه يتمتع بخبرة سياسية طويلة، وتتمثل فيما يلى: كانت رتبته كولونيلاً فى الجيش فى عام 1876 وفى عام 1889 وصل إلى منصب حاكم نويبو ليون. علاوة على أنه ومنذ بداية عصر بورفيريو دياز كان يتمتع بمكانة قوية فى شمال غرب البلاد. ثم تولى منصب وزير الحرب فى الفترة من عام 1900 إلى عام 1902 وكان ممثلاً عن أنصار بورفيريو الكلاسيكيين ونعنى بهم العسكريين الذين خرجوا من بين أبناء الطبقة الوسطى أو الأدنى ممن كانوا ينتمون إلى الأقاليم ويتمتعون باتصالات وثيقة مع جماعات القائمين على أمور الولايات المكسيكية. وعلاوة على أنه كان يتمتع بتأييد الجيش، فإنه كان يحظى بموالاة تلك الجماعات نظراً لأنه كان يقف إلى جانبهم خلال فترة توليه منصب الحاكم فى نويبو ليون. ومن تلك الجماعات ما يلى: رجال الأعمال وصغار البورجوازيين وأبناء الطبقات الوسطى وكذلك أبناء العمالة المنظمة لأنه كان يرعاهم من خلال سياسته الهادفة إلى حماية العمال.

لقد نجح دياس لعدة سنوات فى أن يقوم بدور الوساطة بين الجماعات المختلفة، ولكن لم يكن هنالك أى مفر من القطيعة مع بعضها، خاصة عندما بادر إلى اختيار خليفة له فى عام 1898 حينما قرر اختيار ليمانتور، وكان يعتقد أن رييس وباراندا سيقبلان هذا الأمر. وقد اعترض وزير العدل على هذا القرار وقدم استقالته من الوزارة. ومن ثم، فإن المجموعة التى كان ينتمى إليها فقدت وجودها فى ساحة الحكم، رغم أن هذا الوجود كان فى الواقع ضعيفاً بل وأقل فى حجمه من الحجم الذى كانت الجماعات الأخرى تتمتع به.

بعد هذا بعامين، ظل الرئيس بورفيريو دياس فى الحكم محاولاً الاستعانة بفئة "العلماء" وأنصار رييس، وكان حريصاً على إيجاد توازن بين الفئتين مستغلاً فى هذا ضعف قوتهما نتيجة للمواجهات المستمرة بينهما. وبمعنى آخر، كان يستفيد ويستغل ما كانت كل فئة تستطيع أن تقدمه له: فكان يستغل من فئة "العلماء" مهارتهم فى تنمية الاقتصاد والعلاقات مع رجال الأعمال وأصحاب البنوك ومستثمرى رءوس الأموال. وكان يستغل من فئة أتباع رييس حضورهم الكبير فى منطقة الشمال الغربى ونفوذهم الذى يمارسونه على الميليشيات وقدراتهم على تلبية تطلعات رجال الأعمال فضلاً عن تطلعات الطبقات الوسطى وطبقات العمال. لكنه فى الوقت نفسه كان يجد فى الانقسام بين الفئتين رأسمالاً يستغله لصالحه – إذ كانت المواجهات الدائمة بينهما تحول دون تقوية شوكتيهما – فكان هذا يقتضى منه القيام بدور الوسيط بين الطرفين. ومن ثم فقد قام بتعيين رييس وزيرا للحرب كما قام بتعيين ليمانتور وزيرا للخزانة.

لكن اتخاذ القرار لصالح إحدى المجموعتين أدى إلى اشتعال الصراع بينهما. فقد رفض ليمانتور فى سنة 1902 رصد مخصصات لتجديد وتحديث الجيش علاوة على توجيهه انتقادات إلى جيش الاحتياط الثانى الذى كان رييس قد أنشأه ويضم عدداً متزايداً من المدنيين الذين كان يجرى تدريبهم عسكريا فى عطلات نهاية الأسبوع. وعندما استشعر بورفيريو دياس الخوف من القوة التى يمكن أن يشكلها الجيش العامل والميليشيات المدنية بالنسبة لوزير الحرب، طلب منه العودة لتولى منصب حاكم ولاية نويبو ليون كما أجرى حركة تنقلات وتغييرات فى الجيش وقام بتسريح الحرس المدنى.

وهكذا أصبحت قوة "العلماء" خلال عامى 1903 و1904 بارزة على الساحة. أما الرجال الذين كانوا مع دياس فى صعوده سلم السلطة مثل الليبراليين من أرباب الفكر والحرب فقد جرت إزاحتهم من الوزارة. وعلى صعيد آخر، قام "العلماء" بتقديم مرشح لهم لتولى منصب نائب رئيس الجمهورية فى الانتخابات التى جرت فى عام 1904، وكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ المكسيك التى ينتخب فيها نائب للرئيس ليحل مكان الرئيس فى حالة تغيبه أو وفاته وهو ما كان محتملاً باعتبار أن دياس كان قد بلغ من العمر 73 عاماً. وأصبح بديهياً أن عملية انتخاب "نائب الرئيس" كانت تعنى اختيار خليفة للزعيم بورفيريو دياس، فاقترح ليمانتور رامون كورّال لشغل هذا المنصب، وقد وافق دياس على اقتراحه.

دب الشقاق بين أهل طبقة النخبة أو الصفوة، ولم يستطع الرئيس أن يربأ الصدع بينهم أو يصلح ذات بينهم. وعندما إنحاز إلى فئة "العلماء" وأقصى الليبراليين القدماء وأبدى العداء لبعض قطاعات الجيش، فقد بالطبع صلاته مع بعض الأقاليم وبعض الجماعات التى كانت تؤيده، وبقيت تلك الأقاليم والجماعات على هامش اللعبة السياسية. وعلى جانب آخر، كانت هنالك بعض القطاعات التى بدأت فى الصعود، ولم يكن الحال يروق لها وهى ترى النظام السياسى مشلولاً، بسبب أن ما يجرى فى أروقته كان قد جرى التفاوض بشأنه وأصبح متفقاً عليه وتم تقسيم الأدوار فيه من قبل. كذلك فإن التحالف الذى كان قائماً مع حكام الولايات أو مع القوى الإقليمية قد أجبر الرئيس دياس على التنكر لتعهداته مع القرى ومع الفلاحين بوجه عام، كما أدى تحالفه مع المستثمرين ورجال الأعمال إلى التنكر لتعهداته التى كان قد قطعها على نفسه للعمال. وكل هذا يفسر لنا اضطراره إلى اللجوء إلى فرض ما يريد وإلى التعسف والقمع.

من جانب آخر، كان من البديهى فى ثانى المراحل – وإن كان هذا ليس بجديد – انتهاك إستقلال السلطات التشريعية والقضائية. وكما سلف التنويه عنه فإن القائمين على السلطة التشريعية والمستشارين سواء على المستوى الفيدرالى أو على مستوى الولايات، كان يتم تعيينهم من الوجهة العملية إما من جانب الرئيس دياس أو من جانب رجال بطانته المقربين إليه، كما كان يعاد انتخابهم مرة ومرات، وكانوا لا يتركون مناصبهم إلا إذا حل عليهم غضب من اختارهم لشغل تلك المناصب أو إذا اختارهم لشغل منصب أفضل. ولهذا كان من الطبيعى أن

يبدوا له الولاء، ومن ثم يفقدون استقلاليتهم... ولهذا، اقتصرت مهمة الكونجرس على الموافقة على المبادرات التى تقدمها إليه السلطة التنفيذية، فى حين امتنعت محكمة العدل العليا عن المشاركة فى السياسة واقتصرت على القيام بدورها كمحكمة استئناف ومحكمة نقض أو قضاء عال، بينما كان المنوط بها لدى قيامها أن تقوم بدورها كمحكمة دستورية وتراقب قانونية وصحة تطبيق القوانين الفيدرالية وأن يكون من بين ما تقضى به صحة الانتخابات.

وفقد حكام الولايات استقلاليتهم كذلك... ومع هذا ظلوا محتفظين بمساحة من حرية العمل (على سبيل المثال: كان حكام الولايات عند إجراء انتخابات مجلس النواب يستطيعون تزكية عدد من المرشحين لمنصب النواب من بين من يقوم بورفيريو دياز باختيارهم بنفسه، أو من بين الاحتياطيين الذين كثيراً ما كانوا من أولئك الذين كانوا يحضرون الجلسات). وكذلك كثيراً ما كان حكام الولايات يرفضون قرارات السلطة الفيدرالية (على سبيل المثال: دافعوا عن حقهم فى إصدار التشريعات فيما يتعلق بموضوع التعليم وقبلوا بتوحيد الخطط والمناهج ولكنهم صبغوها بصبغتهم الإقليمية). ولقد كان من الواضح أيضاً أن هناك تدخلاً متزايداً من العاصمة فى سياسة واقتصاد الأقاليم.

انتقلت المركزية أيضاً إلى الولايات بمعنى أن حكام الولايات كانوا يحكمون كذلك بأسلوب فردى وتعسفى. أما الزعماء السياسيين الذين كانوا يمثلون سلطات لها موقعها بين حكام الولايات ورؤساء المجالس البلدية، فإنهم كانوا يعتمدون على رئيس الجمهورية أو على حكام الولايات. كما كان لأولئك الزعماء السياسيين بدورهم تدخلاتهم فى المجالس البلدية. وهكذا نرى أن هامش الاستقلالية قد انحسر، وأن البلديات فى بعض الأقاليم فقط ظلت محافظة على حريتها فى تسيير أمورها.

اقترن هذا كله بإستفحال رقابة وقمع المعارضين لنظام الحكم. وقد ظهرت حركة معارضة سياسية حزبية يعود تاريخها وأصولها إلى "الحزب الليبرالى المكسيكى". وعلى الرغم من كل هذا، كانت المعارضة تستطيع أن تعبر عن آرائها فى الصحافة. وكانت هناك كذلك صحافة رسمية مثل "صحيفة الإمبارسيال" (أى اللامنحازة) التى كانت تعمل على حشد الدعم للحكومة وتركز على الأنباء دون ترك مساحات لإبداء الرأى. وقد نجحت تلك الصحيفة فى

مضاعفة عدد قرائها وأن يتجاوز توزيعها بكثير كل عدد النسخ التى كانت توزعها الصحف الأقدم منها فى الساحة، ويعزى ذلك إلى ماكينات الطباعة الحديثة التى كانت تستخدمها وإلى رخص ثمن النسخة منها وإدخال الصورة ضمن صفحاتها لزيادة متعة القارئ إلى أقصى حد. وكانت هناك صحف أخرى غير رسمية – مثل الصحف الليبرالية والكاثوليكية والعمالية – وقد قلدت صحيفة "الإمبارسيال" فى تحديث نفسها. علاوة على هذا كانت هناك عدة صحف تتسم بقلة عدد النسخ التى توزعها وكانت ما تزال تستخدم آلات الطباعة القديمة. ومع هذا فقد كان هناك شيء يجمع بين هذه الصحف، وهو: نشر المقالات التى تنتقد سياسة دياس. ومن ثم فقد كانت تلك المقالات هدفاً لقمع السلطات، فأصاب القمع والسجن مديرى الصحف والمحررين بل والقائمين على طباعتها كذلك. وليس هناك أصدق مثال على هذا من فيلومينو ماتا مدير صحيفة "إل دياريو ديل أوجار" الذى يُحكى عنه أنه عندما كانوا يطلبون منه عنوان سكنه فإنه كان يعطيهم عنوان منزله ومعه عنوان سجن بيلين، إذ لم يكن يعرف فى أى منهما يمكن أن يكون موجوداً...

اشتدت كذلك حدة القمع لحركة المعارضة الاجتماعية المتزايدة وهو ما سيرد ذكره فيما بعد. كما اتخذ السخط صوراً متعددة، منها: مظاهرات الشوارع أو مهاجمة المبانى العامة التابعة للحكومة أو النهب أو عصابات السطو أو الإضرابات العمالية أو حركات تمرد المزارعين. ولقد فاقت الإجراءات القمعية فى تلك الحقبة ما عداها من حقب سابقة إذ لجأت السلطة إلى استخدام القوة فيها. وعلى سبيل المثال جرى فى تلك الحقبة ترحيل المئات من الرجال والنساء والأطفال من قبائل الياكى بالقوة للاشتغال فى معسكرات العمل فى واخاكا وفى يوكاتان. ومثال آخر نتحدث عنه يتمثل فى تلك المذبحة التى كان ضحيتها عمال مناجم كانانيـيا وعمال ريو بلانكو.

وأخيراً وليس بآخر، سعى بورفيريو دياس إلى إعادة توجيه مسار علاقاته مع الخارج. بعد أن كان يبدى فى بداية عهده الحذر إزاء الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه كان على وعى بالتهديدات التوسعية من جانبها، ثم تحولت فى عهده الآن إلى تهديدات بالتوسع الاقتصادى أكثر منها بالتوسع فى الأراضى. وقد عبر عن هذا الحذر فى مقولته الشهيرة "يا لبؤس المكسيك، لأنها بعيدة جدا عن الله، وقريبة جداً من الولايات المتحدة، وينهض هذا الحذر

على مبررين أو سببين: الزيادة المطردة فى نفوذ الولايات المتحدة فى منطقة الكاريبى وأمريكا الوسطى وخاصة فى غواتيمالا (التى كانت المكسيك فى مشاكل معها بسبب الحدود وبسبب انتقال المواطنين عبر الحدود)، ثم الثقل المتزايد لها فى الاقتصاد المكسيكى. ولتفادى ازدياد تدخل الولايات المتحدة ونفوذها فقد عمد إلى إقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع كل من انجلترا وفرنسا واليابان. كما عارض فى أن تتحول الولايات المتحدة إلى حارس لأمريكا اللاتينية أمام تهديدات أوروبا لها، أو إلى حَكَم بين دول القارة الأمريكية، مؤكدا على أن هذا الأمر هو أمر يخص الدول الأمريكية وحدها.

السنوات الأخيرة

لقد اختلفت العوامل التى أدت إلى إنهيار النظام البورفيرى. وفى الواقع أنه من الأحرى ألا يكون الحديث هنا عن أزمة واحدة بل عن عدة أزمات كانت قد بدأت تتراكم منذ السنوات الأولى للقرن العشرين وهى أزمات كما سنرى فيما بعد قد تركت آثارها على جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أثرت على المجال السياسى أيضاً.

كان نظام الحكم البورفيرى قد اعترته الشيخوخة: فقد كان عمر بورفيريو دياس قد بلغ 80 عاماً، وكان متوسط أعمار أعضاء الحكومة حوالى 67 عاماً، كما لم يبعد عن هذا الرقم كثيراً متوسط أعمار حكام الولايات والمستشارين وأعضاء السلطة التشريعية. ولم يكن دياس هو من ظل وحده كل هذه السنوات فى السلطة، إذ أن إعادة الانتخاب وإعادة الاختيار كانت تجرى على جميع المستويات. فكان هذا هو الحال بالنسبة لحكام الولايات، ومثال على هذا: ظل تيودورو ديـــيسا حاكماً فى فيراكروز لمدة 18 عاماً، وموسيو ب. مارتينيس حاكماً فى بويبلا لمدة 17 عاماً، وكذلك كان الأمر نفسه بالنسبة لكل من فرانسيسكو كاتيـــيدو فى ولاية سينالوا، وخواكين أوبريغون غونساليس فى غواناخواتو. ولقد كان الحكم مصاباً بالشلل لأنه فقد القدرة على المصالحة وعلى إفساح مجال المشاركة أمام قطاعات سياسية واجتماعية جديدة. ولم يكن الشلل وحده هو الذى أصاب نظام الحكم، فأكمله بالانقسام. إذ لم ينته الانقسام بين "العلماء" وبين "أنصار ريـــيس" بعودة ريـــيس إلى نويبو ليون، بل ظهر الانقسام كذلك عشية الانتخابات التى جرت فى عام 1910.

وكان دياس قد أجرى فى عام 1908 مقابلة صحافية، مع صحفى أمريكى اسمه جيمس كريلمان وصرح خلالها بأنه لن يخوض مرة أخرى المنافسة فى انتخابات الرئاسة التى كان موعدها قد اقترب وأنه سيسمح بأن تعقد تلك الانتخابات فى جو من الحرية الكاملة لأنه يرى أن البلاد قد أصبحت جاهزة للديمقراطية. وقد سبب هذا حراكاً فى الرأى العام وشجع على الحوار والمناقشات السياسية، مع أن الأمر - فيما يبدو - وكما كان واضحاً بالنسبة للمقربين من الزعيم كان مجرد تصريح موجه إلى الخارج وأن الجديد الذى كانت اللعبة ستتناوله هو منصب نائب رئيس الجمهورية. وفى ذلك الوقت ومع وجود رئيس تزداد شيخوخته يوماً بعد يوم، يصبح منصب نائب الرئيس وعداً لمن يشغله بأن يخلف بورفيريو فى الرئاسة.

وفى عام 1909 قام "العلماء" وبتأييد من دياس بترشيح اسم "كورّال". فتحرك مؤيدو رييس وشكلوا عدداً من النوادى لتأييده فى طول البلاد وعرضها. وانضم إلى مؤيديه أبناء الطبقة الوسطى والعمال، ومع هذا فإن ريـــيس نفسه قد ثبط من عزيمتهم... وربما كان هذا بوازع من ولائه لبورفيريو دياس أو لرفضه قيادة أو تشجيع أى حركة مسلحة تقضى على السلام، فقبل المهمة التى كلفه بها الرئيس فى أوروبا.

حينئذ، بدأت الاتجاهات المعارضة فى التجذُّر. فلقد حدث هذا مع كل من مؤيدى رييس (لأن أنصاره استمروا فى حركتهم بعد مغادرته إلى الخارج)، كما حدث مع المعارضة الليبرالية ومع حركة أتباع ماديرو. ولقد كان التباين كبيراً جداً بين تلك الجماعات، إذ كانت تختلف سواء فى الإقليم الذى ينتمى إليه كل زعيم أو فى القوى المؤيدة لكل منهم أو فى البرامج التى تتميز بها كل مجموعة عن الأخرى. ومع هذا فإنهم كانوا حتى تلك اللحظة يشتركون فى عدة مطالب مثل: الالتزام بالدستور وبالشرعية، واحترام التصويت ومبدأ عدم إعادة الانتخاب، كما كانوا متفقين وعلى درجات مختلفة بالحماية للفلاحين والعمال والرعاية القانونية لهم.

على الرغم من الجو السائد حينذاك، فقد تمت الانتخابات حسبما جرت العادة وأعلن فوز كل من دياس وكورّال بها. وبعد أقل من ستة أشهر هبت الثورة ثم بعد أقل من سنة من اشتعالها اضطر السيد بورفيريو دياس فى من مايو سنة 1911 ليس إلى مغادرة كرسى

الرئاسة وحسب بل ومغادرة البلاد مستقلاً الباخرة إلى فرنسا. وهكذا انتهى العصر البورفيرى، لأن بدايته ونهايته كانتا تتوقفان -كما شرحنا من قبل- على التاريخ السياسى بل وبالتحديد على صعود وسقوط بورفيريو دياس.

لقد مثلت هذه المرحلة أهمية قصوى من أجل ترسيخ دعائم "دولة-الأمة"، وذلك على الرغم من أن بورفيريو دياس لم يلتزم التزاماً كاملاً ببرنامجه كما لم ينفذ ما تبقى منه. وكان الحكم يرفع شعارين هما: شعار " النظام والتقدم " وشعار " قليل من السياسة وكثير من الإدارة". والواقع أنه قد تحقق بعض النظام وهو لم يكن كاملاً ولا بعيد عن الإنتفاضات وعن حركات التمرد، وكان هذا يتطلب "الكثير" وليس "القليل من السياسة". والحقيقة أن دون بورفيريو قد لجأ إلى استخدام القوة، لكنه كان قد نجح فى الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها نتيجة لصلاته الشخصية ولمن أبدوا الولاء له. كما يعزى كذلك إلى مهارته فى اجراء المصالحة بين الفرقاء وجعل أصحاب الأدوار السياسية يعتمدون على تدخله. ولهذا فقد سار كثيراً فى نهج ضم القوى السياسية والإقليمية إلى صفه. لكنه، ومن جهة أخرى، لم يلتزم بالشرعية كما لم يحترم القوانين الانتخابية ولم يطبق جميع القوانين المناهضة للكنيسة، وانتهك الضمانات الفردية (مثل حرية التعبير) أو لم يضمنها (سمح بأن يجبر المواطن على عمل مقابل ديونه، وهذا يمس حرية العمل بل وحرية الإنسان التى يكتسبها بالميلاد نظراً لأن الديون كانت تورث). لكنه نجح فى الوقت نفسه فى تطبيق العديد من بنود مشروعه التحررى وفى تطبيقه العديد من بنود الدستور. فقد عمل على تفعيل جوانب مهمة من قوانين الإصلاح ومن مشروع العلمنة (مثل بند حرية العقيدة الدينية) واستمر فى إرساء قواعد القانون والعدالة الحديثة (انتهى من عملية وضع مجموعة القوانين المختلفة وأحكام المصادرة لكى لا تتم إلا بأحكام قضائية) كما اتخذ خطوات حاسمة فى تنفيذ المشروع الاقتصادى الذى كان الليبراليين سدنته وحماته. وأخيراً، فإنه كسب جولة توحيد البلاد وخلق هوية قومية لها كما أنه كسب معركة الدفاع عن سيادة الدولة.

ومن ثم فإننا نستطيع أن نؤكد أن هذه المرحلة قد شهدت تأصيلاً أو ترسيخاً لأسس وقواعد الكثير من المؤسسات السياسية للمكسيك فى القرن العشرين. ولقد حدث نفس الأمر فى المجال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى.

المالية العامة
والتنمية الاقتصادية

تسلم بورفيريو دياس الخزانة العامة وهى مفلسة خاوية على عروشها. وكان الدين الخارجى والدين الداخلى على درجة كبيرة من الضخامة، كما كانت الإيرادات الجمركية توجه لسداد الدين الداخلى. وكانت الولايات تختص نفسها ببعض إيرادات الضرائب ، ولم تكن لميزانية الدولة تستفيد منها، كما كانت هناك اعتراضات على فرض أعباء جديدة. ولقد اقتضى الإصلاح المالى أن يلجأ وزراء الخزانة (وكان من أبرزهم ماتياس روميرو وماتويل دوبلان وخوسيه إيبس ليمانتور) إلى سلوك العديد من السبل. فقد أجروا خفضاً على الإنفاق العام وأداروا الموارد بحرص شديد، كما فرضوا رقابة شديدة على الإيرادات، ثم فرضوا ضرائب جديدة بحيث لا تشكل - كما حدث فى المرحلة السابقة - أعباء على التجارة أو تعوقها. وأخيراً، توصلوا بفضل قرض جديد إلى إعادة هيكلة الديون الداخلية والخارجية وهو ما حقق لهم اكتساب الثقة فى الخارج فضلاً عن ثقة المستثمرين الأجانب، ومن ثم الحصول على قروض واستثمارات جديدة. وكان هذا يعنى أن جزءاً من الدين قد تم سداده من تلك الأموال التى جرى الحصول عليها من الخارج ومن جهات أخرى. وقد تم التوصل إلى اتفاق مع الدائنين بهدف إرجاء سداد الديون وتحديد سعر فائدة محدد لها. وبهذا أمكن حساب إجمالى الدين ثم تحويله إلى قرض طويل الأجل. وبفضل هذا كله وبمرور السنوات لم تعد النفقات تفوق الإيرادات بل وبدأت تحقق فائضاً اعتباراً من عام 1894.

وعلى صعيد آخر، كان التحول فى منظومة الإنتاج مثيراً للدهشة. فقد استفاد كل من دياس وغونساليس من الأجواء الدولية المواتية لكى يسعيا إلى ربط المكسيك بالاقتصاد الدولى كدولة تصدر المنتجات الزراعية والمعادن إلى الخارج، كما شجعا أيضاً النمو الصناعى والتجارى فى الداخل. والواقع أن السوق الداخلية كانت محدودة عندما تولى بورفيريو دياس مقاليد الحكم، وكانت هناك وحدات اقتصادية من بينها وحدات إقليمية أو محلية (تكاد أن تكون مستقلة) وهى التى كانت تقوم بإنتاج كل ما كان يجرى استهلاكه داخل تلك الوحدات. ولهذا كانت مبيعاتها أو مشترياتها قليلة جداً. وكان من الضرورى أيضاً مضاعفة الإنتاج وتشجيع

الصلات التجارية بين أرجاء البلاد المختلفة بل وتشجيعها لكى تمتد إلى ما وراء حدود البلاد. وقد تطلب هذا بنية تحتية قانونية واستثمارات ومؤسسات ائتمانية ووسائل نقل ومواصلات.

ونبدأ بالقوانين. فلقد صدر فى هذه المرحلة قانون التجارة الذى فتح الباب لأن تكون له لائحة واضحة المعالم ومتكاملة ووحيدة. علاوة على هذا تم إلغاء ضريبة البيوع (أتاوة) وهى ضريبة كانت تفرض على مرور البضائع من منطقة إلى منطقة أخرى مما كان يؤدى إلى ارتفاع أسعار المنتجات كما كانت تشكل عقبة أمام حركة التجارة مع المناطق المترامية. ويضاف إلى هذا سياسة تقديم الدعم للصناعات ولبناء المبانى العامة ولوسائل النقل. وكانت سياسة الحماية تطبق فى بعض السنوات على بعض الصناعات، وذلك بفرض رسوم باهظة على المنتجات الأجنبية التى كانت تنافس المنتجات المكسيكية.

لقد شكل الحصول على موارد حكومية أو خاصة تحدياً كبيراً فى هذه المرحلة، إذ لم تكن لدى الدولة أموال خلال السنوات الأولى، ولم يتيسر لها هذا إلا خلال المرحلة الثانية من حكم بورفيريو دياس بعدما تحقق الفائض نتيجة لزيادة الإيرادات عن المصروفات، فاستطاعت أن تستثمر أموالاً فى الأشغال العمومية وفى المواصلات. من جهة أخرى، كانت هناك أموال قومية جرى توجيهها واستخدامها فى مناطق مختلفة لكن حجم هذه الأموال كان قليلاً. ولهذا، كان من الضرورى خلال المرحلة البورفيرية الأولى اللجوء إلى الخارج. ولقد قدمت الحكومة الفيدرالية كما قدمت حكومات الولايات تنازلات وأقرت تشريعات تضمن هامشاً عريضاً للاستفادة والمنفعة، ويرجع إليها الفضل فى جذب ذلك الكم الهائل من الاستثمارات إلى المكسيك.

لقد جرى استثمار الكثير من تلك الموارد فى الموانئ وخاصة لمد السكك الحديدية إليها. فعندما تولى بورفيريو دياس الحكم لم يكن فى المكسيك إلا خط واحد يصل ما بين المكسيك العاصمة وفيراكروز وكان طوله يصل إلى 640 كم. وكانت بقية الطرق تقطع إما على متون الخيل أو على ظهور البغال ولهذا كانت الرحلات بطيئة ولم يكن يمكن القيام بها إلا فى بعض فترات السنة كما كان المسافرون يتعرضون لقطاع الطرق. وخلال فترة حكم بورفيريو دياس كانت خطوط السكك الحديدية تزداد سنوياً بنسبة 12%: فوصلت أطوالها فى عام 1885 إلى 5852 كم. وفى سنة 1910 وصلت إلى 19280 كم. وكانت الحكومة فى سعيها لجذب

الاستثمارات فى هذا الحقل تعطى منحة من المال عن كل كيلومتر يجرى مده. كما كانت حكومات الولايات تمنح إعفاءات ضريبية فضلاً عن تقديم الأراضى اللازمة لمد الخطوط كمنحة. وكانت نسبة رأس المال الأساسية المستثمرة فى مد الخطوط أمريكية المصدر (42%). إلا أن الحكومة قامت بالتوقيع على عقود مع إنجلترا (التى وصلت إلى التحكم فى 35% من إجمالى خطوط السكك الحديدية) وذلك لمواجهة نفوذ الولايات المتحدة ولضمان المنافسة. علاوة على هذا فقد قامت الحكومة فى سنة 1902 وسنة 1903 بشراء "الخطوط القومية المكسيكية" (Ferrocarril Nacional Mexicano) وخط "ما بين المحيطين" (Interoceánico) كما انتشلت من الإفلاس شركة السكك الحديدية المركزية (Ferrocarril Central Mexicano) وأصبح دمج تلك الشركات مع بعضها علامة تحدد أصول السكك الحديدية القومية للمكسيك، كما أنها شكلت بداية احتكار الدولة للسكك الحديدية.

أسهمت الموانئ وخطوط السكك الحديدية فى تنشيط التجارة مع الخارج والداخل على حد سواء، كما أتاحت للمكسيك مزيداً من المعاملات التجارية مع الولايات المتحدة وأوروبا والكاريبى، فكانت تصدر المعادن والمنتجات الزراعية والحيوانية، بكميات متزايدة تجاوزت 40,5 مليون بيزو مكسيكى فى عام 1877 ثم وصلت إلى 287 مليون بيزو فى عام 1910. كذلك كانت المكسيك تستورد بصورة متزايدة الآلات والمعدات والأجهزة والسلع المصنعة وبعض المنتجات الغذائية. والواقع أن مخطط مد السكك الحديدية قد لبى اهتمامات الدولة لتشجيع التبادل التجارى مع الولايات المتحدة. لكنه انعكس كذلك فى كل ما جلبه من منافع جمة للتجارة الداخلية المكسيكية، إذ أدى ضم مناطق جديدة كى تتمتع بخدمات السكك الحديدية إلى خفض النقل على مدى شهور السنة، ولهذا تضاعفت حركة التجارة ومبادلاتها وأصبح من الممكن تدوير عجلة الإنتاج لخدمة مناطق نائية مما شجع بعض الأقاليم على التخصص فى منتجات بعينها.

اقترن النمو التجارى بتضاعف الإنتاج الزراعى والصناعى والإنتاج القائم على التعدين. ولقد كان قطاع التصدير هو أكثر قطاعات الزراعة استفادة من مد السكك الحديدية وخاصة فى مجال إنتاج خيوط السيزال والمطاط والبن. وكانت تلك المنتجات تزرع فى مزارع كبرى استفادت من تشجيع الدولة لها ومن القروض ومن السكك الحديدية فضلاً عن تطبيقها

لأساليب الزراعة الحديثة، فى حين عانت الصناعات الغذائية من تراجع إنتاجها حيث كان إنتاج البلاد من القمح والشعير وحبوب الفريخول (الفاصوليا البنية والبيضاء الكبيرة) والفلفل الحار فى عام 1910 هو نفس انتاج البلاد منها فى عام 1877، وذلك على الرغم من الزيادة الملحوظة فى عدد السكان. ولهذا فقد تزايدت أسعارها كما اضطرت البلاد لاستيراد منتجات زراعية أخرى مثل الذرة.

شهدت الصناعات التعدينية القابلة للتصدير أيضاً نمواً مذهلاً، وقد تركزت تلك الصناعات فى ولايات سونورا وتشيهواهوا وسينالووا ودورانغو. كما يرجع الفضل إلى رأس المال الأجنبى فى زيادة إنتاج الذهب والفضة من المناجم، كما تنوع إنتاج المعادن لأن التقنيات الجديدة ورخص وسائل النقل أدت إلى أن يصبح العائد من استخراج النحاس والزنك والرصاص مجزياً، حيث كانت طلبات الصناعة فى الدول الأوربية وفى أمريكا على هذه المعادن كبيرة. وفى بداية القرن العشرين انضم إليها استخراج البترول.

وكان قطاع الصناعة ذو الأهمية البالغة هو الآخر قد شهد تحولاً كبيراً مع نهاية القرن التاسع عشر. ومع بداية العهد البورفيرى استمر وجود الورش الحرفية التى يديرها معلم ويعمل فيها عدد ضئيل من العمال وليس فيها إلا أجهزة ومعدات متواضعة الإمكانيات. وخطوة بعد خطوة بدأت الصناعات المتطورة تحل محل تلك الورش وكانت فى معظمها ملكاً لعائلات وكان تشغيلها يقوم على آلات ومعدات متخصصة ويجرى توزيع العمال على مختلف مراحل العملية الإنتاجية حسب دور كل عامل فيها. ثم دخلت الصناعات الحديثة إلى هذا القطاع إبتداء من عام 1890، وكانت هذه الصناعات التى يمتلكها رجال الأعمال يجرى تشغيلها بآلات تدار بالطاقة الهيدروليكية أو البخار أو الكهرباء وكانت إنتاجيتها عالية. وتركزت تلك المصانع فى نويبو ليون وخاليسكو وبويبلا وفيراكروز ومدينة المكسيك العاصمة وقد تخصصت فى إنتاج السيراميك والسيجار والأحذية والجعة (البيرة) والمنسوجات والورق والزجاج. وعليه، فإن الصناعات التى شهدت نموا متزايدا كانت الصناعات الخفيفة التى تتخصص فى انتاج المواد والسلع الاستهلاكية. ومع هذا، فعلى الرغم من أن القطاع الصناعى كان يتسم بالكفاءة وكان ينمو تدريجياً، إلا أن تطوره كان محدوداً نتيجة لافتقار النظم المالية للكفاءة ونقص المواد الأولية أو عجز القدرة الاستهلاكية للمجتمع المكسيكى عن استيعاب المنتجات. كما أثر نقص

الآلات والأموال على الإنتاج، ولهذا فإن نمو الصناعات الثقيلة كان بدرجة أقل كما أنه تأخر بعض الوقت. ويبرزمن أهم المصانع فى مجال الصناعات الثقيلة مصنع الحديد والصلب فى مونتيريى الذى أقيم لتلبية الطلبات وخاصة التى تحتاجها السكك الحديدية.

ويعكس التناقض الذى كان قائماً بين زراعات التصدير وزراعات الاستهلاك، وبين الصناعات الخفيفة والصناعات الثقيلة مظهراً من مظاهر التفاوت أو عدم التوازن الذى كان يسود الاقتصاد المكسيكى. ويضاف إلى هذا، ذلك التفاوت أو عدم التوازن الجغرافى الذى نجم عن أن التنمية فى بعض المناطق كانت تجرى بصورة أكبر مما كانت عليه فى أقاليم أخرى. فنجد أن شمال البلاد كان يحظى باقتصاد متنوع (زراعة – ماشية – تعدين – صناعة) وكان سكانه فى أغلبهم من الحضر ويتمتعون بأنظمة حديثة لدفع الرواتب كما تميز الشمال بأعلى نسبة فى البلاد ممن يعرفون القراءة والكتابة. وكان التفاوت (أو عدم التوازن) قائماً حتى بين حقب الزمن أيضاً حينما تغطى كآبة الأزمات على أزمنة الرخاء كما حدث مثلاً فى عقد التسعينات من القرن التاسع عشر (1890) نتيجة الانخفاض الشديد فى أسعار الفضة أو كما حدث فى عامى 1907 و 1908 بعد انسحاب رءوس الأموال من البلاد وانخفاض أسعار الصادرات نتيجة للأزمة الدولية فى ذلك الوقت.

ومجمل القول أن المكسيك قد تحولت فى هذه المرحلة إلى مُصدّر هام من مصدرى المواد الأولية علاوة على أن البلاد قد شهدت أول ثورة صناعية فيها. مع هذا، فقد كان الأمر متعلقاً بتنمية غير منصفة لم تستفد منها إلا بعض القطاعات وبعض المناطق وبعض الجماعات.

المجتمعات الريفية والمجتمعات الحضرية

لم تكن التغيرات التى طرأت على أبناء المجتمع أقل أهمية مما طرأ على البلاد بصفة عامة، خاصة بعد أن شهد المجتمع زيادة سكانية كبيرة وغير مسبوقة. فإذا كانت الأرقام التقريبية تحدثنا عن أن عدد سكان البلاد قد بلغ فى عام 1877 تسعة ملايين نسمة، فإن هذا العدد قد وصل فى عام 1895 إلى 13 مليون نسمة ثم ارتفع فى عام 1910 إلى 15 مليون نسمة. وترجع تلك الزيادة إلى انتهاء المواجهات بين الأهالى وبعضهم، واتساع نطاق الأسواق

وانتشارها والتوزيع الأمثل للأغذية فضلاً عن ارتفاع نسبة الوعى الصحى والدواء وتطورها بالنسبة لبعض قطاعات المجتمع.

كان ازدياد أعداد السكان يسير بصورة مطردة وكان الناس يتسمون بالديناميكية التى ظهرت فى إقدامهم على الترحال أى الهجرة الداخلية. فلقد رحلت أرتال كبيرة من المهاجرين القادمين من ولايات ميخيكو وغواناخواتو وخاليسكو وميتشواكان وإيدالغو وساكاتيكاس وسان لويس بوتوسى، حيث وصل هؤلاء المهاجرون إلى شمال البلاد واستقبلتهم ولايات تشيهواهوا وكواهويلا ودورانغو ونويبو ليون وتاماوليباس، كما استقبلت ولايات وسط البلاد غيرهم حيث حلّوا فى العاصمة الاتحادية وفى بويبلا، واتجه غيرهم إلى ولايات شمال الباسفيكى فنزلوا فى سونورا ونايَاريت.

وفى حين اتجهت هجرات هؤلاء السكان إلى المدن، فإن النسبة المئوية الغالبة من السكان ظلت تسكن فى مناطق يقل عدد سكانها عن 15000 نسمة، وفى عام 1900 بلغت نسبة السكان الذين يقيمون فى مثل هذه المناطق إلى 90% من إجمالى عدد سكان المكسيك، وهو ما يعنى أن غالبية المكسيكيين كانوا يقيمون فى الريف ويتعيـــشون من العمل فى الحقول وكانوا يتوزعون بين المزارع الكبرى والتجمعات السكانية الصغيرة والقرى والكفور والعزَب.

كانت المزارع الكبرى تميل إلى الاستحواذ على الأراضى وتملُّكها على حساب ملكية المزارع الجماعية، وقد ازدادت المساحات الإقطاعية أو الأبعديات وذلك – كما ورد سلفاً – نتيجة لحل الأوقاف والاستيطان. وإذا كانت القوانين التى صدرت فى عامى 1896 و 1910 ترمى إلى القضاء على ظاهرة استلاب أو الاستيلاء على الأراضى التى كانت تزرع على المشاع، فإن ملكية خمس الأراضى قد تحولت فى تلك الآونة إلى أيدى ملاك آخرين. وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الملكية الجماعية لبعض الأراضى قائمة. والواقع أن الأراضى الأقل خصوبة أو التي كان الوصول إليها صعبا لم تجذب اهتمام الطامعين أو تغرى بالتخطيط للاستيلاء عليها، فظلت فى حيازة السكان. وفى بعض الحالات الأخرى كان السكان يقومون بتقسيمها فيما بينهم لتأمين حيازتهم لها، بينما كان يستمر تقسيم العمل فيها كالمعتاد من قبل. ومن جهة أخرى، إذا كانت النتيجة المأمولة من حل الأراضى الموقوفة أو من التخطيط الجديد

أوضاع الأرض كانت لصالح أصحاب المزارع الكبرى، فإن بعض أثرياء الفلاحين أو المرابين كانوا يعرفون كيف يفوزون بغنيمتهم من مثل تلك الصفقات. ونتيجة لهذا تعززت قوة الملكيات المتوسطة. ثم أصبح هنالك شكل من أشكال التعايش جمع بين المزارع الكبرى والإقطاعيات من جهة وبين الأبعديات ومزارع الملكيات الجماعية والكفور والعزب من جهة أخرى.

فى هذا المجتمع الريفى – أو بالأحرى فى تلك المجتمعات الريفية لأن الصورة كانت تتغير من مكان إلى آخر على طول البلاد وعرضها– كان أصحاب المزارع الكبرى يحتلون قمة الهرم. وكان البعض منهم من المكسيكيين كما كان البعض الآخر من الأجانب ولم يكونوا بالضرورة من المقيمين فى الريف لأن كثيرين منهم كانوا يتركون مهمة الأرض لشخص يتولى إدارة العمل فيها لكى يعيشوا هم فى المدن. وكان وسط السلم الاجتماعى يضم كلاً من المزارعين من أصحاب الملكيات الصغيرة والتجار والحرفيين وبعض موظفى المزارع الكبرى مثل الذين يتولون إدارة العمل فيها وصاحب منصب "كبير أفراد الخدمة" أو الفنيين الذين يشرفون على الآلات الزراعية. وفى قاع السلم الاجتماعى نجد الفلاحين الذين لا يمتلكون أراضى ويعملون لصالح الأثرياء من أصحاب المزارع. وكان غالبية الفلاحين يعملون فى الإقطاعيات، وكان منهم الأنفار الذين يقيمون فى عشش داخل المزرعة أو حول حدودها ويعملون مقابل مرتب ثابت وكذلك العمال الموسميون الذين يعملون فقط عندما تكون هنالك حاجة للأيدى العاملة وهو ما كان يعد فى صالح أصحاب الأراضى ولكنه لم يكن فى صالح العمال "الأجراء" الذين كانوا يطوفون فى أرجاء البلاد بحثاً عن العمل حسب مواسم الدورات الزراعية. ومن بينهم كذلك مستأجرو الأراضى أو من يقومون بزراعتها بنظام المزارعة أو المشاركة فى العائد منها وكان أصحاب الإقطاعيات يؤجرون لهم الأراضى الأقل خصوبة مقابل مبلغ من المال أو مقابل جزء من المحصول.

هكذا يتبين أن ظروف العمل والحياة لأولئك الفلاحين كانت تتباين أو تختلف حسب صاحب الأرض وكذلك حسب الإقليم أو المنطقة التى يوجدون فيها. وليس هناك من دليل أكثر مصداقية على هذا التباين إلا شمال البلاد وجنوبها. فكانت الأملاك الكبرى من الأراضى الموجودة فى شمال البلاد يقوم على زراعتها العمال الموسميون أو يزرعها مستأجرون، وكانت أحوالهم أفضل من أحوال نظرائهم الذين يعيشون فى وسط البلاد أو فى جنوبها، لأنهم كانوا

يتقاضون مرتبات أفضل من نظرائهم أو تؤجر لهم الاراضى بأسعار منخفضة لأن العمال كان من السهل عليهم الهروب من الملاك بحثا عن ظروف أفضل حيث كان عدد السكان ذاته قليلا ومحدوداً كما كانت إمكانيات وجود فرص عمل أخرى متوافرة بحيث كان يمكنهم التعاقد للعمل فى المناجم أو اللجوء إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الأوضاع فى الجنوب فقد كانت مختلفة جداً، إذ كان أصحاب المزارع الكبرى فى إحتياج للأيدى العاملة على مدار السنة ولهذا كانوا يفضلون نظام التعامل مع "الأنفار". ولكى يحتفظوا بهم كانوا يلجأون إلى نظام الإقراض: كانوا يدفعون لهم مستحقاتهم فى صورة قسيمة صادرة عن محلات يطلق عليها تييندا دى رايا تبيع لهم السلع وتمنحهم القروض (المترجم: وهى عبارة عن محل أو خيمة تابعة للمزرعة وفيها كل ما يحتاج العمال شراءه. وتودع فيها قسيمة أو ورقة بإجمالى مرتب العامل ويجبر العامل على الشراء منها، فتبيع لهم السلع بأسعار مبالغ فيها كما يمنح قرضاً على حساب مرتباته المستقبلية، فتصبح ديونه قيداً مستقبلياً عليه).

والواقع أن مرتب الأجير لم يكن يكفيه لكى يحصل على احتياجاته الضرورية وبالطبع لم يكن كافياً لسداد ما يمكّنه من تصفية القرض الذى كان قد حصل عليه. ومن ثم فقد كان العمال يجدون أنفسهم مربوطين بالمزرعة طوال ما تبقى من حياتهم بل ومن حياة أبنائهم، إذ كان الأبناء ملزمين بأن يرثوا ما التزم به الآباء من قروض. ولهذا الغرض، كان أصحاب مزارع الجنوب يمارسون نظام "الدفعة المُقدَّمة من قرض أو مبلغ تحت الحساب"، ويتسلمه المزارع فى موطنه الأصلى قبل ذهابه لاستلام العمل، لكن المبدأ كان أن يصبح العامل منذ استلامه "الدفعة المقدمة" مديناً بالمبلغ كله. كذلك كان أصحاب المزارع يستغلون المساجين الذين صدرت عليهم أحكام فى العمل، فضلاً عن الهنود من سكان البلاد الأصليين من قبائل الياكى والمايا الذين كان الجيش يقوم بترحيلهم إلى تلك الجهات. وكان على أولئك الأنفار أن يرضخوا لظروف العمل المزرية لأن إمكانية الرحيل عن المزرعة كانت معدومة...

ولم يكن من المستغرب كذلك قيام المزارعين خلال العهد البورفيرى بعدة حركات للتمرد. ومن أهم تلك الحركات الحركة التى قام بها أبناء قبائل المايا فى يوكاتان وحركة قبائل الياكيس فى سونورا وحركة أهل توموتشيك التى اتخذت مسحة دينية بفضل مراهقة اشتهرت

بمعجزاتها وتعرف باسم سانتا تيريسا دى كابورا. وقد قامت تلك الحركات بوجه عام للاعتراض على الاستيلاء على الأراضى والغابات الخاصة بالأهالى كما كان بعضها الآخر للدفاع عن الاستقلال الذاتى لمناطقهم. وقد هبت تلك الحركات فى أحيان أخرى من أجل الحفاظ على الهوية العرقية والثقافية الخاصة بها، لأن الحكومات المكسيكية كانت تطبق مبدأ المساواة أمام القانون وكانت تجاهد لجعل المجتمع المكسيكى مجتمعاً متجانساً. فكانت تسعى إلى توحيد اللغة والعادات بل وكان البعض يدعو إلى "التخليط" (أى أن يكون جميع أهل المكسيك من الأجناس المخلطة) وكان البعض يردد فى ذلك الوقت أن الهدف هو "تبييض" الهنود من سكان البلاد الأصليين حيث كان ذلك البعض يعتبرهم كسالى ويتسمون بالبربرية وبالاعتقاد فى الخرافات. ولهذا، فإن الكثير من تلك المجتمعات قد جاهدت من أجل الحفاظ على أراضيها والحفاظ على حقها فى اختيار نوابها وأن يتخذ أبناء تلك المجتمعات بأنفسهم القرارات المتعلقة بشئونهم الداخلية بل وناضلوا كذلك من أجل الحفاظ على تقاليدهم ولغتهم.

وعلى الرغم أن المجتمع المكسيكى كان فى تلك الفترة مجتمعاً ريفياً فى أغلبيته، إلا أن المناطق الحضرية قد ازداد عددها ونمت بصورة مدهشة خلال عهد بورفيريو دياس. وقد ظهر هذا واضحاً جلياً فى العاصمة على وجه التحديد كما ظهر كذلك فى ولايات غوادالاخارا (وادى الحجارة) وبويبلا وسان لويس بوتوسى ومونتيريّى (انظر الجدول رقم 1). علاوة على هذا، كانت الزيادة كبيرة فى بعض المناطق، ففى سنة 1877 كان عدد المدن التى يعيش فيها أكثر من 20000 نسمة هو عشر مدن فقط، وفى عام 1910 ارتفع عددها إلى تسع عشرة مدينة. كما نمت بعض المناطق الاستيطانية حول مراكز التعدين والمناجم (مثل منطقة كاناتيا ومنطقة سانتا روساليي)، وتطورت ونمت أيضاً مناطق أخرى غيرها بفضل النمو الصناعى (مثل منطقة مونتيريى أو تورّيون). وتطورت ونمت أيضاً مناطق بسبب التجارة (مثل موانئ توكسبان وبروغريسو وغوايماس ومانسانيُو وأخرى بسبب مرور خطوط السكك الحديدية عبرها مثل نويبو لاريدو وسيوداد أى مدينة خواريس). أما العاصمة فقد كانت القبلة التى تجمعت فيها كل تلك العناصر، لأنها كانت مقراً للسلطة الفيدرالية وتنتهى فيها خطوط السكك الحديدية كما كان يتركز فيها 12% من إجمالى الصناعة الوطنية.

جدول رقم 1. النمو السكانى فى المدن

المدينة	السكان عام 1877	السكان عام 1900	السكان عام 1910
مدينة المكسيك	240000	325000	720000
غوادالاخارا	65000	101000	120000
بويبلا	65000	94000	96000
سان لويس بوتوسى	34000	61000	68000
مونتيريـــى	14000	62000	79000

لقد كانت أمنية الحكام وعلية القوم وصفوتها أن يروا فى المناطق الحضرية صورة لرخاء وتقدم الأمة وأن تبدو كالأمم "المتحضرة" مثل الولايات المتحدة أو مدن أوروبا. لقد كانوا يريدون أن يروا فيها صورة للجمال والازدهار ولهذا نسقوا الحدائق العامة وشيـدوا الطرق الواسعة التى تشبه طريق الشانزليزيه فى باريس. غير أن تلك المدن لم تكن مؤهلة لاستقبال مثل تلك الأعداد من المهاجرين إليها من الداخل، كما أن بعض أهل المدن ممن لم يُقدَّر لهم الحصول على فرص للعمل فيها قد انضموا إلى صفوف أهل الجريمة أو الاشتغال فى الدعارة. ومن جهة أخرى، فإن أغلب سكان تلك المدن كانوا يعيشون فى شوارع قذرة غارقة فى المياه وكانوا يعانون من عدم وجود مساكن تأويهم ومن نقص الغذاء والمياه الصالحة للشرب. وقد نجمت عن هذا مشاكل صحية خطيرة، كما انعكس على ارتفاع نسبة الوفيات.

وقد أصدر الحكام قوانين جنائية وصحية ولوائح بأنظمة تختص بعمل الشرطة كجزء من مشروع التحديث وكأداة لحل تلك المشاكل، كما أنشأوا السجون. ونفذوا كذلك مشاريع لتصريف المياه ورصف الشوارع، فقاموا بمد المواسير لمياه الشرب وأخرى لاستيعاب وتصريف المياه التى تغرق الشوارع. وأنشأوا الصليب الأحمر لتحسين الخدمات الصحية للمدن والسكان على حد سواء. وقاموا أيضاً بتنظيف الشوارع وسيّروا عربات لجمع القمامة وبنوا أماكن لقضاء الحاجة وأجبروا المجازر وأسواق البضائع المستعملة والمدافن على الخروج خارج زمام الحيز العمرانى الحضرى. وكافحوا الأوبئة بعزل المرضى وكانوا يحرقون المخلفات الصحية. وشجعوا فى الوقت نفسه على تحديث وتطوير الأدوية وأنشأوا معاهد متخصصة فى

مجالى البكتريولوجى والباثولوجى. ولهذا يعد العهد البورفيرى مرحلة للبناء والتشييد فى الأشغال والمرافق العمومية وإقامة المعاهد والمؤسسات العمومية وإصدار القوانين واللوائح التى تنظم الحياة العامة. كذلك فرضت الدولة النظام على العديد من مظاهر حياة الفرد وذلك بدءاً من واجبات الفرد والتزاماته إزاء المجتمع وإزاء مؤسسات الدولة وانتهاء بأنظمة الزواج والعلاقات العائلية بل وعاداته الصحية ووسائل الترفيه عنه.

مع ذلك، فلم تستفد جميع المناطق التى بها مدن ولا كافة جماعات المجتمع من الجهود التى بذلتها الحكومة ولا من جهودها فى إسباغ مظاهر الحداثة والمدنية عليها. والواقع أن مشهد العمران فى الحضر لم يكن يعكس صورة لطبقة معينة من طبقات المجتمع استأثرت وحدها بالمشهد: فلقد كانت المناطق التجارية والمستوطنات التى تسكنها الجماعات المتميزة تتمتع بكل الخدمات، فى حين كانت الأحياء الشعبية فيها تفتقر تماماً لمثل تلك الخدمات. ولقد كانت الثروة مركزة فى مجموعات صغيرة – تتألف من أصحاب المزارع الكبرى ورجال الأعمال وملاك المنازل المستخدمة لأغراض تجارية ورجال البنوك وكبار المهنيين – وكانت تلك المجموعات ترتبط فيما بينها بصلات القربى أو الصداقة أو المصالح التجارية المشتركة، كما كان أفرادها يستثمرون أموالهم فى التجارة أو الصناعة أو فى الأصول الثابتة. كذلك كانت قطاعات الطبقات الوسطى التى تزايدت أعدادها بشدة كنتيجة لتنامى التجارة والخدمات تتألف من أصحاب الحرف والمهن والموظفين العموميين والعاملين فى حقول التجارة والنقل والمتميزين فى الأشغال الزخرفية والفنية الدقيقة. مع هذا فقد كانت القطاعات الشعبية المقيمة فى مناطق الحضر تشكل الغالبية العظمى من السكان وكانت تتألف من الخدم والعاملين لدى التجار المحليين والحرفيين والعمال والباعة المتجولين.

ومما يلفت النظر بصفة خاصة، أن النمو الصناعى الكبير قد أدى إلى تضاعف أعداد العمال حيث بدءوا رويداً رويداً فى التفوق على أعداد الحرفيين والعاملين فى الأشغال الفنية والزخرفية الدقيقة. ولم تكن هناك تشريعات تحميهم لأن فكر الليبراليين الاقتصادى كان يرى أن الحكومة لا ينبغى لها أن تتدخل فى الاقتصاد وأن المرتب يجب أن يتحدد حسب قانون العرض والطلب. ومع هذا فعلى الرغم من وجود حرية للتجمع وحرية للاشتراك فى تشكيل جمعيات، فلم يكن مسموحاً القيام بأية إضرابات. وكان هناك رجال ونساء وأطفال يعملون لمدة

12 و14 ساعة يومياً طوال أيام الاسبوع السبعة، وكان من السهل الاستغناء عنهم بدون أى مبرر لذلك. كما لم يكن لهم أى نوع من التأمين ليحميهم لو أصابهم حادث. أما المرتبات الضئيلة التى كانوا يتقاضونها فإن قيمتها كانت تنخفض بصورة مستمرة كنتيجة للتضخم بل وتتعرض كذلك للخصومات التعسفية أو استلام المرتب على صورة إذن دفع يتسلم مقابله بضائع من حانوت المصنع. ولهذا كان العمال ينظمون أنفسهم فى جمعيات للمساعدة المتبادلة بمعنى أن العمال كانوا يسهمون بدفع اشتراك معين يستخدم لصرف مبلغ عند إصابة أو مرض أى منهم أو فى حالة الوفاة كما كان يصرف منه على أرامل العمال أو على اليتامى . كما كانوا يقومون بعمل جمعيات تعاونية تقدم القروض أو الأغذية، أى تعمل بصورة أو بأخرى كتنظيم يناضل من أجل تحسين ظروف العمل. وقد تأثرت تلك التنظيمات فى بعض الحالات بالأفكار والمبادئ الاشتراكية أو الفوضوية.

وقد تراوحت سياسة بورفيريو دياس إزاء العمال ما بين سياسة التفاوض معهم وسياسة القمع لهم. فكان الرئيس يبدى تسامحاً مع منظمات "تتبادل المصلحة" معه، أى التى كان يقدم لها الدعم ويمنحها مقراً لعقد الاجتماعات، فى مقابل أن يقوم أعضاء تلك المنظمات بالحضور من أجله خلال المناسبات العامة التى تقام تكريماً له، وهم بهذا كانوا يعطونه الشرعية للحكم. لكنه كان أقل تسامحاً مع تلك المنظمات والحركات الأكثر راديكالية. وشهدت فترة حكمه الطويلة نزاعات وإضرابات بدأت تتزايد حدتها اعتباراً من عام 1900. كما كان دياس يسعى لإجراء المصالحة بين العمال وأصحاب العمل وعندما كان يفشل فى مسعاه، كان يلجأ إلى استخدام القوة معهم. وليس هناك من مثال على هذا أصدق من النزاعين اللذين وقعا فى كاتانيـــــيا وفى ريو بلانكو. ففى عام 1906 قام عمال المناجم فى كاتانيـــيا (تقع فى شمال ولاية سونورا) بالتمرد مطالبين بتحديد حد أقصى لعدد ساعات العمل وحد أدنى لأجر العامل كما طالبوا كذلك بأن يحُسن معاملتهم ويتلقوا مقابلاً مادياً لعملهم يماثل ما كان يتلقاه العاملون من حاملى جنسية الولايات المتحدة الذين كانوا يعملون معهم فى نفس الشركة. وبعدما رُفضت مطالبهم قاموا بالإضراب ثم أتبعوا هذا الإضراب بشغب فهرعت قوات من الولايات المتحدة لإخماده بدعم من الجيش المكسيكى.

وبعد تلك الواقعة بعدة أشهر قام عمال النسيج فى أوريسابا وفى بويبلا وفى تلاكسكالا وفى العاصمة الاتحادية بالإضراب احتجاجاً على ظروف العمل. وقد حاول بورفيريو إجراء مصالحة فقدم اقتراحاً يتضمن زيادة المرتبات وإلغاء الخصومات المفروضة عليهم وعمل صندوق لليتامى والأرامل ومنع تشغيل الأطفال، ولكنه ترك تطبيق هذه الاقتراحات لحسن نية أصحاب الأعمال. وقد قبل العمال فى بعض المصانع الاتفاق على هذا الاقتراح وعادوا إلى العمل باستثناء العمال فى ريو غراندى حيث تجمهروا وقاموا بنهب المصنع ودكان أو خيمة بيع السلع وهو ما أدى إلى أن فقد الكثير من هؤلاء العمال أرواحهم.

وخلاصة القول أن المجتمع العمرانى الحضرى كان مثالاً على الانقسام الطبقى العميق بل والعرقى أيضاً. وكان الاهتمام بالمظاهر هو ما يقلق صفوة المجتمع ونخبته إزاء القطاعات الشعبية والجماعات المهمشة وخاصة إزاء من كانوا يلبسون زى سكان البلاد الأصليين، إذ كانت تلك الصفوة أو النخبة تعتقد أنهم يلوثون صورة المدينة. ولقد كان قلقهم يزداد فى عشية الاحتفالات أو المراسم التى تجرى فى المدينة خشية أن يرى الزوار آثار البؤس و"الهمجية" عليهم فكان رجال الصفوة يوزعون الملابس على المحتاجين منهم. إذن، لقد كانت هنالك أحكام مسبقة قديمة ومتأصلة على ذلك المجتمع، ويعول عليها البعض الآن باعتبارها تستند إلى أفكار "علمية"..

الثقافة

ظهرت خلال عهد بورفيريو دياس صيغ تفهم كل منها البلاد أو المجتمع أو الفرد من وجهة نظر مختلفة. وعلى الرغم من أن كل وجهة تختلف عن غيرها من وجهات النظر، إلا أنها كانت تتعايش مع بعضها تحت مظلة الوطن. وكان من بينها صيغ ليبرالية وأخرى تتبع فلسفة الفكر الوضعى الإيجابى أو "الإيجابية" فى التعامل مع الأمور كما كانت هناك صيغة الفكر المحافظ التى يؤمن بها المحافظون. وإذا كان البعض قد اعتنق الأفكار الليبرالية وآخرون قد تحمسوا واتبعوا فكر الفلسفة الوضعية أو "الإيجابية"، واتبع غيرهم مبدأ تيارات فكرية أخرى مثل الداروينية الاجتماعية، فإن آخرين قد اختاروا لأنفسهم موقفاً توافقياً ينهض على المزج بين عناصر من "الليبرالية" مع عناصر من الوضعية أو "الإيجابية". ولهذا خرجوا بفكرة أن

الأسلوب العلمى يجب تطبيقه سواء على دراسة المجتمع أو على ممارساته، وذلك من أجل إيجاد حلول للمشكلات. كما وجهوا نقدهم إلى الليبراليين لأنهم يضعون سياساتهم وتشريعاتهم على أساس نظريات مستوردة بدلاً من وضعها على أساس التركيز على ملاحظاتهم ورصدهم لظروف وأحوال المجتمع المكسيكى. ومع هذا فلم تكن غايتهم استبدال مؤسسات الدولة الليبرالية ولا دستور سنة 1857، وإنما كانوا متفقين على تأخير تطبيقه إلى أن تصل اللحظة التى يمكن الحكم فيها بأن المكسيكيين قد وصلوا إلى درجة التطور المطلوبة لاستبدالها. كما رأوا ضرورة تشجيع التعليم والعلم حيث كانوا يعتقدون أنهما أفضل وسيلة لتحقيق التقدم على المستوى القومى.

ظل غيرهم متعاطفاً مع الأفكار المحافظة ومع أفكار الكنيسة الكاثوليكية. ومع هذا فقد كانت فيهم أيضاً تيارات مختلفة، حيث كان بعضها يعترض على الفصل بين واقعهم الآنى الدنيوى وبين ما هو روحانى وكانوا يدافعون عن منح الصدارة والريادة للكنيسة، بينما كانت هناك تيارات أخرى تنادى بقبول العلمانية والتركيز على استعادة دور الكنيسة فى العمل فى المجالات الاجتماعية. علاوة على هذا كان هناك من ينادى بتبنى "الكاثوليكية الاجتماعية" أو رأوا أن الكاثوليك ينبغى أن يكون لهم دورهم فى المستقبل السياسى للوطن وخاصة فى العمل على حل المشاكل الاجتماعية التى تؤثر في المجتمع. وكان المتعاطفون مع هذا التيار الذى اكتسب قوة فى مشارف القرن العشرين يبدون قلقهم بشأن الظلم الاجتماعى وعدم المساواة فكانوا يطالبون الدولة بإصدار التشريعات التى تحمى العمال كى يلقى العمال معاملة كريمة من أرباب العمل.

مع هذا وبغض النظر عن الناحية الأيديولوجية، فإن الكاثوليكية لم تكن قد فقدت مكانتها على الخريطة الدينية. فكان غالبية المكسيكيين ممن يعتنقون الكاثوليكية قد جرى تعميد 99% منهم كما كانوا يمارسون شعائر دينهم. كذلك اعتنق البعض البروتستانتية ولكن عددهم كان أقل بكثير من الكاثوليك. ولقد وصلت البروتستانتية إلى البلاد حوالى سنة 1870 ومع مرور الوقت استقرت 18 جمعية من جمعيات المبشرين فى منطقة الحدود الشمالية وفى غواناخواتو وبويبلا وباتشوكا ومدينة المكسيك وفيراكروز حيث نجحت فى استقطاب قطاعات من الشعب كانت تشعر بالتبرم وعدم الرضا وكان المبشرون يتولون عملية تعليم تلك القطاعات

ويقدمون لهم الخدمات الصحية بدون مقابل. وعلى الرغم من هذا فإن انتشار البروتستانتية واجه عقبات مختلفة من بينها الصراعات الداخلية بين مختلف طوائف البروتستانت ومسمياتها، كما أن التبشير بها قد كان قد اقترن بفقدان الشعب ثقته فى الكنيسة الكاثوليكية فضلاً عن معارضته لها. وقد حدثت مواجهات مفتوحة فى عدة مناسبات بين جماعات كاثوليكية وبين المبشرين البروتستانت الذين كانوا يلقون المساندة من الرئيس دياس ومن حكام الولايات الذين كانوا يريدون أن يبينوا أن مساندتهم لهؤلاء المبشرين نابعة عن تمسكهم بالشرعية، علاوة على أن انتشار البروتستانتية كان من وجهة نظر أولئك الحكام يعنى كبح نفوذ الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا، فمع أن تأثير المذهب البروتستانتى كان محدوداً من وجهة النظر العددية – كانوا حوالى 2% من عدد السكان مع إضافة الأجانب– إلا أن تواجدهم على الساحة كان يرمز إلى احترام حرية العقيدة وعلمانية الدولة المكسيكية.

رغم أننا قد رأينا على ساحة الآراء وجوداً لانقسامات بين الليبراليين وأنصار الفلسفة الوضعية أو الإيجابية والمحافظين، إلا أنه قد لوحظ أنهم كانوا متفقين على القيم التى جمعت فيما بينهم. فقد كانت النخبة أو الصفوة علاوة على الطبقات الوسطى بل وعدد من القطاعات الشعبية للمجتمع تشترك فى نفس المفاهيم التى تحكم الأسرة ودور المرأة فى قلب العائلة أو فى المجتمع وقد انعكس هذا فى العديد من الكتابات ومن بينها تشريعات ونصوص قانونية وأدب وإصدارات لبعض المنتمين للسلك الكنسى أو لجمعيات علمانية أو خيرية علاوة على ما ظهر فى كتب السلوك والمجلات المخصصة للمرأة أو العائلة أو فى كتيبات صغيرة أو فى الأدب الشعبى. وكان الناس يؤمنون بأن العائلة يجب أن تقوم على أساس الزواج ومن الأفضل أن يكون هذا الزواج زواجاً دينياً. وكانت التشريعات التى تنظر إلى الزوج باعتباره رب العائلة أو رأسها تسمح له بأن يتولى إدارة أموال الزوجة بدون إذنها (بينما كانت يلزمها الإذن لكى تدير الأموال الشائعة بينهما) وكانت الولاية على الأبناء للزوج (ولم تكن للزوجة الحق فيها إلا بعد وفاة الزوج مع بعض القيود لأنه كان يفرض عليها اللجوء إلى مستشار يكون المتوفى قد حدده من قبل). وعلى صعيد آخر، كان لكل واحد من الجنسين مجال معين له، يتحرك فى إطاره: فكان إطار أو مجال تحرك الرجل هو عالم اهتمامات عامة الناس، أى عالم السياسة وعالم العمل، فى حين كان على المرأة أن تقتصر على ما هو خاص بطبيعتها ودورها كامرأة وأن تهتم بأعمال المنزل. ولم تكن النظرة إلى المرأة التى تعمل خارج بيتها نظرة طيبة، إذ لم يكن

يقبل منها هذا إلا إذا كانت أرملة أو إذا كانت غير متزوجة وفى حاجة للعمل طالما اقتصر عملها على "الأنشطة المتعلقة ببنات جنسها"، مثل الحياكة أو التعليم. ومن ثم، فإن التشريعات لم تمنحها إمكانية التصويت فى الانتخابات أو أن تتولى منصباً بالانتخاب من جانب الشعب وكانت تلك التشريعات تفرض أيضاً حدوداً على أنشطتها فى مجال العمل، فعلى سبيل المثال كان ينبغى على المرأة أن تحصل على موافقة الزوج إذا أرادت العمل فى مجال التجارة. وعلى الرغم من أن العمل فى مجال التدريس فى المدارس العمومية لم يكن محرماً على المرأة، إلا أن الحالات التى أنهت فيها نساء من الطبقات العليا والوسطى دراساتهن العليا كانت حالات استثنائية، وكان من بينهن أول طبيبة مكسيكية وهى ماتيلدى مونتويا. وعلى الرغم من هذا، بدأت المرأة مع اقتراب القرن العشرين تكتسب لنفسها مجالات أوسع فى المشاركة، ومن بين هذه المجالات قيامهن بإصدار مجلات تخاطب المرأة، وقد قامت المرأة بالدفاع فيها عن مساواتها مع الرجل. كما انطلقت أيضاً أول حركة للمرأة مطالبة بمساواتها بالرجال أمام القانون وفى التعليم.

على صعيد آخر، فقد لوحظ وجود تأثير أوروبى كبير يغلب عليه الطابع الفرنسى وكانت أوضح صورة له موجودة فى الأدب وفى الفن، وهو نفس ما حدث تماماً من قبل عندما تأثرت المكسيك بالأزياء وبأطباق المطبخ الأوروبى والفرنسى على وجه الخصوص. ويمكن ملاحظة هذا التأثير أيضاً فى الأدب وفى الفن الحديثين، حيث تأثرا بالمذهب الرمزى الفرنسى وهو ما ظهر فى أعمال كل من مانويل غوتيـيرّيس ناخيرا وسلبادور دياس ميرون وأمادو نيربو وخوسيه خوان تابلادا وإيفيرن ربويّـيدو. كذلك ظهر بصورة واضحة تأثر المعمار المكسيكى بالأنماط والطرازات المختلفة – مثل الكلاسيكية والرومانية والمدجنة والقوطية والباروك والفن الجديد (*art nouveau*)– وقد مزج المكسيكيون بين عناصر تلك الأنماط والطراز بحرية كبيرة حتى فى نفس المبنى الواحد. والمثل على هذا الاتجاه المعمارى هو تلك الصورة الفخمة الرائعة التى تظهر عليها دور المسرح فى عدة مدن، ومثال هذا: مسرح خواريس فى غواناخواتو ومسرح دى لا باس (السلام) فى سان لويس بوتوسى ومسرح إلدوبلادو فى ليون ومسرح كالديرون فى ساكاتيكاس ومسرح البيـيون كونتريراس، فى ميريدا.

كذلك شهدت الآداب فى المكسيك واتجاهاتها القومية –أى التى تعكس ذاتية وهوية الواقع المكسيكى– تطوراً كبيراً، ولهذا فإنها قد أسهمت اسهاماً كبيراً فى شحذ مشاعر الهوية والانتماء إلى الوطن المكسيكى. وكان الأدب يهتم فى بادئ الأمر بالسير على وتيرة الأدب التقليدى الذى يهتم بالكتابة عن العادات والتقاليد المكسيكية مع اسباغ المسحة الرومانسية أو الواقعية عليه، وكان هذا باديا بصدق فى أعمال آنخيل دى كامبو أو خوسيه توماس دى كويار أو رافائيل ديلغادو أو خوسيه لوبيز بورتيـيّو إى روخاس. ثم ظهر بعد هذا تيار الأدب الواقعى الذى ورث تيار الكتابة عن العادات والتقاليد لكنه كان يهتم بالواقع والبيئة والأشخاص، نجد هذا ماثلا فى أعمال أدباء هذا التيار من أمثال إيريبيرتو فريّاس أو فيديريكو غامبووا أو إيميليو راباسا. وعلى هذا المنوال أيضاً تبرز التقاليد القديمة فى فن التصوير الذى اهتم [illegible] بالمناظر الطبيعية المكسيكية. ومن أهم الفنانين فى هذا المجال تبرز أسماء خوسيه ماريا بيلاسكو وخواكين كلاوسيل. بل واهتموا أيضاً بتقديم أعمالهم مقرونة بصور لأشخاص ورسومات لأحداث ومناظر من الحياة اليومية. ومن أهم هذه الأعمال أعمال خوسيه غوادالوبى بوسادا التى انتشرت على صفحات الجرائد من عينة "دى آ سينتابو" (أى الجريدة بملّيم واحد) وفى "كراسات" وفى "أوراق متفرقة" أصدرتها له مطبعة أنطونيو بينيغاس أرّيُو.

مع هذا، فإن إيجاد رابطة العقل الجمعى التى توحد بين أبناء الوطن –على نحو ما سعى الحكام إلى عمله خلال مرحلة "اصلاح الجمهورية"– جعل البورفيريين يرون أنه ليس هناك أفضل من الإستفادة من تدريس التاريخ الوطنى للبلاد لإمكان تجاوز الهويات الإقليمية وبث قيم المدنية حتى يصبحوا مواطنين صالحين فى المستقبل. ولهذا كان التعليم مجانياً وإلزامياً وكانت الدولة هى التى تضع برامجه ونصوصه. وعلى الرغم من جهود الدولة، فإن المشروع التعليمى لم يحقق النجاح المرجو منه لأنه كان يركز على فى المناطق الحضرية. ومع هذا فإن المشروع لم يكن يتمتع بالكفاءة: فى عام 1895 كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة من سكان البلاد 15% فقط وقد زادت هذه النسبة بالكاد إلى 20% فى عام 1910.

كان التاريخ الوطنى للبلاد وتقديس الأبطال من "النواميس" التى كانت الدولة تحرص عليها حرصاً بالغاً من أجل بث وشحذ المشاعر القومية. فكانت تجرى احتفالات بمناسبة قيام الدولة والدفاع عن سيادتها فضلاً عن إقامة الاحتفالات بمؤسساتها الليبرالية التى كان بورفيريو

دياس يعتبر نفسه وريثا لها ومدافعا عنها. ولهذا لم تكن مشاعر المجد والفخار هى التى تغطى وتفئ على البلاد بل كانت تلك المشاعر تغطى كذلك هامة رئيس البلاد.

مجمل القول، أن الثقافة البورفيرية كانت تكن الإعجاب لما هو أجنبى ولكنها فى الوقت نفسه كانت تقدم لنا أيضاً ثقافة قومية وإحساساً وشعوراً بالوطنية. والدليل الواضح على هذا، هو الإحساس والشعور الذى تَبَدّى في ما عبر عنه المفكرون الذين أخذوا على عاتقهم راية المناداة بالقومية خلال الحدث أو المناسبة التى جرت فى أوائل القرن العشرين فى "منتدى الشباب"، وحضرته نخبة تتألف من عدد من كبار الشخصيات مثل أنطونيو كاسو وبيدرو إينريكيس وأولفونسو ريـــيس وخوسيه باسكونسيلوس. فقد شجع أعضاء ذلك المنتدى الانفتاح نحو الأفكار الجديدة، وانتقدوا الإرتباط اللصيق بنموذج أتباع الفلسفة الوضعية أو الإيجابية لأنهم كانوا يعتقدون أن المعرفة يمكن الحصول عليها بوسائل مختلفة، وليس بالضرورة من خلال المنهج العلمى وحده. كما دافعوا عن قدرات الإنسان مشددين على حريته فى التصرف وحريته فى الإختيار، وجاهدوا بالرأى ودافعوا بكل قوة عن القيم الإنسانية فى الثقافة وتأكيد تلك القيم، كما جاهدوا وناضلوا بالرأى والحجة من أجل القضاء على النفوذ الفرنسى فى الأدب وفى غير الأدب من أجل إنقاذ كل ما هو مكسيكى.

كان كل هذا وغير هذا هو ذلك الإرث الذى خلّفه بورفيريو دياس للمكسيكيين من أبناء القرن العشرين، وهو إرث لم يقتصر على المجال الثقافى وحده بل وشمل المجال السياسى أيضاً (بعد نجاحه فى ترسيخ دعائم "دولة-الأمة")، وشمل المجال الاقتصادى (بتوسيع نطاق الأسواق ومد طرق وسبل الإتصال وتشجيع تصدير المنتجات الزراعية وتشجيع الصناعات الناشئة) كما شمل مجال المجتمع (بتشجيع الزيادة السكانية ونشر الصورة الحضرية للتمدن).

ولكن... لقد أورث بورفيريو البلاد أيضاً رذائل سياسية... وأورثها مجتمعاً واقتصاداً يسيطر عليهما -وبعمق شديد- عدم المساواة... كما أورث البلاد نزاعات أدت إلى قيام "الثورة" وهى نزاعات لم يتم حسمها إلا فى عقود السنوات التالية على "مكسيك الثورة".

الثـــــورة

خابيير غارسيا ديـيغو

النقاد والمعارضون والرواد

يختص هذا الباب بتحليل الثورة المكسيكية باعتبارها من نتائج العهد البورفيرى وباعتبار أنها كانت العامل الحاسم أيضاً فى تحديد صورة المكسيك خلال فترة طويلة من فترات القرن العشرين. وعلى الرغم من أن مفهوم الثورة يعنى للكثيرين أيضاً أكثر المراحل مغزى على مدى مراحل التحولات السياسية والاجتماعية-الاقتصادية والثقافية، فإن الحديث عن هذه الفترة سيقتصر هنا على سنوات العنف الذى عم البلاد، على الرغم من أننا لا نعتبر أحداث "العنف" مرادفا "للنضال المسلح". بل بالأحرى، كان يمكن تعريفه كعملية معقدة تحطمت فيها دولة الأوليغاركيين (دولة حكم الأقلية) النيوكولونيالية التى كانت قائمة فى آخر سنوات القرن التاسع عشر. وقد كانت السنوات الأخيرة من عشرينيات القرن التاسع عشر التى شهدت إقامة مؤسسات الدولة لتصبح دولة مؤسسات هى ما حدد بدء مرحلة تاريخية جديدة فى حياة البلاد بعد أن ترسخت فيها دعائم الدولة فى صورتها الجديدة.

بعد سنوات شهدت الدولة فيها نموا اقتصادياً واستقراراً سياسيا واضحاً، بدأت أعراض الانهيار تظهر على نظام حكم بورفيريو دياس. وكان للأزمة القائمة مظاهر متعددة، ولم يكن لها حلول قريبة. وقد تركت الأزمة آثارها الشديدة سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الدبلوماسى أو الثقافى. ومع مشارف القرن العشرين تحول المشهد الرائع لآخر سنوات القرن التاسع عشر إلى مشهد خطير، بعد أن أدت المشاكل التى واجهها دياس فى أواخر سنوات حكمه إلى انتقادات وحركات معارضة بين مختلف طبقات الشعب وبين المجموعات السياسية.

كانت بعض قطاعات الكاثوليك هى أول من تظاهر ضده تحت تأثير أفكار التجديد فى المجال الاجتماعى وهى أفكار كان يدعو لها الفاتيكان منذ عام 1891 عندما أعلن فى منشور

بابوى عن أفكار جديدة تزعم تقديم حل مسيحى للصراعات الاجتماعية. إلا أنه على الرغم من التقارب بين الحكومة البورفيرية والكنيسة الكاثوليكية، فقد كان دياس موضع لوم معتدل اللهجة بسبب المبادئ الليبرالية المناهضة للكنيسة المنصوص عليها فى دستور سنة 1857. ويضاف إلى هذا، ظهور كثير من الانتقادات السياسية-الاجتماعية، بعدما كان الاعتقاد السائد لدى الكنيسة أن المنشور البابوى الذى كان موجها للعالم الأوروبى سيتبناه المكسيكيون الكاثوليك بهدف إصلاح أحوالهم وكانت غالبيتهم العظمى من سكان الريف. ومع أن الكاثوليك كانوا يدافعون عن الملكية الخاصة باعتبارها من القوانين الطبيعية، إلا أنهم بدءوا فى الاحتجاج ضد المبالغة فى تركيز ملكية الأراضى الزراعية فى أيدى كبار الملاك، كما بدءوا الاحتجاج أيضاً على ظروف العمل السائدة فى غالبية المزارع المكسيكية الكبرى. وشرع الكاثوليك أيضاً فى المطالبة بتحسين اوضاع المزارعين وفى انتقاد الزعامات العسكرية والتنديد بغياب الديموقراطية. وعلى الرغم من أنهم لم يشيروا صراحة إلى شخص بورفيريو دياس الذى كانوا يعترفون له بدوره التاريخى العظيم، فإن الإنتقادات التى لقيها حكمه أسهمت فى التأثير على مكانته وعلى الإجماع الذى كان يتمتع به. ومع أن الأثر الاجتماعى-السياسى لتلك الأمور كان معتدلا، إلا أنه لا يمكن التقليل أبدا من شأنه.

أدى ظهور دوافع مختلفة الدلالات إلى قيام مجموعة ليبرالية الفكر بانتفاضة حوالى سنة 1900، وشاركت فيها عدة قطاعات من الطبقة الوسطى التى تقيم فى الحضر، كما شارك فيها مهنيون وصحفيون ومعلمون وطلبة، وذلك بحجة أن الحكم قد ابتعد عن المبادئ الليبرالية. واقترحوا تشكيل ما أسموه "المجموعة السياسية التاسعة عشر" تحت اسم "الحزب الليبرالى" بهدف الضغط على دياس لكى يطبق عدة مبادئ هى: مناهضة الكنيسة على وجه الخصوص، مع وجود حرية التعبير – انتخابات ديموقراطية – الفصل بين السلطات – إدارة ملائمة للعدالة – استقلال البلديات. وشرع كاميلو أرّياغا فى البدء بترتيب الأدوار وتنظيم عملها، فدعى المدافعين عن الأفكار الليبرالية إلى مؤتمر فى سان لويس بوتوسى الواقعة فى مركز البلاد. وكان من أهم من حضروا المؤتمر الأخوين خيسوس وريكاردو فلوريس ماغون وهم من أبناء أحد الموالين لخواريس المنتمين إلى ولاية واخاكا وكانا كذلك من جيرانه فى مدينة المكسيك التى درسا فيها القانون وأصدرا صحيفة معارضة باسم "ريخينيراسيون" (البعث الجديد). وسرعان ما بدأت تترسخ أفكارهم الراديكالية، فوسعا نطاق انتقاداتهم وقاما فى عام 1903

بتوجيه انتقاداتهما إلى "العلماء" وإلى برناردو ريـــيس، وبدءا فى التساؤل عن جدوى الاستثمارات الأجنبية فى البلاد والاهتمام بأوضاع العمال والفلاحين. وقد رد عليهم نظام الحكم بالقمع وهو ما أدى بكثير منهم إلى خيار اللجوء إلى الخارج والإستقرار فى الولايات المتحدة.

كانت تجربتهم فى الولايات المتحدة تجربة دراماتيكية وحاسمة إذ انفض عنهم بعض رفاقهم كما حدثت انشقاقات فى أوساطهم وأصبح البعض الآخر منهم أكثر راديكالية. وقد ظلوا بعض الوقت يقدمون مقترحات سلمية للنضال من خلال "حزب البعث الجديد" وظلوا مستمسكين بالفكر الليبرالى. ويبرهن على هذا "برنامج الحزب الليبرالى" الذى جرت صياغته فى عام 1906. وبعد أن تركوا أرّياجا وراء ظهورهم، قام ريكاردو فلوريس ماغون بالعبور بهم تجاه الأيديولوجية الفوضوية. وتتعدد التفسيرات بشأن هذا التحول، لكن أحد تلك التفسيرات يرجعها إلى علاقاته مع منظمات اشتراكية وفوضوية فى الولايات المتحدة، كما يرجعها البعض الآخر إلى علاقاته مع أبناء القوميات المتعددة -المنحدرين من إسبانيا وبعض الصينيين وبعض الأوروبيين- الذين كانوا يحيطون به. أما أهم هذه التفسيرات، فهى التى تعزو ذلك التحول إلى إقامة فلوريس ماغون والمقربين إليه فى مجتمع صناعى أكثر تقدما وهو ما دفعهم إلى الميل إلى منح الدور الطليعى إلى العمال والمثقفين ورجال الفكر المنتمين إلى الطبقة الوسطى، وقدا أدى هذا إلى ارتكاب فلوريس ماغون والمقربين إليه عدة أخطاء فى إستراتيجيتهم السياسية. من جانب آخر، ادى ابتعادهم عن المكسيك إلى اشتداد حرج موقفهم وخطورته، كما تقلص ما كان لهم من نفوذ داخل الحركة العمالية فى المكسيك بسبب القمع الذى تعرض له الذين قاموا بالإضراب فى كانانيـــيا وفى ريو بلانكو. ثم تكون الطامة بالنسبة لهم بعدما اتجه أتباعهم إلى الصراع المسلح مما أدى إلى فقدهم أى تأييد أو تعاطف من جانب الطبقات الوسطى، بل وبدءوا يخضعون كذلك للمراقبة. وعلى الرغم من تدهور نفوذهم منذ عام 1908، إلا أنه المسلم به أن فلوريس ماغون وأتباعه كانت لهم أهميتهم التاريخية، لأنهم قادوا أصدق وأطول حركة نقد مستمرة لنظام حكم بورفيريو دياس وأستطاعوا بفضل "حزب البعث الجديد" أن يبثوا الحس السياسى والوعى بين كثير من المكسيكيين، كما أن العديد من الزعماء اكتسبوا واستوعبوا التجربة بين صفوفهم ليبرزوا بعد هذا فى أول الصفوف عند قيام "الثورة المكسيكية". كذلك يجدر التنويه إلى أن إقامتهم فى الولايات المتحدة الأمريكية قد أسهمت فى تقويض مكانة بورفيريو دياس بين الدول.

وأخيرا، فإن محاباة بورفيريو دياس "للعلميين" بشأن خلافته قد أثارت أتباع ريـيس الذين كانوا من الموالين له حتى تلك اللحظة، فانقلبوا إلى جماعة معارضة ذات شأن عظيم وقد تحركت بهدف الضغط على دياس من أجل أن يختار ريـيس نائبا لرئيس الجمهورية فى الانتخابات التى جرت وقائعها فى عام 1910. وسرعان ما ظهرت فى الساحة تجمعات ومنتديات وصحف وكتب تناهض "العلماء" وتزكى ريـيس. وكانت القوة والقدرة التى أبداها مناصرو ريـيس سببا فى شعور دياس بالقلق تجاه ريـيس. لهذا قام دياس فى شهر سبتمبر سنة 1909 بإرساله فى مهمة إلى أوروبا. وعندما شعر غالبية أنصار ريـيس بأن الرأس قد غادر الجسد، انخرطوا فى صفوف مجموعة كانت قد أعلنت للتو ميلادها وكانت تعارض مبدأ "إعادة الانتخاب" ويرأسها فرانسيسكو إى. ماديرو وهو رجل أعمال وأحد أصحاب المزارع الكبرى المنحدرين من ولاية كواهويلا. وهكذا تضاعفت قيمة أنصار ريـيس بعدما أدى انشقاقهم عنه إلى إضعاف نظام الحكم. ثم كرسوا جهودهم للحط من شأن "العلماء" باعتبارهم المجموعة المرشحة لخلافة بورفيريو دياس فى الحكم، كما دعموا الحركة المناهضة لمبدأ إعادة الانتخاب بعدما دفعوا إليها ببعض "الكوادر" ذات المكانة الهامة والخبرات السياسية الكبيرة فضلاً عن أنهم كانوا ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع ويقيمون فى مدن مختلفة، فمنهم من كان من الطبقة العليا ومنهم من كان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة كما كان منهم من ينتمى إلى الطبقات الدنيا. وكانت حركة أتباع رييس السابقة على الثورة هى أكثر الحركات التى قدمت إلى الثورة أهم عناصرها، وكان بينوستيانو كارّانسا وفرانسيسكو باسكيس غوميس ولويس كابريرا أبرز أمثلة تلك العناصر.

التحول من المعارضة إلى الصراع المسلح

تعطى لنا الأزمات التى طبعت الأجواء فى نهاية العصر البورفيرى تفسيرا عن أسباب تحول فرانسيسكو إى. ماديرو إلى منتقد لسياسة "العلماء" الاقتصادية وكيف وصل إلى الإقتناع بأن عليه أن يشكل حزبا سياسيا قوميا يعارض إعادة انتخاب دياس للرئاسة مرة أخرى فى انتخابات 1910. ولهذا كرس كل جهوده منذ حلول النصف الثانى من عام 1909 لتحقيق هذا الهدف، فقام بثلاث جولات لتشجيع انشاء منتديات مناهضة لإعادة الانتخابات، ثم قامت تلك المنتديات بتعيين مندوبين عن الولايات. ثم قامت المنتديات بعقد مؤتمر قومى للمندوبين فى

بداية عام 1910 وأعلن فيه قيام "الحزب القومى المناهض لمبدأ إعادة الانتخاب لفترة تالية" كما تم بتسمية المرشحين لخوض الانتخابات الرئاسية وهما: ماديرو والمناصر السابق لريـيس فرانسيسكو باسكيس غوميز كتتويج للتحالف بين هذين الإثنين.

كان ماديرو حينذاك قد أثبت قوته السياسية بعد أن تحول فى وقت قصير من المعارضة الإقليمية إلى المعارضة على المستوى القومى كما وسع من نطاق شعبيته بشكل كبير ونجح فى إزاحة حركات للمعارضة كانت تتمتع بخبرات أكبر من خبرات حركته (حركة فلوريس ماغون وحركة ريـيس) كما نجح فى ضم الكثير من قواعد تلك الحركات إلى الحركة التى يقودها. ثم بدأ القيام بجولات انتخابية باعتباره مرشحا للرئاسة، إلا أنه سرعان ما جرى اعتقاله -متهما بالتحريض على التمرد- حيث أودع فى سجن سان لويس بوتوسى. وخلال وجوده فى السجن جرت الانتخابات وتم إعلان فوز بورفيريو دياس بالرئاسة ورامون كورّال بمنصب نائب الرئيس. ثم استطاع الهرب إلى الولايات المتحدة ولجأ إلى سان أنطونيو فى تيكساس حيث قام من هناك ومعه مجموعة صغيرة من معاونيه بصياغة خطة (ويظهر تاريخ تحريرها على أنها كانت فى سان لويس بوتوسى) ويدعو فيها ماديرو إلى الكفاح المسلح. فكيف يمكن أن يفسر لجوء أحد دعاة السلام والصراع الديموقراطى إلى الكفاح المسلح؟ ومن كانوا أولئك الذين فكروا معه فى اللجوء إلى الكفاح المسلح؟ وهل كان يدرك مدى العواقب التى ستنجم عن العنف؟...

لقد كانت غالبية قواعد الحزب التى يعتمد عليها ماديرو من أبناء الطبقة الوسطى المقيمين فى الحضر، نظرا لأن اتصالاته خلال الجولات التى قام بها كانت تركز على هذه الفئة من فئات المجتمع، ولم يلق النداء إلى حمل السلاح استجابة من أتباعه وهو ما كان متوقعا، كما لم تتوفر له الظروف الملائمة للقيام بمغامرة مسلحة. علاوة على هذا، كانت إقامة أتباعه من المعارضين بين من يتعرفون على شخصياتهم تعرضهم للخطر: ويعتبر مقتل الإخوة سيردان فى بويبلا تحذيرا بشأن المصير الذى كان ينتظر المعارضين لمبدأ إعادة الانتخاب من المتورطين فى حركة التمرد.

كانت تداعيات اغتيال أكيليس سيردان حاسمة، إذ أن النداء لحمل السلاح لم يجد له صدى بين الأنصار الأصليين لمبدأ عدم إعادة الانتخابات. ومع ذلك فإن التمرد قد لقى ترحيبا طيبا فى منطقة سلسلة جبال تشيهواهوا. وسرعان ما امتدت جذوته إلى المناطق المجاورة مثل: سونورا ودورانغو وكواهويلا. ومن البديهى هنا أن يكون الطابع الاجتماعى لهؤلاء المتمردين مختلفا، فقد كان تمرداً شعبياً وقام فى مناطق ريفية، كما كانت مطالب ذلك التمرد مختلفة... وعلى الرغم من أن المجموعات المتمردة كانت خلال الأشهر الأولى صغيرة وسيئة التسليح وتفتقر إلى التنظيم الجيد وتمارس حرب العصابات، إلا أن ماديرو حين عاد أخيرا فى شهر فبراير من عام 1911 إلى البلاد، قام بتولى قيادة النضال فتطور وتحسن تنظيم الحركة ثم ازداد حجم الجماعات المسلحة وهو ما مكّنه من مهاجمة قرى كبيرة والتصدى لقوات رسمية تابعة للدولة. علاوة على هذا، قامت حركات جديدة من حركات التمرد فى ولايات موريلوس وغيريرو. وعندما حل شهر أبريل كانت هناك عدة مجموعات تعمل فى عدة مواقع، وهو ما جعل مهمة قمعها مهمة صعبة. ونتيجة لفقدان دياس الثقة تماما فى ريـيس، تعرض الجيش للعقاب بتخفيض ميزانيته كما جرى سحب العديد من الضباط الموالين لريـيس من القيادة المباشرة للقوات فأثر هذا على فعالية وكفاءة الجيش الذى كان الترهل قد سرى فى أوصاله نتيجة لطول السنوات التى تمتعت فيها البلاد بالسلام. وإذا ما أضيف إلى هذا المشهد ذلك التعاطف الذى كانت السلطات الأمريكية تبديه تجاه نضال ماديرو وأنصاره، فإنه يمكن إدراك السبب فى الإسراع ببدء المفاوضات معه من أجل إقرار السلام.

أدى سقوط سيوداد خواريس (مدينة خواريس) الواقعة فى المنطقة الحدودية خلال الاسبوع الثانى من شهر مايو إلى الإسراع بعقد محادثات بين الحكومة والمتمردين وإلى دعم القوة التفاوضية للمتمردين. كذلك أدى سقوط تلك المدينة إلى قيام انتفاضات جديدة وإلى اصابة الجيش الإتحادى وكثير من السلطات المحلية بالشلل وهو ما يفسر استيلاء المتمردين بعدها وخلال النصف الثانى من شهر مايو على الكثير من المدن والمناطق بدون سفك دماء. ثم ازداد بشدة سقوط العديد من المدن بعد توقيع معاهدات سيوداد خواريس فى آخر أيام شهر مايو الذى شهد تقديم بورفيريو دياس لاستقالته، وهو ما كان يعنى انتصار الحركة... ولقد تحولت "الثورة المكسيكية" من حركة تُعارض فى مرحلتها الأولى اسلوب الانتخابات إلى حركة تمرد مسلح، وتغير فيها المشهد كما تغير أبطاله: فلقد تحولت من حركة نضال قام بها أبناء الحضر من

الطبقة المتوسطة إلى حركة شعبية من أبناء الريف. وظهر زعماء جدد هم أكثر أهلية لشن حملة مسلحة يقوم بها أبناء الريف الذين لم يكونوا قد شاركوا فى حركة مناهضة إعادة الانتخابات، أو لم يكن لهم على الأقل أى دور بارز فيها.

وكان هذا هو أوان ظهور أبطال المشهد الجديد مثل باسكوال أوروسكو وبانتشو بيـيا وإميليانو ساباتا (زاباتا)... واقتضى المشهد -على مستوى المجتمع- ضم عدد من الشماليين الذين كانوا يعملون فى تربية الماشية وكذلك ضم بعض أبناء المستعمرات العسكرية السابقة إضافة إلى العديد من البروليتاريين من المزارعين، وأصحاب مزارع تربية الأبقار، وأعداد من العاملين فى السكك الحديدية والمشتغلين فى صناعات التعدين والمناجم -الذين يعتقد على وجه التأكيد أنهم كانوا وراء تفجير خطوط السكك الحديدية بالديناميت- وانضمت لهم أيضاً أعداد من العمال والحرفيين ومدرسى القرى فضلاً عن عدد ممن يربون الماشية الجنوبيين – مثل الإخوة فـيغـيـرُووا فى ولاية غيريرو. علاوة على هذا، فقد انضمت إلى كل هؤلاء أعداد من الأهالى وغيرهم ممن يتولون السلطة بشكل تقليدى وينتمون إلى مناطق الفلاحين وإلى مناطق وسط البلاد وجنوبها مثل ساباتا وكل المحيطين به. وهكذا، فإن الجموع الشعبية قد اشتركت اشتراكاً فعلياً فى التحول السياسى، بل إنها شاركت فى الواقع فى تغيير مسيرة التحول السياسى وفى إدارة الدفة نحو الثورة، وهذا على عكس رغبات سلطات الحكم ورغبات ماديرو نفسه وغيره من الزعماء الأصليين لحركة مناهضة إعادة الانتخاب. ولقد كان للسلطات ولماديرو وللزعماء مطالبهم السياسية، لكن الباقين كانت لهم مطالبهم الاجتماعية التى تهتم أساسا بمصالح المزارعين.

ليبرالية لم يحن أوانها بعد

نصت معاهدات سيوداد خواريس على أن يحل وزير العلاقات الخارجية فرانسيسكو ليون دى لا بارّا محل بورفيريو دياس فى كرسى الرئاسة وذلك طبقا للتشريعات المعمول بها، على أن يتولى مسئولية نزع السلاح من المتمردين وتسريح قواتهم وتنظيم انتخابات جديدة. وقد اكتنفت التعقيدات المشهد: فعلى الرغم من أن الكثير من المتمردين وافقوا على العودة إلى حياة السلم بعد أن تلقوا مبالغ بصفة مكافأة، إلا أن غيرهم بدءوا ينظمون أنفسهم لتشكيل

"وحدات ريفية" جديدة، مع أن غالبية جماعات المتمردين لم تكن متفقة معهم على ذلك، إلا باسكوال أوروسكو وأتباعه الذين جرت احالتهم إلى التقاعد بعد تحقيق النجاح العسكرى، فقد اعتبروا هذا الإجراء بمثابة تقليل من شأنهم وأن الفائدة التى عادت عليهم بعد النصر الذى حققوه لم تكن كافية. كما رفض إيميليانو ساباتا (زاباتا) بدوره ورفض أتباعه من المتمردين حل وتسريح قواتهم أو الانتظام فى وحدات مثل "الوحدات الريفية" لأنهم كانوا غير مستعدين لتسليم أسلحتهم قبل أن يستردوا الأراضى التى كانوا يعتبرون أن أصحاب المزارع الكبرى قد سلبوها منهم، وهو موقف أدى إلى مواجهة مع الحكومة المؤقته برئاسة ليون دى لا بارا.

قرر ماديرو إزاء النية فى عقد انتخابات جديدة تحويل حزبه "الحزب القومى المناهض لمبدأ الانتخاب لفترة تالية" إلى "الحزب الدستورى التقدمى"، كما قرر ألا يكون رفيقه على منصب نائب الرئيس فى هذه الانتخابات باسكيس غوميس، بل خوسيه ماريا بينو سواريس الذى كان يعمل بالمحاماة وبالصحافة فى نفس الوقت. وقد ولد فى تاباسكو لكنه كان يقيم فى يوكاتان. وهنا يثور التساؤل عن جدوى هذين القرارين. والرد هو: نظرا لعدم وجود مشروع يقترح نظاما للحكم يمكن أن يحصل على نسبة مرتفعة من توافق الآراء حوله، فإن فكرة مناهضة مبدأ إعادة الانتخاب قد برهنت على مميزاتها لأنها نجحت فى توحيد الآراء حولها، رغم أن البعض كان يرى من وجهة نظره أن الفكرة هى فى حد ذاتها سلبية.

علاوة على هذا فإن القطيعة مع باسكيس غوميس كانت محبطة للكثيرين ممن كانوا يعلّقون آمالا كبيرة على الانتخابات القادمة، وخاصة أن القطيعة قد أدت إلى ابتعاد عدد كبير من أنصار ريـــيس السابقين من ذوى الخبرات المنضمين إلى ماديرو، وهى خبرات افتقدتها بالتالى إدارة ماديرو. ورغم كل هذا، فإن ماديرو قد حقق نصرا ساحقا خلال انتخابات اكتوبر 1911، لكنه عندما تولى الرئاسة كان قد قطع صلاته بكل من أنصار ريـــيس وأوروسكو وساباتا.

بدأت فترة رئاسة ماديرو فى أواخر عام 1911 وانتهت بصورة عنيفة مأساوية فى شهر فبراير سنة 1913. وقد تميزت بعدد من التحولات السياسية التى تولت خلالها مجموعة من الشباب بعض الوزارات وكانوا ينتمون إلى قطاعات اجتماعية من طبقة أدنى من الطبقة التى كان ينتمى إليها وزراء بورفيريو دياز، وهذا يفسر لنا سبب اعتناقهم لأيديولوجيات مختلفة. كما كان الذين تولوا مناصب حكام الولايات مختلفين عن الحكام السابقين. وتسرى

نفس هذه المقولة على النواب والشيوخ، كما كان من الأهمية بمكان إزاحة "القيادات السياسية" القديمة عن الطريق وإحلالها بسلطات محلية ممن جرى اختيارهم فى انتخابات حرة.

ومجمل القول أنه ينبغى القبول بأن تخلى دياس عن السلطة قد فتح بعد عدة أشهر الباب أمام تغيير هرم السلطة بصورة شبه كاملة، لدرجة أن أتباع بورفيريو دياس من السياسيين الذين ظلوا فى الصورة بدءوا يقومون بدور المعارضة. إضافة إلى هذا، فإذا كانت الطبقات الوسطى قد انطلقت فى عامى 1910 و 1911 للإضطلاع بمهامها فى جهاز الحكم وفى اتخاذ القرارات، فإن العمال والفلاحين بدورهم قد أصبح لهم أيضاً رأسمالهم السياسى. وعلى صعيد آخر، نجد أن رئاسة ماديرو قد أتت بممارسات سياسية أكثر ديموقراطية، مثل: اجراء انتخابات حرة واحترام حرية التعبير – تخلى السلطة التنفيذية عن سيطرتها على السلطة التشريعية وعلى السلطة القضائية – وتخلت السلطة المركزية عن فرض إرادتها وسيطرتها على سلطات الولايات وعلى السلطات المحلية.

إضافة إلى التحول الذى شهده الجو السياسى، فقد تبنّى ماديرو والمسئولين فى السلطة عددا من المشاريع المستحدثة فى المجالين الزراعى والعمالى. وعلى الرغم من أن ماديرو كان واحدا من أصحاب المزارع الكبرى المنتجة للقطن وكان أحد أبناء عائلة من كبار رجال الأعمال وكان من أنصار الملكية الخاصة للأراضى، إلا أنه كان يؤيد ضرورة إيجاد نظام يقوم على أصحاب الملكيات الصغيرة والمتوسطة إلى جانب أصحاب المزارع الكبرى الأكفاء المؤمنين بالتحديث، كما لم يكن يثق فى الملكية الجماعية للزراعات. أما بالنسبة للعمال، فقد عبر عن احترامه لحق العمال فى إنشاء التنظيمات التى ترعى شئونهم كما كان يزعم بأن أحوال العمال قد تحسنت بدون أن يشكل هذا التحسن خطورة على النواحى المالية لأصحاب المصانع. كذلك بدأت تقوم حكومته بدور الحَكم فى النزاعات التى كانت تنشأ بين أرباب العمل والعاملين، ومن ثم فقد كانت نتيجة هذا أن إزداد فى عام 1912 عدد المنظمات العمالية كما وقعت اضرابات كثيرة وذلك يرجع إلى المناخ السياسى السائد آنذاك وإلى تقلص قوة كبار رجال الصناعة. وقد حدث نفس الأمر على المشهد فى الريف: فقد أدى تنامى رأس المال السياسى لجماهير الفلاحين بسبب مشاركتهم فى الصراع المسلح ضد دياس وفقدان كبار المزارعين لسلطانهم إلى تغير ميزان القوى فى القرية خلال عام 1912، إذ تعددت وقائع قيام الفلاحين باحتلال الأراضى التى كانوا يطالبون بها باعتبارها قد سلبت منهم، كما ازدادت المطالب بزيادة

الأجر اليومى للفلاح. ولم يلق أصحاب المزارع الكبرى لسوء حظهم ذلك الدعم غير المحدود الذى كانوا يلقونه فى السابق، لأن "الزعماء العسكريين" القدامى الذين كانوا يعتمدون عليهم لم يعودوا هنالك فى السلطة كما افتقدوا "زعماء الريف" الذين كانوا يساندوهم من قبل.

ومن المفارقات الغريبة أن اقتراحات ماديرو الإصلاحية قد أدت إلى الشعور بالسخط وعدم الرضا بين غالبية الجماعات السياسية وبين طبقات المجتمع المختلفة، كما ساد نفس الشعور بين أوساط الدبلوماسيين والمستثمرين الأجانب، فى حين وجد أصحاب المزارع الكبرى ورجال الأعمال أن ما يحدث يشكل سابقة خطيرة. أما العمال والفلاحون الذين كانوا يؤيدون فى السابق ماديرو (العمال خلال فترة الانتخابات والفلاحون خلال فترة الصراع المسلح) فإنهم كانوا يعتبرون اقتراحات ماديرو غير كافية، ثم تحول الشعور العام بالسخط وعدم الرضا إلى انتقادات علنية وإلى حركات معارضة بل ووصلت تلك المشاعر إلى حد التمرد المسلح.

تواصلت المواجهات التى عانى منها حكم ماديرو واتخذت العنف سبيلا لها، فوصلت إلى أربع مواجهات: اثنتان منهما قادهما بعض المنتفعين من حكم بورفيريو دياس وهما ابن شقيقه فيليكس دياس وبرناردو ريـيس، وقام بالإثنتين الأخريين إميليانو ساباتا (زاباتا) وباسكوال أوروسكو. ويمكن تفسير حركات التمرد الأربع باعتبارها قد قامت نتيجة للتغير فى ميزان القوى القومية. فإذا كان فيليكس دياس وبرناردو رييس قد قاما بتمردين فى محاولة منهما لاسترداد نفوذهما، فإن ساباتا (زاباتا) وأوروسكو قد قاما بحركتيهما لتأكيد وتقديم قوتيهما الجديدة على أنها ستعجل بتحقيق المطالب الاجتماعية-الاقتصادية القديمة. وقد قام رييس بحركته فى نهاية عام 1911 بعد أن وَقَرَ فى عقيدته أنه الأحق وحده بحكم البلاد بعد غياب بورفيريو دياس. أما فيليكس دياس فقد قام بانتفاضته فى فيراكروز فى شهر أكتوبر سنة 1912 بحجة عجز ماديرو عن الحكم، لكن مشكلته كابن شقيق دياس كانت تكمن فى أنه لم يكن يتمتع بالملكات ولا بالشرعية التى تؤهله لحل المشاكل أو استعادة النظام فى الدولة، وهو ما كان قد دفع الشعب إلى اللجوء إلى تعبئة نفسه اجتماعيا وسياسيا خلال آخر سنوات حكم العهد البورفيرى. ومن ثم فقد أصبحت من السمات الغالبة على تلك الفترة الجديدة أن أى مطالب نادى بها أبناء الشعب لم تكن تجد أى رد عليها.

كانت جذور وأسباب إنتفاضات أو تمرد ساباتا (زاباتا) وأوروسكو مختلفة... إذ لم يقبل الفلاحون من أبناء ولاية موريلوس بتسريحهم حسب ما اقتضت نصوص معاهدات سيوداد

خواريس، وقرروا عدم إلقاء السلاح إلا بعد استرداد أراضيهم التى اغتصبها أصحاب المزارع الكبرى، فاعتبرهم الرئيس ليون دى لا بارًا متمردين. وعندما تولى ماديرو الحكم صاغوا مطالبهم فيما يعرف باسم "خطة أيَالا" التى كانت تطالب بحل المشاكل المتعلقة بالفلاحين واقترحت الخطة كذلك أن يصبح الفلاحون فى الريف هم القاعدة الأساسية فى البلاد. وعلى صعيد آخر، لم تكن الأهمية العسكرية التى يتمتع بها زاباتا وأتباعه تتناسب مع أهميته التاريخية، إذ كان نضاله على مدى عام 1912 محدودا، وذلك على العكس من حركة أوروسكو التى اتسمت بالعنف الشديد. وقد اشتعلت انتفاضة أوروسكو وأنصاره العديدين فى شهر مارس سنة 1912 وكانوا ينادون بخطة دى لا إمباكادورا القائمة على عنصرين: أولهما أن القادة كانوا غير راضين عن قلة الثمن المادى والسياسى الذى تلقوه مقابل اسهامهم الذى كان حاسما فى النصر على بورفيريو دياس، فى حين أن أجناده غير النظاميين كانوا يرون أن الإصلاحات الاجتماعية التى تقدم بها ماديرو كانت متوسطة الفاعلية وبطيئة. كذلك فإن التمرد الذى قام به أوروسكو كان يتسم بقيامه على تعددية طبقات المجتمع المشاركة فيه وهو بهذا كان مختلفا عن التمرد الذى قام به زاباتا الذى اعتمد على جموع الفلاحين. كما أنه علاوة على انضمام بعض الطوائف الشعبية من غير الفلاحين إليه، فقد حظى أيضاً بمشاركة لها وزنها من جانب أبناء الطبقة الوسطى فى الأقاليم. كذلك لم تكن انتفاضة أو تمرد أوروسكو مقصورة على منطقة محلية محدودة، إذ أنه بعد أن نجح فى السيطرة على كل ولاية تشيهواهوا بما فيها عاصمة الولاية، فإنه مكن لنفسه أيضاً فى بعض مناطق شمال البلاد مثل ولاية دورانغو وكواهويلا وسونورا بل ووصل حتى ساكاتيكاس وسان لويس بوتوسى. ولقد بلغت قوته شأوا بعيدا لدرجة الخوف منه منذ البداية، وبأن ينتهى به الأمر بالانتصار على حكم ماديرو.

أمر ماديرو بإعداد حملة للقضاء على أوروسكو وأنصاره وأسند قيادتها إلى الجنرال بيكتوريانو أويرتا وزوده ببعض العناصر والأموال اللازمة لتلك الحملة. كما جرت ترتيبات لضم رفاق أوروسكو السابقين الذين كانوا معه فى المواجهة مع دياس ولكنهم ظلوا موالين للحكومة مثل بانتشو فيـيًا. وقد جرى ضمهم كمساعدين للجيش الفيدرالى لكى يشتركوا فى الحملة الرامية إلى إيقاع الهزيمة بأوروسكو والأوروسكيين. وكان الهدف من ذلك هو ضم العناصر التى تتسم بالمهارة فى وسائل حرب العصابات وتتيح هويتهم الانخراط بين القطاعات الشعبية للمكان الذى ينزلون فيه. علاوة على هذا، قام حكام ولايات الشمال بإعداد قوات نظامية تابعة لكل ولاية لصد غارات أتباع أوروسكو، وتبرز من بينها القوات التى أعدها بابلو غونساليس فى

كواهويلا وقوات آلبارو أوبريغون فى سونورا. وكانت النتيجة مضاعفة، لأن انضمام أتباع ماديرو السابقين كمساعدين فى الجيش إلى قوات الولايات أدى إلى ازدياد قوة حركة الثورة. وعندما تحقق الانتصار عادت الثقة ووجدت الثورة زعيمها العسكرى الطبيعى الجديد فى شخص أويرتا، وهذا الموقف الذى سيظهر التعامل معه بصورة دراماتيكية فيما بعد عندما يقرر أويرتا التمرد ضد الحكم القائم.

فى أواخر عام 1912 وأوائل عام 1913 اعتقد ماديرو أنه قد نجح أخيرا فى تحقيق الاستقرار بعد أن تمكن من القضاء على أربع حركات تمرد. لكن تفاؤله كان قائماً على تشخيص خاطئ، فلقد كان تمكُنه من القضاء على حركات التمرد ناجماً عن القصور فى امكانيات تلك الحركات، لكنها على الرغم من هزيمتها خلّفت لحكم ماديرو أضراراً خطيرة. وكان الموقف السياسى ينذر بالخطر، إذ كان الجيش قد تأثر تأثرا كبيرا لكنه استطاع أن يتعافى، كما كانت الحكومة معزولة ومحاطة بالكثير من الأعداء. حينئذ، اعتقد برناردو ريــيس وفيليكس دياس فى شهر فبراير سنة 1913 أنهما قادران على القيام بحركة ناجحة مناهضة للثورة إلا أن الحركة فشلت للمرة الثانية، فقام الزعيم العسكرى الجديد بيكتوريانو أويرتا بتولى قيادة الحركة وتم أخيراً الإطاحة بالرئيس ماديرو ويلقى مصيره المحتوم. ويتوصل "الانقلابيون" المنتصرون إلى إتفاق أطلقوا عليه "معاهدة القلعة" لأن القلعة كانت المكان الذى تحصنوا فيه، كما أطلقوا على الإتفاق أيضاً "معاهدة السفارة" لأن توقيعهم عليها تم فى مقر بعثة الولايات المتحدة.

كان ماديرو قد فقد العون والسند بسبب تزامن وتفشى المعارضة لحكمه على أصعدة متعددة، وكانت حكومة واشنطن تبدى معارضتها لحكمه -وربما كانت تلك المعارضة ناجمة عن الضرائب التى فرضها ماديرو على البترول-، وجاءت المعارضة لحكمه أيضاً من جانب الجيش الفيدرالى ومن المجموعات السياسية البورفيرية ومن أصحاب المزارع الكبرى ومن رجال الإعمال. ظهر إلى جانب هذا الإنشقاق والتفسخ فى جبهة مناهضة إعادة الانتخاب. وصاحب هذا كله خيبة أمل خالجت نفوس الطبقات الوسطى للمجتمع ثم كان أخيراً غياب الخبرة عن حكم ماديرو الذى لقى مصرعه بعد اغتياله خلال الانقلاب العسكرى الذى أطاح به فى شهر فبراير سنة 1913.

بدأ حكم أويرتا بخليط يشمل تقريبا كل الجماعات السياسية التى كانت تعارض ماديرو، فكان من بينهم اتباع لفيليكس ريــيس و"العلماء" والكاثوليك، بل وكان منهم أيضاً بعض أنصار أوروسكو. وتمتع أويرتا كذلك بتأييد لا حد له من الجيش الفيدرالى ومن أصحاب المزارع الكبرى. وكان التأييد الذى لقيه من الحكومة الأمريكية قصير الأمد، لأنه بعد أسابيع قليلة تولى وودرو ويلسون -المنتمى إلى الحزب الديموقراطى- رئاسة الولايات المتحدة ليخلف الرئيس ويليام تافت -المنتمى إلى الحزب الجمهورى- وغير ويلسون سياسة الأمريكية تجاه المكسيك... كذلك أدى صعود أويرتا إلى سدة الحكم إلى إثارة السخط الكامن فى نفوس غالبية المتمردين السابقين ضد حكم ماديرو، وكان أغلبهم من المحاربين القدماء الذين شاركوا فى الصراع ضد أوروسكو كما كان منهم من تولى مسئولية السلطة المحلية وأصبح مواليا لماديرو. وهذا يشرح لنا أن من تبنوا موقف الصراع ضد أويرتا، كانوا يسعون لحماية التغيرات والمراكز السياسية التى اكتسبوها خلال عهد ماديرو والحفاظ عليها، كما يبين لنا أيضاً أن من تبنوا موقف الصراع كانوا يعارضون محاولات أويرتا فى العودة إلى حكومة معدلة يسيطر عليها الساسة البورفيريون ويساندها جيش فيدرالى قوى وتمالئ أصحاب المزارع الكبرى وبقية أبناء الطبقة العليا المنتمين إلى العهد القديم.

كان لحركات التمرد ضد أويرتا أربعة سيناريوهات هامة. وكان لكل واحد منها مقوماته وخصائصه الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية والاقتصادية والعسكرية. وقد وقع أول تمرد فى ولاية كواهويلا وقاده حاكمها بينوستيانو كارّانسا وهو سياسى قديم من أنصار ريــيس ثم تحول إلى مناهض لحكم بورفيريو دياس فى عام 1909. لم يعترف كارّانسا ولا السلطات فى كواهويلا بأويرتا بل واعتبروه متمردا ثم دعوا إلى تشكيل جيش (الجيش الدستورى) بهدف الإطاحة به والعودة إلى الشرعية. وقد تميزت حركة تمرد كواهويلا بقيامها على أساس من الشرعية وبأن من كان على رأسها هو حاكم الولاية نفسه. أما بالنسبة لقوات حاكم كواهويلا العسكرية، فقد اعتمد فيها على المحاربين القدماء الذى حاربوا ضد دياس. وقد تجسدت خصائص تلك الحركة فى "خطة غوادالوبى". وإذا كان الجانب المتعلق بالدور العسكرى لهذه الحركة يبين أن دورها كان صغيرا فى النصر على أويرتا، فإن الدور الذى قامت به الحركة فى التنظيم وفى تقنين مشروعية وإدارة الصراع ضد أويرتا كان دورا أساسيا.

وفى ولاية سونورا، قام بعض أفراد من الطبقة الوسطى بتولى السلطة وهم كانوا ممن
شعروا بالقهر وعانوا من الكبت السياسى ومن المصاعب المادية خلال عهد بورفيريو دياس،
ولكنهم تمتعوا خلال عهد ماديرو بمناصب عامة لها مكانتها الهامة. وكان هدف تحركهم ضد
أويرتا هو الحفاظ على المكاسب التى حققوها لأنفسهم. ومن بين أهم الشخصيات فى هذا الصدد
يبرز كل من آلبارو أوبريغون وسلبادور ألبارادو وبلوتاركو إليَاس كايِّس ومتوسط
ديـيغيس وأدولفو دى لا أويرتا. وعلاوة على ما كانوا يتمتعون به من قوة سياسية فإنهم
كانوا يتمتعون كذلك ببعض القوة العسكرية نتيجة لخبرتهم فى المعارك ضد هنود الياكى، كما
شارك عدد منهم فى المعركة ضد كل من البورفيريين والأوروسكيين. وهناك ظاهرة هامة
أخرى تتمثل فى أن النزاعات بشأن الأرض (التى كان أهل البلاد الأصليون طرفا فيها وخاصة
أبناء قبائل الياكى والمايا) اضافة إلى النزاعات العمالية وأحداث كاناتيا قد أدت إلى قيام
المعارضة التى تشكلت من أبناء الطبقة الوسطى المحلية وإلى عقد تحالفات قوية مع غيرها من
الجماعات الشعبية. وعلاوة على القوة العسكرية فإن فصيل سونورا قدم للحركة المناهضة
للرئيس أويرتا خبراته كطبقة وسطى قادرة على عقد تحالفات واتفاقيات مع غيرها من الفصائل
الشعبية.

اتسمت حركة التمرد التى انطلقت من تشيهواهوا ومن شمال دورانغو لمناهضة
الرئيس أويرتا بطابع مميز لها لأن قائدها بانتشو بيـيَا كان من أبناء الطبقة الدنيا. فلم يكن
بيـيا من بين من كانوا يتولون أحد المناصب فى الإدارة المحلية، وذلك بخلاف من قاموا
بالتمرد فى كواهويلا وسونورا، بل كان متمردا وحسب، وبكل ما فى الكلمة من معنى. ومن ثم،
فإن نوابه والقادة الثانويين فى حركته كانوا ينتمون إلى القطاعات الشعبية أيضاً. وقد لجأ
وصحبه إلى حمل السلاح للحيلولة دون أن يتولى باسكوال أوروسكو أمر السلطة المحلية أو أن
يعود حكم الأقلية إليهم مرة أخرى تحت رئاسة عائلة تيرّاساس. وقام اسهامه على دوره فى
تزويد الحركة المنادية بالدستور والدستورية بقوة عسكرية قيادية ضخمة لها أصولها الشعبية
إضافة إلى خبرته العسكرية. وهكذا، فإن موقف الشمال المعادى لأويرتا لم يقتصر بفضل بيـيا
على المنادين بالشرعية ولا على أبناء الطبقة المتوسطة وحدهم. وعلى الرغم من أن كتائب
بيـيا كانت كتائب شعبية إلا أنها لم تكن بأى وجه من الوجوه قاصرة على الفلاحين وحدهم.
فعلاوة على الكثير من أُجَراء اليومية والمزارعين ومستأجرى الأراضى والزراع بنظام
المشاركة والفلاحين الفقراء العاملين فى تربية المواشى وأفراد المستوطنات العسكرية السابقة،

شاركت فى حركته أعداد ممن يرعون ويروضون الثيران والأبقار والعاملين فى المناجم وعمال السكك الحديدية وعمال يشتغلون فى جهات أخرى.

لم يكن القتال ضد أويرتا مقتصرا على الشمال وحده، بعد أن أدى توليه السلطة إلى تحول فى طبيعة نضال أنصار ساباتا (زاباتا) وإلى ازدياد أعدادهم، وهذا يرجع لأنهم كانوا قد فقدوا الأمل فى تطبيق الإصلاح الزراعى، بعد أن ظهر جليا أن مشروع أويرتا لتحديد مقومات الدولة وهويتها قد فصلّه وأخرجه الجيش الفيدرالى وأصحاب المزارع الكبرى. كما وجدوا أن إجراءاته القمعية كانت تتسم بالعنف وسفك الدماء، وهو ما أدى إلى زيادة عدد المتمردين بعد أن وجدت جموع الفلاحين الذين يسكنون القرى أنفسهم مضطرين إلى تكثيف نضالهم دفاعا عن أنفسهم. وقد شارك أنصار ساباتا (زاباتا) فى القتال دون أن يعترفوا بزعامة كارّانسا لحركة التمرد، ويرجع إليهم الفضل فى امتداد الثورة ضد أويرتا إلى إقليمين آخرين من أقاليم البلاد وأن المطالب السياسية الأساسية التى نودى بها فى عام 1909 وعام 1910 قد ذهبت إلى أبعد من ذى قبل بإضافة عدة مطالب اجتماعية جديدة إليها، وخاصة المطالبة بإعادة الأراضى المستولى عليها والمطالبة باحترام طوائف ومجتمعات الفلاحين التقليدية باعتبارها عناصر ليست وحسب صالحة وقادرة، بل وحاسمة فى تنضيد العقد المكسيكى.

صبت الخلافات الاجتماعية الجغرافية للبلاد فى خلافات سياسية وأيديولوجية وعسكرية عميقة. فعلى الرغم من دور الزعامة الذى منحته "خطة غوادالوبى" إلى كارّانسا، فإنه لم يكن فى حقيقة الأمر إلا مجرد قائد لجيش متمرد يتكون من جهاز الموظفين المدنيين وغيرهم من المدنيين التابعين له، ولهذا فقد كان عليه لكى يتحول إلى القائد الأصلى للتمرد أن يُصدِّرَ حركته إلى المناطق القريبة له. فقام كارّانسا بإرسال بعض العناصر التابعة له لتشجيع انتفاضة التمرد فى ولايات نويبو ليون وتاماوليباس وساكاتيكاس وسان لويس بوتوسى وهو ما أدى إلى تقليص القواته العسكرية المتواضعة التى تحت يده، لكنه تحول من مجرد زعيم فى ولاية إلى زعيم إقليمى فى المنطقة. وقد أدى الضعف الذى حل بالقوات التى بقيت فى كواهويلا إلى إتاحة الفرصة أمام أنصار أويرتا لاسترداد هذه الولاية فى منتصف عام 1913 وهو ما أجبر كارّانسا على التخلى عنها وأن يتخذ له موقعا فى سونورا، وهى تجربة أتاحت له الاتصال

مع ثوار من ذوى الإتجاهات الاجتماعية أخرى. كما أنها أتاحت له أن يصبح القائد الحقيقي للتمرد فى منطقتين هما المنطقة الشمالية الشرقية والمنطقة الشمالية الغربية.

ومع مشارف عام 1914 كان المتمردون يسيطرون على شمال البلاد. ونشروا منذ منتصف عام 1913 وحتى نهاية فى كل من سان لويس بوتوسى وساكاتيكاس وسينالوا وخاليسكو وميتشواكان وفيراكروز حركات مناهضة للرئيس أويرتا كانت لها قوتها ووزنها. فى حين انعكس الوضع بالنسبة لهم فى وسط البلاد والجنوب والجنوب الشرقى، وهى مناطق كان ضلوعها فى التمرد محدودا: فعلاوة على ولاية موريلوس والمناطق المتاخمة لها -التى كانت مسرحا لحرب ضروس بين جيش أويرتا الشرس وجيش ساباتا (زاباتا) المكون من كل الوحدات الدفاعية التى شكلها الفلاحون من أبناء تلك المنطقة- كانت حركات التمرد فى وسط البلاد محدودة الأثر فى إيدالغو وفى تلاكسكالا. وتختلف التفسيرات بشأن سبب ضعف استشراء حركة التمرد فى تلك المنطقة، لكن البعض يرجعه إلى قربها من العاصمة وأهمية مرور السكة الحديدية عبرها إلى فيراكروز مارا بولاية بويبلا وولاية تلاكسكالا. وكان وضعها كـ "محور مروري" هام للصناعة مبررا إستراتيجيا كافيا للسيطرة عليها، وهو ما أجبر أويرتا على فرض السيطرة عليها من خلال الإجراءات القمعية. أما بالنسبة للجنوب، فكان فى ولاية غيريرو العديد من قوات التمرد، لكن ولاية واخاكا لم يكن فى مواقعها إلا عدد قليل من القوات. وكان فى الجنوب الشرقى وبالتحديد فى ولاية تاباسكو عدد من رءوس التمرد، ولكن نشاطهم لم يصل إلى الدرجة التى يمكن أن يسبب فيها قلقا لنظام الحكم. ومن المؤكد أن السبب فى هذا يعزى إلى تركيبتها الاجتماعية التى كان يسيطر عليها أصحاب مزارع حقبة الإستعمار الإسباني القديمة كما كان يغلب على قوامها فئات العمال البسطاء وأبناء السكان الأصليون للبلاد. علاوة على هذا، كان بُعد مسافتها وافتراضية صعوبة الإتصال بها، هو ما أدى إلى تحولها إلى منطقة تنفر من المشاركة فى النضال ضد أويرتا.

ومع حلول شهر مارس وشهر أبريل 1914، بدأت الجيوش الشمالية فى الزحف صوب وسط البلاد بهدف طرد أويرتا إلى خارج العاصمة. وعلى قلب رجل واحد، شكلت جيوش أوبريغون من جهة الغرب وبيــيًا من وسط البلاد وبابلو غونساليس من جهة الشرق قوة الزحف الكاسحة، فأصبحت هزيمة أويرتا حتما مقضيا لأن خطط وعمليات جيشه الحربية كانت

ذات استراتيجية دفاعية يجرى تنفيذها من مواقع ثابتة، كما كانت تحصيناته ومتاريسه مقامة فى المدن الرئيسية. وزاد الطين بلَة أنه كان مرفوضا من حكومة واشنطن، إضافة إلى أن فقدانه للسيطرة على حدود المكسيك الشمالية قد سبب له أزمة مالية حادة مما أدى إلى عجزه عن تجنيد المزيد من الجنود الجدد أو الحصول على الأسلحة والعتاد والمؤن. وهكذا، ففى الوقت الذى كان زحف المتمردين مستمرا، كان حكم أويرتا يعانى من التدهور المستمر. وعلى الصعيد السياسى، سرعان ما تشتت تحالف المحافظين الذى تشكل بعد انقلاب فبراير سنة 1913 وهو ما أثر على رسوخه فى السلطة وعلى شرعية النظام وكفاءته. كذلك فإن تولى الرئيس الديموقراطى وودرو ويلسون رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية وفقدان أويرتا للإقليم الذى كان يضم بين جنباته أهم الاستثمارات الأمريكية يفسر لنا سبب التباعد بين حكومتى أويرتا والولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن تحديد بداية تاريخ سقوط نظام حكم أويرتا بحلول شهر أبريل 1914 عندما بدأت قوات الشمال المكسيكى فى الاستيلاء على وسط البلاد وقيام مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) باقتحام فيراكروز (المكسيكية) لمنع أويرتا من تلقى شحنة أسلحة قادمة له من أوروبا. ولقد أدى زحف قوات الشمال إلى قيام عدة انتفاضات متأخرة بعض الشئ فى الولايات التى تقع فى وسط البلاد. كما كانت تؤدى كل هزيمة يلقاها أويرتا إلى هروب السلطات المحلية. وعلى الرغم من أن كتائب "جيش الشمال" التابعة للقائد بيــيًا كانت قد وصلت إلى ساكاتيكاس فى شهر يونيو، إلا أن كارَانسا قرر أن تتولى جيوش غونساليس وأوبريغون الاستيلاء على العاصمة المكسيكية كما قرر أن تظل جيوش بيــيًا فى شمال البلاد. ولقد مثل هذا القرار أخر حلقة من حلقات الصراعات الطويلة التى نشأت بينهما نتيجة لاختلاف أفكارهما الاجتماعية- الاقتصادية والسياسية-الأيديولوجية. وكان الإنشقاق بين دعاة الدستور على وشك أن يتفجر، إلا أنهم توصلوا فى نهاية المطاف إلى إتفاق يقضى بأن يستمر بيــيًا فى موقعه باعتباره عنصراً أساسياً فى الحرب ضد أويرتا على أن يبقى فى شمال البلاد، وأن يقوم كارَانسا بالدعوة إلى عقد مجلس للجنرالات بمجرد أن يحتل مدينة المكسيك، على أن يتخذ ذلك المجلس القرارات بشأن الإصلاحات الاجتماعية المطلوبة وكذلك القرار بشأن الرئيس القادم للبلاد.

وفيما عدا هذا الانشقاق، فقد استمر زحف الثوار بدون أية معوقات: إذ زحف أوبريغون فى اتجاه سينالووا وخاليسكو واحتل ولاية غوادالاخارا (وادى الحجارة) حيث انطلقت قواته منها صوب وسط البلاد، كما زحف غونساليس صوب مونتيريّـــى وتامبيكو وسان لويس بوتوسى وكيريتارو. والواقع أن القول بسهولة الزحف لا يتناسب ولا ينتقص بأى حال من الأهمية التاريخية لما قاموا به. فبادئ ذى بدء، لم تعد الحركة حركة شمالية صرفة، بل تحولت إلى حركة شملت على الأقل نصف مساحة البلاد. كما انطوى اتساع المدى الجغرافى لها على اتساع الإطار الاجتماعى الذى شملته الحركة. وبالنظر أيضاً إلى أن زحف الثوار قد أجبر أنصار أويرتا من أبناء طبقة النخبة أو الصفوة على الهروب متخلّين بهذا عن مناصبهم، فإن قوات المتمردين قد لجأت إلى أبناء الطبقات الوسطى من غير أنصار أويرتا للاشتراك فى إعادة تشكيل الحكومات المحلية وهو ما أتاح لتلك الطبقة الوصول إلى السلطة. واقترن وصول قوات المتمردين بعقد معاهدات مع الطبقات الشعبية من أبناء المكان. وصاحب وصولها أيضاً إصدار قرارات لصالح العمال وقرارات أخرى لصالح الفلاحين فى مقابل أن يقوم أولئك العمال والفلاحون بتأييدهم. ومن ثم فإن النضال ضد أويرتا قد انتقل خلال هذه الأشهر إلى "سيناريو" جديد وله أيضاً أشخاصه الجدد الذين يختلفون اختلافا كبيرا جدا عن المتمردين المنتمين إلى الشمال. ووجد المتمردون أنفسهم عندئذ مجبرين على تقديم اقتراحات يضمها مشروع يرمى إلى إعادة بناء الوطن بكل ما تحمله كلمة الوطن من معنى، وأن تجرى إعادة البناء على أساس جغرافى واجتماعى. وهكذا أصبحت تلك التحالفات السياسية وتلك التعهدات والالتزامات الاجتماعية هى اللب أو الأصل فى "الدولة" المكسيكية الآتية حثيثا فى أعقاب الثورة. وإذا كان النضال المتعلق بالانتخابات فى عهد ماديرو قد لقى المساندة من فئات الطبقة الوسطى التى تقيم فى الحضر، وإذا كان التمرد ضد بورفيريو دياس قد قامت به قطاعات شعبية تنتمى إلى الولايات الشمالية وتزعمها ابن من أبناء النخبة أو الصفوة كان قد نأى بنفسه عن طبقته، فإن النضال الذى قاده الدعاة إلى الدستور ضد أويرتا قد اتسم بالتحالفات بين قطاعات الطبقات الوسطى وقطاعات الطبقات الشعبية، وكان الذى يرأسها هو ذلك العضو القديم الراديكالى الأصيل فى الجهاز السياسى لحكم بورفيريو-ريـــيس.

الدعاة إلى الدستور فى مواجهة أصحاب "الاتفاقية"

بدأت مرحلة جديدة من مراحل "الثورة" المكسيكية تتخذ لنفسها طريقا جديدا، بعد احتلال مدينة المكسيك والانتصار على حكم وجيش أويرتا، وهو النصر الذى تجسد فى "معاهدات تيولويوكان" الموقعة فى شهر أغسطس سنة 1914 والتى تولت الحركة المناهضة لأويرتا الحكم بموجبها، كما تحول دور جيشها من جيش متمرد إلى جيش يسعى إلى نشر السلام. كذلك حدث تحول آخر بالغ الأهمية فرضه اتصال المتمردين مع منطقة وسط البلاد التى تضم مدينة المكسيك، وهى المنطقة التى تضم أكبر تجمع للصناعات فى البلاد. وتوجد تلك الصناعات فى كل من مدينة المكسيك وفى بويبلا وفى تلاكسكالا وفى أوريسابا. كما كان وسط البلاد أكثر المناطق التى شهدت الصراعات المتفجرة بسبب العلاقات بين المزارع الكبرى وطوائف الفلاحين مثلما حدث فى موريلوس وفى بويبلا وفى ولاية المكسيك. وحدث حينئذ أن حركة دعاة الدستور قد انتشرت أيضا وتجاوزت حدودها الإقليمية -أى شمال المكسيك- إلى أن أصبحت حركة قومية وطنية شاملة، وذلك بعد أن احتلت وسط البلاد والساحل الشمالى أولا، ثم امتدت إلى الجنوب والجنوب الشرقى.

ولم يكن التحدى هيّـــنا، لأن الدعاة الى الدستور كان ينبغى عليهم القيام بأداء مهام الحكم على الرغم من أنهم كانوا يفتقرون إلى وجود مشروع كامل محدد المعالم لديهم، أو جهاز سياسى-إدارى (بيروقراطى) من أهل الخبرة يكفى عدده للقيام بالمهام المنوطة به. وقد أجبرهم هذا الموقف على تشكيل فريق يتألف فى الأساس من ثلاثة عناصر: عسكريين وسياسيين يؤمنون بالنهج الدستورى من المتمتعين بالخبرة أو إمكانيات الإدارة - وأعضاء ينتمون إلى الطبقات الوسطى المُهمّـــشة خلال حكم بورفيريو دياس وحكم أويرتا - وأعضاء من أبناء الطبقة الوسطى والدنيا من الإداريين (البيروقراطيين) الذين كانوا يتولون وظائف خلال فترة العهد السابق واستطاعوا "إعادة تدوير" مفاهيمهم لتنسجم مع مفاهيم العهد الجديد. ولقد كان على هذا الجهاز الإدارى الجديد أن يسير قدما نحو تطبيق الإصلاحات الاجتماعية التى كان قد تعهد بها وخاصة تغيير هيكل الملكية الزراعية وزيادة التدابير الخاصة بحماية مصالح العمال. وكان عليه كذلك أن يوفر الضمانات التى كانت تطالب بها الطبقات الوسطى. والواقع أن استقرار أوضاع الحكم كان يقتضى تلبية المطالب الاجتماعية-الاقتصادية التى طرحتها الطبقات الشعبية ولكن دون إثارة المخاوف أو الرفض من جانب الطبقات الوسطى أو من

جانب المستثمرين الأجانب. وعلى صعيد آخر، كانت حكومة الدعاة إلى الدستور فى حاجة إلى توسيع نطاق سيطرتها صوب الجنوب والجنوب الشرقى للبلاد وهى أقاليم لم تكن فيها حرب ضد أويرتا، ولهذا لم تعانى طبقات النخبة أو الصفوة المحلية فيها من ضعف مكانتها، كما لم تكن تلك المناطق حقلا لإعداد "الكوادر" الموالية ولا لإعداد شبكات من المناصرين أو المتعاطفين مع المناداة بالتغيير.

لكن المشكلة الكبرى كانت تكمن فى اشتعال المواجهات بين جيوش المتمردين بعد أن حققت الانتصار على العدو المشترك – أويرتا – لأن كل جيش من الجيوش الثلاثة سواء كان لأنصار "الدعاة إلى الدستور" أو لأنصار بيـيا أو لأنصار ساباتا (زاباتا) كان يبغى أن يفرض بمفرده مقترحاته للتطور على باقى أرجاء البلاد ، علما بأن مقترحات بيـيا وساباتا (زاباتا) كانت تعالج النواحى الاجتماعية والجغرافية بصورة جزئية. وعلى الرغم من المحاولات المبذولة لإيجاد حل سلمى لتباين وجهات النظر والوصول إلى مشروع مشترك، فإن الخلافات كان من المستحيل حلها. وعليه، أصبح من المستحيل الحيلولة دون وصول الأمر إلى إشتعال فتيل النزاع بينهم. وقد جرت خلال النصف الثانى من عام 1914 محاولات للصلح بينهم. وبينما كانت تجرى تلك المحاولات، كانت المظاهرات المعادية التى قامت ضد كل طرف منهم تجرى كذلك على قدم وساق. وأكبر مثل على هذا هو ما أطلقوا عليه اسم"الاتفاقية" وهى عبارة عن تعهد يلزم كل من كارّانسا وأنصاره وبيـيا وأنصاره الموقعين على "معاهدة تورّيـيون" بأن يشتركوا فى تحديد بنود الإصلاحات السياسية والاجتماعية التى تتطلبها البلاد. وبدأت جلسات الإجتماعات فى أول أكتوبر فى مدينة المكسيك بشأن هذا الأمر بدون مشاركة بيـيا وأنصاره وبدون مشاركة ساباتا (زاباتا) وأنصاره، وهو السبب الذى أدى إلى ايقاف الجلسات والاتفاق على استئنافها فى أغواس كالينتيس باعتبارها تقع فى منتصف المسافة بين الشمال وعاصمة البلاد. وخلال هذه الجولة الثانية تقلص عدد مندوبى كارّانسا، فى حين حضر مندوبون من جانب بيـيا ومن جانب ساباتا (زاباتا) ممن تنتمى أصولهم إلى الحضر. وقد طالبوا بأن يتضمن الاتفاق اعترافا بتفوق وريادة ما أطلق عليه "خطة أيالا". ولا جدال فى أن هذا الإجتماع أو بالأحرى "الجمعية العمومية" كانت تضم أكبر تمثيل للجماعات الشعبية. وعلاوة على هذا أعلنت هذه الجمعية أنها ذات سيادة وتحولت إلى حكومة وسحبت اعترافها برئاسة كارّانسا الذى ترك

مدينة المكسيك وتوجه إلى فيراكروز باعتبارها مكانا أقل عرضة للمخاطر ويسيطر عليها مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) لكنهم أخلوها لكى يحتلها الدعاة الى الدستور.

ثم عاد الإقتتال مرة أخرى وتقدمت كتائب بيـيا صوب العاصمة حيث أجرت اتفاقا مع فصائل ساباتا (زاباتا) فى أوائل ديسمبر سنة 1914. وفى غضون ذلك شرع كارّانسا فى اتخاذ استعداداته الحربية فى فيراكروز. وأعاد كل فصيل تحديد مواقفه من الاتفاق: فقرر فصيل أوبريغون أن يظل كاحتياطى بديل لفصيل كارانسا. وكان فصيل بيـيا وفصيل ساباتا (زاباتا) يخالجهما الاعتقاد بأن أصولهما الشعبية ستمكنهما من عقد تحالفات مع غيرهم وهو ما سيمكنهم من النضال من أجل فرض مشروع مشترك. والنتيجة لتلك المواقف، أن ظلت البلاد من أقصاها إلى أقصاها تعانى طوال عام 1915 مما يسمى بـ"حرب الفصائل".

وكان كل شئ يشير فى بادئ الأمر إلى أن الجيوش الشعبية للقائدين بيـيا وساباتا (زاباتا) ستتمكنان من هزيمة القوات التى يقودها كارّانسا وأوبريغون من أبناء الطبقات الوسطى. وعلى الرغم من تلك التنبوءات، فإن النتيجة جاءت مختلفة بنسبة 180 درجة وهو ما ينبغى تفسيره على ضوء مجموعة من العوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. وإذا ما عدنا إلى حكومة "الإتفاقية" نجد أنها قد تشكلت على أساس وجود ثلاثة رؤساء لها، وهم إيولاليو غوتيـيريس وروكى غونساليس غارسا وفرانسيسكو لاغوس تشاسرو وكان ثلاثتهم يتسمون بالضعف كما كان على كل منهم مواجهة أحد الفصيلين الشعبيين الآخرين أو مواجهة الفصيلين معا. وقد أدى هذا الوضع إلى شيوع الخوف بين أبناء الطبقة الوسطى فقطعت علاقتها بـ "الإتفاقية" التى بدأت قوتها وفعاليتها تضعفان فى رسم مسيرة الحكم كما تقلصت قدراتها فى إقامة تحالفات سياسية أو اجتماعية من تلك التى تتعدد فيها طبقات المجتمع، فضلاً عن عجزها فى التمتع بثقة الرأى العام سواء على المستوى القومى أو العالمى. أما أسوأ ما فى الأمر بالنسبة لثلاثتهم فكان يكمن فى أن "الإتفاقية" كانت من ناحية المبدأ تنطوى على عوامل الشقاق، لأنها كانت تعتمد على القوة العسكرية للقائد بيـيا. ويُزيد الطين بلة أن ضعف الرؤساء الذين أتوا بعد الثلاثة كان ضعفا مركبا... وعلاوة على هذا، فإن القائدين بيـيا وساباتا أو وكلائهما الرئيسيِّين كانوا يضعون-وبدون وجه حق- السلطة الحقيقية فى أيديهم، كما أن أمور البرلمان كانت بدورها خاضعة لمعسكر هذين القائدين اللذين

كانا يضعان رئيس السلطة التنفيذية تحت سلطة مُنظِّرى أيديولوجياتهما وممثليهما. ويبرز منهم أنطونيو دياس سوتو إى غاما وهو أحد قدماء الليبراليين المنتمين إلى ولاية سان لويس بوتوسى ثم تحول ألى مناصرة ساباتا (زاباتا). ولهذا كان عجز الحكومة والإفتقار إلى الترابط الاجتماعى-السياسى هو أكبر سمات "الإتفاقية"...

على العكس من هذا، كان لفصيل الداعين إلى النهج الدستورى رئيس واحد هو بينوستيانو كارّانسا الذى كان يتمتع بالخبرة وبالمكانة الكبيرة. كما تميز فصيله الداعى إلى الدستورية عن غيره من الفصائل بأنه كان عبارة عن مجموعة متجانسة تتمتع بالانضباط الكافى للحفاظ على وحدة الجماعة وهويتها وهيكلها، وذلك بخلاف "أصحاب الإتفاقية" الذى بدءوا فى تنظيم أنفسهم بعد تحالف المجموعات الشمالية الشعبية (أنصار بيـيّا) مع جماعات الفلاحين التقليديين الذين يعيشون فى وسط وجنوب البلاد (أنصار ساباتا). غير أن هذا التحالف كان من المستحيل أن يستمر، إذ سرعان ما بدأت الخلافات الاجتماعية والأيديولوجية فى تقويض قدرته على تولى الحكم، كما أضعفت قوته العسكرية.

أما أصحاب "الإتفاقية" فقد كانت قدراتهم العسكرية أقل من قدرات الفصائل الأخرى، لأن فريقهم كان عبارة عن جيشين وكانت العناصر التى يتكون كل منهما تتباين بكل شدة، فضلاً عن أنهما كانا يختلفان فى الاستراتيجية وفى الأهداف لدرجة أنهما لم يكونا يتعاونان فيما بينهما. إذ بينما كان أتباع فصيل بيـيّا يدركون أن عليهم أن يحققوا النصر العسكرى أولا وتكريس أنفسهم تكريسا كاملا لتحقيقه، كان أتباع فصيل ساباتا (زاباتا) مقتنعين أن الأولوية يجب أن تعطى لإعادة تنظيم الإقليم سواء من الناحية السياسية أو من جهة هيكل ملكية الأراضى الزراعية، ثم البدء فى تصدير هذا النموذج فيما بعد إلى باقى أرجاء البلاد. ويعنى هذا أنه بينما كان أتباع بيـيا يخوضون حرباً شرسة فى عدة أقاليم مختلفة (إل باخيـيّو - منطقة أواستيكا الغنية بالبترول - ومنطقة شمال شرق البلاد)، كان أنصار ساباتا يقومون بحرب دفاعية محاولين فيها عزل إقليمهم عن غيره من الأقاليم... يضاف إلى هذا أن موقف أنصار بيـيا قد تأثر كثيرا نتيجة نقص المؤن بسبب عدم تعاون أبناء الجنوب معهم. ولقد كانوا يعتمدون فى تزويد جيشهم بالمؤن حتى أغسطس 1914 على الأسواق الأمريكية. لكن اشتعال الحرب العالمية الأولى جعل الدول الأوربية الصديقة للولايات المتحدة تحصل منها على كل

انتاجها من السلاح وهو ما أدى أيضاً إلى ارتفاع أسعاره. ومن جهة أخرى، ونظراً لأن دعاة الأخذ بالنهج الدستورى كانوا هم أول من احتل مدينة المكسيك فقد قاموا بالسيطرة على ورش تصنيع السلاح ومصانع الذخيرة والمؤن الحربية التى كانت حكومة بورفيريو قد شيدتها وحافظت عليها من بعده حكومة الرئيس أويرتا.

ولقد أثرت فى "حرب الفصائل" أيضاً عدة عوامل تكتيكية-استراتيجية. ونبدأ بكارّانسا الذى كان قد وضع توقيتات حملته العسكرية بصورة ملائمة: إذ أن معرفته بميل جيش ساباتا (زاباتا) لاتخاذ الوضع الدفاعى فى حربه جعلته يبدأ أولا بمواجهة جيش بيـيّا. علاوة على هذا، فإن الدعاة إلى الدستور كانوا يتمتعون بخبرة القتال حتى وهم مقسمون إلى عدة كتائب - على الأقل عندما كانوا فى جيوش الشمال الشرقى والشمال الغربى- وذلك بخلاف كتائب فرقة الشمال التى كانت موحدة طوال الوقت، ولكنها وجدت الآن نفسها مضطرة إلى التحرك لكى تخوض قتالاً متزامناً وفى نفس الوقت سواء فى وسط البلاد أو فى خليج المكسيك وفى شمال شرق البلاد. وأخيرا، فإن التكتيكات التى كانت قد حققت لكارّانسا عدة انتصارات ضد جيش أويرتا ونعنى بها "هجوم الفرسان"، لم تفلح معه هذه المرة لتحقيق النصر بسبب الخنادق التى كان جيش دعاة الدستور قد حفرها فى طريق زحف خيول أويرتا. كما أسهم عامل أساسى آخر وهو العامل الاقتصادى فى نتائج "حرب الفصائل". وكان ساباتا (زاباتا)، من جهة، قد قام بتوزيع أراضى المزارع الكبرى على الفلاحين. وبغض النظر عن عدالة تصرفه فإنه شكل ضربة شديدة للاقتصاديات المحلية. ومن جهة أخرى، كانت ولاية تشيهواهوا هى الولاية الوحيدة فى المكسيك التى استمرت فيها أعمال العنف منذ نهاية عام *1910*، وهو ما أدى إلى أن تعانى ثرواتها ومواردها أكثر من أى ولاية أخرى من الدمار الشديد. وأخيرا وليس آخرا، لقد كان على بيـيّا أن يواجه أقسى مراحل الثورة عنفاً بدون موارد تمكنه من تجنيد المقاتلين ثم اكتملت فوق رأسه حلقات الحظ العاثر بعد أن فوجئ بانقطاع توريد السلاح له نتيجة الطلب الأوروبى الكبير عليه.

وسارت الأمور مع دعاة الدستور فى طريق آخر. فمع بدء زحف جيشهم صوب وسط وشرق وجنوب شرقى البلاد بدأت تدين لهم السيطرة، فنجحوا فى السيطرة على أقاليم لم تكن أعمال العنف قد داهمتها من قبل، وكانت لها أهميتها الكبرى مثل مناطق إنتاج الغلال فى

كيريتارو وفى إل باخيــيو. كما كان نجاحهم فى احتلال مدينة المكسيك وولايات بويبلا وتلاكسكالا وفيراكروز يعنى سيطرتهم على أهم المناطق الصناعية فى البلاد، كما كان سيطرتهم على صادرات البترول وخيوط السيزال عبر خليج المكسيك تعنى الكثير بعد أن قاموا باحتلال ولاية يوكاتان. ولم يكن ماجرى يكفى، فقد قام فصيل "الإتفاق" بالسيطرة على مدينة المكسيك اعتبارا من أواخر عام 1914 وحتى شهر أغسطس عام 1915. ورغم أن هذا كان دليلا على قوتهم العسكرية والسياسية فإن السيطرة عليها ألزمهم بتحمل مسئولية الغذاء والأمن والصحة لأكبر عدد من سكان البلاد يتمركز ويعيش فى مكان واحد.

وعلاوة على أن توسع دعاة الدستور فى وسط وشرق وجنوب شرق البلاد قد وفر لهم موارد اقتصادية كبيرة، فإنه قد مكنهم أيضاً من تجنيد كتائب من المقاتلين الجدد الذين لم تكن الحروب قد أنهكتهم بعد. وقد اقترن ازدياد التوسع الجغرافى لتلك القوات فى الأقاليم بزيادة فى تمثيل مختلف فئات الشعب وطوائفه الاجتماعية فى كتائب الدعاة إلى الدستور. فما أن تُوَطِّد إحدى قوات كتائب دعاة الدستور وجودها فى منطقة من المناطق، حتى تكون كتيبة أخرى قد ضمت إليها قوتين إقليميتين مختلفتين. ولقد استطاع دعاة الدستور أن يسيروا قُدُماً فى تطبيق سياسة ذات شقين أولاهما تعمل لصالح صعود الطبقة الوسطى، وثانيهما تسعى لجذب القطاعات الشعبية من خلال بعض التنازلات الاجتماعية، وذلك دون التصرف بأسلوب يشيع المخاوف بين أفراد الطبقة البورجوازية، فأضافوا من أجل هذه السياسة فى شهر ديسمبر سنة 1914 ملحقا إلى "خطة غوادالوبى"، كما أضافوا قانون الزراعة فى يناير سنة 1915 وأضافوا فى الشهر التالى إتفاقية أبرموها مع "دار العامل العالمى" وهى أكبر منظمة عمالية فى المكسيك. وحتى إذا سلمنا بأن لجوء كارّانسا إلى الطبقات الشعبية لم يكن صادقا وإذا افترضنا أنه كان يسعى إلى إيجاد قواعد شعبية لفصيل أصحاب "الإتفاق"، فإن الحقيقة هى أن أفكار ساباتا (زاباتا) لم تتمكن من أن تجذب إليها جماعات الفلاحين الذين يعيشون فى الولايات القريبة فضلاً عن أنه لم يستطع أن يقيم تحالفا مع طبقة البروليتاريا فى ولايات وسط البلاد، إضافة إلى أن أفكار بيــيّا سرعان ما فقدت كل ما لقيته من تأييد تمتعت به فى عام 1914. ومع حلول نهاية عام 1915 كان انتصار الدعاة إلى الدستور حقيقة لا يرقى إليها أى شك، إذ أنه كانوا قد هزموا بيــيّا فى جميع الجبهات كما انتزعوا مدينة المكسيك من بين أيدى زاباتا وقواته. وقد بادرت الحكومة الأمريكية بالاعتراف بحكومة كارّانسا فى شهر أكتوبر سنة

1915، ثم كرس كارّانسا ما تبقى من هذا العام وكل عام 1916 لترسيخ دعائم انتصاره وصقل بنود مشروعه القومى.

فضائل وقيود مبادئ كارّانسا

تنقسم فترة كارّانسا إلى مرحلتين هما مرحلة ما قبل الدستور ومرحلة الدستور، ويعتبر شهر مايو سنة 1917 هو الحد الفاصل بينهما. وقد تميزت المرحلة الأولى بتغلب الطابع العسكرى الحربى عليها ، وذلك لأن أنصار بيــيّا وأنصار ساباتا (زاباتا) ظلوا رافعين السلاح كما انطلقت بعض حركات التمرد العسكرى الأخرى فى عدة أنحاء رافضة قبول النموذج الثورى، وذلك كما حدث فى منطقة انتاج البترول الواقعة على سواحل خليج المكسيك العليا وفى كل من فيراكروز وتشياباس وواخاكا وميتشواكان. كذلك وقعت إحدى أكبر المشاكل خلال عام 1916 وهى مشكلة دبلوماسية عسكرية نشأت كعقاب له بعد أن شن بيــيّا غارة على قرية كولومبس فى نيومكسيكو فقامت الحكومة الأمريكية بإرسال طابور "عقابى" لصده -لكنه لم يحقق نتائج جيدة- وقد ظل الطابور مرابطا فى المكسيك من أبريل سنة 1916 إلى فبراير سنة 1917. وتميز عام 1916 أيضاً بإجراءات واضحة لترسيخ دولة المؤسسات وسيطرة الإعتدال على مواقف الفصيل المنتصر. وبعد أن قُضِــىَ الأمر بهزيمة فصيل بيــيا وفصيل ساباتا (زاباتا) وأنصارهما، تخلت حكومة كارّانسا عن البحث عن التأييد الشعبى الشامل وبدأت تعود إلى أوضاع عامى 1914 و1915 والميل إلى تقديم تنازلات اجتماعية-سياسية لهذين الفصيلين.

كان على الجماعات المنتصرة لكى تعبر من مرحلة الثورة إلى مرحلة إقامة "دولة" ما بعد الثورة أن تحدد معالم مشروعها عن البلاد وهو بالضبط ما جرى تقديمه من خلال دستور 1917. وعلى الرغم من أن أول أهداف كارّانسا من القتال ضد أويرتا كان إعادة الشرعية انطلاقاً من دستور 1857، فإن هذا لم يتحقق بعد سبع سنوات من القتال. وكان ينبغى أن يكون القانون الأعلى الجديد (الدستور) من إعداد نواب يتم انتخابهم على مستوى المكسيك بأكملها، ويتحدد عددهم طبقا لحجم سكان كل ولاية مع منع انتخاب الذين كانوا معادين للدستور. وعليه فقد جرى استبعاد أنصار أويرتا وأصحاب "الإتفاق" ، لأن: النموذج الذى ستكون عليه الدولة

يجب أن يحدده الثوار المنتصرون الذين لن يكونوا مستعدين لأن يخاطروا على المنبر بما كانوا قد كسبوه فى ميدان المعركة.

لم يكن اقتصار المشاركة فى هذه المهمة على فصيل الدعاة إلى الدستور يعنى أن التجانس بينهم سيكون كاملا، وذلك لأن نواب الشعب كانوا ينتمون إلى جميع أقاليم البلاد وهو ما يعنى أن هنالك تباينا بينهم بالنسبة لواقعهم الاجتماعى-التاريخى كما أن كل واحد منهم قادم ومعه خلفيته السياسة وأفضلياته الأيديولوجية الخاصة به. وكان هذا يعنى: أن البعض منهم كانوا من المتعاطفين القدامى مع كاثوليكية أو "كَثْــلَكَة" المجتمع، والبعض الآخر كان من الموالين لفلوريس ماجون، وآخرون كانوا من أنصار ريـــيس السابقين، وغيرهم كانوا من المتعاونين مع نظام حكم ماديرو. وكل هذه الاختلافات تفسر لنا أسباب المعضلات التى واجهها النواب طوال الجلسات.

لقد كانت ولادة "الدستور" عملية شاقة بكل ما فى الكلمة من معنى. أى كما لو كانت عملية "لتقطيع الماء إلى أجزاء": ففيه خلاصة أيديولوجية الثورة وفيه الأسس التى تحكم قواعد نظام الدولة الجديدة. وبالدستور تتحول العملية الثورية المدمرة فى جوهرها إلى حكومة للبناء والانضباط. كذلك، فإذا كان من قام بالقتال المسلح اناس قد قَدموا من عالم الريف، فإن النواب الذين رسموا خطوط مكسيك المستقبل هم اناس كانوا من أبناء الحضر وكان أبناء الحضر أيضاً هم من بين من قام بإختيار أولئك النواب. وعلى صعيد آخر، فسواء كان عدد سكان ولايات الشمال منخفضا أو كانت ولايات مثل موريلوس وتشيهواهوا قد حضرت الحرب، فالواقع أن هذه المناطق بل وأكثرها نشاطا فى الصراع المسلح كان عدد نوابها المنتخبين فى الكونجرس الدستورى أقل عددا من النواب الذين كانوا يمثلون الولايات التى كانت مهمشة أو حتى معارضة للقتال. وهنا يجدر التنويه إلى أن ولاية تشيهواهوا لم يكن لها إلا نائب واحد فقط فى حين كان لسونورا 4 نواب وكان لكواهويلا 5 نواب بينما كان لولاية بويبلا 20 نائبا ولكل من ولاية فيراكروز وولاية بويبلا 18 نائبا ولكل من غواناخواتو وميتشواكان 17 نائبا وولاية واخاكا عشر نواب.

سرعان ما ظهر فى الدستور الجديد مدى التشابه أو الاختلاف عن دستور 1857. فبينما كان دستور 1857 يتخذ الليبرالية عقيدة ومذهبا كان الدستور الجديد يتخذ الواقعية عقيدة له ومذهبا، وذلك بسبب التركيبة المعقدة للبلاد علاوة على أنه كان انعكاساً للظروف الدولية السائدة فى ذلك الوقت بعد أن أفل نجم الأرستقراطيات وأفل حكم الأقليات كما حلت الأزمات بالدول الليبرالية. وينبغى هنا التذكير بأن دستور عام 1917 قد جرت صياغته فى الفترة الواقعة ما بين قيام الحرب العالمية الأولى ووقوع الثورة البلشفية. ولقد كانت التركيبة الاجتماعية-التاريخية المعقدة للمكسيك السبب الذى حمل الدستور الجديد على ضمان الملكية الخاصة والملكية الجماعية وضمان "التعايش" بين الشركات الكبرى الخاصة والشركات الكبرى التابعة للحكومة. وعلى الصعيد السياسى، ظلت المكسيك جمهورية إتحادية فيدرالية نيابية ديموقراطية، لكن السلطة التنفيذية كانت لها اليد العليا. ومن المؤكد أن النص على هذا فى الدستور كان بسبب الحاجة إلى أن تكون فى البلاد قيادة واحدة فقط وهى وحدها التى ستتولى -وبدون أدنى توانٍ- عملية إعادة بناء الدولة. ولنفس السبب أيضاً رسم الدستور صورة البلاد، بحيث تقوم على أساس "أن الدولة لا تنظر إلا إلى مصلحتها وحدها"، ولهذا فنظام الحكم استبدادى، كما يحق للدولة التدخل فى مختلف الأمور: مثل الشئون الاقتصادية والدينية وشئون التعليم. ولقد ثبت أن دستور البلاد هو دستور قومى لأن الثورة كانت تهدف إلى القضاء على الطابع الذى كانت المكسيك قد انطبعت به باعتبارها دولة من نتاج عالم الإستعمار الجديد، فضلاً عن أن البلاد كانت قد خرجت للتو من معاناتها من الغزو الأمريكى لفيراكروز الذى تم من خلال "الحملة العسكرية العقابية". كذلك فقد ضمن الدستور منح امتيازات للقطاعات الشعبية فى البلاد، وكانت إما بتوزيع الأراضى على الفلاحين أو على صورة منافع للعمال. والواقع أن القوة السياسية والعسكرية التى اكتسبتها هاتين الفئتين خلال معارك الثورة جعلت من غير الممكن أن يتغاضى الدستور عن منحهما تلك الامتيازات.

لقد كان دستور 1917 هو "الممكن" الوحيد لإقامة "دولة" قادرة على دعم ووضع ضوابط عملية التحول التى خاضتها البلاد عندما عبرت من مرحلة "مكسيك بورفيريو دياس" إلى مرحلة "مكسيك الثورة".

يعتبر العمل بالدستور الجديد وبداية الحكم الدستورى للرئيس كارّانسا فى مايو سنة 1917 البداية الرسمية لمكسيك ما بعد الثورة، لكن الرسوخ الحقيقى لـ "دولة" ما بعد الثورة تحقق بعد مرور ثلاث سنوات على هذا التاريخ. ولقد واجهت رئاسة كارّانسا الدستورية للبلاد عدة مشاكل سياسية وعسكرية بل واقتصادية ودولية واجتماعية أيضاً. وعندما نبدأ فى الحديث عنها نجد أن بدء العمل بالدستور قد اقتضى العمل بتطبيق أحكام وقوانين وإجراءات كانت البلاد على معرفة محدودة بها. فبعد ثلاثين سنة من حكم بورفيريو دياس وسبع سنوات من نضال الثوار كان يجب الشروع فى تخير شخصيات السلطة، كما كان ينبغى على القادة العسكريين الذين مازالوا يتمتعون بالنفوذ أن يرضخوا لحكم السلطات المدنية الجديدة، كما توجّب البدء باحترام الضمانات الفردية التى كفلها الدستور. ومن ثم فقد اكتنفت المصاعب الجمة عملية إعادة بناء نظام للحكم الديموقراطى فى بلد كان يفتقر إلى الثقافة السياسية وإلى المؤسسات الملائمة لتحقيقها، وكان تاريخها القريب يتأرجح ما بين النظام الاستبدادى وفوضى النظام.

ولم تنته المشاكل العسكرية مع عودة الشرعية... فالواقع أن كارّانسا كان عليه أن يواصل سياسة الإخضاع ومهمة نشر السلام وإلا ستظل بعض أقاليم البلاد بعيدة عن مجال سلطته وعن عملية التحول. فعلاوة على مهمته فى الحد من قوة بيـيّا وساباتا (زاباتا) العسكرية كان عليه أن يشن عدة حملات عسكرية جادة ضد عدد من الجماعات المتمردة الصغيرة وضد قطاع الطرق والمصنفين تحت بند "أعداء الثورة" ومن أهمهم مانويل بيلايـيس وفيليكس دياس اللذين كانا يتخذان من المنطقة البترولية وأواسط منطقة فيراكروز مجالا لأنشطتهما، ويضاف إليهما المتمردون من أنصار "التاج الإسبانى" ممن استقروا فى واخاكا وكذلك قوات أصحاب الأبعديات الزراعية فى تشياباس. وخطورة الأمر فى هذا تكمن فى أن كارّانسا كان عليه مواجهة كل هؤلاء بجيش تنقصة الكفاءة ويعانى من عدم الانضباط ومن سوء التسليح. وقد أدت تلك المواجهات إلى إثارة العديد من الصراعات السياسية لأن العسكريين رفضوا الحد من اختصاصاتهم، كما سببت له مشاكل اجتماعية خطيرة. كما حدثت تجاوزات ضد المجتمع من نظام حكمه وأسموها ("الكارّانسية"). وأخيرا، فلقد سببت الحملات العسكرية ازدياد حدة المشكلة الاقتصادية التى أثقلت كاهل البلاد لأنها أسهمت فى استمرار تدمير الثروة القومية والإضطرار إلى تخصيص جزء كبير من ميزانية الحكومة للبند العسكرى. كذلك كان جانب لا يستهان به من الأيدى العاملة بالبلاد قد لقى مصرعه أو اضطر للتخلى عن

العمل خلال فترة الصراع العسكرى، كما هاجر عديدون أيضاً أو انخرطوا فى واحد من تلك الجيوش المتصارعة أو فى إحدى الجماعات المسلحة. ولقد كانت هناك مشكلة نوعية بل وتتعلق كذلك بناحية الكم: إذ أدى نفى العديد من أصحاب المزارع الكبرى ورجال الأعمال والمهنيين إلى دول أخرى إلى انخفاض حجم رءوس الأموال لدى الناس. واكتملت المشاكل باندلاع الحرب العالمية الأولى مما حرم المكسيك من انسياب تدفق التجارة والإستثمارات الأجنبية وهو ما أدى إلى تأخير تنشيط الاقتصاد القومى.

حملت رياح الصراعات الحربية القائمة فى أوروبا إلى المكسيك مشاكل دبلوماسية جادة تمثلت فى أن حكومة الولايات المتحدة قد قامت بالضغط على المكسيك لكى تتخلى عن حيادها فى الحرب وأن تعمل لصالح الدول المتحالفة. إلا أن كارّانسا ظل مصمما على موقفه المتشدد من إتخاذ موقف الحياد، فوُجّهت أمريكا إليه تهمة الموالاة للألمان لأن المستشار الألمانى تزيمرمان كان قد عرض تقديم مساعدات عسكرية إلى كارّانسا إذا بدأت المكسيك الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية لكى تسترد منها الأراضى التى كانت قد فقدتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وبعد أن انتهت المعارك الأوربية طالب عدد من السياسيين الأمريكيين بمعاقبة كارّانسا بسبب "سلوكه المعادى" للولايات المتحدة طوال سنوات الحرب. ونظراً لأن فترة رئاسته كانت تنتهى فى عام 1920، فإن واشنطن فضلت عدم اتخاذ أى قرار جوهرى يمكن أن يؤثر على المصالح الأمريكية وعلى استثماراتها الكبيرة فى المكسيك، وتركت المكسيك فى مسيرتها "كدولة ما بعد الثورة" واقتصرت على الضغط عليها لكى تتجه إلى الاعتدال وإلى ترسيخ دولة المؤسسات وألا تتجه نحو الراديكالية.

شهدت البلاد فى عام 1920 تحولاً حاسماً بدأ مع الحملة الانتخابية لخلافة كارّانسا بين آلبارو أوبريغون الذى كان قد ابتعد عن كارّانسا وكان يتمتع بالتأييد من العديد من مجموعات الثورة –من بينهم جماعات من العسكريين والمدنيين والحضريين والريفيين وآخرين من الطبقات الشعبية ومن الطبقات الوسطى–، هذا من جهة، وبين إغناسيو بونيـيّا من جهة أخرى وهو كان أحد كبار المسئولين ومن الدعاة إلى الدستور –وكان يشغل فى ذلك الوقت منصب سفير المكسيك لدى الولايات المتحدة– وكان يتمتع بثقة بينوستيانو كارّانسا ولكنه كان غير معروف لدى الجنود الثوريين ولدى الرأى العام المحلى. ونظرا لأن الجيش الوطنى –الذى كان

موالياً للدستوريين حتى مايو 1917- كان الجهة التى تتمتع بأكبر قدر من التنظيم والقوة السياسية على المستوى القومى، وبالنظر إلى التفاوت الكائن بين أوبريغون وبونيـيًا بالنسبة لمستوى شبكات الاتصال الاجتماعية-السياسية والمكانة والشعبية التى يتمتع بها كل منهما، فإن مجموعة كارّانسا كانت ترى أنه ينبغى عليها اللجوء إلى تكتيكات تفرض من خلالها ما تريد كى تحافظ على زمام الأمور بين أيديها ، فكانت عاقبة هذا اندلاع انتفاضة "أغوا بريـيتا"، التى دامت فترة قصيرة الأمد ولم تسفك فيها الدماء. لكن مواقف كارّانسا المؤيدة للحكم المدنى منعته من اللجوء إلى الجيش التابع له، فاضطر للهروب من مدينة المكسيك ولقى مصرعهُ فى كمين أعد له فى إحدى قرى سلسلة جبال بويبلا.

تميزت نهاية هذا الصراع بابتعاد كارّانسا، وبالتأييد السريع الذى حظى به أوبريغون. ولقد انضم إلى حركة أغوا بريـيتا الكثير من التنظيمات الاجتماعية-السياسية سواء التابعة منها للحكومة أو التابعة للمعارضة، إضافة إلى مجموعات مختلفة من المتمردين كانت كل منها ترفع شعارا مختلفا عن شعارات المجموعات الأخرى. ثم بدأ النظر إلى حركة تمرد أغوا بريـيتا باعتبارها "ثورة تهدف للوحدة". والتفسير الأقرب للصواب لهذا هو أن الخلافات التى كانت قائمة بين السيد بينوستيانو كارّانسا وبين الثوريين السابقين -بيـيًا وساباتا (زاباتا)- لا يمكن حلها إلا من خلال الحل العسكرى. فى الوقت نفسه كان كل من أبريغون وكايـيس وبقية زعماء انتفاضة أغوا بريـيتا يرون أن الصراع له طابعه الاجتماعى-السياسى: ومن ثم فبدلا من قتالهم، يجب العمل على ضمهم إلى صفوف "الدولة الجديدة". وبعد أن أدرك القادة الجدد أن نموذج "دولة ما بعد الثورة" الذى حمل كارّانسا لواءه يتعارض مع طبيعتهم وسيؤدى إلى حالة من عدم الاستقرار المزمن، أبدى هؤلاء القادة استعدادهم لتقديم التنازلات السياسية والاجتماعية التى طالب بها عدد من الجماعات الهامة، التى كانت بالفعل هامة طوال فترة احتدام الصراع.

الدولة الجديدة

ولدت دولة ما بعد الثورة المكسيكية نحو عام 1920 إذ أن الجماعات الأساسية قد عملت على قيامها -مع درجات متفاوتة من المنفعة وتكريس النفوذ- خلال خطوات مسيرة الثورة. واعتباراً من عام 1920 تولت مقاليد السلطة فئة من الطبقات الوسطى تختلف اجتماعيا

وسياسيا وأيديولوجيا عن جماعة كارّانسا التى كانت تفتقر إلى روابط الوصل مع النظم الأقدم. وكان جانب من قوة تلك الطبقات الوسطى راجعا إلى تحالفاتها مع القطاعات الشعبية. ولما كانت هذه القطاعات الشعبية ليس لديها تطلعات للزعامة الوطنية مثلما كان لها فى عام 1915 فى موضوع "الإتفاق"، فإن المقابل الذى حصلت عليه نتيجة للتأييد والخضوع للطبقة الوسطى تمثل فى حصولهم على امتيازات اجتماعية وسياسية لها قيمتها. ومع ذلك، فإن هذا التحالف لم يكن يتطلب أن تصبح دولة ما بعد الثورة دولة راديكالية، نظراً لأن الطبقات الوسطى التى أصبحت الآن فى السلطة لم يكن لها تعاهدات مع المتمردين المعادين للثورة الذين كانوا يمثلون فى الأقاليم طبقة النخبة أو الصفوة.

من المسلم به أن الثورة المكسيكية كانت أهم الأحداث التاريخية خلال القرن العشرين، لأنها أدت إلى إقامة دولة تتولى مقاليد أمورها بعض فئات الطبقات الوسطى غير الراديكالية التى رأت ضرورة تلبية المطالب الرئيسية للجماعات الشعبية نظراً للمشاركة الحاسمة لتلك الجماعات أثناء القتال. ولقد قامت مسيرة الثورة على عملية حربية اجتماعية-سياسية استغرقت عشر سنوات وأدت إلى صعود القطاعات الوسطى والشعبية وإزاحة حكم الأقلية (الأوليغاركية) البورفيرية. وكان على رأس الثورة فى الفترة من عام 1910 إلى عام 1912 بعض من انشقوا عن النخبة أو الصفوة ممن يحظون بتأييد العديد من جماعات الطبقة الوسطى وبعض العناصر الشعبية. واعتبارا من عام 1913 تولت الطبقة الوسطى الزعامة وازداد الاهتمام بالمشاركة الشعبية. ولم تكن "الدولة الجديدة" التى ولدت فى عام 1920 دولة ديموقراطية لكن هويتها كانت قومية، وكانت استبدادية ولكن كان لها مشروعيتها الواسعة النطاق، وبينما كانت تتمتع بتأييد شعبى عريض فأنها كانت أيضاً تحت قيادة زمرة من السياسيين-العسكريين الذين يتميزون بمهارتهم ومرونتهم وكانت تتمتع بقبول الولايات المتحدة، وإن كانت أحيانا مجبرة على هذا القبول...

كانت رئاسة أوبريغون هى أول رئاسة لدولة ما بعد الثورة، وكانت تتمتع بالشرعية إذ نشرت السلام بين ربوع البلاد. وتمت الانتخابات الجديدة خلال فترة تولى أدولفو دى لا أويرتا الرئاسة بالنيابة باعتباره رئيسا مؤقتا للبلاد. وقد بينت رئاسته مدى التعقيدات التى تعرض لها حكمه. ومن المفهوم أن أوبريغون كان قد بدأ يتعامل كزعيم يحكم طبقا لمشروع محدد، وكانت أهدافه الأساسية هى إعادة بناء البلاد، ولهذا سعى لنشر السلم بين ربوع البلاد وهو ما نجحت

فى تحقيقه حركة أغوا بريـيتا (وهى حركة جمعت بين أطراف متعددة) ثم تعزيز وتركيز السلطة حيث كانت الفرقة والتشتت أثرا من الآثار التى خلفتها الثورة. واقتضى بناء الدولة الجديدة إزاحة الكثيرين من أنصار كارّانسا من الميدان. إلا أن الانسجام والتلاحم الأيديولوجى لم يكن من سمات دولة ما بعد الثورة، وذلك يرجع إلى أن حركة أغوا بريتا كانت قد ضمت أليها غالبية الدعاة إلى النهج الدستورى فضلاً عن الحركات الرئيسية المناهضة لكارّانسا سواء كانت من الثوريين السابقين أو من أعداء الثورة.

وعند البدء بالحديث عن المجال الزراعى نجد أنه على الرغم من أن المطالب الزراعية لبعض الجماعات الثورية قد تمت تلبيتها، إلا أن الدولة الجديدة قد اعتمدت على التطور الذى حققته الملكيات المتوسطة والصغيرة، وهو تطور قد تحقق كنتيجة لأن كثيرين من زعماء الثورة كانوا ينتمون إلى الطبقات الريفية الوسطى. أما فى مجال العمال، فإذا كان فى السابق قد جرى انشاء هيئات راديكالية للعمال مثل الإتحاد العام للعمال، فإن حكومة أوبريغون قد عقدت تحالفات لتبادل المصالح بينها وبين الإتحاد العام الإقليمى المكسيكى للعمال. كذلك أصدرت حكومة أوبريغون قرارا بإعادة البنوك التى كان قد جرى الاستيلاء عليها خلال حقبة الصراع الثورى، كما سمحت بعودة المنفيين سواء كانوا من أنصار بورفيريو دياس أو من أنصار أويرتا. وأدى شيوع السلام بين أرجاء البلاد إلى تعافى اقتصاديات الزراعة والتعدين والمناجم ونظام السكك الحديدية. وعلى صعيد آخر، كانت الولايات المتحدة قد بدأت انطلاقتها الاقتصادية العظيمة فانعكس هذا بالتالى على زيادة الطلب على البترول المكسيكى.

كانت أكبر المشاكل التى واجهت حكم أوبريغون هى مشكلة المصاعب التى تكتنف علاقات المكسيك مع الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى التمرد العسكرى الذى نشأ بسبب خلافة الحكم. والواقع أن حكومة الولايات المتحدة رفضت الاعتراف رسميا بوجود مشكلة، مدعية أن الأمر لا يعدو كونه مجرد كلام يردده العسكريون. والحقيقة أن المصاعب مع أمريكا لم تكن بمثابة عقاب أدبى على المكسيك، وإنما كانت الولايات المتحدة تهدف من ورائها إلى ممارسة الضغط على الحكومة المكسيكية لكى تعدل بعض بنود دستور عام 1917 التى كان الأمريكيون يعتبرونها مضرة بمصالح الأمريكيين. وقد قبلت الحكومة المكسيكية بعدم رجعية تطبيق التدابير القانونية التى يقضى بها الدستور (أى عدم تطبيقها بأثر رجعى)، وذلك بدلا من تعديل بنوده. ثم ازدادت تنازلات أوبريغون لحكومة الولايات المتحدة وللمستثمرين الأمريكيين

من خلال ما أطلق عليها إتفاقيات بوكاريلى) وذلك فى نهاية فترة ولايته، بعد أن أصبح فى أمس الحاجة لمساعداتها لخوفه من نشوب قيام حركات تمرد جديدة لأسباب تتعلق بالانتخابات.

ويمكن القول أن الإتجاهات القومية السائدة فى سنوات حكم أوبريغون لم تكن ذات طابع سياسى أو اقتصادى، بل كانت ذات طابع ثقافى لأن البلاد كان عليها أن تترسّم خطوط هويتها الثقافية الجديدة وتقوى دعائمها، وتقديمها باعتبارها هوية دولة شابة لها جذورها التى تمتد إلى أسلاف عديدين، وباعتبارها هوية ثقافية قومية لا تضمر كراهية لأجنبى، وباعتبارها هوية ثقافية ثورية ولكنها تؤمن بالخيال الذى يغير إلى الأفضل، وباعتبارها تؤمن بالنظام والانضباط وخاصة ذلك النظام والانضباط الذى يحقق الإنصاف والعدل والتمسك بهما.

تحولت البلاد خلال مسيرة الثورة تحولا شاملا، وأصبحت التحولات فى المجال الثقافى واضحة للعيان. وظهر فى نهايات عصر بورفيريو دياس ما أطلق عليه اسم جـيل "مجمع أثينا"، وقد قام هذا الجيل بتوجيه انتقاداته لسيطرة فلسفة المذهب الوضعى أو الإيجابى وعدم تشجيع العلوم الإنسانية والفنون. وبرز من ذلك الجيل شباب مثل أنطونيو كاسو وبيدرو إنريكيس أورينيا وخوسيه باسكونسيلوس وألفونسو ريـيس وخوليو تورّى. وبعد ذلك ببضع سنوات وبالتحديد فى منتصف عقد سنوات الحرب انطلق جيل آخر هو "جيل 1915" متوجا بنخبة أطلق عليها مجموعة "العلماء السبعة" وكانوا من شهود دمار البلاد وضحاياه. وبدلا من أن يكرسوا جهودهم لبث ثقافة الفنون والعلوم الإنسانية اتجهوا إلى انشاء الهيئات والمعاهد الاقتصادية والسياسية والثقافية التى استفادت منها البلاد فى عملية إعادة البناء، فأنجبت شبابا لامعين مثل مانويل غوميس مورين وبيسنتى لومباردو توليدانو والفونسو كاسو ونارسيسو باسولس ودانييل كوسيـيّو بيـيّغاس.

عندما وصلت الطبقة الوسطى الجديدة إلى السلطة فى عام 1920 فتحت الباب أمام خوسيه باسكونسيلوس ليكون أول وزير للتعليم العام. وكان باسكونسيلوس يرى أن الثورة يجب أن تكون ثورة أخلاقية ومعنوية قبل أن تكون ثورة زراعية وعمالية وقومية. وكان يرى كذلك أن التربية ينبغى أن تتجاوز مجرد بث المعلومات فى عقول الطلبة، فاهتم بأن يتعرف الطلبة على كافة أوجه الثقافة والخروج عن إطار الكتب المدرسية إلى البحث عن المعرفة خارج تلك الكتب. ولهذا شجع طباعة الكتب وأنشأ المكتبات كما وفر الأجواء المواتية لفنانى الجداريات مثل خوسيه كليمنتى أوروسكو وديـيغو ريبيرا ودابيد ألفارو سـيكيـيْروس لكى

يبدعوا رسوماتهم التى تنسجم مع الأهداف التربوية التعليمية أو تتناول موضوعات عن الثورة. فنقشوا رسومات على جدار بعد جدار، ووصل عددها إلى المئات. وهى تجمع بين تاريخ الماضى وأحداث الحاضر وإستشراف المستقبل. ومن جهة أخرى، فقد أدت الأحداث الملحمية والدرامية لتلك السنوات إلى ولادة تيار أدبى جديد أطلق عليه "رواية الثورة"، ومن أهم الروائيين فى هذا التيار يبرز ماريانو أسويلا ومارتين لويس غوسمان ورافائيل ف. مونيوس وفرانسيسكو ل. أوركيسو وخوسيه باسكونسيلوس نفسه. وتستعرض صفحات رواياتهم كل صغيرة وكبيرة بدءا من ذلك الجندى مجهول الاسم وانتهاء بأبطال النضال مثل ماديرو وكارانسا وبيـــيّا وأوبريغون.

قرر أوبريغون فى نهاية فترة حكمه أن يدعم بلوتاركو إلياس كايّـــيس فى خلافته على كرسى الرئاسة وهو زعيم حركة تمرد أغوا بريـــيتا كما كان وزيرا للحربية والبحرية خلال الفترة القصيرة التى تولى فيها دى لا أويرتا رئاسة الجمهورية كما تولى وزارة الداخلية إلى جانب منصبه بعدما أصبح رئيسا للجمهورية. وعلاوة على أنه كان سياسيا واسع الخبرة ويتمتع "بشبكات" واسعة تؤيده بين القطاعات الشعبية المنظمة، فإنه كان يتمتع كعسكرى بتأييد كبير بين صفوف الجيش. ومع هذا، فقد كان عدد المتطلعين إلى كرسى الرئاسة كبيرا وبصفة خاصة من العسكريين، وهو ما أدى إلى قيام عدة حركات تمرد قام على رأسها بعض القادة العسكريين. وعلى الرغم من هذا فإن المرشح الرئيسى فى انتخابات الرئاسة كان الرئيس المؤقت السابق ويليه فى الترتيب وزير الخزانة أدولفو دى لا أويرتا. إلا أن النتيجة كانت محسومة لعدة أسباب: أولها إغتيال بانتشو بيـيّا فى النصف الثانى من عام 1923، وكان قد جهز للقيام بحركة تمرد لصالح دى لا أويرتا. وهكذا أصبح المتمردون بلا زعيم حربى شعبى. ثم يأتى بعد هذا أن الحكومتين المكسيكية والأمريكية قد اتفقتا على تبادل الاعتراف بينهما وأن تكون معاهدات بوكاريلى هى المرجعية لكلتيهما. ومن جهة أخرى فبينما كان دى لا أويرتا يتمتع بتأييد جانب من الجيش ومن "طبقة السياسيين" –أى الحزب الوطنى التعاونى– فإن أوبريغون وكايّـــيس كانا يتمتعان بتأيد الولايات المتحدة وبتأييد معظم القطاعات السياسية والعسكرية فضلاً عن معظم القطاعات الشعبية المنظمة، سواء كانت من العمال أو من الفلاحين. لكن النزاع خلّف وراءه دروسا عديدة: فبعد حركة تمرد أغوا بريـــيتا وحركة تمرد دى لا أويرتا أصبح من الواضح ضرورة أن يقوم الثوريون السابقون بالاستعداد قبل الانتخابات

لوضع نظم توزيع المقاعد فى الانتخابات التى ستجرى بين أبناء الشعب. والدرس الثانى كان التحذير بشأن الحاجة للمسارعة بإبعاد الجيش الوطنى عن السياسة وإنشاء هيئة وطنية مدنية تتحول إلى الهيئة السياسية الرئيسية فى البلاد. والدرس الثالث أنه من المصلحة الحفاظ على علاقات طيبة مع الولايات المتحدة.

على الرغم من أن بلوتاركو إلياس كايّـــيس كان يسير على خطى أوبريغون، إلا أنه كان رجلاً سياسياً أكثر منه عسكرياً. ولهذا تميزت فترة رئاسته التى ابتدأت أواخر عام 1924 وانتهت أواخر عام 1928 بجهوده فى ترسيخ قواعد مؤسسات الدولة السياسية ومواجهته للكنيسة الكاثوليكية كما تميز بجهوده فى الأخذ بأسباب التحضر والعمران. ومن سمات حُكمه الأخرى أخذه بسياسة المشاركة فى الحكم، متأثرا فى هذا بالزعيم أوبريغون. وكان هدفه الأساسى أن تكون مسيرة التحول فى حقبة ما بعد الثورة متسمة بالنظام والعقلانية ولهذا أدخل أحكاما وقواعد –بل وحدودا– من خلال لجان قومية من بينها لجان الزراعة والبنوك والطرق والرى. كما سعى لتنشيط الحياة الاقتصادية ووضع الضوابط لها من خلال مؤسسات مثل بنك المكسيك وبنك الائتمان الزراعى، وسعى لتوفير موارد مالية للحكومة بالاستغلال الأفضل للعملات الأجنبية الناجمة عن انتاج النفط إضافة إلى وضع نظام ضرائبى يتسم بالكفاءة. أما فى مجال الزراعة، فقد كان كايّـــيس محبذا للملكيات المتوسطة المتسمة بالكفاءة، لكن ثقته فى تحسين الرى والتمويل واستخدام التكنولوجيا كأداة لحل مشاكل الفلاح كانت أكبر من ثقته فى سياسة مجرد توزيع الأراضى. وبالنسبة للعمال، فقد اقترح تبادل التعاون مع كبرى التجمعات والمؤسسات العمالية مثل الإتحاد الإقليمى لعمال المكسيك. ومحصلة هذا أن كايّـــيس كان قد أدرك أن التحدى الأكبر له يكمن فى خفض حجم الجيش الثورى السابق وإبعاده عن السياسة وإعادة تنظيمه، وهو العمل الذى قام به أحد معاونيه الرئيسيين وهو: خواكين أمارو.

عانت حكومة كايّـــيس بسبب تطلعاتها إلى الانطلاق وترسيخ دعائم الدولة من الصراع مع المؤسسة الأخرى ذات الطابع القومى: الكنيسة الكاثوليكية. فقد اتخذت مواجهة الحكومة معها أبعاداً كبيرة لأنها كانت تقتضى التنافس معها فى المجالات الثقافية والتعليمية والاجتماعية والسياسية والسيطرة على المواطنين، وانتهاءً بأن تحسم الحكومة الأمر عسكريا فيما تسمى "حرب أنصار المسيح" التى استمرت طوال ثلاث سنوات تقريبا (من أواخر عام 1926 إلى النصف الثانى من عام 1929) وأهلكت الحرث والضرع فى عدد من ولايات الوسط الغربى هى

ولايات: خاليسكو – كوليما – ميتشواكان – غواناخواتو – كيريتارو – أغواسكاليينتيس – ساكاتيكاس. وكان "أنصار المسيح" ممن ينتمون إلى مناطق تتعدد فيها مزارع تربية الماشية وكانوا يدافعون عن عقيدتهم الدينية لكنهم كانوا يرون فى أن الإصلاح الزراعى يشكل تهديدا لهم وليس مجرد وعد للفلاحين، كما كانوا يرون أن وجود الشماليين فى معظم المناصب الحكومية يعد مظهرا من مظاهر التسلط عليهم. ولقد كانت قدراتهم العسكرية المحدودة واضحة، إذ لم يصل بهم الأمر أبدا إلى حد تشكيل جيش له قيادة موحدة أو يتمتع بالتعاون بين وحداته وإنما كان الأمر يتعلق بقوات دفاعية محلية يرأسها أحد المقربين وتكون أو لا تكون لها بعض الخبرة العسكرية. وقد قاسى "أنصار المسيح" كذلك من نقص فى الأموال وهو ما انعكس على تسليحهم المتواضع. كما لم يتمكنوا من عقد تحالف مع الجانب الحضرى المقابل لهم، أى الرابطة القومية للدفاع عن حرية الأديان. وأخيراً، فإن من حاربهم كان جيش الحكومة وكانت معه قواته المنظمة التى تعتمد على المزارعين والعمال. وعلى الرغم من أن "أنصار المسيح" لم تكن لهم قوات كافية للإطاحة بالحكومة، إلا أن هزيمتهم لم تكن سهلة، وهو ما أدى إلى توطن نوع من عدم الاستقرار، ولهذا توصلت الحكومة إلى اجراء مفاوضات مع الرتب الرئيسية فى الكنيسة الكاثوليكية. وقد وافقوا على الإمتثال لسلطة الحكومة والتوقف عن التدخل الواضح فى الشئون السياسية مقابل ألا تحاول الدولة تفعيل البنود المتشددة فى دستور 1917.

كان هذا الإتفاق أحد أهم العناصر المؤثرة فى نشر السلم على ربوع المكسيك بعد حقبة الثورة. ولقد مثّل توقيع إتفاق السلام مع "أنصار المسيح" ضرورة لا غنى عنها باعتبار أن عام 1929 سيشهد انتخابات رئاسية ذات طبيعة خاصة جدا. والواقع أن الزعيم أوبريغون كان قد نجح فى تعديل الدستور لكى يسمح بإعادة الانتخاب (لرؤساء قد سبقوه) ولكن ليس لفترة الولاية التالية مباشرة على انقضاء فترة الرئاسة، وذلك كبرهان على المبدأ السائد الذى كان يدعو إليه أوبريغون ويكمن فى منح الفرصة لغيره للمشاركة فى الحكم. وقد قام اثنان من كبار العسكريين المقربين للرئيس أوبريغون بتنظيم احتجاجات بحجة معارضة مبدأ إعادة الانتخاب، ولكنهما سرعان ما لقيا مصرعهما ضحية عمل من أعمال العنف... فخيم الحزن والأسى على المجتمع بأسره، كما ساد التشنج والتوتر الأجواء السياسية... ثم جرى اغتيال أوبريغون أيضاً على يد أحد المقاتلين الكاثوليك بعد أن غدا رئيسا منتخبا.

وبعد غيبة الزعيم، فقد النظام السياسى لفترة ما بعد الثورة رائده العظيم والحَكَم القاضى الوحيد فيه. وكانت المعضلة تكمن فى انتظار مقدم زعيم جديد أو بناء مؤسسة سياسية

تتولى استكمال ما قام به من مهام، لأن الأزمة السياسية الناجمة عن مصرعه كانت تفوق كل شىء. ولم يكن يكفى لحل المشكلة مجرد تعيين مرشح غيره أو تنظيم انتخابات جديدة . فلقد كانت حركات التمرد التى اشتعلت قبل الانتخابات خلال عامى 1920 و 1924 واغتيال ثلاثة من المرشحين لانتخابات 1928 علامات إنذار واضحة تبين مدى الحاجة إلى أن تجرى العملية الانتخابية بصورة حضارية وأن يتم تشكيل هيئة أو جهة تتولى استيعاب وتنظيم ووضع الضوابط أمام جميع انصار الثورة السابقين، وأن تقوم بوضع الأنظمة واللوائح التنفيذية الخاصة بإجراءات اختيار المرشحين للمقاعد فى انتخابات شعبية. ولقد كانت تلك الهيئة السياسية (أى الحزب الوطنى الثورى) هى التى جرى تأسيسها فى شهر مارس سنة 1929. وبإنشاء هذا الحزب ونهاية حرب "أنصار المسيح" وجعل الجيش واحدا من المؤسسات التى تخضع لسيطرة للدولة، انتهت فترة من الفترات التى توصف -إن جاز التعبير- بأنها "فظة" فى تاريخ الثورة المكسيكية. ويمكن القول إذن أن الوقت قد أذّن لبداية مرحلة تاريخية جديدة لا تخلو بداهة من التحولات والتغييرات والمشاكل ولكنها ستحقق للمجتمع الوئام والاستقرار السياسى الكبيرين -حتى وإن لم يكن ديموقراطيا- كما ستجعل البلاد تتمتع بعقود من سنوات النمو الاقتصادى.

المرحلة الأخيرة 1929-2000

لويس أبويتيس أغيلار

عاش المجتمع المكسيكى خلال الإحدى وسبعين سنة التى يتناولها هذا الباب تحولات كبيرة بل وربما تكون على نفس درجة العمق والتجذّر التى حدثت خلال السنوات التى تلت وصول الإسبان فى عام 1519إلى الأراضى المكسيكية. وأكثر هذه التحولات مغزى هو الإنتقال من مجتمع زراعى إلى مجتمع حضرى، وهى ظاهرة اقترن حدوثها مع ظاهرة ازدياد عدد السكان. كما شهدت عدة فترات أدى الرخاء الاقتصادى فيها إلى بلوغ الصناعة والخدمات درجة عظيمة ومتزايدة من الأهمية. وقد انطبعت بصمة هذه الفترة على مختلف الأنشطة التجارية وعلى صناعة التعدين. وشهدت أيضاً تغيرات ذات طابع سياسى. وقد نجح الحكام فى هذه المرحلة فى التوصل إلى تفاهم سياسى أمكن من خلاله بسط السلام الدائم على ربوع البلاد. وكان نظام الحكم المستبد القائم على شخص رئيس الجمهورية وعلى الحزب الرسمى يلجأ إلى التفاوض لكنه كان يلجأ كذلك إلى القمع لفرض سيطرته. ومع هذا فقد بدأ النمو الاقتصادى

ونظام الحكم الاستبدادى يعانيان من الضعف الواضح مع حلول نهايات القرن العشرين. لكن ازدياد النمو الحضرى والاستقرار السياسى ظلا على حاليهما.

وعلى مدار تلك العقود السبعة وقعت أحداث وبرزت عدة ظواهر عالمية أثرت بالتالى على المجتمع المكسيكى بصورة أكبر مما حدث فى قرون سابقة. وكان من أكبر تلك الأحداث التى أثرت وتركت بصماتها على المكسيك وكشفت "دولة الرفاهية": أزمة عام 1929 الاقتصادية - الحرب العالمية الثانية - والإصلاحات التى جرى تطبيقها خلال عقد الثمانيينات. وقد اختلف مدى وصورة أثر كل هذا على المكسيكيين، فمنهم من عانى منها ومنهم من استفاد منها ومنهم من استطاع أن يوفق أوضاعه ومنهم من قاومها ومنهم من عرف كيف يستغلها، ولكن الجميع بلا استثناء لم يكن فى مقدورهم أن يفعلوا إلا النذر اليسير للتغلب على تلك الآثار.

الأزمة العالمية وإعادة ترتيب أوراق السياسة

أدت أزمة بورصة نيويورك للأوراق المالية التى وقعت فى خريف عام 1929 إلى ضرب اقتصاديات عدد كبير من الدول التى ظلت تعانى منها لسنوات وسنوات إلى أن استطاعت أن تتجاوز آثارها. وقد انخفضت الأسعار وتقلصت التجارة العالمية بصورة درامية، كما أدى غلق الشركات والمؤسسات إلى البطالة بين ملايين العمال والموظفين فى مختلف الدول. أما فى المكسيك فقد أدت الأزمة إلى انخفاض الصادرات والواردات، وهو ما أثر على دخل الحكومة الإتحادية التى كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على مواردها من التجارة الخارجية. أما أكثر المناطق التى أنهكتها البطالة فقد كانت تلك المناطق التى تعتمد اعتماداً كبيراً على علاقتها بالتجارة الدولية مثل مناطق التعدين والمناجم الواقعة فى شمال البلاد. وازدادت الأمور سوءا بسبب موجة الجفاف التى ضربت البلاد فى عام 1929. ولهذا عانى أغلب أهل المكسيك من مصاعب شديدة وخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون فى الريف ويعملون فى الزراعة وتربية المواشى. وإزاء ذلك الموقف العصيب الذى عم أرجاء العالم، وجدت حكومة المكسيك وغيرها من الحكومات نفسها مجبرة على أن تبحث كل واحدة منها عن البدائل داخل حدودها فى محاولة منها لحل أزماتها. ولهذا فعندما وجدت المكسيك أن منتجاتها لا يمكن بيعها فى الخارج، لم يكن أمامها من بديل إلا أن تطرحها فى أسواقها الداخلية. ومن ثم فقد بدأ التخلى عن فكرة أن العودة إلى توطين الأجانب فى المكسيك ووصول المكسيكيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الولايات المتحدة ستحل مشكلة قلة عدد سكان البلاد التى كانت تعد مشكلة من المشاكل الخطيرة. فلقد

كان هناك من يرى أن 16,5 مليون نسمة -هم عدد سكان البلاد- علامة على ضعف البلاد ومعوقا لتقدم الأمة. وقد لجأت الدولة إلى تبنى إجراءات لحماية المنتجين المكسيكيين من المنافسة الأجنبية فقامت بفرض رسوم أو جمارك على الواردات للحصول على موارد للدولة تفيد فى تحسين الظروف المعيشية وخاصة فى المدن.

وتسهم إعادة النظر فى التوجهات التى أملتها أزمة 1929 فى تفهم المسلك الذى سلكه المجتمع فى مشواره فى تلك المرحلة من مراحل القرن العشرين، أو الذى سلكه المجتمع على الأقل حتى عقد السبعينات من نفس القرن. والواقع أن تداعيات تلك الأزمة على المدى القصير قد أدت إلى التعجيل ببعض التفاعلات على المستوى الداخلى، إذ أدت إلى إضعاف بعض القطاعات وتقوية البعض الآخر. وسنتناول هذا الأمر بالتفصيل عما قليل.

كان لعام 1929 أهميته أيضاً بالنسبة للأوضاع السياسية، فبعد اغتيال الرئيس آلبارو أوبريغون الذى جرى انتخابه فى شهر يوليو سنة 1928، انفلت لجام التوترات السياسية الشديدة بين الجماعات السياسية والعسكريين. ثم ازدادت الضغائن والأحقاد بسبب النزاع المسلح مع "أنصار المسيح" وبسبب موقف الحكومة المناهض للكنيسة الكاثوليكية. ولهذا كان من الضرورى السعى الحثيث لكى يسود الاستقرار السياسى ربوع البلاد، فكان من أهم الإنجازات توصل الحكومة إلى ترتيبات مع كبار قيادات الكنيسة الكاثوليكية وهو ما أدى -على الأقل من الناحية الرسمية- إلى وضع نهاية للحرب مع "أنصار المسيح" التى كانت قد بدأت فى عام 1926. على صعيد آخر، وإزاء الانقسامات الداخلية التى وقعت نتيجة لمصرع أوبريغون، توصلت الفصائل السياسية المختلفة إلى اتفاق يرمى إلى قطع دابر الخلافات وأن تجرى التغييرات فى المناصب العامة وخاصة فى منصب رئيس الجمهورية بطريقة سلمية. وفى شهر مارس سنة 1929، وفى الوقت الذى كان عدد من أتباع أوبريغون يرفعون السلاح ضد الحكومة الإتحادية، كانت مدينة كيريتارو تشهد ميلاد "الحزب الوطنى الثورى" (Partido Nacional Revolucionario). وقد تألف الحزب من عدة تحالفات حزبية ومجموعات إقليمية تعرف باسم"المنتصرون فى ثورة 1910". ثم خاض هذا الحزب أول تجربة له بالمشاركة فى الانتخابات الرئاسية التى جرت عام 1929 ونجح فيها المرشح الرسمى باسكوال أورتيس روبيو بعد فوزه على المرشح خوسيه باسكونسيلوس الذى كان يشغل منصب أول

وزير للتربية والتعليم فى الفترة من عام 1921 إلى عام 1924 وكان ينتمى إلى ولاية واخاكا وكان يرأس إحدى القوى الانتخابية المعارضة المتواجدة بقوة فى عدة ولايات.

ارتبط ظهور الحزب الوطنى الثورى على الساحة ارتباطاً وثيقاً بأنه تلى اغتيال أوبريغون. لكن ينبغى النظر إلى ظهوره على أنه حدث له دوره القوى فى إقامة دولة قوية. فقد كان عليه باعتباره العنصر الرئيسى أن يكون له " بؤرة أو مركز السياسى" يتمتع بالقدرة على ممارسة وفرض كامل سلطاته على مختلف الجماعات السياسية المتناثرة على أرض الوطن. فكان هذا "المركز السياسى" هو الحكومة الإتحادية التى يرأسها رئيس الجمهورية... وكانت المجموعات السياسية كلها قد فشلت فى تحقيق هذا الهدف السياسى طوال القرن التاسع عشر. فإذا كانت الحكومة الفيدرالية قد استطاعت طوال عهد بورفيريو دياس أن تزيد من قوتها، فإن الثورة المكسيكية (1910) قد أدت إلى ضعف وتفتيت تلك القوة بصورة كبيرة. وعليه، فكيف يمكن بناء بؤرة سياسية قوية قادرة على تلافى قيام حركات التمرد مثل حركة أغوا برييتا (1929) وحركة دى لا أويرتا (1923-1924) وحركة إسكوبار (1929) وتحجيم قوة القادة والزعماء العسكريين أيضاً أو الحد منها فى مختلف أقاليم البلاد؟...

كان قيام الحزب الوطنى الثورى يعنى أن هناك تقدما له مغزاه فى استقرار البلاد. وغدا هذا الاستقرار أكثر وضوحا بعد أن أصبح الحزب خاضعا لنفوذ الجنرال كايِّيس الذى تحول بعد أن انتهت رئاسته للبلاد عام 1928 إلى الرجل القوى على المسرح السياسى القومى لدرجة أن الناس بدأت تطلق عليه لقب "الزعيم الأعلى للثورة". وقد تمتع كايِّيس فى الفترة من سنة 1929 إلى سنة 1935 بنفوذ كبير، إذ كان يدخل بحرية ويخرج من دواوين رئاسة الجمهورية، ويشارك فى إدارة الحكومات نظرا لولاء كبار رجال الدولة له ولصلاته مع الجيش ودوره كزعيم فعلى للحزب الوطنى الثورى. وتولى الحكم خلال تلك الفترة أربعة رؤساء: إيميليو بورتيس خيل (من ولاية تاماوليباس) وباسكوال أورتيس روبيو (من ولاية ميتشواكان) وأبيلاردو ل. رودريغيس (من ولاية سونورا) ولاسارو كارديناس (من ولاية ميتشواكان أيضاً). وكان من أهم مظاهر تلك الفترة بذل الجهود فى مجال تقنين التشريعات التى حلت محل القوانين الصادرة خلال آخر عقود القرن التاسع عشر ووضع اللوائح التنفيذية لنصوص دستور 1917. ومن أمثلة القوانين التى تناولتها هذه التشريعات ما يلى: القانون الجنائى والقانون المدنى

الذين سيتم تطبيقهما انطلاقاً من العاصمة الاتحادية للبلاد - القانون الفيدرالى للعمل - قانون المياه - قانون الزراعة، وقوانين أخرى غيرها وهو ما يدل دلالة واضحة على تلك الجهود.

مع حلول عام 1935 بدأت صورة كايِّيس فى التدهور السريع. ثم قام رئيس الجمهورية الجنرال كارديناس بقطع علاقاته مع "الزعيم الأعلى للثورة" بعد أن بدأت تتوارى أخطر مراحل الأزمة العالمية وبدأت تتحسن الأحوال الاقتصادية للبلاد وبعد أن أحاطت بكايِّيس مشاعر عدم الرضا من جانب العديد من الجماعات السياسية بسبب المواقف التى كان يتخذها هو وأنصاره (مثال على ذلك موقفه المعادى للكنيسة ومعارضة الإضرابات أو معارضة التوقف عن العمل)، ثم أجبره رئيس الجمهورية بعد ذلك على ترك البلاد فغادرها فى أبريل سنة 1936، بعد أن عقد كارديناس النية على أن يحول السلطة التنفيذية لكى تصبح هى السلطة الأساسية العليا على المسرح السياسى. والواقع أنه يمكن القول أن القوة التى نجح "الزعيم الأعلى" فى أن يجمعها بين يديه قد تحولت لتأخذ مكانها وتستقر بين يدى رئيس الجمهورية.

سعى كارديناس لتقوية دعائم حكمه فمد حبال الوصل إلى التجمعات الشعبية وإلى القطاعات الراديكالية -ومن بينها الشيوعيين- فضلاً عن الجماعات السياسية وطبقة النخبة أو الصفوة التى كانت قد نأت بنفسها عن كايِّيس. وبعد أن استشعر كارديناس أنه قد تخلص من كل أشكال الـ "وصاية"، اتخذ عدة إجراءات سرعان ما ميزته عن غيره من الحكام السابقين. فسارع الى توزيع الأراضى بصورة ملحوظة. وطال التوزيع مساحات من الأراضى التى كانت تتميز بارتفاع انتاجيتها فى مناطق مثل لا لاغونا فى ولاية دورانغو وفى كواهويلا وفى مناطق وادى قبائل ياكى الواقعة فى ولاية سونورا، ووادى ميخيكالى فى منطقة باخا كاليفورنيا وفى منطقة انتاج خيوط السيزال الواقعة فى ولاية يوكاتان.

والحقيقة أن الإصلاح الزراعى كان قد بدأ تطبيقة بعد صدور مرسوم فى هذا الشأن فى 6 يناير سنة 1915 وكان ينص على توزيع الأراضى على الفلاحين الذين كانت قد انتُزعت أراضيهم أو جرى الاستيلاء عليها منهم كما وزعها على المعدمين أيضاً من الفلاحين. ثم جاء دستور سنة 1917 فقرر ملكية الأمة للأرض وما فى باطن الأرض. ثم صدرت عدة قوانين لاحقة لتنظيم عملية تسليم الأراضى للفلاحين. أما تحديد أراضى المشاع أو توزيعها فقد كان من اختصاصات رئيس الجمهورية. كما صدر قرار لرئيس الجمهورية ينص على أنه لا يحق لأى بؤرة من بؤر تجمع الفلاحين بيع أو رهن الأرض الموزعة عليهم أو المياه والغابات المحيطة

بها أو الموارد التى تحتويها ولكن يمكن توريثها. ولقد كانت السلطات تتولى الإشراف على الأراضى المشاع وهو ما أدى إلى انقسام أو ضعف المجالس البلدية فى بعض الأحيان. وقد أصبح الإصلاح الزراعى فى عام 1934 من الثوابت، كما ألغى قانون الزراعة الجديد منع توزيع الأراضى على الأنفار الأجراء الذين يعملون فى المزارع الكبرى، حيث كانت القوانين السابقة وأحكامها تستبعد هذه الفئة من حق تملك تلك الأراضى.

ازداد فى بداية حكم كارديناس توزيع أراضى المشاع مهما كانت مساحاتها أو نوعيتها، لأن التوزيع تناول أيضاً مساحات كبيرة من الأراضى التى كانت تتمتع بنظام للرى. كذلك ازدادت نسبة القروض القروية التى تقدمها البنوك الحكومية والبنك الوطنى للائتمان الزراعى والبنك الوطنى لقروض الأراضى المشاع، وأسهمت تلك القروض فى تشجيع الزراعة الجماعية فى بعض المناطق. كذلك لقى التعليم الاشتراكى تشجيعا بعد أن أقره الإصلاح الدستورى فى أكتوبر سنة 1934. ولم يكن هذا بهدف إزاحة كل ما يتعلق بالعقيدة الدينية وحسب، بل كان الغرض منه أيضاً محاربة التعصب الدينى وتشكيل مفاهيم وفكر الشباب على أساس قواعد محددة تكون الطبيعة الإجتماعية والحياة الاجتماعية مرجعيتها. كذلك بدأ المعلمون والطلاب يرتبطون بأمور تتعلق بتشجيع الإنتاج وبالتنظيمات الإشتراكية. وتحول كثير من المعلمين إلى دعاة للأفكار التى كان كارديناس يدعو لتطبيقها وهو ما أدى إلى ردود أفعال عنيفة من عدد غير قليل من الكاثوليك والزعماء العسكريين. كذلك لم يكن عالم الثقافة ببعيد عن جدول الأعمال، فقد كون أهل الفكر والفنانون منظمات تضمهم كما بدءوا فى نشر روايات تتناول مضامين ومقومات قومية أو ذاتية عن السكان الأصليين للبلاد كما تناهض فى الوقت نفسه الفاشية التى كانت قد انتشرت فى أوروبا. وقد شارك مشاركة فعالة فى هذه الحملة لتعبئة العقول مشاهير رسوم الجداريات ديـيغو ريبيرا ودابيد ألفارو سيكيـيروس وكتاب مثل ماوريسيو ماغدالينو وموسيقيون مثل سيلبيسترى ريبويلتاس .

سعت الثورة المكسيكية لأن تكون مسيرتها على نمط كفاح البروليتاريا أو أن تصنف هويتها على هذا الأساس. ولكن الإجماع على هذا كان غائبا... فلقد أبدى خورخى كويستا وسلبادور نوبو وخابيير بيـيَاأورتيا المعروفون باسم"المعاصرين" تشككهم وريبتهم بالنسبة للراديكاليين، ولهذا كانوا متهمين بأنهم من أهل الصفوة ومن المؤمنين بكل ما هو أوروبى. وفى الحقيقة فإن عددا من الأساتذة الجامعيين (من بينهم البروفيسور مانويل غوميس مورين)

والطلبة الكاثوليك ظلوا مسيطرين على الجامعة وسعوا للحفاظ عليها بعيدة عن التوجهات الاشتراكية. فلقد كانت الراية التى يرفعونها هى راية استقلال الجامعات وحريتها.

كان لسياسة كارديناس أيضاً دورها على المسرح العالمى، بعد أن أعربت حكومته عن تأييدها الحاسم للجمهورية الإسبانية فى مواجهة قوات المحافظين التى كان يرأسها الزعيم فرانسيسكو فرانكو. وكانت هذه القوات بدورها تتمتع بتأييد كل من أدولف هتلر وبينيتو موسولينى. وقد استقبلت المكسيك خلال الحرب الأهلية الإسبانية الآلاف من اللاجئين الإسبان ومن بينهم أعدادا من الأيتام الذين أطلق عليهم فيما بعد لقب "أبناء موريليا".

ولد "إتحاد عمال المكسيك" فى عام 1936 من رحم التحرك لتعبئة العمال والفلاحين، وكان هذا الإتحاد يعتنق أيديولوجية الصراع بين الطبقات. وتحول قائد هذا الاتحاد بيسنتى لومباردو توليدانو إلى حليف مقرب من حكم كارديناس. بعد هذا بسنتين ولد "الإتحاد القومى للفلاحين" برئاسة البروفيسور غراسيانو سانتشيس. وكان الغرض من تشجيع كارديناس لقيام هذا الإتحاد هو تنظيم طبقات العاملين وربطهم بحكومته لكى تكون سنداً له وثقلاً مضاداً فى مواجهة الضغوط التى تمارسها المجموعات الأخرى مثل مجموعة رجال أعمال مونتيرِيى أو تمارسها دول أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية. ثم سعى لترسيخ هذه التغيرات فاختار فى عام 1938 أن يختفى الحزب الوطنى الثورى ويحل محله وليد جديد هو "حزب الثورة المكسيكية". والاختلاف الرئيسى بين كلا الحزبين هو أن الحزب الجديد لم يتشكل من جماعات وأحزاب إقليمية بل تشكل من أربعة قطاعات هى: قطاع العمال وقطاع الفلاحين والقطاع الشعبى وقطاع العسكريين. ويأتى رئيس الجمهورية على رأس النظام الحزبى ويقوم بدور الوسيط بين المجموعات السياسية. وكانت المناقشات بشأن التنافس من أجل السلطة أو الخلافات تجرى داخل جدران الحزب الرسمى ويتم حلها أيضاً داخل جدرانه.

ولم تكن السياسة كل شئ ، فلقد كان القلق يساور الحكومة بشأن الاقتصاد. ولهذا أعيد تنظيم الهيئة الفيدرالية للكهرباء سنة 1937 التى أنشئت سنة 1933، وذلك بهدف مواجهة الطلب المتزايد على الطاقة، فى الوقت الذى لم تكن فيه شركات الكهرباء الأجنبية مهتمة بتلبية تلك الطلبات. وفى عام 1937 شرعت الحكومة الإتحادية فى بناء ثلاثة سدود كبيرة هى: سد أنغوستورا فى ولاية سونورا، وسد بالميتو فى ولاية دورانغو، وسد إل أسوكار أو سد مارتى ر. غوميس فى تاماوليباس. وكان الهدف من تشييد تلك السدود العظيمة هو

توفير مياه الرى لتوسيع رقعة الأراضى المروية فى شمال البلاد. وعلى صعيد آخر، وفى مواجهة الجامعة القومية التى حصلت على استقلالها عام 1929 وكانت تطعن فى السياسات الحكومية، قامت الحكومة بإنشاء المعهد الصناعى الفنى فى نفس عام 1937 وذلك بهدف التنويع فى تأهيل الكوادر التقنية التى يتطلبها تصنيع البلاد ويتطلبها التوسع فى الأشغال العمومية. وشجعت الحكومة أيضاً التوسع فى أعمال البنية التحتية المدنية (الماء الصالح للشرب – نظام الصرف الصحى – تشييد الأسواق العامة) وذلك بهدف تحسين ظروف حياة السكان فى عدة مدن مختلفة.

فى أواخر عام 1937 ومشارف عام 1938 وجد حكم كارديناس نفسه أمام اختبار مرير بعد أن تحـدَّت شركات البترول الأجنبية الدولة علانية وتجاهلت حكم محكمة العدل العليا لصالح العاملين فيها، فكان رد الحكومة إعلان نزع ملكية تلك الشركات وتأميمها فى 18 مارس سنة 1938. وقد لقى قرار الرئيس كارديناس الجرئ تأييدا من الكنسية ومن رجال الأعمال والعمال والفلاحين ورجال الفكر والفنانين جميعا. وكانت هذه اللحظة هى التى أكدت فيها "الأمة" على وجودها وقوتها وبصورة ربما لم يكن لها مثيل على مدى تاريخ المكسيك. وعلى الرغم من جهود تلك الشركات الأجنبية لتخريبها، فإن صناعة البترول المكسيكية قد وصلت من هذه التجربة إلى بر السلام بفضل العمال والفنيين المكسيكيين وكذلك –وهو ما ينبغى التنويه له- بفضل المساندة المحدودة التى لقيتها تلك الشركات من الحكومة الأمريكية التى كان شغلها الشاغل اقتراب نشوب الحرب العالمية. وبعد عدة شهور من نزع الملكية ولدت شركة بترول المكسيك (بيميكس) التى كانت هشاشتها فى بداية أمرها دافعا لكى تقوم الحكومة المكسيكية بإسداء الدعم لها والوقوف خلفها بوسائل مختلفة.

أدت راديكالية كارديناس إلى انقسام البلاد. ففى عام 1939 ولد حزب العمل الوطنى(بان“PAN Partido de Acción Nacional) الذى كان يريد مواجهة ما كانوا يعتبرونه تجاوزات فى تطبيق نظم ومبادئ "الإشتراكية وجماعية الملكيات" التى كان يدعو لها كارديناس، هذا فى الوقت الذى كان يدعو فيه الحزب الوليد أيضاً إلى العمل على قيام نموذج لمجتمع ينأى بنفسه عن الأفكار الاشتراكية وينأى بنفس المسافة عن الأفكار الليبرالية. كما كانت جماعات من الكاثوليك والمحافظين تنظر نظرة ريبة إلى التعليم والتربية الإشتراكية. وانضمت أعداد ليست بالقليلة من ملاك الأراضى ممن تأثروا أو استشعروا التهديد من قرارات

الإصلاح الزراعى إلى صفوف من لا يتفقون مع النظام الحاكم. كذلك ينبغى أن يضاف إلى هذه الصفوف فئة أصحاب المصالح الأجنبية الذين تأثروا بنزع ملكية شركات البترول لصالح الدولة. والواقع أن الدولة كانت تجتاز منعطفا دقيقا حرجا. وقد أدت المعارضة الواسعة لنظام كارديناس وتنوع اتجاهات أصحابها إلى أن ترشح لمنصب الرئاسة الجنرال خوان أندريو ألماسان الذى خاض معركة انتخابات الرئاسة التى جرت فى شهر يوليو سنة 1940.

إزاء هذا المشهد، قام الرئيس كارديناس وحزبه الرسمى بتأييد ترشيح ابن ولاية بويبلا مانويل آبيلا كاماتشو لمنصب الرئاسة. وكان هذا المرشح أحد جنرالات الجيش الذين لم تكن الأضواء تسلط عليهم كثيرا وكان بعيداً عن راديكالية الرئيس كارديناس. وفى نهار يوم انتخابات مشحون للغاية ورغم الشعبية الكبيرة التى كان يتمع بها ألماسان، أُعلن فوز آبيلا كاماتشو. وعلى الرغم من أعمال العنف والإتهامات بتزوير الانتخابات فإن كارديناس نجح فى تسليم مقاليد الرئاسة إلى المرشح الذى قدمه الحزب الرسمى، بما يعنى هذا كله قد جرى ترتيبه من خلال النفوذ المباشر لرئيس الجمهورية كارديناس... ولقد كان ما جرى هو القاعدة لتلك الآلية التى أصبحت أساسا لترتيب أمور البلاد السياسية خلال القرن العشرين: إذ كان رئيس الجمهورية ومن خلال الحزب الرسمى يقوم بتعيين خلفه فى الرئاسة. وقد استمرت فترة تولى كاماتشو منصب رئاسة الجمهورية من ديسمبر سنة 1940 إلى نوفمبر سنة 1946.

الاستقرار والنمو الاقتصادى (1940 – 1958)

سارع الرئيس الجديد فى رسم خطوط التباعد بينه وبين الرئيس السابق عليه. وبادر بتوجيه نداء للمصالحة وللوحدة الوطنية. وقد برر آبيلا كاماتشو ذلك الموقف بالظروف العالمية السائدة آنذاك. وفى سبتمبر سنة 1939 أدى الغزو الألمانى لبولندا إلى إندلاع الحرب العالمية الثانية، فأعلنت المكسيك فى بادئ الأمر حيادها. ولكن هذا الموقف تعقد بعد هجوم اليابان على بيرل هاربور فى ديسمبر سنة 1942 وإعلان الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان. وعندما تكبدت المكسيك خسارتها لناقلتى بترول بعد هجوم الغواصات الألمانية عليهما، أصبحت الدولة فى قلب الصراع وانضمت فى 2 مايو سنة 1942 إلى الحلفاء (بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والاتحاد السوفيتى). وحينئذ أعلنت المكسيك تطبيق التجنيد العسكرى الإجبارى على أبنائها.

ولقد اختلف الوضع بالنسبة للمكسيك عن الدول التى أصابتها الحرب فى بدنها مثل الاتحاد السوفيتى الذى عانى أكثر من أى دولة أخرى من ويلات تلك الحرب. فلقد كانت تلك الحرب ذات فوائد بالنسبة للمكسيك... فمن جهة، شكل تدفق الإستثمارات الأجنبية على المكسيك حافزاً كبيراً لتنشيط الاقتصاد المكسيكى ولإمكانيات عقد صفقات جديدة. كذلك تلقت مشاريع التصنيع خلال عقد الثلاثينات دفعة قوية نتيجة زيادة الطلب الداخلى والخارجى على المنتجات المكسيكية. وسرى التفاؤل بين مجموعات بعينها... فإذا كانت الحرب سبباً فى صعوبة الحصول على منتجات الخارج، فإن رجال الأعمال والسلطات الحكومية قد وحدت الجهود من أجل تصنيع تلك المنتجات داخل البلاد. وقد لقيت هذه الاستراتيجية فى التصنيع التى عرفت بـ "استراتيجية استبدال الواردات" كل الدعم فى الفترة التالية من خلال فرض رسوم جمركية وضرائب على الواردات وهو ما يعنى حماية الصناعات الوطنية من المنافسة العالمية.

ومن جهة أخرى، فقد أجبرت الحرب العالمية الولايات المتحدة الأمريكية على تحسين علاقاتها مع أمريكا اللاتينية. وفى هذا الصدد، قامت المكسيك والولايات المتحدة بالتوقيع على عدة اتفاقيات تتعلق بالديون المكسيكية وتتناول مجالات التجارة والأيدى العاملة والمياه والمساعدات الفنية، وتناولت بالطبع المسألة البترولية الناشئة عن نزع ملكية شركات البترول الأمريكية. وتجدر هنا الإشادة بالقرار الخاص بالديون، إذ نجحت المكسيك فى توقيع اتفاقية تتنازل الولايات المتحدة بموجبها عن 90% من الديون المستحقة لها على المكسيك. فإذا أضيف الإزدهار الاقتصادى إلى السياسة المعتدلة التى تطبقها الحكومة على توجهاتها مثل إلغاء تدريس الإشتراكية والتقارب مع الولايات المتحدة، سنستطيع أن نفهم سبب تضاؤل المنازعات والخصومات التى كانت قائمة خلال سنوات حكم كارديناس الأخيرة.

أنشئت فى عام 1943 الهيئة المكسيكية للتأمينات الاجتماعية وهى مؤسسة لها أهميتها الكبرى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، وكانت تعبيرا عن اهتمام الحكومة بتحديث العلاقات العمالية بتوزيع تكاليف التأمينات الاجتماعية بين العمال والحكومة وأصحاب العمل.

انضمت الهيئة المكسيكية للتأمينات الاجتماعية إلى غيرها من الهيئات مثل بيميكس (بترول المكسيك) والهيئة الفيدرالية للكهرباء وهيئات حكومية أخرى مثل القومية للتمويل، ليبرهن وجودها جميعا على استحالة الاستغناء عن الإنفاق الحكومى العام فى سعيها إلى دفع

عجلة الاقتصاد القومى. ولم يكن فى هذا الشأن مجال لوجود خطوط للتباعد بين السياسيين. فعلى الرغم من الاختلافات بين آبيلا كاماتشو وكارديناس ثم خلافات كارديناس مع "الزعيم الأعلى"، لوحظ استمرارية التفاف السلطات المتعاقبة حول فكرة أن المال العام ينبغى أن يضطلع بدوره الرئيسى فى توجيه الاقتصاد. ولم تكن هذه الفكرة قاصرة على المكسيك وحدها بل أن كثيراً من الدول اختارت أن تزيد من الدور الذى يلعبه الإنفاق العام فى تجاوز الأزمة الحادة التى عصفت بالاقتصاد العالمى فى عقد الثلاثينات من القرن العشرين. وكان سير الدولة على نهج ستراتيجية الاقتصادى الإنجليزى جون م. كينز هو ما أدى إلى بزوغ نجم دولة الرفاهية. وقد اختلف الأمر فى المكسيك عن غيرها من الدول الضالعة فى الحرب بشدة لأنها اتجهت إلى تقليص الإنفاق العسكرى المكسيكى للغاية. ولهذا ازدادت سنة بعد أخرى الإستثمارات التى توجهها الدولة إلى إنشاء الطرق ورصفها وتشييد السدود ومد خطوط الكهرباء وبناء المستشفيات والمدارس والمرافق العامة.

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى الاهتمام الذى أولته الحكومة إلى منطقة الجنوب الشرقى، فلقد كان "تشخيص" الحكومة لها يركز على أنها منطقة غنية بالموارد والثروات لكنها متخلفة اجتماعيا. ومن ثم، كان الهدف الذى يحدوها هو استثمار تلك الموارد والثروات، وليس هذا من أجل تجاوز التخلف الذى تعيشه هذه المنطقة وحسب، بل لكى تسهم تلك الموارد والثروات أيضا فى دعم الاقتصاد القومى. وبدأت الحكومة الفيدرالية فى تنفيذ برنامجين استثماريين عريضين تولت أحدهما لجنة بابالوابان التى أنشئت عام 1947 ولجنة غريخالبا التى أنشئت عام 1951 وذلك لبناء مشاريع لتوليد الطاقة الكهربائية من المياه، فضلاً عن مشاريع للتحكم فى مسارات المياه ومصارفها، وتمهيد أراضى بعض الغابات والأحراش لزيادة مساحة الأراضى الصالحة للزراعة ولتربية الماشية، إضافة إلى مد الطرق وبناء المدارس والمستشفيات. وقد ساد الاعتقاد أيضاً بأن الجنوب الشرقى يمكن أن يخفف من حدة الزيادة السكانية الموجودة فى عدة مناطق فى وسط المكسيك وخاصة فى شمال وسط البلاد، مثل منطقة لا لاغونا. كما شرعت الحكومة فى تنفيذ عدة مشاريع لتوطين السكان ولكنها لم تحقق فى هذا نجاحا كبيرا.

كان للحرب العالمية الثانية نتائجها الحاسمة فى رسم خطوط تاريخ القرن العشرين. فلقد رسخت مكانة الولايات المتحدة كقوة عالمية عظمى على الرغم من مواجهتها لقوة عظمى

أخرى هى الإتحاد السوفييتى. أما فى المكسيك، فقد كانت المدارس الاقتصادية التى أفرزتها تلك الحرب هى التى حددت أفضليات الحكم فى المكسيك الذى أكد على أنها تتمثل فى مصالح البلاد الاقتصادية وميل أو تفضيل الرأى العام للصناعة وتنمية المدن، كما جعلت المكسيك تتخلى عن فكرة أن تكون بلداً زراعياً. وقد كرست تلك النتائج قواعد حقبة طويلة تميزت بالنمو الاقتصادى الكبير. وعلى الرغم من تخفيض قيمة العملة المكسيكية (بيزو Peso) فى عامى 1948 و1954، فإن فترة النمو استمرت حتى نهاية عام 1960. وخلال هذه السنوات استقرت السياسة على قاعدة أن تكون للبلاد حكومة مركزية أو فيدرالية لها سلطات واسعة. وسنتناول هذه الموضوعات بتفصيل أكبر.

أصبح تصنيع البلاد هو الأولوية التى تحظى بإهتمام الحكومة التى كانت ترى أن تحديث المكسيك يعتمد على مضاعفة عدد المصانع والفنيين والعمال. وكانت هناك قناعة بأن الابتكارات التكنولوجية قد يسرت تحقيق معدلات أعلى فى انتاج العامل وهو ما سيؤدى بدوره إلى زيادة أرباح رجال الأعمال وتحسين مرتبات العمال وزيادة موارد الدولة من الضرائب. إذن، فقد نجح الرهان على أن السوق الداخلية هى المحرك للاقتصاد المكسيكى، وهو ما كانت بوادره قد بدأت فى الظهور منذ عقد الثلاثينات.

قامت الحكومة أيضاً بمساندة رجال الصناعة من خلال عدة إجراءات. وتتمثل إحداها فى السيطرة على المواقف التى يتخذها العمال للإعراب عن عدم إتفاقهم أو موافقتهم على بعض أمور العمل وذلك من خلال النقابات التى تجمعهم أو زعمائهم المتعارف عليهم. وفى مقابل قيام زعماء النقابات والمسئولين فيها بالسيطرة على العمال، كانت الحكومة تقوم بمنحهم امتيازات ومناصب عامة أو تمثيلا شعبيا تحت شعار الحزب الرسمى. ثم كان سقوط لومباردو توليدانو من زعامة إتحاد عمال المكسيك إيذانا بسرعة خضوع المراكز العمالية وجماعاتها للدولة. وحلت الوحدة الوطنية محل صراع الطبقات. وقد استمر زعيم الإتحاد الجديد فيديل بيلاسكيس فى رئاسته لاتحاد العمال حتى وافته المنية فى عام 1997. وكان فيديل بيلاسكيس مثالا لم يكن هنالك أفضل منه لمدى سيطرة الحكومة على طبقة العمال... أما الإجراء الآخر الذى اتخذته الحكومة لصالح التصنيع فكان من خلال ضبط أسعار المواد الغذائية فى المدن، ولهذا انشئت عدة مؤسسات وهيئات مثل هيئة ضبط أسواق السلع فى عام 1938، والشركة

المكسيكية للإستيراد والتصدير سنة 1949، وفى وقت لاحق أى فى عام 1961 تم إنشاء الشركة القومية للسلع الشعبية (كوناسوبو).

كان المظهر الذى ارتبط ارتباطاً شديداً بالتصنيع هو مظهر الصورة الحضرية العمرانية والتحديث، إذ أن الحكومة وأكثر القطاعات الاجتماعية تأثيرا فى الرأى العام كانت ترى أن مستقبل الأمة لن يقوم على الريف، بل على المدن التى تحظى بصناعات جديدة. وعلاوة على هذا، فإن تمركز السكان فى حيز جغرافى صغير فى وجود الريف المترامى، سيجعل من السهل تزويد ذلك الحيز بالمرافق العامة الحديثة مثل الإنارة والماء الصالح للشرب ونظام الصرف الصحى والمواصلات والتعليم والخدمات الصحية. وكانت أكثر المناطق الحضرية استفادة من هذا، ثلاث مناطق هى: مدينة المكسيك ومونتيريّى وغوادالاخارا (وادى الحجارة). وقد اشتركت هذه المناطق الثلاث فى عام 1965 فى أن تقدم للبلاد 69% من إجمالى الإنتاج الصناعى. وبعد أن أعيد تنظيم الجغرافيا الاقتصادية للبلاد، لوحظ صعود مؤشرات الشمال وهبوط مؤشرات مناطق أخرى عما كانت عليه فى السنوات السابقة مثل إيدالغو وبويبلا ويوكاتان.

لقد كان على الأنشطة الزراعية أن تخضع لأهداف التصنيع. وإذا كان الواقع يقول أن نسبة مئوية من الإنفاق العام قد جرى استثمارها فى تطوير الريف، وخاصة فى عقد الأربعينات من القرن العشرين، فإن الهدف من ذلك كان زيادة الإنتاجية الزراعية لسد حاجة سكان الحضر الذين كان عددهم يزداد زيادة كبيرة. غير أن المناطق التى كانت تتمتع بأنظمة الرى -وخاصة فى شمال البلاد- كان عليها أن تنتج سلعا لأغراض التصدير (مثل القطن) وذلك بهدف الحصول على العملات الأجنبية التى كانت تستخدم فى استيراد الآلات وفى سد احتياجات الصناعة. وعلى الرغم من فترة الجفاف التى حلت بالبلاد خلال الفترة من عام 1949-1958 فقد نجح الريف فى شمال البلاد وغربها فى أن يحافظ على مستواه فى النمو لدرجة أن البلاد استطاعت أن تصل فى عام 1960 إلى ما يكاد يصل إلى حد الاكتفاء الذاتى من الغذاء.

خلال تلك السنوات التى شهد فيها الاقتصاد نموا كبيرا وزيادة فى الإنفاق العام ازداد عدد السكان بصورة تدعو للدهشة وخاصة فى الفترة من عام 1930 إلى عام 1970. والواقع أننا نتحدث هنا عن إحدى السمات التى وسمت المكسيك خلال القرن العشرين. فقد زاد عدد السكان ثلاث مرات خلال تلك السنوات الأربعين، وهذا على عكس ما حدث فى القرن الماضى إذ جرت الأمور فيها على النحو التالى: فمنذ استقلال المكسيك وحتى الثورة كانت نسبة الزيادة

السكانية السنوية 1,72% فى حين تجاوزت هذه النسبة 3,28% سنويا فى عقد الستينات. ولتوضيح الصورة يكفى القول بأن الأمر كان يقتضى فى الحالة الأولى مدة أربعين سنة لكى يتضاعف عدد السكان بينما فى النسبة الثانية لم يكن الأمر يحتاج إلا 22 سنة فقط تضاعف فيها عدد السكان. ويعزى هذا إلى الانخفاض الكبير فى نسبة وفيات الأطفال التى تفسر بدورها على أنها كانت نتيجة للسيطرة الصحية على الأمراض المعدية وأمراض الطفيليات. وكان من بين العوامل الأخرى التى أسهمت فى ازدياد عدد السكان ذلك التحسن الذى طرأ على الخدمات الصحية والمياه الصالحة للشرب ونظام الصرف الصحى وحملات التطعيم واكتشاف البنسلين. والواقع أننا لو نظرنا إلى هذه الزيادة من منظور شامل عريض، سنجد أن الزيادة فى عدد السكان خلال القرن العشرين هى ثانى أهم حدث ديموغرافى فى تاريخ المكسيك بينما كان الحدث الأول هو تلك الكارثة التى عصفت بالسكان وقلصت أعدادهم خلال العقود الأولى من الحقبة الإستعمارية للبلاد.

بعد عام 1940 تحركت كذلك أعداد كبيرة من السكان إلى المدينة خاصة من الريف فى هجرة ربما لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البلاد، فقد كانت المناطق الحضرية تعنى تقديم مرتبات أكبر وخدمات ومرافق أفضل. وتدل أرقام الإحصاءات التى جرت فى عام 1960 على أن غالبية المكسيكيين كانوا يعيشون فى المدن (مناطق يزيد عدد السكان فيها علن 2500 نسمة)، وهذا مؤشر واضح على التغيرات التى طرأت على المجتمع المكسيكى، وهو ما حدث بالضبط فى التغييرات التى طرأت على معظم أنحاء العالم بنفس الصورة وفى نفس التواريخ. إذن، لقد تركت البشرية البيئة الزراعية وراء ظهرانيها. وإذا كان السكان بصفة عامة قد زادوا فى الفترة ما بين عام 1930 وعام 1970 بمعدلات عالية جدا، فإن الوتيرة التى زادت بها أعداد المدن كانت أعلى بكثير.

ومدينة المكسيك برهان حى على تاريخ الإنتقال من الريف إلى الحضر. فلقد كان عدد سكانها يدور حول المليون نسمة فى عام 1930 لكنه تضاعف ست مرات خلال أربعين سنة. وقد أسهم فى تلك الزيادة وجود المياه الصالحة للشرب التى تصل إلى العاصمة من مرتفعات آلتو ليرما، كما تيسر الإنتقال فيها بسبب انشاء الطرق، مثل طريق ميغيل أليمان والطريق الدائرى ومترو الأنفاق فضلاً عن شبكة الصرف العميقة وهى مشاريع بدأ تنفيذها فى عقد الستينيات. كما جذبت الصفقات العقارية وتجارتها وكذلك عمليات البناء اهتمام رجال الأعمال

والسياسيين على حد سواء. ولعل فى افتتاح برج "لاتينوأميريكانو" فى وسط مدينة المكسيك فى عام 1950 ما يرمز بصدق وجلاء إلى تلك الجهود المبذولة من أجل تحديث البلاد والتركيز على السمات الحضرية والعمرانية.

شهدت المكسيك سنوات من الرخاء الحقيقى والازدهار فى إطار إنتشار اقتصاد ما بعد الحرب على مستوى العالم وهو ما يطلق عليه البعض اقتصاد "العصر الذهبى للرأسمالية". ففى الفترة ما بين سنة 1940 وسنة 1970 زادت نسبة النمو فى الناتج القومى المحلى عن 6% وهى كما أطلق عليها فى حينه وبكل الصدق "المعجزة الإقتصادية". وعلى مدار هذه العقود الثلاثة ازداد بشدة ظهور الثقل المتزايد للصناعة ولقطاع الخدمات (التجارة – البنوك). أما ما قدمته الزراعة للاقتصاد المكسيكى فقد كان يقل حينا بعد حين.

وهناك سمة هامة تستحق الإشادة بها، وهى أن النمو الاقتصادى قد شق طريقه بصورة كبيرة من خلال الموارد المحلية للبلاد، أى بدون اللجوء إلى القروض الخارجية حيث انخفض رقم الديون الخارجية فوصلت خلال عام 1959 بالكاد إلى 649 مليون دولار. وعلى الرغم من قلة التمويل القادم من الشعب، فقد أمكن تحقيق هذا النمو الاقتصادى بالاعتماد إلى حد كبير على الإستثمارات الحكومية فى البنية التحتية وفى الطاقة وفى الاتصالات. أما الإستثمارات الخاصة، فقد ازدادت على قاعدة قيام اقتصاد مكسيكى يتمتع بحماية قوية من المنافسة الخارجية.

اعتباراً من عام 1958 وحتى عام 1970 أظهرت مؤشرات النمو الاقتصادى المكسيكى معدلات عالية اقترنت بثبات الأسعار وانخفاض التضخم، وهى الظاهرة التى كان المكسيكيون يطلقون عليها تعبير "النمو الذى يؤدى إلى الاستقرار". وكانت المؤشرات الأولية خلال تلك السنوات تحمل دلالات إيجابية تمثلت فى زيادة حقيقية فى المرتبات، أى أنها كانت تعنى بالتالى تزايد القوة الشرائية لتلك المرتبات. لكن تلك المرتبات التى كانت موضعا للزيادة كانت مقصورة على العاملين الذين كان يعيش معظمهم فى المدن الكبرى وفى مناطق فروع الصناعات الرئيسية. وكان هؤلاء العاملون هم أنفسهم الذين تمتعوا بالاستفادة من التأمينات الاجتماعية ومن التعليم فى المدارس العمومية التى ازداد انتشارها. وعلى الرغم من أن حجم هؤلاء العاملين لم يكن كبيراً، فقد كان من الواضح أن قطاعهم قد شهد تحسنا كبيرا فى ظروفه المعيشية، وأدى أيضاً إلى ظاهرة تساعد على فهم الاستقرار السياسى فى تلك السنوات ونعنى

بها ظاهرة "حركة المجتمع". فبفضل التعليم المجانى لم يكن من النادر أن تجد من بين أبناء أحد العمال من قد وصل إلى التعليم الجامعى وأن يكون من أبنائهم مهنيين. بل وكان للعامل بيته الذى يمتلكه وتأميناته الاجتماعية ورصيد للمعاش. وينطبق نفس الأمر على أولئك الموظفين الذين كانوا يعملون فى مختلف الإدارات الفيدرالية للدولة. وكانت الدولة قد أنشأت فى عام 1925 "إدارة المعاشات" التى تحولت فيما بعد إلى "هيئة التأمينات والخدمات الاجتماعية للعاملين فى الدولة".

فى عام 1946 حل "الحزب الثورى المؤسسى (PRI) – Partido Revolucionario Institucional" محل "حزب الثورة المكسيكية". واهم الفروق بينهما هو التأكيد على إحدى التدابير التى إتخذها الرئيس آبيلا كاماتشو فى عام 1940 وهى: إختفاء القطاع العسكرى، فقدم بهذا الإجراء برهاناً جديداً على استقرار نظامه السياسى. وقد تحولت إزاحة العسكريين وإخضاعهم للنظام إلى علامة مميزة على الإصلاح السياسى فى دولة المؤسسات. وجرى انتخاب أول رئيس جمهورية من الحزب الجديد فى عام 1946 حيث فاز بالرئاسة المرشح الرسمى ميغيل أليمان (من ولاية فيراكروز) وهو أول رئيس منتخب لم يكن من بين صفوف الجيش منذ سنوات وسنوات، كما لم يكن ممن اشتركوا فى ثورة 1910. وكان ميغيل أليمان قد تخرج من جامعة المكسيك القومية المستقلة كما كان ينتمى إلى جيل الساسة والقادة الجدد. وكان المنافس له عن أحزاب المعارضة إسيكييل باديــيّا (من ولاية غيرّيرو)، ولم يكن لمرشح المعارضة أى حظ حتى ولو من بعيد من ذلك القبول الذى كان يحظى به خوان أندريو الماسان فى عام 1940. أما السلطة السياسية، فقد كانت خاصة بأولئك الذين كانوا يُسمونهم ورثة المنتصرين فى الثورة وكان يطلق عليهم تعبير "العائلة الثورية".

وقد تحمس أليمان لتشجيع التصنيع وإفساح الطرق أمام نمو الشركات الكبرى التى لم يكن لا هو ولا بعض معاونيه وأصدقائه بعيدين عن مجالاتها. فقد ولدت فى هذا التوقيت بالضبط شركة البناء: "المهندسون المدنيون، شركاء"، التى لم يطل بها الوقت لكى تصبح مثلا من أمثلة الشركات الجديدة لكبار رجال الأعمال المكسيكيين وكان على رأسها برناردو كينتانا. وكان إيميليو أكارّاغا مثالا آخرا من رجال الأعمال، فقد استغل حينذاك ذلك الابتكار الجديد أى ابتكار "التلفزيون" بكل ما كان يعنيه من معنى. كما ازدادت ثروته بمقدار الزيادة التى حققها تحول التلفزيون إلى وسيلة من الوسائل الجماهيرية لإعادة ترتيب نظام حياة الناس فى بيوتهم

وبث الأفكار، مستغلا أوقات فراغهم وأسلوب تفكيرهم وكلامهم وأنماطهم الاستهلاكية. ولقد أسهمت الظاهرة الحضرية والتلفزيون وتيسير الإنتقال بالخطوط الجوية والاتصالات التليفونية والنهج المعتدل المتزايد للحكومة فى شحذ وتغذية رؤى أهل الفكر والفن. فنشر أوكتابيو باس فى عام 1949 كتابه "متاهة العزلة" واجتهد فيه بالبحث والتنقيب بين ثنايا ودقائق المجتمع المكسيكى وخصائصه. وقدم لنا خوان رولفو فى عامى 1953 و1955 روايتان سار فيهما على عكس التيار الذى كان يتوج هامة الحياة اليومية آنذاك، فظهرت روايتاه "السهول الملتهبة" و"بيدرو بارامو" اللتان تتحدثان عن عالم الأقاليم أى الريف. وفى عام 1958 فاجأ كارلوس فوينتيس العالم بروايته "أكثر المناطق الشفافة" وهى لوحة رقيقة عن الحياة فى مدينة المكسيك. ثم توارت النزعات الراديكالية وأثبت العديد من الفنانين تواجدهم العظيم على الساحة الفنية ومنهم روفينو تامايو الذى إتخذ لنفسه أسلوبا خاصا يقف به على الضفة الأخرى من فنانى الجداريات. وقد أدى الانفتاح على الأساليب والصيغ الجديدة سواء كانت قادمة من الولايات المتحدة أو من أوروبا أو من دول أمريكا اللاتينية إلى تنوع المضامين. وكانت الأفلام السينمائية تتناول موضوعات عن الحياة فى الحضر (الكباريهات – الفقراء – من يعيشون وراء الأقنعة – شباب الجامعات) فانعكست فيها صورة الحياة التى كانت تعيش فيها البلاد أو على الأقل فى بعض مدنها.

حدث كذلك فى هذه الحقبة تقدم جوهرى تجاه المركزية السياسية. فقد جرى فى عام 1946 تطبيق تشريع انتخابى ترك ولأول مرة بين أيدى الحكومة الفيدرالية إدارة العملية الانتخابية الحساسة بالنسبة للمواطنين، حيث كانت السلطات المحلية هى التى تتولى تنظيم الانتخابات حتى تلك الآونة. وفى عام 1946 ظهرت إلى الوجود أيضاً وزارة الموارد المائية التى تركزت فيها إدارة شئون المياه فى البلاد. وفى عام 1948 بدأ فرض الضرائب على انشطة التجارة (ضريبة الأرباح التجارية) وكان الهدف منها هو التوحيد النوعى للضريبة المفروضة على التجارة فى جميع أنحاء البلاد.

وتشهد البيانات على زيادة الإصلاحات والإجراءات السياسية التى كانت تعنى ازدياداً مطرداً فى ثقَل ومركز الحكومة الفيدرالية وفى صورة رئيس الجمهورية. أما السلطات الأخرى فى الدولة أى السلطة التشريعية والسلطة القضائية فالواقع أنهما كانتا تعانيان من ضعف مطرد. علاوة على هذا فلقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى إفساح الطريق أمام ظاهرة وهى

على الرغم من أنها كانت موجودة من قبل إلا أنها قد تجلت بصورة كبيرة فى هذه السنوات، ونعنى بها تركيز الدخل العام فى أيدى الحكومة الفيدرالية وحدها، وهو ما أدت عواقبه إلى إضعاف الأحوال المالية للولايات والمحليات. وعلى الرغم من أن هذا الإجراء قد أدى إلى زيادة الموارد الفيدرالية (ضريبة الدخل) فإنه قد انعكس بالسلب على العديد من الولايات والبلديات، لأنه كان يعنى أن الحكومة الفيدرالية قد نزعت من الولايات والمحليات اختصاصاتها فى تحصيل رسوم وضرائب معينة. وكانت حجة الحكومة فى ذلك هى الحاجة إلى توحيد وتحديث النظام الضريبى، وهو نفس الأسلوب الذى اتبعته الحكومة فى عام 1922 مع البترول، ثم فى عام 1926 مع المناجم والتعدين وفى عام 1933 مع الكهرباء بل ومع كثير غير هذا خلال السنوات التالية على عام 1933. وكانت النتيجة البديهية لهذا، هى تلك الزيادة المطردة فى موارد الحكومة الفيدرالية، وازدادت بالطبع التزاماتها نحو الولايات والبلديات. فضلاً عن هذا، فلقد كان توحيد المناهج بصورة متدرجة وقوية –وبنفس النهج الذى جرى اتباعه لتوسيع نظام الحكم الفيدرالى فى البلاد- دليلا على إعادة ترتيب الأوضاع بين الحكومة الفيدرالية والولايات والبلديات. وقد عاشت البلديات نفس هذه الظروف تماما بعد أن نزعت الولايات عنها حقها فى تحصيل أهم مواردها الضريبية. وبصفة عامة، أصبحت البلديات فى عام 1950 أكثر فقراً عما كانت عليه فى عام 1910.

ومع كل هذا، كانت هناك أدلة على أنه لا الرئيس ولا حكومته كانا يمسكان بكل الخيوط بين أيديهم. ويستحق هذا الأمر منا المزيد من البحث، لكنه عند الحديث عن الشئون المالية والموارد المائية، فإنه يمكن القول أن السلطة الفيدرالية كانت تواجه شعورا بوجود حدود معينة تقف عندها، كما كانت السلطة ترى أن هناك من لا يلتزم بما تقرره الحكومة فى هذين الشأنين. فعلى سبيل المثال، كان قرار الحكومة الإتحادية فى تعميم النظام الموحد لضريبة الأرباح التجارية قد واجه معارضة من أكثر الولايات ثراءً، ومن بينها (فيراكروز – باخا كاليفورنيا – نويبو ليون – خاليسكو – ولاية المكسيك). ولقد حاول الرئيس الذى جاء بعد ميغيل أليمان (وكان أيضاً من فيراكروز) كسر شوكة هذه المعارضة ولكنه فشل رغم كل ما بذله من محاولات مضنية فى سبيل ذلك. أما بالنسبة للموارد المائية، فإن رجال الأعمال وملاك الأراضى الزراعية الكبرى فى مناطق مثل كوستا (ساحل) دى إيرموسيـــيُو لم يقبلوا الرضوخ البته لتعليمات السلطات الفيدرالية وتركيب عدادات على الآبار لتقدير كميات المياه الجوفية المستخرجة من باطن الأرض. أما فى مونتيـــريـــى فقد قام رجال الصناعة هناك بدق الأنظمة

المائية التى توفر لهم الإكتفاء الذاتى من المياه الجوفية ولا يتحكم فيها غير رجال الصناعة وحدهم، وهو ما كان يمكن أن يعرض المدينة نفسها لأزمة مياه خطيرة. لكن الصناعة سارت دائما مدفوعة برياح الإرادة التى فرضها رجال الصناعة. وإذا أمكننا القول بأن المواقف المناهضة كانت نادرة، فقد يمكننا القول أيضاً بأنها لا ترقى إلى درجة إنكار وجود تعليقات تمس السلطات الكبيرة التى كان يتمتع بها رئيس الجمهورية. وربما كان هذا صحيحا، لكن الواقع أن هناك ظواهر أخرى مثل هذه لم تلق الدراسات الوافية عنها: فمثلا، لماذا قال أحد كبار المسئولين فى وزارة الخزانة فى عام 1972 أنه قبل هذه السنة لم يكن هناك تفكير البته فى عقد اجتماع مع جميع رؤساء الخزائن العامة فى مختلف الولايات المكسيكية؟

الانفلات، وردود فعل الدولة (1958 – 1982)

كان النمو والاستقرار السياسى هو أهم ما ميز هذه السنوات. وكان على حكومة الرئيس أدولفو لوبيس ماتيــيوس (1958 – 1964) أن تتولى فى عام 1960 تنظيم احتفالات البلاد بالذكرى الخمسين لثورة 1910. وكانت الطبقة الحاكمة تبدى شعورا بالفخر بسبب ما حققته زعامة هذه الطبقة للبلاد من إنجازات، فكان لها أن تفخر بما أنجزته فى مجالات الصحة والتعليم والبنية التحتية وفى مجال دعم مفهوم المواطـنة بفضل منح المرأة حق التصويت فى عام 1953، كما كان لها أن تفخر أيضاً بما حققته فى مجال التعليم، وفى مجال الطفولة بعد أن انخفضت وفيات الأطفال بصورة تدعو للدهشة، إذ تدنت نسبة الوفيات من 27 فى الألف إلى 12 فى الألف ولم يعد من المألوف ان تفقد العائلات أطفالها. وقد وصل عدد الذين تغطيهم الهيئة المكسيكية للتأمينات الاجتماعية إلى 4 ملايين نسمة كما وصل عدد الذين تغطيهم الهيئة العامة للتأمين على العاملين فى الدولة إلى 500,000 نسمة. كذلك انخفضت نسبة الأمية من 62% فى عام 1930 إلى 45% فى عام 1960. ووصلت مساحات الأراضى التى تروى من خلال المشاريع التى تكفلت بنفقاتها استثمارات الدولة إلى 1,4 مليون هكتار. وأصبح فى الإمكان منذ عام 1950 أن تذرع البلاد طولا وعرضا عبر الطرق البرية بدءا من الحدود مع غواتيمالا أى من ولاية تشيباباس وحتى سيوداد خواريس فى ولاية تشيهواهوا. أما انتاج البترول فقد تضاعف ثلاث مرات عما كان عليه فى عام 1939 وتضاعفت الطاقة الكهربائية سبع مرات عما كانت عليه فى عام 1930. وحققت الزراعة والصناعة كذلك نموا هائلا. وقد قرر الرئيس لوبيس ماتيــيوس فى عام 1960 دعوة شركات الكهرباء الأجنبية

للقدوم إلى البلاد بهدف تحسين مستوى الشبكات والعمل على إدخال نظام توحيد شبكات الطاقة الكهربائية على المستوى الداخلى. وأخيرا، فقد كان حكام الولايات يودون بمختلف الطرق أن يقدموا إلى حكوماتهم الثورية (وهى التسمية التى كانت تلك الحكومات تسمى بها نفسها) كشوفات حساب طيبة عن حسن أدائهم. كذلك منح لوبيز ماتيـــيوس لنفسه إمتياز الإعلان عن تصنيف نفسه داخل أيديولوجية الثورة المكسيكية على أنه من أقصى اليسار. فكانت مثل تلك التصريحات فضلاً عن بعض الإجراءات مثل دعوة شركات الكهرباء الأجنبية وظهور الكتب المدرسية المجانية سببا فى قلق رجال الأعمال من تصرفاته، إذ كانوا يخشـــون من توسع الدولة فى اتخاذ المزيد من هذه الإجراءات التى يمكن أن تقلص من نفوذهم وتحد من حركتهم.

لم يكن حكام البلاد فى حاجة لاستعراض تلك التحولات الكبرى التى طرأت على المكسيك. فلو أمعنا النظر لوجدنا أن مسيرة التحول كانت قد بدأت مع عام 1930. إذ اقترنت زيادة السكان والهجرات السريعة إلى المدينة بنمو الطبقة المتوسطة التى تعيش فى الحضر بدرجة لا مثيل لها من قبل ولم تحدث على مدى تاريخ المكسيك. ويرجع السبب فى تعاظم حجمها إلى إزدياد عدد الموظفين وكبار المسئولين فى الشركات الخاصة وفى الأعمال الإدارية الحكومية وكذلك إلى ازدياد أعداد أصحاب المهن الحرة الذين لا يرتبطون بأعمال رسمية إضافة إلى صغار رجال الأعمال. وقد استفادت تلك الطبقة إستفادة عظيمة من الرخاء الاقتصادى ومن الإنفاق العام على الصحة والتعليم كما استفادت بصفة عامة من حزمة السياسات ومن مجموعة الأفكار والقيم التى جمعت بين النمو الحاصل فى البلاد وبين اتساع نطاق الأسواق الداخلية. وهناك مؤشر ضخم بل وبليغ على هذه الديناميكية الاجتماعية يتمثل فى زيادة عدد طلبة الجامعات بمقدار 15 مرة فى البلاد، إذ كان عدد الطلبة فى عام 1930 حوالى 23000، وارتفع عددهم فى عام 1970 إلى 335000. ومن الأدلة على التوسع العمرانى الحضرى إقامة العديد من المنشآت مثل المدينة الجامعية التى جرى افتتاحها فى عام 1952 كما يشهد عليه التوسع فى تشييد توابع المدن مثل الحى الهائل "سيوداد ساتيليتى" الذى أنشئ ملاصقا لدائرة الحيز العمرانى للعاصمة الفيدرالية للمكسيك، وكان العمل قد بدأ فيه عام 1953، كما أقيمت عدة مجمعات تجارية ضخمة. وهناك مؤشر آخر يصور لنا المدى الذى حققته الحركة الاقتصادية-الاجتماعية-الثقافية وهو زيادة عدد السيارات 19 ضعفا خلال الفترة المحصورة بين عام 1930 وعام 1970 إذ قفز عددها من 63000 سيارة إلى 1,200000 سيارة. كذلك تضاعف عدد مستخدمى الهاتف حوالى عشر مرات تقريبا فى الفترة من عام 1940 إلى عام 1970،

فبينما كان عدد الهواتف فى عام 1940 حوالى 88000 قفز هذا العدد إلى 859000 فى عام 1970. وهذه الأرقام هى مجرد مؤشرات على مدى التحول الذى طرأ على الحياة اليومية فى المدن. وينبغى أن نضيف إلى هذا كله بند انتشار السلع المعمرة مثل الغسالات والثلاجات وأجهزة المذياع وتشغيل الاسطوانات والتلفزة وآلات الحياكة والتطريز التى فرضت على الحياة المنزلية روتينا جديدا. وهكذا سنجد أنفسنا أمام صورة لمجتمع أسهمت فى قيامه عدة عوامل من بينها ظهور فئة أصحاب محلات التجارة الجدد الذين يبيعون تلك السلع، ومن بينها أيضاً الطفرة التى طرأت على المرتبات، والأنماط والأنظمة الجديدة المطبقة فى العمل، ووسائل شغل الفراغ والترفيه، وخلق حوافز وآفاق تبشر بالترقى الطبقى وذلك بفضل التعليم أو التفوق والإخلاص فى العمل أو النظام العائلى القائم على المشاركة والتكافل بين أفراده، وتلك الصورة هى صورة لمجتمع أصبح أقل ارتباطا بالقرية وبالزراعة. وهكذا توارى مجتمع القرية والزراعة وحل محله مجتمع أكثر قربا فى قسماته من سمات الحضر الموجودة فى كبريات المدن العالمية.

ورغم تلك الموجة العارمة من التغيرات الاجتماعية، كانت هناك قطاعات تشعر بعدم الرضا لأن النمو الاقتصادى انعكست فوائده على جانب من السكان وخاصة فى المدن فى حين لم ينل الريف من مكاسبه وفوائده إلا النذر اليسير. وفى الوقت الذى بدأ يزداد فيه حجم أبناء الطبقة المتوسطة، بدأت المدن تشهد فى داخلها أو حولها تكون أحزمة ضخمة من الفقراء المهاجرين إلى المدينة. والواقع أن عدم الإنصاف غدا مكونا أساسيا وجوهريا من مكونات الواقع القومى. وتعطينا المؤشرات المتعلقة بتوزيع الدخل فى الفترة الواقعة ما بين عام 1950 وعام 1963 نتائج تنذر بالخطورة بعد أن بينت الإحصاءات أن أكثر من نصف الثروة القومية تتركز فى أيدى 10% فقط من طبقة الأثرياء.

وقد كان يتم التعامل مع مشاعر السخط وعدم الرضا التى كان يحس بها العمال والفلاحون من خلال حلول تتمثل فى بعض التنازلات والمفاوضات وأحيانا عن طريق اللجوء إلى وسائل العنف. فعلى سبيل المثال، غض المسئولون البصر وتجاهلوا مسيرة "قافلة الجوعى" المؤلمة التى قام بها الآلاف من عمال المناجم وقطعوا خلالها مسافة 1400 كم من نويبا روسيتا فى ولاية كواهويلا إلى أن وصلوا إلى العاصمة. وكانوا يحتجون فيها على المعاملة السيئة التى كان يلقاها العمال من شركة أمريكية كبرى هى "الشركة الأمريكية لصهر وتنقية

"المعادن". وفى عام 1958 عانى العاملون فى البرق وفى قطاع البترول والمعلمون من القمع، كما جرى اعتقال العديد من زعمائهم. كما سجلت التحركات السياسية من أجل الانتخابات فى باخا كاليفورنيا وفى تشيهواهوا وفى سان لويس بوتوسى تباشير ضياع الهيبة عن الحزب الرسمى وتسلطه بل وعن الحكومة الفيدرالية بوجه عام. وفى عام 1959 قام الجيش بقمع الإضراب الذى نظمه عمال السكك الحديدية كما جرى اعتقال عدد من زعمائهم من بينهم ديميتريو بايـيخو وتم ارسالهم إلى السجن بتهمة ارتكاب جريمة تعريض وحدة المجتمع للتفتت حيث ظل فى السجن عدة سنوات. وبسبب النغمة التى كانت سائدة فى الولايات المتحدة وفى المكسيك خلال تلك السنوات نتيجة للمواجهة مع الإتحاد السوفيتى خلال الحرب الباردة، فقد جرى اتهام عمال السكك الحديدية بالشيوعية. كذلك قام الجيش فى عام 1962 وأمطر زعيم الفلاحين المستقل روبين خاراميـيو وأفراد عائلته بوابل كثيف من الرصاص الذى اخترق أجسادهم فلقوا جميعا مصرعهم.

وقد غذت الثورة الكوبية ذلك الجو المشحون بالسخط والإمتعاض فى المكسيك، خاصة بعدما قام رجال حرب العصابات وعلى رأسهم فيديل كاسترو بالاستيلاء على السلطة فى شهر يناير سنة 1959 وقاموا بخلع الديكتاتور فولخينسيو باتيستا. وازداد التوتر بين كوبا والولايات المتحدة لدرجة أن كاسترو أعلن أنه ماركسى-لينينى. وقد غذت هذه التجربة الثورية آمال وأفكار الذين كانوا يشعرون بالسخط والراديكاليين أيضاً، ليس فى المكسيك وحدها بل وفى أمريكا اللاتينية بأكملها. وفى عام 1961 قامت فى المكسيك "حركة التحرير الوطنية" بقيادة رئيس الجمهورية السابق كارديناس الذى حاول ضم العديد من القطاعات التى لم تكن تتفق مع اتجاهات وسياسات الحكومة المكسيكية، فقامت الكنيسة المكسيكية على الجانب المقابل بتنظيم عدة مظاهرات تحت شعار "نعم للمسيحية، لا للشيوعية" أسهمت بدورها فى ازدياد حدة توتر الأجواء السياسية. وفى غضون ذلك قام أثرياء رجال الأعمال المكسيكيين -ولم يكن عددهم يزيد عن ثلاثين- بإنشاء "المجلس المكسيكى لرجال الأعمال" وهى منظمة سرعان ما بدأت تمارس نفوذها الاقتصادى والسياسى وبهذا انضمت إلى ما كان قد سبقها من هيئات ومنظمات قديمة لرجال الأعمال مثل إتحاد الغرف الوطنية للتجارة واتحاد غرف الصناعة واتحاد الغرف الوطنية للصناعات التحويلية وإتحاد أصحاب الأعمال بالجمهورية المكسيكية وجمعية رجال البنوك فى المكسيك.

قامت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى غمار هذا الجو السياسى والدبلوماسى المحموم بإطلاق حملة ضد مشاعر التعاطف التى أيقظتها التجربة الكوبية فى أمريكا اللاتينية. ثم قامت فى مظهر من مظاهر الحرب الباردة بالضغط خلال الفترة من عام 1962 إلى عام 1964 على حكومات أمريكا اللاتينية من أجل عزل كوبا اقتصاديا وسياسيا. ولكن المكسيك رفضت أن تنساق وراء تلك المبادرة الأمريكية فكانت الدولة الوحيدة التى اتخذت مثل هذا الموقف الثابت المستقل داخل منظمة الدول الأمريكية. وقد زاد هذا الموقف من قدر المكانة التى كانت المكسيك تتمتع بها على المستوى العالمى. وفى الوقت نفسه، قامت الولايات المتحدة بإنشاء هيئة "تحالف من أجل التقدم" بهدف تفادى قيام بؤر ثورية جديدة فى أمريكا اللاتينية. وفى هذه الأثناء أقرت المكسيك فى عام 1964 نظاما لنواب يمثلون الأحزاب، وهو نظام يسمح بعضوية الكونجرس لعدد محدود من نواب المعارضة.

تولى رئاسة الجمهورية بعد لوبيس ماتيـيوس الرئيس غوستابو دياس أورداس (1964-1970) وهو من أبناء ولاية بويبلا. وقد بدأ فترة ولايته بمواجهة مع حركة الأطباء المقيمين والنواب (المترجم: تسميات يطبقها النظام الداخلى للأطباء) التابعين للهيئة المكسيكية للتأمينات الاجتماعية وهيئة التأمينات الاجتماعية المكسيكية للعاملين بالدولة، إضافة إلى العديد من الأطباء التابعين لعدة مؤسسات طبية أخرى. ثم أضيفت إلى هذه المواجهة نزاع آخر له طبيعة مختلفة، ففى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة 1965 قامت جماعة صغيرة بمهاجمة معسكر الجيش فى ماديرا بولاية تشيهواهوا. وعلى الرغم من أن بؤرة حرب العصابات هذه قد جرى التعامل معها بسرعة وتم القضاء عليها، إلا أنها قد سجلت بداية لمرحلة من المراحل التى نشطت فيها عدة مجموعات مسلحة تحت تأثير التجربة الكوبية وكانت تهدف إلى تغيير نظام البلاد عن طريق العنف. ويسوق أولئك المقاتلون الحجج بأن أغلب طوائف الشعب تعيش فى ظروف بائسة بسبب استغلال رأس المال لهم. وقد اتجهت عمليات رجال حرب العصابات الى المدن، كما اتجهت مجموعات أخرى منها للعمل فى الريف، مثلما حدث فى ولاية غيريـرو وكان يقودها مدرسون فى المرحلة الإبتدائية مثل خينارو باسكيس ولوسيو كاباناس.

لكن مما لا شك فيه أن أهم الأحداث التى شكلت خروجا على النظام، كانت حركة الطلبة التى وقعت فى عام 1968 واستغرقت عاما من مظاهرات الإحتجاجات الضخمة التى

نظمها الشباب فى مختلف أنحاء العالم. ولقد كانت تلك الحركة التى انطلقت شرارتها بعد مذبحة 2 أكتوبر فى تلاتيلولكو هى أبلغ دليل على مدى التباعد بين مجتمع حضري يزداد حجمه وتتنوع عناصره يوما بعد يوم، ونظام حكم سياسى كان يتصور أن اهتماماته بالتحديث لن تنقلب على الإطلاق أبدا لتشكل تهديدا أو تحديا لسلطته. هذا الحدث الذى اتخذ من القمع سبيلا له كشف عن عجز النظام السياسى فى إدارة مفاوضات وتسوية نزاع كان فى بادئ الأمر مجرد اشتباك بسيط بين الطلبة. كما نظر الرئيس دياس أورداس إلى تلك الحركة على أنها مؤامرة شيوعية تستهدف إستقرار الأمة. ثم بدأت الأمور تزداد تعقيداً كلما اقترب موعد دورة الألعاب الأوليمبية التاسعة عشر المقرر افتتاحها فى 12 أكتوبر سنة 1968. وفى شهر سبتمبر قام الجيش باحتلال جامعة المكسيك القومية المستقلة والمعهد الصناعى الفنى وأخلى منشآتهما من الطلبة. ثم كانت نهاية المطاف مع حلول مساء يوم الثانى من شهر أكتوبر رغم أن العقدة كانت قد بدأت تنحل، إذ تعرض الطلبة المحتشدين فى ميدان تلاتيلولكو للهجوم من جانب جنود الجيش: فيقال أن القوات كانت ترد على الاستفزار بعد أن تعرضت كتائبهم للنيران من جانب بعض القناصة الذين كانوا يتخذون لهم مواقع استراتيجية ويتردد أنهم كانوا تابعين للدولة وأنهم أطلقوا النار بعد أن تلقوا تعليمات صدرت لهم بذلك من عدد من كبار المسئولين فى الحكومة...

وكان من بين من لقى مصرعه عدد من عمداء الكليات كما جرى الزج بالعشرات فى سجن ليكومبيرّى وكان من بينهم الكاتب الشهير خوسيه ريبويلتاس والمهندس إيبيرتو كاستيـيُو. وهكذا لحقا فى السجن بمن كان قد جرى اعتقالهم فى عام 1959 من عمال السكك الحديدية بعد الإضرابات التى قاموا بها وأيضاً من أعضاء حركة الأطباء التى وقعت عام 1965. وقد قام الشاعر أوكتابيو باس (الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام 1990) بالاستقالة من منصبه كسفير للمكسيك فى الهند وذلك احتجاجاً على تلك المذبحة.

لقد أصبح واضحا جليا أن نظام الحكم بعد عام 1968 كان يزداد عجزه فى الإمساك بزمام أمور هذا المجتمع الحضرى المستنير الذى يجمع بين شتى الفئات والطوائف ولكنه يشعر بالسخط وعدم الرضا وتعوزه السبل التى يعبر من خلالها عن وجهات نظره. وقد اقترن هذا أيضاً بواحدة من السمات الواضحة الجلية التى انطبعت على الحياة السياسية ألا وهى القبضة الحديدية الى تفرض بها الحكومة سيطرتها على وسائل الإتصال سواء كانت مطبوعة أو تتم

عبر الإذاعة والتلفزيون. وشخصية الصحفى خاكوبو سابلودوفسكى مدير أكثر برامج أخبار التلفزيون تأثيرا على الناس لمدة عقود طويلة هى أبلغ صورة على الرقابة على الإعلام... كذلك وقع حدث آخر تعرض فيه الطلبة للقمع وهو الحدث الذى وقع فى 10 يونيو سنة 1971 فى مدينة المكسيك ليشهد وليصدق على تلك المسافة التى تفصل بين المعارضين والساخطين من جهة وبين الدولة التى أنجبتها ثورة سنة 1910 من جهة أخرى.

بذلت الحكومة المكسيكية جهودا مضنية فى محاولة منها لاستعادة الأرض التى فقدتها واتبعت فى هذا عدة إستراتيجيات. لكن أحد أهم أحداث التاريخ فى القرن العشرين وضع الصعاب أمام تلك الجهود، وكان هذا الأمر يتعلق بنهاية العصر الذهبى الذى تلى الحرب العالمية الثانية وهو ما ظهر فى صورة تقهقر وتيرة النمو الاقتصادى العالمى. وتعتبر "سنة 1973" فى عبارة دقيقة وبكل الحقيقة عام نهاية عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية وبداية عصر الأزمة العامة.

سعت حكومة المكسيك لاسترضاء الجماعات الساخطة وذلك خلال فترة رئاسة الرئيس لويس إيتشيبيريّا (1970-1976) والرئيس خوسيه لوبيس بورتـيُو (1976-1982) وكلاهما ينتمى إلى العاصمة، فأعلنت عفوا عاما أطلقت بمقتضاه سراح المعتقلين وفتحت مراكز جديدة للتعليم العالى (مثل الجامعة المتروبوليتانية المستقلة/عام 1974) وقامت بتطبيق آليات لدعم طبقة العمال (مثل هيئة الصندوق القومى لإسكان العاملين/عام 1972)، فضلاً عن بعض الإصلاحات المتعلقة بقوانين الانتخابات، وألقيت الخطب الرنانة التى تتحدث عن الانفتاح الديموقراطى وعن الوطنية. وكانت هنالك أيضاً تلك الجهود، مثل إستثمارات الدولة فى صناعة السينما التى عملت على توثيق العلاقات مع مختلف جماعات الفكر والفنانين. فوصل الأمر إلى أن يكتب أحد الكتاب المقربين إلى النظام مقولته الشهيرة: "إما إيتشيبيريّا، وإما الفاشيـة". لكن النجاح كان بعيدا عن كل تلك الجهود الحكومية. وسنرى الآن لماذا؟...

بادئ ذى بدئ علينا التسليم بأن النمو الاقتصادى كان قد بدأ ينكمش. وكان هذا أحد الأعراض الدالة على احتضار نموذج من نماذج التطور والتنمية كان يسود البلاد منذ عام 1930 وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وكان يقوم على التصنيع لكى تحل منتجاته محل المنتجات المستوردة. وكان تدهور الصناعات الغذائية وتقلص إيرادات الدولة من العملة الأجنبية دليلا على أن قطاع الإنتاج الزراعى الحيوانى قد ترهل وأنه قد أصبح غير قادر على

مساندة مسيرة التصنيع. وبدأ الفارق بين صادرات البلاد ووارداتها يزداد تدريجياً وبشدة، وهو ما يعرف بمصطلح "العجز فى الميزان التجارى". ومن جهة أخرى، لم تعد المدخرات كافية لتمويل التنمية الاقتصادية، علما بأن المكسيك إذا ما قورنت بغيرها من الدول سنجد أنها دولة فقيرة جدا. ونظراً لأن رجال الأعمال لم يكونوا معنيين بالمخاطرة برءوس أموالهم، فإن تقهقر أمور الدولة قد ازدادت خطورته. مع هذا، فإن الرئيس إيتشيبيريا حاول إجراء إصلاحات مالية وتحصيل المزيد من الضرائب لكن رجال الأعمال اعترضوا على تلك المحاولة بكل شدة. وإزاء هذا الفشل وهو ما كان يعد أيضاً مؤشرا على ضعف الحكومة، قررت الحكومة المكسيكية أن تطلب قروضا من الخارج للحفاظ على مستوى مؤشرات الإنفاق العام أو لرفعه. وهكذا بدأت تتراكم الأعباء التى ستثقل كاهل الأجيال القادمة.

فى 17 سبتمبر سنة 1973 جرى إغتيال رجل الأعمال القوى إيوخينيو غارسا سعادة صاحب كواوهتيموك لإنتاج الجعة (البيرة) ومؤسس معهد تكنولوجيا مونتيريــى فى عام 1943 وذلك فى محاولة للسطو عليه من جانب عدد من رجال العصابات التابعين لعصبة 23 سبتمبر. وخلال مراسم الجنازة طالب أقاربه الغاضبون بالقصاص من الرئيس إيتشيبيريّا... وقد كانت تلك الحادثة سبباً رئيسياً من أسباب مصادر التوتر القائم بين الحكومة وبعض قطاعات رجال الأعمال. ثم بدأت تزداد خطورة ذلك التوتر بسبب المصاعب الاقتصادية الضخمة التى كانت البلاد تواجهها. ومن ثم فقد ولد فى عام 1975 "مركز تنسيق رجال الأعمال" حيث تشكل من منظمات وهيئات صناعية ومن العاملين فى التجارة وأصحاب الأعمال ورجال البنوك إضافة إلى المجلس المكسيكى لرجال الأعمال ذى النفوذ الكبير.

على صعيد آخر، قامت بعض القطاعات العمالية وخاصة فى مجال الكهرباء وعلى رأسها رافائيل غالبان بشن حملة قاسية ضد السيطرة على النقابات ويمارسها الزعماء الرسميون لتلك النقابات المعروفين بموالاتهم للحكومة. وكانت صدور العديد من قطاعات العمال والفلاحين تغلى بالسخط على الحكومة فى فترة تميزت بحراك الناشطين المنتمين إلى جماعات سياسية مختلفة الميول، وذلك بدءا من الماويين (نسبة إلى الذين يعتنقون أفكار الزعيم الصينى ماو تسى تونغ) وانتهاء بالكاثوليك الذين يؤمنون بـــ "لاهوت التحرر"، وهو تيار كان يطالب بالخيار الحر للفقراء وخاصة فى أمريكا اللاتينية. علاوة على تلك المصاعب، كانت الحياة تخبئ بعدا آخرا فى البلاد، وكانت المحاولات ترمى لكى يظل أبطال ذلك البعد يعملون فى

الخفاء... والمقصود بهذا هو ما يطلق عليه "الحرب القذرة" ونعنى بها القيام بصورة غير مشروعة بقمع الحركات المسلحة التى انتشرت خلال عقد السبعينات: وقد تذرعت الحكومة بمبررات فرض الشرعية من أجل إخضاع أولئك الذين يتحدونها ويرفعون فى وجهها السلاح. ولهذا فقد لجأت الحكومة إلى التعذيب واغتيال العشرات كما اختفى الكثيرون منهم، فضلاً عن تخويف عائلاتهم وبث الرعب فيهم. وبينما كانت الحكومة تشن هذه الحرب، كانت تقوم بمواقف استعراضية تقدمية تتحدث عن مصالح دول العالم الثالث، ويبرز من تلك المواقف ذلك الدعم الذى كانت توليه إلى رئيس جمهورية تشيلى سلبادور أيـيندى ورئيس كوبا، ثم استقبال المكسيك لآلاف المنفيين من أوروغواى والأرجنتين وتشيلى ممن هربوا من الحكم الديكتاتورى العسكرى القائم فى بلادهم.

كان التضخم هو التعبير المنطقى لسوء إدارة الاقتصاد المكسيكى منذ عام 1973. وفى واقع الأمر، إن حدوث التضخم فى المكسيك لم يكن وحسب من تداعيات المصاعب التى مرت بها الأسواق العالمية ولكنه نجم كذلك عن زيادة إصدار أوراق النقد وزيادة الإنفاق العام دون سند اقتصادى فاعل. وكان مؤشر زيادة الأسعار فى عقد الستينات يبين أن الزيادة كانت أقل من 5% سنويا، لكنها تجاوزت نسبة 20% بعد عام 1973. ثم أدى إنفلات التضخم إلى تخفيض قيمة العملة (بيزو) فى شهر أغسطس سنة 1976. فبعدما كان البيزو مستقرا عند حد 12,50 بيزو مقابل الدولار الواحد، انخفضت قيمته إلى 20 بيزو مقابل الدولار. لكن هذه كانت البداية لاستمرار الخفض، إذ أن نسبة الفقد كانت 760 مرة مقابل الدولار خلال الفترة المحصورة بين شهر أغسطس سنة 1976 وشهر نوفمبر سنة 2000 (انخفضت قيمته من 12,50 بيزو مقابل الدولار إلى أن أصبح 9500 مقابل الدولار، وهذا لو لم نشطب الأصفار الثلاثة التى حذفت بمرسوم فى عام 1993) . وقد لجأ الرئيس إيتشـفيريّا إلى صندوق النقد الدولى ليساعده فى محاولاته لتجاوز أزمة 1976، فاشترط الصندوق فى المقابل إجراء تخفيضات قاسية على الإنفاق العام.

ويبدو أن الحظ قد ابتسم للحكومة ولجميع المكسيكيين بوجه عام بعدما أُعلن فى بداية عام 1978 عن اكتشاف حقول بترولية ضخمة فى سوندا دى كامبيتشى. وحينئذ صرح رئيس الجمهورية خوسيه لوبيس بورتيـــيّو قائلا إن على المكسيك أن تعد نفسها لاستقبال هذا الخير الوفير والاستفادة منه. ثم عكفت الحكومة على اللجوء إلى الاقتراض من الخارج فى الوقت

الذى بدأت شركة البترول المكسيكية (بيميكس) تزيد من قدرتها الإنتاجية. وكانت الأرقام مذهلة: فعلى سبيل المثال كانت كميات البترول الخام المصدرة فى عام 1976 هى 94000 برميل يوميا، فوصلت هذه الكميات فى عام 1982 إلى 1,5 مليون برميل يوميا. وأدى تواجد شركة البترول المكسيكية (بيميكس) فى فيراكروز وفى تاباسكو وفى كامبيتشى إلى تحولها إلى مناطق جذب وإلى كابوس فى الوقت نفسه. فقد كانت هناك المرتبات المرتفعة، وكان إلى جانبها أيضاً التعسف فى التعامل مع العمال، كذلك ازداد الطلب على المساكن فى مناطق حضرية كانت تفتقر إلى المرافق اللازمة لسد احتياجات المقيمين فيها إضافة إلى القادمين الجدد، وأدت زيادة انتاج البترول كذلك إلى زيادة الأضرار البيئية لأن الدولة انتابتها حمى التكالب على جنى العملات الأجنبية. ولكن عائدات البترول سرعان ما شكلت ثلث ميزانية الدخل القومى العام للبلاد...

ولهذه التجربة صلة بإحدى تداعيات الأزمة العالمية التى بدأت فى عام 1973. فلقد أدى الحظر الذى فرضته منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) فى عام 1973 على الولايات المتحدة ودول أخرى إلى زيادة سعر برميل النفط الخام ليصل إلى 35 دولار/برميل فى عام 1981 بعدما كان أقل من 3 دولار/برميل فى عام 1970. واهتز الاقتصاد العالمى إزاء الارتفاع الذى حاق بأسعار النقل وبأسعار التكلفة. وجرى ضخ حصيلة آلاف الملايين من الدولارات التى حصلت عليها الدول البترولية إلى مختلف أوجه الأنظمة المالية العالمية وهو ما أدى إلى خفض سعر الفائدة. ولهذا أصبحت الاستدانة خيارا جذابا.

سعت المكسيك إلى الاستفادة من الظروف الاقتصادية العالمية لتعويض ضعف موقفها المالى ولتسيير عجلة المشاريع البترولية. وكان حجم الدين الخارجى المكسيكى 1900 مليون دولار، لكن حجمه زاد ثلاثين مرة فى عام 1982 فوصل إلى 59000 مليون دولار. ولم يسبب هذا أى قلق لكبار مسئولى الحكومة لأنهم كانوا على ثقة فى سعر البرميل سيواصل الإرتفاع، فربما يصل إلى 70 دولار/برميل. وعليه، فمن الممكن سداد أى شئ...

أدى وصول الإنفاق العام إلى ذروته خلال عقد السبعينيات من القرن العشرين إلى مؤشرات إيجابية، فعلى سبيل المثال وصل معدل النمو فى المكسيك إلى أكثر من 7% سنويا وإلى زيادة فى المرتبات استمرت بلا انقطاع على الأقل حتى عام 1976 كما سجل النمو أعلى مخصصات نالتها الصحة والتعليم والبنية التحتية منذ عام 1929. وفى هذا الصدد، يذكر

الخبراء أن الشعور بعدم العدالة الاجتماعية وشعور الأقاليم بالظلم قد انخفض بصورة محسوسة خلال ذلك العقد.

وهناك تغيران ظهرا فى تلك الفترة وظلت آثارهما قائمة مستمرة، وأولهما يتعلق بتبنى سياسة سكانية جديدة تقوم على التخطيط وتنظيم النسل. فقد ساد اليقين بأن الاقتصاد غير قادر على استيعاب الزيادة السكانية المستمرة. ومن ثم فقد كان على الحكومة أن تضطلع بدورها فى هذا الأمر، فأنشأت المجلس القومى للسكان فى عام 1974 بهدف تطبيق الوسائل الرامية إلى خفض الزيادة السكانية. وكان لهذا الإجراء آثاره الفعلية على معدلات الزيادة السكانية على الرغم من معارضة الكنيسة الكاثوليكية له، فانخفضت معدلات الزيادة السكانية من 3,6% إلى أن وصلت خلال الفترة الواقعة بين عام 1970 وعام 1990 إلى 2,6%.

أما التغير الثانى فقد كان يتعلق بالسياسة. فبعدما كان المرشح للرئاسة فى عام 1976 هو مرشح الحزب الثورى المؤسسى وكان مرشحا وحيدا للمنصب، دفعت حكومة لوبيس بورتيـيو فى عام 1977 بتعديل دستورى لكى يسمح بالمشاركة فى الترشيح فى إطار من المنافسة الحزبية مع القوى السياسية الأخرى التى تمثل الأقلية وخاصة التجمعات اليسارية. ولهذا فقد استطاعت أحزاب مثل الحزب الشيوعى والحزب المكسيكى للعمال والحزب الديموقراطى المكسيكى (يدعو للرئاسة الجماعية) بالإندماج فى الحياة الانتخابية بعد الأخذ بالنظام النسبى الذى يحدد طريقان لانتخاب النواب (القائمة الفردية والقائمة الكاملة أو الجماعية) وذلك حسب النسبة المئوية للأصوات التى يحصل عليها كل تجمع. وهكذا دخل نواب شيوعيون لأول مرة إلى الكونجرس المكسيكى. كذلك استطاع "حزب العمل الوطنى" أن يزيد من عدد نوابه فى الكونجرس الفيدرالى. وعلى الرغم من الإصلاحات التى أجريت على قوانين الانتخابات إلا أنها لم تمس تبعية السلطة التشريعية للسلطة التنفيذية الفيدرالية، كما لم تمس هيمنة الحزب الثورى المؤسسى على الحياة السياسية. ولكنها كانت أول حلقة فى جهد مستمر لتغيير النظام الانتخابى بل وقد ذهبت تلك الحلقة إلى بعيد...فى سبيل الإصلاح السياسى العام فى البلاد. ومع هذا، فأن هذه الإنجازات قد جرى ما يعكرها بعد الظروف الاقتصادية والأحداث السياسية الخطيرة التى وقعت فى عام 1981 وعام 1982. فلنر ماذا حدث.

بدايةً، كانت الحسابات بشأن سوق النفط خاطئة تماما. فمع بداية شهر مايو سنة 1981 بدأت أسعار النفط فى الانخفاض فى الوقت الذى بدأ فيه سعر الفائدة يرتفع فى البنوك.

وأصبحت الأحوال المالية العامة فى وضع دقيق بسبب انخفاض الموارد وارتفاع الإنفاق نتيجة لارتفاع أسعار الفائدة على القروض. وقد اعترف وزير الخزانة فى شهر أغسطس سنة 1982 بإفلاس الاقتصاد المكسيكى وأعلن وقف السداد للدائنين الأجانب. وقام المضاربون وغيرهم من صغار المدخرين الذين كانوا يسعون لحماية أموالهم بإخراج كميات ضخمة من الدولارات من البلاد ورفعوا سعر الدولار من 26 بيزو إلى 70 بيزو مقابل الدولار. ووصل التضخم إلى حوالى 100%... وإزاء ذلك الموقف الدقيق، قام رئيس الجمهورية فى 1 سبتمبر سنة 1982 بمصادرة البنوك لتصبح الدولة مالكة لها. وقد أشاد البعض بهذا الإجراء، ولكنه لم يلق التأييد العريض من عامة الشعب. ولم يعد خافيا وعلى عكس المتوقع أن ساد بين الناس شعور بعدم الثقة فى الزمرة الحاكمة.

حراك المواطنين
والتحول السياسى

يعتبر انتخاب مارجريت تاتشر كرئيسة لوزراء بريطانيا فى عام 1979 ورونالد ريجان كرئيس للولايات المتحدة بداية لردود فعل الاتجاه المحافظ إزاء الأزمة العالمية التى حدثت فى عام 1973. وكان خفض الإنفاق العام ودعم دور القطاع الخاص هما القرينتين اللتين يحتج بهما "أصحاب الموقف المرتد عما كان يدعو إليه الاقتصادى كينز" ودولة الرفاهية. ثم احتل مكانة كينز رجال اقتصاد كانوا يرون أن مساوئ الاقتصاد تكمن فى نهاية المطاف فى الزيادة المبالغ فيها فى الإنفاق العام. واشتدت فى نفس الوقت حدة المواجهة مع الاتحاد السوفيتى، لتُزكّى استراتيجية التسلح وخاصة فى الولايات المتحدة. وأصبح البابا الجديد الذى تسنّم كرسى البابوية فى أواخر عام 1978 ضالعا بصورة حية فى ذلك المشهد العالمى. فقام البابا يوحنا بولس الثانى فى فبراير سنة 1979 بأول زيارة له إلى المكسيك. وقد فاق احتفاء عامة الشعب به كل تصور.

إزاء الأزمة التى تفجرا فى البلاد فى أواخر حكم لوبيس بورتيـيُو، أدى تغير اسلوب الحكومة الشديد فى إدارة الأزمة إلى ترك آثار قاسية على معظم أبناء الشعب. وقد جرى هذا بالضبط فى نفس التوقيت الذى بدأ فيه الكمبيوتر الشخصى ينتشر فى المكاتب وفى كبريات الشركات وفى المنازل والمدارس. وكانت مهمة مواجهة الأزمة من نصيب الرئيس الجديد ميغيل دى لا مدريد (1982-1988) ، حيث قام بخفض الإنفاق والاستثمار العام بصورة كبيرة جدا

(مثال على هذا خفض الإنفاق العام بنسبة الثلث خلال عام 1983) كما بدأ فى بيع كثير من شركات الدولة، وذلك رضوخا للمواقف التى اتخذتها حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا ورضوخا لشروط البنك الدولى وصندوق النقد الدولى لكى تستطيع المكسيك تجاوز أزمة 1982. ورغم الإجراءات الرامية للحد من إنفلات التضخم، انخفضت المرتبات انخفاضا سبب الدوار للجميع. ثم تطل برأسها تلك المشكلة القديمة لتمارس دورها الدرامى: البطالة. ومن ثم فقد أدركت العائلات أن عليها أن تبحث بنفسها عن الحل، بعد إزدياد ترك العاملين لأعمالهم. وبدأ المئات -ثم تبعهم الآلاف- يقفون على الأرصفة وفى الميادين والشوارع كباعة جائلين. كذلك قرر بعض الشباب من العائلات الأخرى الهجرة غير الشرعية إلى الولايات المتحدة معرضين حياتهم للخطر. واختار غيرهم الاحتجاج بأساليب مختلفة مثل اعضاء مكتب التنسيق القومى للعاملين فى التعليم الذى تأسس سنة 1979 وشكله أولئك المعلمون الذين لا يتفقون مع زعمائهم الموالين للسلطة ويحتجون على هبوط مرتباتهم الشديد. ولجأ غيرهم إلى المعارضة وسحب التأييد فى الانتخابات وذلك على النحو التالى: بدءوا فى منافسة الحزب الثورى المؤسسى (فى السلطة) وسعوا لهزيمته فى الانتخابات البلدية فى بعض المواقع التى كانت تتمتع ببعض الثقل السياسى وخاصة فى شمال البلاد مثل عواصم ولايات دورانغو وتشيهواهوا وسيوداد خواريس الحدودية. وظهر الحراك منذ ذلك الحين بين فئات أبناء المجتمع الساخطين، فاحتلوا الشوارع والميادين وقطعوا الطرق وحاصروا أكشاك تحصيل الرسوم الواقعة فيها، واقتحموا المكاتب الحكومية وقاطعوا محطات التلفزيون كما نظموا الاعتصامات والمسيرات والإضرابات عن الطعام. ولا يعنى هذا أن مثل هذه الإحتجاجات لم تكن موجودة من قبل ولكن الجديد هنا أنها كانت تجرى بصورة إعتيادية مستمرة ولم يكن تزعمها يقتصر على العمال أو الفلاحين الذين أفقرتهم هذه الأوضاع الاقتصادية، بل كان يتزعمها أيضاً بعض المنتمين إلى قطاعات الشركات الكبرى وزعماء من الطبقة الوسطى سواء كانوا من الذين يعيشون فى الريف أو فى الحضر.

ثم ضربت الهزات الأرضية التى وقعت فى 19 و20 سبتمبر سنة 1985 جانبا كبيرا من وسط غرب البلاد. ووصل عدد الذين لقوا حتفهم فى مدينة المكسيك إلى الآلاف. وكان رد فعل الحكومة على تلك المأساة ضعيفا وبطيئا. وعلى العكس من هذا فقد كانت إستجابة الدول المجاورة عظيمة وفورية. ولم يمر رد الفعل الضعيف للحكومة وقوة استجابة المجتمع العالمى مر الكرام. ويبدو أن الحكومة التى كانت مهمومة بالاقتصاد لم تكن قادرة على التعامل الجيد مع

تلك المأساة. وانسحب هذا الإنطباع أيضاً على مجال آخر، لأن نشاط تهريب المخدرات بدأ يشكل هما يوميا يزداد بصفة مستمرة. فخلال الفترة من عام 1980 إلى عام 1990 انتشرت تلك التجارة بسبب ازدياد استهلاك الولايات المتحدة من الماريجوانا والكوكايين وغيرهما من الجواهر المخدرة. وأتاح هذا السوق قيام تحالفات بين المنتجين فى كولومبيا وبين المهربين المكسيكيين وبين الموزعين فى الولايات المتحدة. وقد شدت الأنباء إنتباه الرأى العام بخصوص رشوة السلطات المكلفة بمطاردة المرتكبين لتلك الجرائم وكذلك تصفية الحسابات و"غسيل" الأموال الناتجة عن تلك التجارة وإلقاء القبض على بعض الرءوس مثل رافائيل كارو كينتيرو والأخبار الواردة عن ضبط شحنات المخدرات. ويتسع النطاق ليشمل زيادة انتشار الجريمة وعمليات السطو المسلح فى المدن كما إمتدت تلك العمليات إلى الطرق الكبرى مثلما كان يحدث خلال القرن التاسع عشر.

وأدت المصاعب الاقتصادية إلى قيام بعض حكام الولايات وبعض قطاعات الشركات الكبرى بالتساؤل عن جدوى استبدال الواردات بالمنتجات المحلية كمحور يقوم عليه الاقتصاد المكسيكى. وقد تُرجم هذا التساؤل والرد عليه فى صورة انفتاح تدريجى على الأسواق العالمية. وأدى انضمام المكسيك فى عام 1986 إلى الإتفاقية الدولية للتعريفة الجمركية والتجارة (الجات) إلى ترسيخ هذا التحول الجذرى فى أسلوب تسيير اقتصاديات البلاد. وفى غضون هذا السياق الذى كانت الولايات المتحدة تتمتع فيه بالرخاء الاقتصادى، وصلت "صناعة التجميع" إلى الذروة (وهى صناعة تنهض على قيام المكسيك بإستيراد المكونات والسلع اللازمة لها وتجميعها فى البلاد ولكن على شرط إعادة تصديرها)، وهو ما حدث بالنسبة لشركات صناعة السيارات الأمريكية التى فتحت أفرع لها فى كل من أغواسكالينتيس وسونورا وتشيهواهوا وكواهويلا. وبدأت الكثير من مصانع مدينة المكسيك فى غلق أبوابها أو الرحيل إلى أماكن أخرى. وهكذا أصبحت "المدينة" التى كانت رمزا لمشروع التحديث والتمدين ترى كيف بدأت تتداعى ثروتها الاقتصادية.

فى خضم تلك الأجواء والتضخم الذى وصل مؤشره إلى 160%، بدأت الحملة الانتخابية فى عام 1987 لانتخاب رئيس الجمهورية الذى سيتولى مهام منصبه فى عام 1988. وقد ظهر "التيار الديموقراطى" من خلال فصيل منشق عن الحزب الثورى المؤسسى ويتزعمه كواوهتيموك كارديناس وهو ابن رئيس الجمهورية الأسبق لاسارو كارديناس الذى كان لعدة

سنوات أحد المناضلين العسكريين المنضوين تحت لواء الحزب الرسمى كما كان حاكما لولاية ميتشواكان. وقد جذب "التيار الديموقراطى" عدة جماعات إليه ثم تشكل منهم فيما بعد ما عرف باسم "الجبهة الديموقراطية الوطنية". وتقدم للانتخابات عن الحزب الثورى المؤسسى (فى السلطة) ابن العاصمة كارلوس ساليناس دى غورتارى، كما اختار حزب العمل الوطنى أحد أبناء سينالووا وهو مانويل خ. كلوتيير وكان منتميا إلى جماعة من كبار رجال الأعمال الذى انشقوا على الحكومة وعلى الحزب الثورى المؤسسى بسبب نزع ملكية البنوك.

وعند ذكر انتخابات الثانى من شهر يوليو سنة 1988 تبرز المفاجأة: وهى الإعلان عن "سقوط شبكة" كمبيوتر احصاء الأصوات... وقد أثار ذلك العطل شكوك وغضب أحزاب المعارضة. لكن هذا لم يمنع قيام السلطات القائمة على الانتخابات وعلى رأسها وزير الداخلية بإعلان فوز مرشح الحزب الثورى المؤسسى ساليناس دى غورتارى بمنصب الرئاسة. وقد ثار غضب أنصار حزب العمل الوطنى وأنصار كارديناس واحتجوا بشدة على هذه النتيجة، مؤكدين أن المرشح الرسمى قد لقى الهزيمة ولهذا كان من الضرورى له اللجوء إلى مناورة العطل والتحجج بما أصاب أجهزة المعلوماتية. ونظرا لأن المرشحين المهزومين كلوتيير وكارديناس لم يتفقا أبدا على استراتيجية مشتركة، فإن الإحتجاجات ضد تزييف الانتخابات بدأت فى الذوبان رويداً رويداً وخلص الأمر بفوز المرشح ساليناس. وإذا كان الحزب الثورى المؤسسى قد دبر ما دبر، فإن أحداث انتخابات عام 1988 كانت لها توابعها. فلقد تولت الحكومة الجديدة السلطة وهى تتمتع بالقليل من الشرعية. ولكى تقوى من مركزها قرر الرئيس ساليناس توجيه ضربة يكون لها تأثير حاسم وغير مباشر، فقام فى شهر يناير من عام 1989 بنشر قوات الشرطة والجيش واعتقل زعيم عمال النفط الذى كان يتمتع بنفوذ قوى خواكين إيرنانديس غاليسيا المكنّى باسم الشهرة "لا كينا". وكانت إحدى التداعيات أو بالأحرى النتائج الأخرى هى الإعتراف فى عام 1989 بأول فوز لمرشح معارض (مرشح حزب العمل الوطنى إرنستو روفّو) بمنصب حاكم ولاية هى ولاية باخا كاليفورنيا. ونتيجة ثالثة حدثت أيضاً فى عام 1989 وتمثلت فى ميلاد الحزب الثورى الديموقراطى الذى شكله عدد ممن كانوا ينتمون فى السابق إلى الحزب الثورى المؤسسى إضافة إلى بعض الشيوعيين والإشتراكيين من مختلف الإتجاهات.

بدأت الحكومة فى مزاولة مهامها وسط أجواء دولية اهتزت بقوة نتيجة عدة تغيرات كبرى. ففى الفترة الواقعة بين عام 1989 وعام 1991 سقط حائط برلين واختفت كتلة الدول

الإشتراكية كما اختفى الإتحاد السوفيتى. وقد قوّت تلك الأحداث من المواقف الرسمية للولايات المتحدة وبريطانيا فى سعيهما من أجل خفض الإنفاق العام وتحرير التجارة العالمية وتشجيع الإستثمارات الخاصة والتعامل على أساس قواعد السوق وهو ما تعارف عامة الناس على تسميته باسم "الليبرالية الجديدة". وقررت الحكومة المكسيكية وبالسمع والطاعة لتلك المبادئ "تخسيس" الدولة والسيطرة على التضخم من خلال خفض الإنفاق وبيع الشركات والمؤسسات الحكومية مثل البنوك فضلاً عن تليفونات المكسيك التى كانت فى يد الحكومة منذ عام 1972. وأصبح فوق قبة رجال الأعمال أسماء جديدة مثل كارلوس سليم. كما اجريت اصلاحات أخرى لها مغزاها مثل تعديل المادة 27 من الدستور، وهو ما يعنى نهاية توزيع الأراضى وفتح الباب أمام امكانية التصرف فى الأراضى المشاع. ثم كانت هناك نتيجة أخرى هى المادة 30 من الدستور التى منحت للكنيسة اعترافا قانونيا وأقرت حرية الناس الذين يؤمنون بالدين فى ممارسة عقيدتهم. وقد فتح هذا التعديل الباب أيضاً أمام إقامة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان.

خلال عام 1989 وعام 1990 أعيد التفاوض بشأن الدين المكسيكى الخارجى الذى كان يثقل كاهل الخزانة العامة منذ عام 1981. وكانت نتيجة المفاوضات إيجابية بالنسبة لحسابات الاقتصاديات الكلية للحكومة، كما تمثلت النتيجة الإيجابية أيضاً فى الانخفاض المحسوس الذى طرأ على العجز فى المالية العامة وعلى مؤشرات التضخم. غير أن هذا لم يؤد إلى تفادى سوء حالة الاقتصاد، كما أن المرتبات والبطالة لم يطرأ عليهما أى تحسن. ثم كان خفض الميزانيات المخصصة للصحة والتعليم سببا فى ازدياد خطورة الأوضاع بالنسبة لقطاعات عريضة من قطاعات الشعب. ولقد عانت الزراعة فى الريف كما عانى صغار رجال الأعمال من اللطمات التى تلقوها من سياسات الحكومة المكرسة فقط من أجل دعم فئة قليلة هى التى كان فى مقدورها تصدير انتاجها. وقد عكس بزوغ حركة "إل بارسون" فى سنة 1993 –التى ضمت الدائنين للبنوك وكان الكثير منهم من المزارعين– ضيق النفوس وضيق الأحوال الذى أصاب طبقات المجتمع الوسطى. ومع هذا فقد كان المتحدثون باسمالحكومة يؤكدون فى كلامهم على أن المكسيك أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح من دول العالم الأول، وكانوا يقولون أنه لم تبق إلا الدَفعة الأخيرة فقط، وزعموا أن تلك الدفعة هى التوقيع على معاهدة التجارة الحرة مع الولايات المتحدة وكندا.

والواقع أن الحد من تدخل الدولة فى الاقتصاد وتشجيع حرية تداول السلع بين الدول كان أحد مكونات صيغة النمو الاقتصادى الجديد وكان التبرير لهذا ينهض على القول بأنها "صيغة ذكية للتكيف مع العولمة الاقتصادية". كما قام الرئيس سالينياس ببدء محادثات للتوصل إلى إتفاقية تجارية مع الولايات المتحدة وكندا كتعبير عن مراعاة المكسيك لمقتضيات انضمامها إلى اتفاقية الجات. وبهذا تأكد عزم الحكومة على التخلى عن صيغة الاستعاضة عن الواردات، وأن تستبدل بها الإنفتاح التجارى وأن تكون الصادرات هى السند لتنمية البلاد. وكان هذا التغير دليلا على النية فى دعم التكامل الاقتصادى مع الولايات المتحدة وهو التكامل الذى يرى أن ضالته تكمن فى سوق العمالة وفى إنتشار شركات التجميع ليصبح انتاجها من السلع التى يتم تجميعها هو القـدر المحتوم الذى تكاد أن تقتصر عليه الصادرات المكسيكية، كما وجد ذلك "التكامل" ضالته فى ملايين الملايين من إيداعات المكسيكيين المالية التى ولت وجهها شطر البنوك الأمريكية... ولقد تم إقرار الإتفاقية التجارية مع الولايات المتحدة وكندا فى سنة 1993 وبدأ سريان العمل بها اعتبارا من 1 يناير سنة 1994.

ولقد كان كل شئ يبدو كأنه يسير كما هو مرسوم له... لكن عام 1994 كان عام المفاجآت.

كانت أولى تلك المفاجآت إندلاع حركة التمرد التى قام بها ما يطلق عليه "جيش تحرير ساباتا (زاباتا) الوطنى" فى ولاية تشياباس وذلك بالضبط فى أول يوم من أيام عام 1994، إذ قامت جماعات من أبناء البلاد الأصليين الذين يشكلون تلك المنظمة بإعلان الحرب على الجيش وعلى القائد الأعلى للجيش أى رئيس الجمهورية، واستولوا على عدة مواقع أهمها سان كريستوبال دى لاس كاساس. وقد انطلقت ردود فعل وتحركات كبيرة فى العاصمة المكسيكية وفى عدة مناطق مختلفة تطالب بوقف الأعمال العسكرية، فلم تستغرق الحرب إلا أحد عشر يوما، لكن تداعياتها كانت فائقة. فعلى بعد خطوة من "العالم الأول" (يقصد الولايات المتحدة) انطلق صوت جماعات لها مجموعة من المطالب الاجتماعية (خدمات صحية – تعليم) ومطالب سياسية تتعلق بدعم حقوق الشعوب الهندية أى سكان البلاد الأصليين. ولم تكن منطقة تشياباس هى المنطقة الوحيدة من مناطق سكان البلاد الأصليين التى تعانى من الفقر، لكن الأمور هناك تفاعلت مع الناشطين المقاتلين المنضوين تحت لواء المجموعات الراديكالية المنتمية إلى الحضر مثل نائب قائد الوحدات ماركوس، كما تفاعلت مع أنشطة الكاثوليك أنصار

لاهوت التحرر، ومع الزمر أو الجماعات التى أثارها توزيع أراضيهم على الفلاحين إضافة إلى استغلال بعض المنتفعين لها فى التوسع السريع فى تربية الماشية، ثم أخيرا ذلك الإنتشار المذهل للمذهب البروتستانتى هناك. لقد كان هذا التمرد تكذيبا قاسيا لمشاعر التفاؤل التى كانت تخالج حكم ساليناس...

أما المفاجأة الثانية فكانت إغتيال مرشح رئاسة الحزب الثورى المؤسسى الحاكم لويس دونالدو كولوسيو المنتمى إلى ولاية سونورا. فأظهرت الزمرة الحاكمة مدى انقسامها وبدا الأمر وكأنهم يجُرُّون المجتمع كله إلى هوة سحيقة. وربما كانت المخاوف التى خيمت على الناس بسبب الانقسام فى الدوائر العليا للحكم هى التى أدت إلى فوز ابن العاصمة إرنستو سيديـيُّو –وهو المرشح الجديد للحزب الثورى المؤسسى– وبدون أية مشاكل بمنصب الرئاسة فى الانتخابات التى جرت فى شهر يوليو سنة 1994. لكن الجريمة السياسية تكررت مرة أخرى... فقد اغتيل خوسيه فرانسيسكو رويس ماسيـيو فى شهر سبتمبر وهو أحد كبار رجال الحزب الثورى المؤسسى.

وكانت ثالثة مفاجآت عام 1994 هى التى وقعت قبل إحتفالات أعياد الميلاد بوقت قصير وكان لها طابعها الاقتصادى... إذ أدى الخفض المفاجئ لقيمة العملة المكسيكية "البيزو"، وبلغ حوالى 100%، إلى إحداث هزة عنيفة فى الاقتصاد المكسيكى الذى كان معدل انخفاضه يفوق نسبة 6%. فزادت معدلات البطالة، وتأخر دفع المرتبات أكثر من ذى قبل، وانطلقت الزيادات فى أسعار الفائدة من عقالها... كما أن العديد من المدينين الذين ربما كانوا يشاركون ساليناس فى مشاعر التفاؤل وجدوا أنفسهم عاجزين عن سداد قروضهم التى كانوا قد استدانوها (وبعضها كان بالدولار) لشراء الآلات أو السلع أو السكن أو السيارات مما سبب مصاعب جمة للبنوك. وعاشت الطبقة المكسيكية الوسطى أسوأ أيامها، وهى التى كانت قد تكونت وانتعشت لتعيش أحلى أيامها فى فترة ما بعد الحرب العالمية. وقررت حكومة الرئيس سيديـيُّو بالمعونة المالية التى تلقتها من الولايات المتحدة أن تختار مواجهة الرياح العاصفة...، ونجحت فى العام التالى إلى درجة لا بأس بها واستعادت نموها الاقتصادى بفضل ارتفاع أسعار البترول. لكن الحكومة كان عليها أن تقبل سداد فاتورة ضخمة: فقد تعهدت الحكومة أمام البنوك بتحمل مسئولية الديون السلبية أو المنعدمة (ديون لا يمكن تحصيلها)، وقد كان بعضها مشكوك فى أمر قانونيتها فأنشأت لهذا الغرض "الصندوق البنكى لحماية المدخرات"

وكان تبرير الحكومة لهذا الإجراء هو الحفاظ على مدخرات المكسيكيين فى حالة تعرض البنوك للإفلاس. والنقطة الهامة فى هذا هى أن هذا القرار قد فرض أعباءً جديدة على الخزانة العامة التى كانت تعانى بالفعل من هشاشة أوضاعها وتبلغ قيمة تلك الأعباء 60000 مليون دولار بالإضافة إلى الفوائد.

أضيفت محصلة عام 1995 إلى مصاعب عقد الثمانينات الذى كان يطلق عليه "العقد الضائع" فى تطور ونمو أمريكا اللاتينية، كما لم تتوقف ولادة وزيادة أعداد ملايين المكسيكيين طوال تلك الأزمة المستمرة. ثم تكون الطامة التامة فى عقد التسعينات بموجة الجفاف التى عقدت الموقف فى الريف الذى تلقى أيضاً ضربة موجعة عندما سحبت الحكومة منه الدعم الذى كانت تقدمه خلال عقد الثمانينات السابق على هذا العقد، فضلاً عن دخول المنتجات المستوردة من الخارج إلى البلاد فتدخل المنافسة لأنها كانت تتسم برخص أسعارها بسبب الدعم المالى الرسمى الذى كانت تقدمه لها دول المصدر. وقد ازدادت الهجرة صوب الولايات المتحدة أكثر من أى وقت مضى. ويقدر عدد المهاجرين المكسيكيين الذين كانوا يقيمون فى الولايات المتحدة خلال عام 1997 بحوالى 9 مليون مكسيكى، ومعظمهم تقريبا فى خير سنوات انتاجيتهم. وقد تحول هؤلاء المهاجرين إلى مصدر لا شك فى ضخامته من مصادر العملات الصعبة: فقد وصل حجمها فى عام 1997 إلى حوالى 6 آلاف مليون دولار، أى أكثر كثيرا من دخل البلاد من السياحة. ثم ازدادت التحويلات النقدية إلى أن وصل حجمها إلى 13 ألف مليون دولار فى عام 2003 لتحتل المكان الثانى بعد عوائد تصدير النفط، لكن حجمها كان أكبر من حجم الاستثمارات الأجنبية وعوائد السياحة. وكانت أكثر المناطق حظا فى تلقى تلك الأموال واقعة فى وسط البلاد وهى ولايات ميتشواكان وخاليسكو وغواناخواتو وولاية المكسيك.

مع حلول نهايات القرن العشرين كان ثلاثة أرباع السكان يعيشون فى المدن، لكن الربع الباقى كان ينتشر فى نفس الوقت بأعداد تثير الدهشة فى الأماكن التى تتسم بالصبغة الحضرية. وبدأ ينخفض عدد أبناء المرأة (كان معدل عدد أبناء المرأة 6,1 فى عام 1974 وانخفض إلى 2,5 فى عام 1999)، كما بدأ الزحف الكبير للمرأة على سوق العمل. وإنخفضت نسبة الأمية من 45% فى عام 1960 إلى 9,5 % فى عام 2000. وبدأت تزداد أعداد البروتستانت الذين كانوا ينتظمون فى إرتياد عدة كنائس خاصة فى مناطق الجنوب الشرقى للبلاد. كذلك ازدادت معدلات الطلاق كما ازداد عداد المنازل التى كان رب البيت فيها امرأة.

وعلى صعيد الرأى العام، كان الإنفتاح على وسائل الإتصال والتنافس بينها وإستقلالية المواقف الحكومية سببا فى تقوية وزيادة مشاركة المواطنين فى مجالات عديدة مثل الدفاع عن حقوق الإنسان وعن حقوق المرأة وإثارة قضية المختفين وقضية مرض الإيدز والشذوذ الجنسى. كذلك كان تضاعف المنظمات غير الحكومية أحد سمات الحراك المدنى. وقد خصصت الصحافة ووسائل الإتصال الإلكترونية أيضاً مساحات عريضة للحديث عن أنباء موت العشرات كل عام ممن لا يحملون وثائق السفر خلال محاولاتهم الوصول إلى دولة الشمال المجاورة (الولايات المتحدة) أوللحديث عن الثلاث مائة امرأة اللائى لقين مصرعهن فى سيوداد خواريس منذ عام 1990.

كذلك ينبغى التركيز على أن المصاعب الاقتصادية الجمة قد واكبها فتح الطريق لقوة جبارة تتطلع إلى تغيير أنظمة وتتطلع أيضاً إلى اصلاحات سياسية وإلى إفساح المجال أمام الممارسات الديموقراطية، على الأقل بالنسبة للعملية الانتخابية. وكانت الإصلاحات الدستورية التى جرت فى عام 1996 خير مؤشر على ذلك حيث بموجبها تمتعت "الهيئة الفيدرالية للانتخابات" بالاستقلالية الكاملة. ولهذا، ولأول مرة منذ عام 1946 لم تكن للحكومة الفيدرالية سيطرة على الانتخابات، حيث اضطلع بالمهام المنوطة بها مواطنون لا ينتمون لأى حزب من الأحزاب. وأصبحت "الهيئة الفيدرالية للانتخابات" تعبر عن نهاية نظم وتدابير سياسية قديمة كانت قائمة على هيمنة الحزب الثورى المؤسسى وعلى ارتباطه مع رئيس الجمهورية، وفضلاً عن ذلك فإنها قد عبرت عن العزم الواضح على وضع هيكل جديد لنظم وإصلاحات سياسية تتفق مع مطالب مبدأ المواطنة الذى تزداد فعاليته يوما بعد يوم. كذلك كان التعبير عن هذا "الجديد" ماثلا فى الإصلاحات التى أتاحت الفرصة لانتخاب حاكم جديد برأس العاصمة الاتحادية التى كانت تعد معقلا حيويا من معاقل رؤساء الجمهورية الذين كانوا من نتاج "قالب المسكوكات القديم"... ثم بدأ فوز المعارضة يزداد فى انتخابات البلديات ومجالس الكونجرس المحلى ومناصب حكام الولايات. ويبرز كذلك فوز كارديناس ليصبح أول رئيس لحكومة العاصمة الإتحادية فى عام 1997. وفى نفس هذا العام، فقد الحزب الثورى المؤسسى لأول مرة غالبيته فى مجلس النواب.

إحتلت المكسيك فى عام 2000 المركز الحادى عشر ضمن أكثر دول العالم فى عدد السكان بعد أن وصل عددهم إلى97,5 مليون نسمة أى أكثر خمس مرات من عددهم فى عام

1930. وتشير البيانات إلى تحسن الأوضاع الاجتماعية للسكان وهو ما أدى إلى زيادة متوسط الأعمار إلى 75 عاما فى حين كان متوسطها 36 عاما فى سنة1930. ويؤكد انخفاض نسبة المواليد ونسبة وفيات الأطفال على اتجاه المجتمع ليصبح مجتمعا من كبار السن. من جهة أخرى بدأ عدم المساواة والظلم يزداد فى المجتمع لصالح أكثر طبقات المجتمع ثراءً. فعلى الجانب الآخر نجد إن أكثر من نصف عدد السكان حسب الأرقام الحكومية أو حوالى ثلثى السكان حسب أرقام بعض الأكاديميين هم ممن يمكن اعتبارهم فى عداد الفقراء. وتدل الخريطة على التباين الشديد بين المناطق الغنية مثل العاصمة الإتحادية وغرب وشمال البلاد من جهة، وبين المناطق الفقيرة التى تزداد فقرا على فقر، وتقع فى جنوب البلاد (غيرّيرو – واخاكا – تشياباس) من جهة أخرى.

كان المشهد خلال الانتخابات التى جرت فى البلاد خلال عام 2000 يتسم بعدم الثقة التى كان يبدو أنها راجعة إلى الفساد المستشرى فى مؤسسات الدولة الدستورية وتمثلت فى الفضائح والإحتيال على البنوك والجرائم التى يرتكبها "أصحاب الياقات البيضاء" بينما كانت مؤشرات النمو الاقتصادى منخفضة وأرقام البطالة لا تتزحزح والمرتبات انخفضت قدرتها الشرائية بنسبة 73% عما كانت فى عام 1976. وقد ترشح ابن سينالووا فرانسيسكو لاباستيدا لمنصب رئاسة الجمهورية عن الحزب الثورى المؤسسى فى منافسة على المنصب مع كل من كارديناس ومع مرشح حزب العمل الوطنى بيسنتى فوكس الحاكم السابق لولاية غواناخواتو.

وفى ليلة الثانى من شهر يوليو سنة 2000 وفى مشهد من العيار الثقيل -فاجأ القريب نفسه قبل الغريب- أعلنت "الهيئة الفيدرالية للانتخابات" ورئيس الجمهورية فوز فوكس بمنصب الرئاسة. لقد كانت الآمال معلقة على هذه الشخصية الكاريزمية التى هجرت عالم رجال الأعمال إلى عالم السياسة، فقد جذب إليه الأصوات من مختلف فئات المجتمع لأن تطلع غالبية الشعب إلى تغيير النظام السياسى كان واضحا. ولكن كان من الواضح كذلك أن ثقتهم لم تكن كاملة فى فوكس وهذا ما بينته حقيقة أن حزب العمل الوطنى الذى ينتمى إليه لم ينجح -ولو بمقدار إطلالة- فى تحقيق الأغلبية له فى كونجرس الإتحاد. وعلى أي حال، لقد كان انتصار مرشح المعارضة يعنى الإطاحة بتلك النظم والترتيبات السياسية التى خرجت إلى النور نتيجة للأزمة التى سببها إغتيال أوبريغون فى عام 1928، كما كان يعنى كذلك أن مرحلة الحزب الرسمى قد أدبرت، وأدبر معها ارتباط الحزب بمن سيحل عليه الدور فى رئاسة الجمهورية.

ومن حسن حظ الجميع، أن بعض مكونات اصلاحات "النظم والترتيبات السياسية" قد ظلت بدون تعديل مثل تبعية القوات المسلحة لرئيس الجمهورية. وبهذا تدخل البلاد القرن الجديد بتغير جذرى، رغم أنه قد اقتصر على الدائرة السياسية وحدها، إذ كانت الآمال تحدوا الجميع بأن هذا التغيير سيترجم إلى تحسن محسوس فى ظروف معيشة غالبية الشعب. لكن هذا المجتمع الذى يزداد انغماسه يوما بعد يوم فى شئونه العامة ويزداد اهتمامه بها...، هذا المجتمع الذى تزداد قوته يوما بعد يوم...، سيحرص كل الحرص على أن يتحقق له ذلك التحسن الذى يتطلع إليه وتخالجه الآمال العريضة فى أنه سيتحقق بالفعل.

عاشت المكسيك خلال السبعين سنة الأخيرة حقبة من الاستقرار السياسى والاجتماعى. وهى سمة من سمات القرن العشرين وتشكل أقصى درجات الأهمية للمكسيك ولا ينبغى التقليل من شأنها أبدا، خاصة إذا ما قارناها مع الاضطرابات التى عصفت بالمكسيك خلال القرن التاسع عشر. وكانت أيضاً حقبة عاشت فيها المكسيك فترات من النمو الاقتصادى الذى أتاح تلك الزيادة الملحوظة فى عدد المدن وفى أعداد أبناء الطبقة الاجتماعية الوسطى التى تعيش فى الحضر. ومع ذلك، فإن تلك السمات لا تستطيع أن تتجاهل الثمن الباهظ الذى يعنيه الإبقاء على الفقر أو الإفقار الذى عانى منه غالبية الشعب فى الريف وفى المدينة، ولا أن تنكر ثمن الأضرار التى حاقت بأولئك الذين كانوا من الساخطين أو من المعارضين للحكم. ويبدو أن استمرار الظلم الاجتماعى قد قلت حدته خلال الفترة من عام 1960 إلى عام 1980، ولكنه بدأ يشتد منذ 1980. لقد كانت المراحل التى مر بها الاقتصاد العالمى (الانخفاض الحاد، ثم الذروة بعد الحرب العالمية، والأزمة التى بدأت عام 1973) علامات خيمت بظلال لا يمكن تجاهلها على المجتمع المكسيكى. كذلك كان انعطاف أو تحول اتجاه الاقتصاد نحو الأسواق العالمية وتجاه الاقتصاد الأمريكى وتخلى البلاد اعتباراً من النصف الثانى من عقد الثمانيينات عن نموذج "الدولة" التى تتدخل فى كل شئ، كان كل هذا هو الذى غذى أزمة "نظم وترتيبات سياسة البلاد" وهى نظم كان قد جرى وضعها فى عام 1929. وإذا كانت المكسيك منذ بداية عقد الثلاثينات قد عاشت منغمسة فى ظروف التدهور الذى عانى منه الاقتصاد الدولى وعاشت فترة خطيرة من عدم الإستقرار، فإن عام 2000 قد بشر بإعادة "تنظيم وترتيب المنظومة السياسية" فى جو سلمى وفى ظروف مصاعب اقتصادية ربما لم تكن فى نفس خطورة المصاعب التى عانت منها المكسيك فى عام 1929 ولكنها استغرقت فترة أطول منها. ولقد كانت إحدى مكاسب المجتمع المكسيكى هو أنه قد أصبح أكثر قوة خلال فترة السنوات الأخيرة من القرن الماضى، وهو ما

يفسر لنا التغيير السياسى الذى حدث فى عام 2000. لكن الواضح أن هذا المجتمع الذى أصبح أكثر حيوية وأشد قوة لم يزل أمامه طريق طويل يجب عليه أن يطويه لكى ينجح فى تحقيق تغيير أوسع نطاقا وأكثر عمقا.

طبع بمطبعة جامعة الدول العربية

[illegible] بمثابة طبعة جديدة للكتاب الذي نشره الكولخيو [illegible] مكسيكي للتعليم و البحث)، بهدف إعطاء قدر من المعرفة [illegible] وتطور الأمة المكسيكية. "تاريخ المكسيك في موجز جديد" [illegible] شمولا، تحتوي على أحداث حتى السنوات الأولى من القرن [illegible] ستتيح الفرصة للقارئ للتعرف على رؤى وإيضاحات تاريخية [illegible] وغنية عن تاريخ المكسيك.

[illegible] "تاريخ المكسيك في موجز جديد" من اللغة الأسبانية إلى [illegible] الذي [illegible] وأصدره معهد المكسيك إحدى مشاريع الصندوق [illegible] الدولي من أجل التنمية والذي تم إنشائه بناءاً على إتفاق تم [illegible] العامة لجامعة الدول العربية وحكومة الولايات المتحدة [illegible] 2006/10/19

[illegible] إلى تعزيز العلاقـــات العربيـــة المكسيكية من خلال تمويل [illegible] للتعاون بين الطرفين في المجالات الثقافية والتعليمية [illegible] والفنية.